مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية والاجتماعية

ديسمبر 2011

المركز الجامعي بالوادي
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية والاجتماعية

دورية أكاديمية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

العدد [2]

ديسمبر 2011

ISSN 2170-0370

المدير الشرفي
أ.د/ الطاهر سعد الله
مدير المركز الجامعي بالوادي

مدير المجلة
د/ عاشوري قمعون
رئيس المجلس العلمي لمعهد
العلوم الاجتماعية والإنسانية

رئيس التحرير
أ/ محمد حركات
المدير المساعد لما بعد التدرج والبحث العلمي

هيئة التحرير

أ/ عثمان زقب
أ/ عثمان عي
أ/ محمد رضا شنة
أ/ عبد الباسط هويدي

الهيئة الاستشارية

أ.د/ بوبكر لشهب
د/ علي غنابزية
أ.د/ شاوش حباسي
د/ محمد الحبيب بشاري
أ.د/ عبد العالي دبلة
د/ محمد الطاهر طعبلي
أ.د/ نور الدين زمام
د/ يمينة شيكو
د/ عبد النور خيثر
د/ لامية بوبيدي
د/ علاوة عمارة
د/ محمد السعيد عقيب
د/ عمر روينة

بريد المجلّة الإلكتروني

elbahith@saharama.net

افتتاحية

نقدّم العدد الثاني من مجلّة الباحث المتخصّصة، والتي تعنى بالعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، في صورة جديدة ونتمنى أن تظل متجدّدة، والأمل يحدونا بأن تتكاثف الجهود في مجال البحث العلميّ، لتأكيد مساهمة باحثيّ جامعة الوادي، وكل الجامعات الجزائرية في المسار العلمي للإنسانيّة.

يأتي هذا العدد الثاني وهو مليء بدراسات الأساتذة والباحثين من مختلف جامعات الوطن، والتي تنوّعت مواضيعها من علم النفس إلى علم الاجتماع إلى العلوم الإسلامية وكذا التاريخ، وقد بتّت اللجنة العلميّة للمجلة في جدارة هذه الدراسات بالنشر، وبكونها جادّة، قيّمة ومفيدة دون شك.

وإنّنا لنتوسّم خيرا في أعضاء هيئة التحرير والهيئة العلميّة للمجلّة بأنهم سيبذلون كل المجهودات الممكنة من أجل إنجاح هذا المولود العلمّي، والمضيّ به قدما حتى يتبوّأ مكانة مرموقة بين الدوريّات العلميّة المحكّمة الوطنيّة والدوليّة، وهم واعون دون ريب بمدى جسامة المسؤوليّة الملقاة على عاتقهم.

ولا يفوتني في هاته الفرصة أن أنوّه بالجهود المبذولة من قبل الهيئة المشرفة على مجلّة الباحث، مع تمنياتي بالتوفيق والاستمرارية في هذا المشروع العلمّي الجاد.

مدير المعهد

د/ محمد السعيد عقيب

شروط و قواعد النشر في مجلّة الباحث
في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

01 - المجلّة متفتّحة على جميع البحوث في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المؤلّفة باللغات الثلاث العربية و الفرنسية و الإنجليزية.

02 - أن يكون الباحث حاصلا على درجة الماجستير على الأقل، أو مسجّلا في الدكتوراه، ويُرفق مشروع مقاله ببيان سيرته الذاتية وصورة فوتوغرافية شخصيّة.

03 - يُعبّر المقال عن رأي صاحبه الذي يتحمّل المسؤولية المدنية المترتّبة عنه، ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة.

04 - ألاّ يكون المقال تلخيصا لمذكرة أو أطروحة جامعية.

05 - أن يكون مشروع المقال أصيلا وجديدا لم يعرض ولم ينشر سابقا.

06 - أن يلتزم الباحث في مقاله بقواعد البحث العلمي و مناهجه، و بنظام المراجع البيبلوغرافية *ISO 690* ، وأسلوب الإحالات المختصرة داخل النصّ.

07 - يتألّف مجموع المقال من 4000 إلى 8000 كلمة، على ألاّ يتجاوز بجميع مكوناته العشرين صفحة.

08 - تُطبع المجلة باللون الأسود، و يمكن أن يشتمل المقال على صور بالأبيض والأسود أو أشكال توضيحية أو بيانية من اللون نفسه.

09 - يُزوّد المؤلّف مقاله بملخصين أوّلهما بلغة المقال والثاني بلغة أخرى من المذكورة أعلاه، وعلى أن يكون أحدهما بالعربية، وألاّ يتجاوز الملخّص 100 كلمة.

10 - ويُزوّد المقال كذلك بخمسة كلمات مفتاحية بلغة المقال، وبترجمتها إلى العربية إن كان المقال بلغة أجنبية.

11 - يُرسل نصّ المقال في ملف *Word Microsoft* ، ويُرسل معه كذلك الملخّصان رفقة الكلمات المفتاحية في ملف مستقل والبيبليوغرافيا في ملف ثالث من النوع ذاته.

12 - ترسل الصور والأشكال التوضيحية والبيانية في ملفات *Bitmap* منفصلة.

13 - إرسال جميع الملفات المطلوبة معا في رسالة إلكترونية واحدة إلى العنوان الإلكتروني للمجلة، وفي حال أي نقص لا يُلتفت إلى المشروع.

14 - تخضع جميع المشاريع المقترحة لفحص علمي دقيق من قبل هيئة خبراء استشارية وقرارها غير قابل للنقض، ولا يمكن إجراء أي خطوة لنشر المقال قبل صدور قرار إيجابي.

15 - يتحمّل مؤلّف المقال مسؤولية إجراء كافّة التعديلات المطلوبة من هيئة الخبراء أو من فريق التحرير وذلك للسماح بنشر المقال.

16 - تتمّ مراسلات تأهيل المقال للنشر بين المجلّة والمؤلّف بالبريد الإلكتروني.

17 - يُلغى المشروع في حال عدم ردّ المؤلّف في أجل 30 يوما من تاريخ آخر مراسلة إلكترونية له من المجلّة.

18 - يُرسل مؤلّف المقال تعهّده بالالتزام بشروط وقواعد النشر في المجلّة، بعد توقيعه، إلى عنوان المجلّة عبر بريد المركز الجامعي بالوادي.

19 - لا تنشر المجلّة إلاّ المقال الذي تكتمل فيه جميع الشروط، ولفريق التحرير الحقّ في تأجيل نشره إلى عدد لاحق عند الضرورة.

20 - لا يترتّب أي تعويض ماديّ للمؤلّف في حال نشر المجلّة لمقاله.

بريد المجلّة الإلكتروني : elbahith@saharama.net

فهرس الموضوعات

أ. فؤاد عطاء الله	نَظْمُ ابْنِ غَازِي في الذَّبَائِحِ – دراسة وتحقيق –	07
د. يوسف عبد اللاوي	أثر وسائل الإعلام في نشر الآفات الاجتماعية رصد وتحليل ومعالجة	19
د. سعيد عيادي	النظام التعليمي بين البيداغوجيا والأيديولوجيا	34
د. يوسف قاسمي	الهـــوية المغاربية وتحدي العـــولمة... بين النفـــي والتأكيد	46
د. كريم ولد النبية	سياسة الإخضاع وقوانين الأنديجينا من خلال أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر	60
أ.مختار هواري	البعد المغاربي للثورة الجزائرية والاستعمار الفرنسي	73
أ. رضوان شافو	الاحتلال الفرنسي لمنطقة ورقلة وضواحيها –قراءة في الدوافع والمراحل–	82
د. مقلاتي عبد الله	جبهة جيش التحرير الجزائري بالحدود الليبية ومعركة ايسين في أكتوبر 1957.	92
أ.د. صالح لميش	نظرة حول مشروع المجتمع الجزائري في فكر بن باديس ومالك بن نبي	104
د. علي غنابزية	وادي ريـــغ من خـــلال تاريـــخ محمد العـــدواني	112
أ. لخضر بولطيف	ملامح المنظومة القيمية للمجتمع القلعي الحمادي – منطلقات الفكر وأنماط السلوك–	122
أ. محمد قويسم	المؤرخ أحمد ابن قنفذ ابن الخطيب القسنطيني (710ـــ810هـــ/1340ـــ1407م)	131
د. خلفات مفتاح	دور علماء زواوة في تأطير الحياة الفكرية في مصر و الأندلس	140
أ.عولمي الربيع	أثر الظروف المناخية في نشاط سكان الصحراء الجزائرية خلال العصر النيوليتي	157
أ. سليماني جميلة	التحليل الايكولوجي لبعض العناصر المعمارية للأحياء السكنية و دورها في جناح الأحداث	172
د. فرشان لويزة	أثر الضغط المهني على حوادث العمل	184
أ. م. بن شدة/ أ. س. مرغم	الأهمية التربوية لاستراتجيات التعلم الما وراء المعرفية	197

نَظْمُ ابْنِ غَازِي في الذَّبَائِحِ
– دراسة وتحقيق –

أ / فؤاد عطاء الله
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

يعنى هذا البحث بتحقيق ودراسة منظومة تناولت موضوعا مهما من موضوعات الفقه الإسلامي، إذ ذكر فيها الناظم رحمه الله تعالى الأحكام الفقهية المتعلقة بذكاة المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وهي الأصناف الخمسة التي ذكرت في آية التحريم في سورة المائدة، والتي يلقبها بعض الفقهاء بمسألة المنخنقة وأخواتها. هذا؛ وكان التحقيق على أربع نسخ خطية محفوظة في "مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء"، وقد شمل التحقيق ضبط النص، والتعريف بالمصطلحات الواردة فيه، وعزو المسائل الفقهية إلى مظانها في أبرز كتب الفقه المالكي. كما قُدِّم التحقيق بدراسة تضمنت: ترجمة المؤلف، والتعريف بموضوع النظم، وتحقيق عنوانه، وإثبات صحة نسبته للناظم رحمه الله تعالى، والتعريف بمنهج التحقيق.

مقدمـــة

هذه منظومة في الذبائح، تجمع الأحكام الفقهية المتعلقة بالمنخنقة وأخواتها. نظمها الإمام أبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن غازي (ت: 919هـ) رحمه الله تعالى، وهو واحد من أبرز فقهاء المدرسة المالكية المغربية في وقته.

وقد رأيت نشرها والعناية بها؛ لأنها لم تر النور من قبل، كما أنها احتوت – مع لطافة حجمها – على غرر الفوائد، ودرر الفرائد. وليس هذا مستغربا على قريحة الإمام ابن غازي رحمه الله، وهو صاحب خدمات جليلة للفقه الإسلامي عامة، والفقه المالكي خاصة.

قسم الدراسة

يتضمن هذا القسم: ترجمة للناظم، وتعريفا بموضوع النظم، وتحقيقا لعنوانه، وإثباتا لصحة نسبته إلى الإمام ابن غازي رحمه الله تعالى، ووصفا للنسخ الخطية، وتفصيلا لمنهج التحقيق.

المطلب الأول / ترجمة الناظم

هو: محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ بنِ غازي، أبو عبد الله، العثماني نسبةً إلى قبيلة بني عثمان من كتامة، المِكناسِي مولداً ونشأةً، الفاسي استيطاناً ووفاةً. مؤرخٌ، وحاسبٌ، وفقيهٌ من علماء المالكية رحمهم الله.

نشأ في بيت علم وصلاح، ورحل إلى فاس طلبا للعلم، فتتلمذ على زمرة من خيرة علماء زمانه، ثم رجع إلى مكناسة، فجلس للتدريس والإقراء، وتولى الخطابة بجامعها الأعظم، ثم خرج منها إلى فاس مرة أخرى، وتولى الخطابة بجامع القرويين، وتوفي بفاس سنة 919هـ.

له مؤلفات كثيرة ونافعة في القراءات والتجويد والفقه والحديث والنحو والعروض والتاريخ والحساب، ذكر أكثرها بنفسه في فهرس تحدث فيه عن شيوخه ومؤلفاته، وشيء

من سيرته، مطبوع بعنوان "فهرس ابن غازي"، ومؤلفاته منها المطبوع، والمخطوط، والمفقود، وهذا بعضها:

- "إنشاد الشريد من ضوال القصيد" (محقق)[1]، وهو كتاب في القراءات، فيه تقريرات على الشاطبية.
- "تحرير المقالة في مهمات الرسالة" (مطبوع)، ويطلق عليها "نظائر الرسالة"، وهي منظومة في نظائر الرسالة الفقهية لابن أبي زيد القيرواني رحمه الله.
- "الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون" (مطبوع)، أورد فيه تاريخ بلدته مكناسة الزيتون، وسميت كذلك تمييزا لها عن مكناسة تازة.
- "شفاء الغليل في حل مقفل خليل" (مطبوع)، تعليقات على مختصر خليل.
- "الكليات في الفقه" (مطبوع).
- "إمتاع ذوي الاستحقاق ببعض مراد المرادي وزوائد أبي إسحاق" (مطبوع)، وفيه نكت على ألفية ابن مالك رحمه الله في النحو.
- "منظومة في البدع" (مخطوط)[2].
- "منظومة في الذكاة" وهي التي بين أيدينا[3].

المطلب الثاني / التعريف بموضوع النظم

يتعلق موضوع النظم بمسألة فقهية من مسائل باب الذبائح، وهي التي يلقبها بعض الفقهاء بالمنخنقة وأخواتها، ويقصدون بذلك اختلاف الفقهاء في تأثير الذكاة في الأصناف الخمسة التي نصت عليها الآية، وهي قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [4].

والمنخنقة وأخواتها خمسة أصناف هي:

المنخنقة: وهي التي تموت خنقا، وهو حبس النفس، سواء فعل بها ذلك آدمي، أو اتفق لها ذلك في حبل ونحوه.

والموقوذة: وهي التي ترمى أو تضرب بالعصا أو الحجر حتى تموت من غير تذكية.

والمتردية: وهي التي تتردى من العلو فتموت من غير تذكية، سواء كان من جبل أو في بئر ونحوه، وسواء تردت بنفسها أو رداها غيرها.

والنطيحة: وهي التي تنطحها أخرى، فتموت قبل أن تذكى.

وما أكل السبع: كل ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد، والنمر، والثعلب والذئب، والضبع، ونحوها[5].

هذا؛ وقد وفق الناظم رحمه الله في الوصول إلى مراده، فجاء نظمه منسقا، مشتملا على أهم الجزئيات الفقهية المتعلقة بحكم ذكاة المنخنقة وأخواتها، موضحا أبرز الصور المشكلة فيها، كما حرص على عزو بعض الأقوال إلى أمهات الكتب الفقهية في المذهب المالكي كالمدونة الكبرى للإمام مالك رحمه الله ورسالة ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله.

وقد تألَّف النظم من خمسة وعشرين بيتا، على بحر الرجز، افتتحها الناظم بحمد الله تعالى، والصلاة والسلام على النبي، ثم شرع يبين أحكام المنخنقة وأخواتها على مذهب الإمام مالك وأصحابه رحمهم الله، وقد احتوى النظم على المسائل الآتية:

- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها إذا نفذت مقاتلها، وغلب على الظن أنها لا تعيش.
- صور نفاذ المقتل بقسميها: المتفق عليها، والمختلف فيها.
- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها التي لم تنفذ مقاتلها، ولكن أيست من الحياة.
- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها التي لم تنفذ مقاتلها، وتحققت حياتها.
- حكم أكل المنخنقة المذكاة أو إحدى أخواتها إذا حصل شك في سبب موتها: أهو الذكاة أم سبب آخر كالخنق ونحوه؟
- علامات وجود الحياة في المنخنقة وأخواتها، مع تحديد الوقت الذي تراعى فيه تلك العلامات.
- عرض لبعض الصور المشكلة في علامات الاستدلال على حياة المنخنقة وأخواتها.
- حكم ذكاة المريضة.
- حكم ذكاة الصحيحة التي ألمَّ بها وجع أشرفت به على الموت.

ثم ختم الإمام ابن غازي رحمه الله نظمه بحمد الله تعالى، وحسن الثناء عليه.

المطلب الثالث / تحقيق عنوان النظم

عنوان النظم كما جاء في إحدى النسخ الخطية هو: "نظم ابن غازي في الذبائح"[6]، وأما الدرعي[7] صاحب: "الروض الفائح في بيان صفة الذبائح"[8]، وهو شرح لهذا النظم الذي بين أيدينا، فلم يلقبه بعنوان محدد، وإنما ذكر أنه تصدى لشرح أبيات في بيان ذكاة المنخنقة وغيرها للإمام ابن غازي رحمه الله.

والظاهر – والله أعلم – أن الإمام ابن غازي رحمه الله لم يطلق على منظومته عنوانا محددا، وإنما نظم هذه الأبيات فحفظها الناس، وتناقلوها عنه.

المطلب الرابع / تحقيق نسبة النظم إلى الإمام ابن غازي رحمه الله

وأما نسبة النظم إلى الإمام ابن غازي رحمه الله فهي ثابتة من عدة أوجه:

الأول: تصريح الإمام ابن غازي رحمه باسمه في مطلع النظم حيث قال:

قال ابنُ غازي واسمُهُ مُحمدُ ... اللهَ ربي الكريمَ أحمدُ

الثاني: أن هذا البيت الذي جعله مطلعا لنظمه هذا في الذبائح هو عينه الذي افتتح به منظومته: "نظائر الرسالة"[9]، وهي مقطوع بصحة نسبتها إليه، ويستبعد أن يوجد هذا التطابق بين مطلع المنظومتين مع تغاير ناظميهما.

الثالث: نُسِب النظم للإمام ابن غازي رحمه الله في عنوان إحدى النسخ الخطية، وهي النسخة التي جعلتها الأصل.

الرابع: ونسبه له أيضا أبو سليمان الدرعي رحمه الله شارح المنظومة حيث قال في: "الروض الفائح في بيان صفة الذبائح" ما نصه: (أما بعد فهذا شرح عجيب مفيد إن شاء الله على أبيات في بيان ذكاة المنخنقة وغيرها للشيخ محمد بن أحمد بن غازي)[10].

الخامس: كما نسبه للإمام ابن غازي رحمه الله عدد من المعاصرين الذين اعتنوا بتحقيق تراثه منهم: الأستاذ محمد الزاهي محقق "فهرس ابن غازي"[11]، والأستاذ حسين عبد المنعم بركات محقق "إتحاف ذوي الاستحقاق"[12]، والأستاذ أحمد بن عبد الكريم نجيب محقق "شفاء الغليل في حل مقفل خليل"[13].

ومن المعاصرين الذين أثبتوا نسبة النظم للإمام ابن غازي رحمه الله الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله صاحب "معلمة الفقه المالكي"، حيث قال: (الذبائح: باب في الفقه يعرف أيضا بباب الذكاة صنفت فيه رسائل عدة، ونظم رجز منه منظومة متخصصة لمحمد بن أحمد بن غازي شرحها أبو سليمان داود بن أحمد بن داود الأغيلي الدرعي (عاش أوائل القرن الثالث عشر الهجري) وهذا الشرح هو "الروض الفائح في بيان صفة الذبائح")[14].

المطلب الخامس / وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق

اعتمدت في تحقيق هذا النظم على أربع نسخ خطية محفوظة في "مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء"، إليك وصفها:

النسخة الأولى: محفوظة ضمن مجموع، تحت رقم: (ms352-M5)، وهي نسخة حسنة، سليمة كلها، تقع في ورقة واحدة، وخطها مغربي.

وهي النسخة التي جعلتها الأصل؛ وذلك أن ناسخها أثبت عنوان النظم في بداية المخطوطة، ونسبه إلى الإمام ابن غازي رحمه الله، وهو أمر مهم انفردت به على سائر النسخ التي اعتمدت عليها.

النسخة الثانية: محفوظة تحت رقم: (ms327_M6)، وهي نسخة حسنة سليمة، تقع في وجـــه واحـــد، وخطها مغربي، وأشرت لها بالرمز: (س).

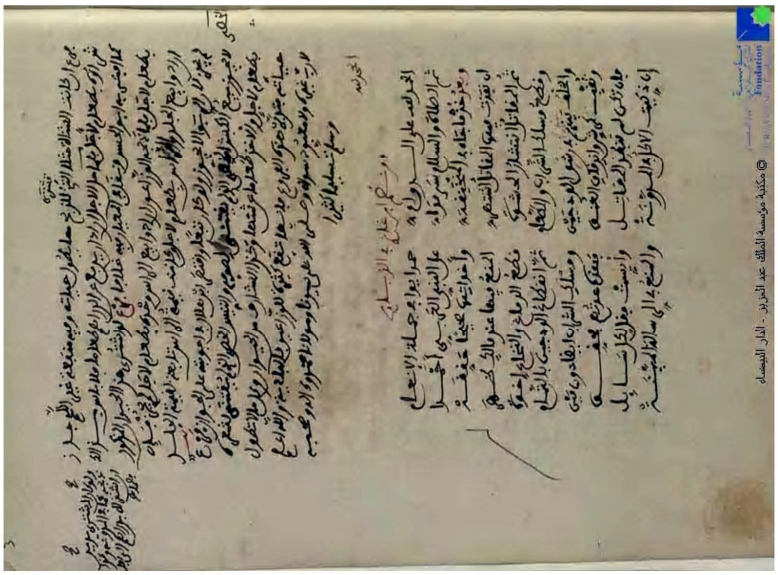

صورة الوجه الأول من الأصل

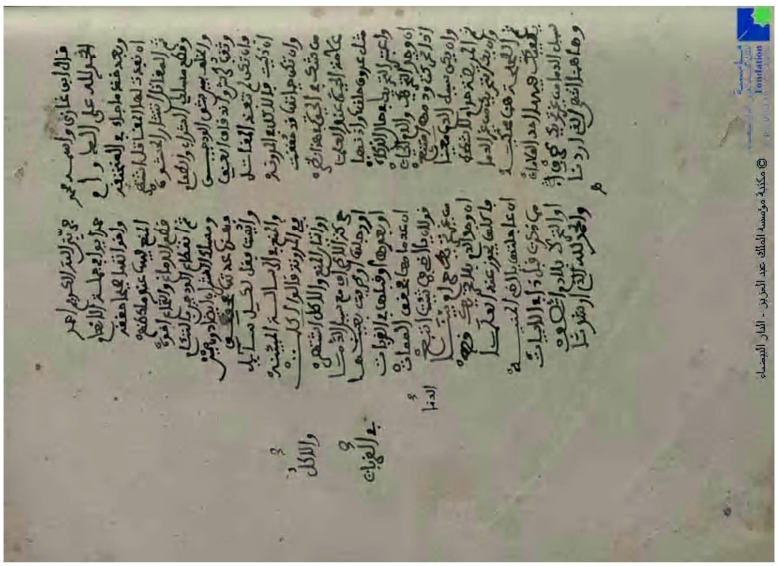

صورة النسخة (س)

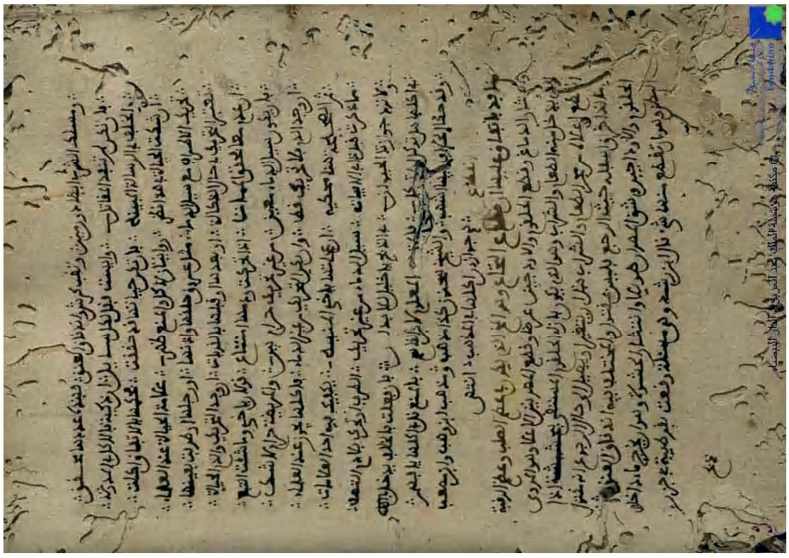

صورة الوجه الثاني من النسخة (ع)

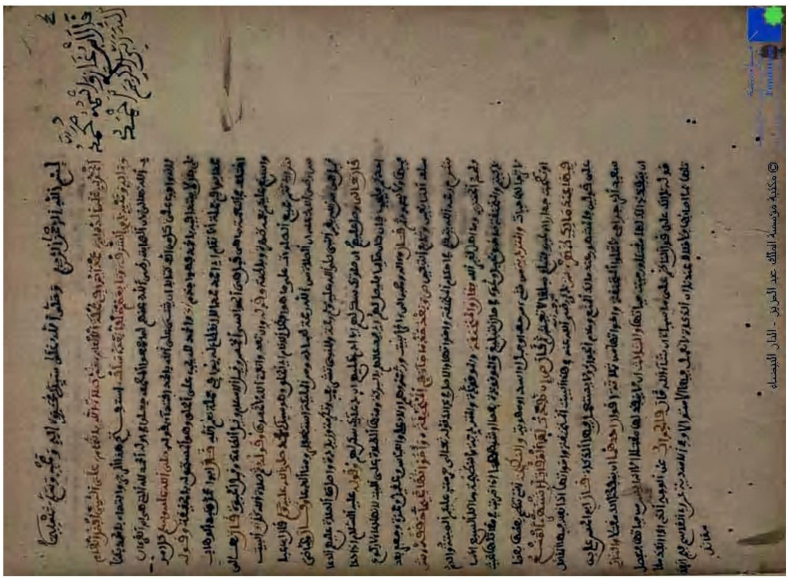

صورة الوجه الأول من النسخة (ش)

النسخة الثالثة: محفوظة ضمن مجموع، تحت رقم:(ms473_M3)، وهي نسخة حسنة، تقع في ورقة واحدة، خطها مغربي رديء، ورمزت لها بالرمز (ع).

النسخة الرابعة: وهي شرح لنظم ابن غازي رحمه الله، مؤلفه مجهول، محفوظة تحت رقم: (ms563-M2)، وهي نسخة حسنة، تقع في ثلاث ورقات، خطها مغربي، ورمزت لها بالرمز (ش).

المطلب السادس / منهج التحقيق

اتبعت في تحقيق هذا النظم المنهجية الآتية:

- اعتمدت على أربع نسخ خطية، وقد مر وصفها.
- قابلت بين النسخ الأربع، وأثبت الفروق في الهامش.
- كتبت المنظومة طبقا للرسم الإملائي الحديث.
- ضبطت نص المنظومة بالشكل، وصححت الأخطاء اللغوية والإملائية.
- حرصت على تقويم التحريفات والتصحيفات الواردة في النسخ الخطية.
- شرحت المصطلحات الفقهية الواردة في المنظومة.
- عزوت الأقوال الفقهية إلى مصادرها.

قسم التحقيق

[نَظْمُ ابنِ غَازِي فِي الذَّبَائِحِ][15]

1- [قَالَ ابْنُ غَازِي واسْمُهُ مُحمَّدُ ... (اللهَ ربِّي)[16] الكَرِيمَ أحْمَدُ][17]

2- [الحَمْدُ للهِ عَلَى الدَّوَامِ ... حَمْدًا يُوَافِي جُمْلَةَ الإنعَامِ][18]

3- [ثُمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَرْمَدَا ... عَلَى النَّبِيِّ العَرَبِيِّ أحمَدَا][19]

4- [وبَعْدُ: خُذْ][20] مَا جَاءَ فِي المُخْتَقَهْ ... وأَخَوَاتِهَا صَحِيحًا [حَقَّقَهْ][21]

5- إنْ نَفَدَتْ فِيهَا المَقَاتِلُ اشْتَهَرْ ... المَنْعُ فِيهَا عِنْدَ مَالِكٍ ظَهَرْ[22]

6- ثُمَّ المَقَاتِلُ انتِثَارُ الحَشْوَة ... قَطْعُ [الدِّمَاغِ والنُّخَاعِ][23] إخْوَة

7- وقَطْعُ مَسْلَكِ [الشَّرَابِ والطَّعَامِ][24] ... [ثُمَّ انقِطَاعُ][25] الوَدَجَيْنِ بالتَّمَامِ

8- والخُلْفُ[بَيْنَهُم][26] في[شَقِّ][27] الوَدَجَيْنْ/[28] ... ومَسْلَكِ الشَّرَابِ أَيْضًا دُونَ مَيْنْ

9- ونَقْبُ كَرْشٍ وَانْدِقَاقُ العُنُقِ ... فَهَذِهِ [عِدَّتُهُم][29] [فَحَقِّقِ][30] [31]

10- فَإن تَكُنْ لَمْ تَنفَذِ المَقَاتِلُ ... وأَيِسَتْ فَقُلْ لِكُلِّ سَائِلُ

11- إن ذُكِّيَتْ [الأكْلُ][32] فِي المُتَوَنَّهْ ... وَ[المنعُ][33] فِي الرِّسَالَةِ المُبَيَّنَهْ[34] [35]

12- [فَإن][36] تَكُنْ حَيَاتُهَا قَدْ حُقِّقَتْ ... [فَفِي المُتَوَنَّةِ قَالُوا:][37] أُكِلَتْ[38]

13- [إن][39] شَكَّ فِي الحَيَاةِ فِي[ذَاكَ][40] نَظَرْ ... رِوَايَتَانِ[الأكْلُ وَالمَنْعُ][41] [اشْتَهَرْ][42] [43]

14- عَلامَةُ الحَيَاةِ عِنْدَ العُلَمَا ... [حَرَكَةٌ][44] الأطْرَافِ مَعْ سَيَلِ الدِّمَا

15- مِثْلُ عُرُوق [عُنُقِهَا][45] وَأُذُنِهَا ... أوْ رِجْلِهَا أوْ طَرْفَتْ بِعَيْنِهَا[46]

16- [يُعْتَبَـــرُ][47] التَّحْريـــكُ فِـــي حَـــال الـــذَّكَاةْ أَوْ[قَبْلَهَـــا أو بَعـــدَهَا][48][بِـــالقُربِ عَاتْ][49] [50]

17- إن وُجِـــدَ التَّحْريـــكُ وَالـــدَّمُ الحَيَـــاةْ إنْ [عُـــدِمَا][51] مَعـــاً فَحَقَّـــق المَمَـــاتْ

18- [وَإنْ][52] يَكُـــنْ سَـــيْلُ الـــدَّمِ [مُعَيَّنَـــا][53] مِـــنْ غَيْـــرِ تَحْريـــكٍ حَـــرَامٌ، [بَيِّنَـــا][54]

19- إذا تَحَرَّكَـــتْ وَدَمُهَـــا امْتَنَـــعْ قَـــوْلان يَـــا أَخِـــي فَمَـــا شِـــئْتَ اتَّبِـــعْ[55] [56]

20- ثُـــمَّ المَرِيـــضَةُ حَـــرَامٌ لا [شَـــطَطْ][57] إن وُجِـــدَ الـــدَّمُ بِـــلا تَحْريـــكٍ قَـــطْ

21- [وَإن (يَـــكُ)][58] التَّحْريـــكُ مِـــنْ غَيْـــرِ الـــدِّمَا فَأَكْلُهَـــا يَجُـــوزُ عِنـــدَ العُلَمَـــا][59] [60]

22- ثُـــمَّ الـــصَّحِيحَةُ هُنَـــا مَحْكِيَـــهْ إنْ [عَجَلْتَهَـــا][61] يَـــا أَخِـــي المَنِيَّـــهْ

23- يَكْفِيـــكَ [يَـــا أَخِـــي إحْـــدَى][62] العَلامَـــاتْ مِمَّـــا ذَكَـــرْتُ [قَبْـــلَ ذا][63] [بِالأَبْيَـــاتْ][64]

24- سَـــيْلُ[الـــدِّمَا][65] مِـــن غيـــر تحريـــك[الطَّـــرَفْ][66] أو [التَّحَـــرُّكُ][67] بِـــلا [الـــدَّمِ][68] اتَّـــصَفْ[69]

25- [وَهَـــا هُنَـــا انتَهَـــى الـــذِي أَرَدْنَـــا والحَمْـــدُ للهِ الـــذِي أَرْشَـــدَنَا][70]

خـــاتمـــة

بعد دراسة وتحقيق نظم الذبائح للإمام ابن غازي رحمه الله؛ يمكن تلخيص النتائج التي توصـلت إليهـا في النقاط الآتية:

– يعتبر الإمام ابن غازي رحمه الله من أبرز فقهاء المذهب المالكي في المغرب في وقته، وقد تـرك عـددا من المصنفات في علوم متنوعة.

– يعد هذا النظم من أحسن الرسائل المصنفة في باب الذبائح، وقد اشتمل على غرر من الفوائد الفقهية، ودرر من النكت العلمية.

– العنوان المختار لهذا النظم هو: "نظم ابن غازي في الذبائح"، كما أن نسبته لناظمه صحيحة من عدة أوجه.

– اعتمدت في تحقيق هذا النظم على أربع نسخ خطية، كما حرصت على احتـرام المنـهج العلمـي المتعارف عليه في التحقيق.

– هذه بعض الأحكام الفقهية التي وردت في النظم:

- المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في حكم المنخنقة التي نفذت مقاتلها حرمة أكلها وذكاتها.
- صور نفاذ المقتل منه ما هو متفق عليه، ومنه ما هو مختلف فيه:

– المقاتل المتفق عليها وهي: انتثار الحشوة، وانتشار الدماغ، وانقطاع النخاع، وخرق المصران أعـلاه في مجرى الطعام والشراب، وقطع الأوداج.

– والمقاتل المختلف فيها وهي: انشقاق الأوداج من غير قطع، انشقاق المـصران، وثقـب الكـرش، واندقاق العنق من غير أن ينقطع النخاع.

- حكم المنخنقة التي لم تنفذ مقاتلها، وأيست من الحياة مختلف فيه في المذهب، فقد نُقِلَ جواز الـذكاة والأكل عن "المدونة"، والمنع عن "رسالة ابن أبي زيد القيرواني".
- حكم المنخنقة التي لم تنفذ مقاتلها، وتحققت حياتها جواز ذكاتها وأكلها نقلا عن "المدونة".

- المنخنقة التي حصل شك في سبب موتها: أهو الذكاة، أم الخنق ونحوه؟ وقد وردت روايتان في المذهب في بيان حكمها: جواز الذكاة والأكل، والمنع منهما، والثاني هو المشهور.
- العلامات التي يستدل بها على وجود الحياة في المنخنقة هي: سيلان الدم، وحركة الأطراف كالركض باليد أو الرجل، وطرف العين، وتحريك الذنب، وخروج النفس.
- تراعى هذه العلامات قبل الذبح، أو معه، أو بعده.
- عرض لأحكام بعض الصور المشكلة في الاستدلال على وجود الحياة، وهي:

– إذا سال الدم، وتحركت أطرافها، فهما دليل على الحياة.
– إذا لم يسل الدم، و لم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة.
– إذا سال الدم وحده، و لم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة، ولا يجوز أكلها.
– إذا تحركت أطرافها، و لم يسل الدم، ففيها قولان: الجواز، والمنع، مع التخيير بينهما.

- لا يجوز أكل المريضة إذا سال الدم وحده، من غير تحريك أطرافها. وأما إذا تحركت أطرافها، و لم يسل الدم، فيجوز ذكاتها وأكلها.
- الصحيحة التي يعرض لها وجع تشرف به على الموت فتذكى؛ يجوز أكلها بشرط ظهور علامة واحدة من علامات الحياة، ويكفي سيلان دمها، ولو لم تتحرك أطرافها.

ببيليوغرافيا

(1) حققه حسن العلمي في رسالة علمية بدار الحديث الحسنية بالرباط، ونوقشت سنة 1410هـ.
(2) منه نسخة محفوظة بمكتبة الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة، ضمن مجموع رقم (77)، من الورقة (249) إلى الورقة (261).
(3) انظر ترجمته في: "فهرس ابن غازي" له، بتحقيق: محمد الزاهي، مقدمة تحقيق كتاب"شفاء الغليل": (1/45-92)، "هدية العارفين" لإسماعيل باشا البغدادي: (67/2)، "الأعلام" للزركلي: (336/5)، "معجم المؤلفين" لكحالة: (16/9).
(4) سورة المائدة: 3.
(5) انظر تعريف المنخنقة وأخواتها في: "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (369/4)، "أحكام القرآن" لابن العربي: (4/7)، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: (48/6)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (242/3)، "الشرح الكبير": للدردير: (113/2)، "الثمر الداني" للآبي الأزهري: (402/1)، "الموسوعة الفقهية الكويتية": (300/41).
(6) وهي النسخة التي جعلتها الأصل.
(7) الدرعي (كان حيا سنة 1206هـ): داود بن أحمد بن داود الأغيلي، أبو سليمان. ولم أجد له ترجمة وافية.
(8) له عدة نسخ خطية منها:
نسختان محفوظتان في "الخزانة العامة" بالرباط - المغرب: الأولى: رقمها (869د)، والثانية: رقمها (2186د/4).
نسخة في الخزانة العامة بتطوان - المغرب، رقمها (1494).
نسخة محفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض- السعودية، رقمها (10977).
نسختان محفوظتان في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي- الإمارات: الأولى: رقمها (251531)، والثانية: رقمها (375269).
(9) انظر: "تحرير المقالة شرح نظم نظائر الرسالة" للحطاب: (ص:16).

(10) انظر: بداية ونهاية المخطوط في: "خزانة الماجد للتراث": (ص:29).
(11) انظر: "فهرس ابن غازي"، بتحقيق: الزاهي (ص:12).
(12) انظر: "إتحاف ذوي الاستحقاق"، بتحقيق: حسين عبد المنعم (40/1).
(13) انظر: "شفاء الغليل في حل مقفل خليل"، بتحقيق: أحمد نجيب (87/1).
(14) "معلمة الفقه المالكي": (ص:221).
(15) سقطت من (س)، و(ع)، و(ش).
(16) في (س): فربي الله.
(17) سقط البيت برمته من الأصل، ومن (ع)، والزيادة من (س)، و(ش).
(18) سقط البيت برمته من (ع).
(19) سقط البيت برمته من (س). وفي (ش) جاء بدلا منه هذان البيتان:

ثـــــــم صـــــــــلاة الله بالتمـــــــــام على النبـــــــي أفـــــضل الأنـــــــام
وآلـــــــه وصـــــــحبه ذوي الـــــــشرف وتـــــــابعهم خلفـــــــا بعـــــــده ســـــــلف

(20) في (ع): القول في.
(21) في (ع): حقيقا.
(22) بين الناظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة التي نفذت مقاتلها، وقد صرح بأن المشهور عن الإمام مالك رحمه الله حرمة أكلها، وأن الذكاة لا تعمل فيها.
هذا؛ وقد نقل ابن رشد رحمه الله الاتفاق في المذهب على منع الأكل في هذه الحال، وحكى فيها اللخمي قولين في المذهب، والجواز مروي عن ابن القاسم وأصبغ، والمنع مروي عن ابن عبد الحكم وابن الماجشون. وقدأجاز أكلها من الصحابة علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما.
انظر: "المدونة الكبرى" للإمام مالك: (545/1)، "التفريع" لابن الجلاب: (403/1)، "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (369/4)، "التمهيد" لابن عبد البر: (141/5)، "المنتقى" للباجي: (114/3)، "أحكام القرآن" لابن العربي: (9/7)، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: (50/6)، "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد: (291/3)، "بداية المجتهد" لابن رشد الحفيد: (440/1)، "عقد الجواهر الثمينة" لابن شاس: (595/1)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (242/3)، "المعيار المعرب" للونشريسي: (8/2).
(23) في (ش): النخاع والدماغ.
(24) في (ع): الطعام أيضا والشراب.
(25) في (ع): كذاك قطع.
(26) سقطت من (س).
(27) في الأصل، وفي (س)، وفي (ش): رشق. والمثبت من (ع).
(28) نهاية الوجه (أ) من (ع).
(29) في (س): عدتها. وفي (ع)، و(ش): عددها.
(30) في (ع): محقق.
(31) عدد الناظم رحمه الله في هذه الأبيات صور نفاذ المقتل، وقسمها إلى قسمين:
■ المقاتل المتفق عليها وهي: انتثار الحشوة، وانتشار الدماغ، وانقطاع النخاع، وخرق المصران أعلاه في مجرى الطعام والشراب، وقطع الأوداج.
■ والمقاتل المختلف فيها وهي: انشقاق الأوداج من غير قطع، انشقاق المصران، وثقب الكرش، واندقاق العنق من غير أن ينقطع النخاع.
انظر صور نفاذ المقتل في: "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (369/4)، "المنتقى" للباجي: (115/3)، "عقد الجواهر الثمينة" لابن شاس: (596/1)، "الذخيرة" للقرافي: (128/4)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "شفاء الغليل" لابن غازي: (368/1)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (243/3)، "المعيار المعرب" للونشريسي: (10/2).
(32) في (ش): فالأكل.
(33) في (ع): الخلف.
(34) نهاية الوجه (أ) من الأصل.

(35) بين الناظم رحمه الله في هذين البيتين حكم المنخنقة التي لم تنفذ مقاتلها، وأيست من الحياة، وقد صرح بوجود خلاف في المذهب، فنقل جواز الذكاة والأكل عن "المدونة"، والمنع عن "رسالة ابن أبي زيد القيرواني".
هذا؛ والجواز هو قول ابن القاسم وأصبغ، والمنع قول ابن الماجشون وابن عبد الحكم رحمهم الله جميعا.
انظر: "المدونة الكبرى" للإمام مالك: (545/1)، "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (370/4)، "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد: (291/3)، "بداية المجتهد" لابن رشد الحفيد: (440/1)، "عقد الجواهر الثمينة" لابن شاس: (595/1)، "الذخيرة" للقرافي: (128/4)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "شفاء الغليل" لابن غازي: (367/1)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (245/3)، "المعيار المعرب" للونشريسي: (8/2).

(36) في (س): وإن.

(37) في (ع): فحكمها بالاتفاق.

(38) بين الناظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة التي لم تنفذ مقاتلها، وتحققت حياتها، وقد صرح بجواز ذكاتها وأكلها نقلا عن "المدونة".
وقد نقل الإجماع على جواز الذكاة في هذه الحال: الإمام ابن حزم رحمه الله في: "مراتب الإجماع": (ص: 172)، ولم يورده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نقده لمراتب الإجماع، مما يدل على صحته عنده. ونقله أيضا: ابن رشد الحفيد رحمه الله في: "بداية المجتهد": (1097/2)، وابن جزي في: "القوانين الفقهية": (ص:310). وانظر: "المنتقى" للباجي: (115/3)، "المعيار المعرب" للونشريسي: (8/2).

(39) في (س): من.

(40) في (س)، و(ع)، و(ش): هذا.

(41) في (س): المنع والأكل.

(42) في (ع): ظهر.

(43) بين الناظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة التي حصل شك في سبب موتها: أهو الذكاة، أم الخنق ونحوه؟ وقد صرح بورود روايتين: جواز الذكاة والأكل، والمنع منهما، والثاني هو المشهور.
انظر: "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد: (291/3)، "بداية المجتهد" لابن رشد الحفيد: (440/1)، "عقد الجواهر الثمينة" لابن شاس: (595/1)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310).

(44) في (ع): تحريك.

(45) في (س)، و(ع): حلقها.

(46) بين الناظم رحمه الله في هذين البيتين العلامات التي يستدل بها على وجود الحياة في المنخنقة، فذكر ثلاثة منها هي: سيلان الدم، حركة الأطراف كالركض باليد أو الرجل، وطرف العين.
هذا؛ وقد أغفل الناظم رحمه الله علامتين أخريين هما: تحريك الذنب، وخروج النفس، مع أنه أشار إليهما في: "شفاء الغليل": (368/1).
انظر: "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (370/4)، "التمهيد" لابن عبد البر: (141/5)، "المنتقى" للباجي: (114/3)، "أحكام القرآن" لابن العربي: (9/7)، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: (51/6)، "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد: (291/3)، "الذخيرة" للقرافي: (127/4)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (242/3).

(47) في (س): واعتبر.

(48) في (س)، و(ش): بعدها أو قبلها.

(49) في (س): في القربات، وفي (ع): بالقربات.

(50) بين الناظم رحمه الله في هذا البيت الوقت الذي تراعى فيه علامات الحياة، وقد صرح بأن العلامة معتبرة قبل الذبح أو معه أو بعده.
انظر: "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310).

(51) في (ع): عدم.

(52) في (ع): فإن.

(53) في الأصل، وفي (ع)، و(ش) : معين. والمثبت من (س).

(54) في الأصل، وفي (ع)، و(ش): بين. والمثبت من (س).

(55) في (ش): اختلاف في ترتيب الأبيات، حيث ورد البيت (18)، ثم البيت (19)، ثم البيت (17).

(56) بين الناظم رحمه الله في هذه الأبيات الثلاثة أحكام بعض الصور المشكلة في الاستدلال على وجود الحياة، وهي: الأولى: إذا سال الدم، وتحركت أطرافها، فهما دليل على الحياة.

الثانية: إذا لم يسل الدم، ولم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة.
الثالثة: إذا سال الدم وحده، ولم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة، ولا يجوز أكلها.
الرابعة: إذا تحركت أطرافها، ولم يسل الدم، ففيها قولان: الجواز، والمنع، مع التخيير بينهما.
انظر: "المنتقى" للباجي: (115/3)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "شفاء الغليل" لابن غازي: (367/1).

(57) في (ع): لا شك.
(58) في (ع): يكن.
(59) المثبت من (س)، و(ع). وفي الأصل:

وإن يكـــــــن التحريـــــــك بـــــــانفراده فكلهـــــــا باتفـــــــاق أيـــــــضا يـــــــا [...]

(60) بين الناظم رحمه الله في هذين البيتين حكم المريضة، وصرح بأنه لا يجوز أكلها إذا سال الدم وحده، من غير تحريك أطرافها. وأما إذا تحركت أطرافها، ولم يسل الدم، فيجوز ذكاتها وأكلها.
انظر: "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني: (369/4)، "المنتقى" للباجي: (114/3)، "أحكام القرآن" لابن العربي: (16/7)، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: (51/6)، "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد: (294/3)، "بداية المجتهد" لابن رشد الحفيد: (442/1)، "عقد الجواهر الثمينة" لابن شاس: (595/1)، "الذخيرة" للقرافي: (127/4)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (242/3)، "المعيار المعرب" للونشريسي: (30/2).
(61) في (س): عاجلتها.
(62) في (س)، و(ش): فيها أحد. وفي (ع): فيه أحد.
(63) في (ش): قبلها.
(64) في (س)، و(ع): في الأبيات.
(65) في (ش): دم.
(66) في (س): طرف.
(67) في (ع): تحرك، وفي (ش): التحريك.
(68) في (س)، و(ع): دم، وفي (ش): دام.
(69) بين الناظم رحمه الله حكم الصحيحة التي يعرض لها وجع تشرف به على الموت فتذكى، وصرح بأنه يجوز أكلها بشرط ظهور علامة واحدة من علامات الحياة، ويكفي سيلان دمها، ولو لم تتحرك أطرافها.
انظر: "المنتقى" للباجي: (114/3)، "الذخيرة" للقرافي: (127/4)، "القوانين الفقهية" لابن جزي: (ص:310)، "شفاء الغليل" لابن غازي: (367/1)، "مناهج التحصيل" لأبي الحسن الرجراجي: (242/3).
(70) سقط البيت برمته من (ع).

أثر وسائل الإعلام في نشر الآفات الاجتماعية
رصد وتحليل ومعالجة

د / يوسف عبد اللاوي
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

لقد اتخذت الآفات الاجتماعية مسارات خطيرة تهدد المجتمع في أمنه واستقراره بل وفي وجوده أصلا. ووسائل الإعلام وإن لم تكن هي السبب الوحيد في وجود هذه الآفات، ولكنها صارت اليوم السبب الأكبر في نشرها وتشجيعها. وليس الحل كما يعتقد البعض في الهروب من الواقع، أو تسويق فتاوى حرمة اقتناء أجهزة التلفزيون أو الفيديو أو مشاهدة الفضائيات،ولا في تحريم التعاطي مع شبكة الإنترنيت أو عدم جواز التعامل مع وسائل الإعلام عموما خوفا على المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع،بل الحل يكمن في تطوير وسائلنا الدفاعية باستخدام نفس الوسائل واستثمارها لخدمة أهدافنا ولتحصين أجيالنا بل وللتعريف برسالتنا الحضارية للعالمين.

Résumé

J'ai pris des cours de sérieux malaises sociaux de la société de menacer la sécurité et la stabilité et même son existence. Et les médias si elles n'étaient pas la seule raison de la présence de ces parasites, mais aujourd'hui, est devenu la principale cause de la diffusion et la promotion. La solution n'est pas comme certains pensent, à fuir la réalité ou la commercialisation de la sainteté de l'acquisition d'opinions séries de télévision, ou vidéo, ou regarder la télévision par satellite, et l'interdiction de traiter avec l'Internet, ou ne pas être traiter avec les médias dans la peur générale sur le système de valeurs et les valeurs éthiques de la société, mais la solution réside dans le développement et par notre défense en utilisant les mêmes moyens et d'investir dans le service et pour fortifier nos objectifs et même à notre définition de la civilisation pour l'univers.

مقدمـــة

ما من شك في أن هذه الثورة الإعلامية الهائلة في عالم اليوم، لا تدع مجالا للتردد في أننا نعيش في زمن لم يعد فيه للحدود الجغرافية أي معنى، ولا للمسافات القريبة والبعيدة أي تمايز، ولا للخصوصية المجتمعية أي قيمة واعتبار، وصار الجميع منصهرا في بوتقة العولمة التي يراد لنا فيها ـــ شئنا أم أبينا ـــ أن نصاب بداء فقدان المناعة فنستقبل كل ما يفد إلينا دون قدرة على الدفاع أو الرد.

يقول الدكتور محمد عبيد حسنة : (وقد لا نغالي إذا قلنا بأننا نعيش اليوم مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة التي ألغت الحدود، وأزالت السدود واخترلت المسافات والأزمان واختصرت التاريخ واختزلت الجغرافيا، حتى بات الإنسان يرى العالم ويسمعه من مقعده و لم يقتصر الأمر على اختراق الحدود السياسية والسدود الأمنية، وإنما يتجاوزه إلى إلغاء الحدود الثقافية ويتدخل في الخصائص النفسية، وتشكيل القطاعات العقدية فيعيد بناءها وفق الخطط المرسومة لصاحب الخطاب الأكثر تأثيرا،والبيان الأكثر سحرا والتحكّم الأكثر تقنيّة) [1].

ولا شك أنّ هذه الثورة الإعلامية الهائلة لا يمكن أن يتجاهل دورها أو تنكر أهميتها أو ألا نستشعر ضرورتها، فيكفي أن نعرف بأن نصيب الدعم الإعلامي في كثير من الدول اليوم يفوق الدعم الغذائي، الذي به قوام الحياة، ولئن كان الإعلام في الماضي يوظف ليكون أداة ترفيه وترويح وتسلية، يعيش على هوامش المجتمع وفي خارجه فإنه اليوم في صميم المجتمع يوظف الترفيه والتسلية لأداء رسالة، وإيصال فكرة، وتشكيل عقل، وصناعة ذوق عام، وزراعة اهتمامات معينة، حتى أنه لم يعد يكتفي برصد الحدث وإيصال المعلومة، بل أصبح ـــ بما يمتلك من قوة وعوامل تأثير وحفظ وتحكم ـــ يقوم بصنع الحدث والتحضير له في الوقت نفسه[2].

وتشكل وسائل الإعلام الأداة الأساسية التي تروّج لما يسمّى بنظام العولمة التي حولت العالم إلى "قرية كونية" على حد تعبير عالم الاتصالات الكندي مارشال ماك لوهان.

هذه القرية يتحكم فيها أصحاب القوة والنفوذ المال والتكنولوجيا وأقصد بذلك الغرب (أمريكا وأوروبا تحديدا). وصارت لدينا قناعة لا جدال فيها بأنّهم حوّلوا هذه الوسائل إلى استعمار لكنّه من نوع جديد لا يحتل الحقول ولكنه يستحوذ على العقول ليشكّلها على وفق النمط الغربي الذي لا يكترث بمواريث السماء ولا يقيم للشرف والفضيلة وزنا ولا قيمة.

ولقد أعجبتني كلمة قالها الأستاذ فهمي هويدي معلّقا على دخول البثّ المباشر لتونس تؤكد ما كنت أقوله (خرج الاستعمار الفرنسي من شوارع تونس عام 1956 ولكنه رجع إليها عام 1989، لم يرجع إلى الأسواق فقط ولكنه رجع يشاركنا السكن في بيوتنا والخلوة في غرفنا والمبيت في أسرّة نومنا، رجع ليقضي على الدين واللغة والأخلاق، كان يقيم بيننا بالكره، ولكنه رجع لنستقبله بالحب والترحاب، كنا ننظر إليه فنمقته أما الآن فنتلذّذ بمشاهدته والجلوس معه،إنه الاستعمار الجديد لا كاستعمار الأرض وإنما استعمار القلوب)[3].

ولا شك أن وسائل بمثل هذا التأثير والجاذبية إذا كانت بأيد لا تريد الخير للبشرية وبشكل خاص لأمة الإسلام، فإنها ستخلف أضرارا جسيمة على مستوى البنية الاجتماعية.

وها نحن اليوم نرى آفات استشرت فأتت على الأخضر واليابس، لم تكن معروفة في مجتمعنا قبل هذه الثورة الإعلامية.

وهذه الورقات جاءت لتكشف عن هذه الآفات وحجم أضرارها ودور وسائل الإعلام في نشرها وتشجيعها ووسائل مقاومتها.

ماذا نقصد بوسائل الإعلام؟

الإعلام وسائل تعينه على تحقيق معناه في المجتمع تسمى وسائط أو أجهزة تؤدي دورها في إعلام الجمهور،وأبرز هذه الوسائل.

أ ـــ الوسائل السمعية: ونقصد بها الإذاعة تحديدا، فهي تعتبر وسيط إعلامي واسع الانتشار، لما تحمله من صفات التكنولوجيا العلمية المتطوّرة وقدرتها على مخاطبة جميع المستويات والفئات.

ب ـــ الوسائل البصرية: سميت بهذه التسمية لاعتمادها على حاسة البصر، فهي وسيط إعلامي يرتبط بهذه الحاسة الهامة في حياة الإنسان، وكل شيء ارتبط بهذه الحاسة يكون سهل الإدراك والفهم. وتدخل القراءة والمشاهدة في باب الوسائل البصرية، كالصحيفة والمجلة والكتاب والمطبوعات الأخرى كالنشرات والخرائط والصور والرسومات.

ج ـــ الوسائل السمعية البصرية: وسميت بهذه التسمية لارتباطها بحاستي السمع والبصر في وقت واحد. وهذه الوسائل هي الأكثر تأثيرا وأبلغها وضوحا في الإعلام. وتشمل هذه الوسائل: التلفزيون والسينما والمسرح والأفلام التسجيلية والوثائقية...الخ[4].

"وتتضح أهمية ذلك إذا ما عرفنا أن الإنسان يحصل على معلوماته بنسبة 90 % عن طريق النظر، وبنسبة 8% عن طريق السمع، وإن العين تجذبها الحركة أكثر من أي شيء آخر"[5].

أهـــمـــيـــتـــها

أهمية هذه الوسائل تنبع من الدور المنوط بها والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها ومن ذلك.

ـــ الإرشاد والتوجيه وبيان المواقف والاتجاهات للتأثير على الرأي العام ودفعهم باتجاه أفكار وقناعات ومواقف، ليس بالضرورة أن تكون إيجابية وهذا يتوقف على نوعية المادة الإعلامية الموجهة للاستهلاك وحجم التأثير الذي فيها، وكذلك على الشخص المتلقي بين سهولة تغيير مواقفه وقناعاته وصلابته في ذلك.

ـــ التثقيف: الذي يطرق شتى مناحي الحياة والذي يتماشى مع مختلف المستويات من الفلاح والمزارع إلى الطالب إلى الأستاذ إلى المرأة كمربية إلى العامل في مكان عمله إلى الطفل، وتشترك في إيصال هكذا رسائل، مختلف وسائل الإعلام من الكتاب إلى الندوة والمحاضرة إلى البرامج الإذاعية، والتحقيقات الصحفية إلى الأفلام التوثيقية والتسجيلية إلى أشرطة الفيديو والملصقات والرسومات والصور...الخ

ـــ تنمية العلاقات الاجتماعية: تقوم وسائل الإعلام المختلفة بدور الرابط الاجتماعي بين الناس، وتعميق الصلات الاجتماعية بينهم للوصول على هدف تنميتها بشكل مستمر، فتنقل أخبار أفراحهم وأتراحهم، وتنقل تهانيهم في المناسبات وتفتح باب التعارف ومد الجسور وتوثق صلاتهم بأعلامهم من العلماء والمصلحين والمبدعين في شتى المجالات.

ـــ الإعلانات والدعايات: التي تعمل للترويج لشتى السلع والمنتجات والابتكارات والخدمات وفي ذلك فائدة مادية لأصحابها لسرعة الترويج لمنتجاتهم وكذا فائدة للمستهلكين للوصول إلى حاجياتهم عن طريق اختيار ما يناسب أذواقهم وإمكانياتهم، وكذا فائدة للوسيلة الإعلامية المستخدمة في هذا الترويح.

ـــ التسلية والترفيه: الذي يعمل على تجديد الحيوية والنّشاط.

ـــ التربية والتعليم: فالإذاعة والتلفزيون والصّحيفة يمكن أن يشكّل داعما أساسيا بمختلف أطوارها بما في ذلك الجامعة[6].

أثر وسائل الإعلام في نشر الآفات الاجتماعية

إن هذه الأهداف النبيلة لهذه الوسائل كثيرا ما تصاغ في قوالب لا تتناسب مع ثقافة مجتمعنا وعاداته وتتصادم مقررات شريعتنا، وإذا أضفنا إلى ذلك البرامج الموجهة أصلا للترويج لما يهدم الأخلاق القيم عبر الصحيفة والإذاعة والتلفزيون....الخ فإن الأمر ينذر بخطر شديد على واقع المجتمع وتماسكه، ولقد أثبتت الدراسات علاقة وسائل الإعلام بانتشار الجريمة بشتى ألوانها. يقول الدكتور عمر عسوس: (على الرغم من أن الجريمة والانحراف يعتبران ظاهرتين معقدتين لهما علاقة بالتكوين النفسي والاجتماعي والعقلي والثقافي للفرد، إلا أن الكثير من الدراسات والبحوث الميدانية أثبتت أن وسائل الاتصال كذلك تلعب دورا مهما في حدوثها. فقد أجريت أكثر من ثلاثة آلاف دراسة لقياس أثر وسائل الاتصال على تكوين السلوك العدواني ضد الأشخاص والأعمال

الإجرامية والانحرافية ضد الأشخاص والأفعال اللا–اجتماعية. فعلى الرغم من استمرار الجدل حول أثرها، فإن معظم الآراء تجمع على وجود علاقة بين مشاهدة التلفزيون كوسيلة اتصال والسلوك العدواني)[7].

وها نحن نلمس الآثار المدمّرة للاستعمال غير الرشيد لهذه الوسائل من خلال ما نعايشه من آفات خطيرة استشرت في مجتمعنا وتطاير شررها ليصل إلى كل بيت تقريبا. وسنقف بإذن الله على جملة من هذه الآفات للرصد والتحليل والمعالجة.

أولا: العنف والإجرام

وهذه الآفة مرتبطة أساسا بالتلفزيون وما يعرضه من مشاهد تدخل في هذا الإطار. ولذا يؤكد علماء النفس والاجتماع على أن هناك علاقة ارتباط بين ازدياد جرائم العنف وازدياد البرامج المليئة بالسلوك الإجرامي وأعمال العنف، يقول الدكتور "براين ولسون" وهو عالم اجتماع: (إن التليفزيون دائما يضخم مجال وتكرار الجريمة، ويركز على الحوادث العنيفة واستعمال القوة في حل الأمور، ويشجع هؤلاء الأفراد الذين لديهم الطاقة الكامنة بالاندفاع تجاه الجريمة والانحراف بالمضي في تيار الشذوذ والانغماس في حوادث الإجرام والانتقام لكي يشبعوا غرائزهم وشهواتهم اللا–اجتماعية واللا–أخلاقية)[8]. وكان من نتيجة ذلك كما تقول الدكتورة منى يكن: (تكونت داخل مجتمعنا عصابات تقلد أبطال الروايات المعروفة، تتفاهم بالسلاح وتتخاطب بالقذائف وتتخاطر على البعد بالأساليب البوليسية في التجسس..كل ذلك بعد أن أصبحت أجهزة التليفزيون مدرسة في الإجرام لا يوجد ما هو أوسع منها انتشارا ولا أفظع منها للأخلاق تدميرا)[9].

وقد أثبتت التحقيقات في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ألمانيا ومن بريطانيا إلى مصر ثم إلى إسبانيا في أعقاب عدد من حوادث القتل في قطارات الأنفاق، واستخدام الأسلحة الرشاشة ومهاجمة العجائز في منازلهن بغية الحصول على مصاغهن أو مدخراتهن، أن هذه الجرائم قد ارتكبت بعد أن شاهد أصحابها أفلاما قريبة جدا منها،بل إن تلك الجرائم جاءت نتيجة لمشاهدة تلك الأفلام ومحاولة تطبيقها في الواقع، وذلك كما جاء في اعترافات أولئك المنحرفين الذين اقترفوها[10].

ومن ذلك ما حدث في مصر عندما قتلت فتاة بالعتبة، حيث ذكر المتهم الأول بأنه كان تحت تأثير فيلم فيديو شاهده قبل ارتكاب جريمته[11].

ورؤية هذه المشاهد تزداد خطورتها في مرحلة الطفولة، فمن كان من الأطفال لديه استعداد وميل مسبق للعنف، تزيده هذه المشاهد الإجرامية عنفا وإجراما. وتلفت نظر الذي ليس لديه استعداد أو ميل وتحاول أن تدفعه للتجربة والمحاكاة، وهناك دراسة قام بها الدكتور وليام بيلسون أستاذ العلوم الاجتماعية البريطاني لمعرفة العلاقة بين مشاهدة الأطفال للعنف في التليفزيون وبين اكتساب صيغة العنف في حياتهم العملية، خلصت نتائجها إلى أن الصغار الذين يشاهدون الكثير من مشاهد العنف في التليفزيون يتم سلوكهم بالعنف بدرجة تزيد مرتين على أولئك الذين لا يشاهدون إلا القليل من هذه البرامج، وأن هناك برامج تليفزيونية تتسبب في انتشار العنف مثل أفلام رعاة البقر ومباريات الملاكمة والمصارعة والأفلام البوليسية وقد أثبتت الإحصاءات أن 39% من الأحداث المنحرفين في إسبانيا قد تلقوا معلوماتهم من الأفلام السينمائية والتليفزيونية[12].

ولعل ما سبق يشير إلى صحة أحد الإحصاءات الأمريكية من أن معدل ما يشاهده الطفل الأمريكي بين سن الخامسة والرابعة عشرة من عمره يزيد على ثلاثة عشر ألف جريمة قتل يراها على شاشة التليفزيون ولعل هذا ما دفع الرئيس الأمريكي ـــ الأسبق ـــ بيل كلينتون إلى المطالبة بضرورة الحد من مشاهدة الإثارة والعنف في الشبكات الأمريكية[13].

كما صرح الرئيس الأمريكي الأسبق جون كيندي بأن الجريمة قد زادت بسبب التليفزيون وأن مكافحة انحراف الأحداث تكلف بلاده خمسة بلايين دولار سنويا[14].

وزاد الاهتمام بهذه القضية عقب مقتل جون كيندي عام 1963 وخصصت الحكومة الأمريكية ـــ آنذاك ـــ مليون دولار لدراسة قضية العنف على شاشات التليفزيون تحت عنوان مشروع بحثي كبير: دراسة كبير الأطباء عن التليفزيون والسلوك الاجتماعي الذي انتهى إلى الإشارة إلى وجود التقاء بين البحوث العلمية التجريبية والميدانية بقيام علاقة سببية للعدوان على المدى القصير بين بعض الأطفال لمشاهدتهم العنف على الشاشة[15].

ومن النتائج التي توصلت لها إحدى الدراسات التحليلية أن التليفزيون بما يعرضه من أفلام سينمائية تحتوي على مناظر إجرامية أو انحلالية قد يؤدي إلى انحراف كثير من النشء عن طريق ما تخلقه من خيالات يعيشها.

كما تبين من مجموعة ذكور منحرفين قد تناولتهم تلك الدراسة أن أحد الأفلام التي عرضها التليفزيون قد أثارت فيهم الرغبة في حمل السلاح وعلمتهم كيفية ارتكاب السرقات وتضليل البوليس، وتشجيعهم على المخاطرة بارتكاب الجرائم[16].

وفي هذا الصدد قضى الطبيب *Albert Bandura* أكثر من عشر سنوات قي دراسة أثر وسائل الاتصال على الأطفال والكبار في ظروف مختلفة، حيث توصل هذا الأخير إلى نتيجة التي مفادها أن هذه الوسائل هي طرائق قوية للتعليم ومصادر مهمة للتأثير عندما بيّنت هذه الدراسات بأن المشاهد العنيفة عبر الشاشة، تحفّز ظهور السلوكات العنيفة وأشار *Bandura* وشركاؤه بأن البحوث التي درست أثر مشاهدة العنف عن طريق المحاكاة لمشاهد عنيفة أكّدت بأنه على خلاف عملية التّعلم بالمحاولات والخطى البطيئة نسبيا، فإن الأطفال يميلون أكثر إلى تعلّم السلوكات العنيفة بسرعة وبكميات أكبر في بعض الحالات عن طريق تعرضهم للمشاهد العدوانية العنيفة التي يشاهدون حدوثها مباشرة من خلال محاكاتها من قبل الكبار على مرأى منهم[17].

وقد أظهرت دراسة حديثة أن الطفل الأمريكي يقضي أمام التلفيزيون وقت أطول من الذي يقضيه أمام سبورة المدرسة وأنه يتعلم من التليفزيون العنف والتحزبات العرقية والجنسية.

وقالت الرابطة الأمريكية لعلم النفس في تقرير لها حول تأثير التليفزيون على المجتمع الأمريكي أن الطفل الأمريكي يرى في التليفزيون ثمانية آلاف جريمة ومائة ألف نموذج من أعمال العنف خلال فترة دراسته الابتدائية واستند التقرير إلى دراسة قام بها ستة من أطباء علم النفس على مدى خمس سنوات أظهرت أن التليفزيون يحطّ من شأن السود وشأن المرأة وأنه يؤثر على الأطفال والمراهقين ويدفعهم إلى حسم الصراعات عن طريق استخدام العنف ويجعلهم أكثر تقبلا للعنف الجنسي[18].

وفي الجزائر أكد تقرير مصلحة الشرطة بولاية الجلفة أن طفلا يبلغ من العمر خمس سنوات انتحر بواسطة حبل وأن والد الضحية صرح للجهة القضائية بأن ولده قد شاهد قبل يوم من انتحاره فيلما من نوع الوسترن احتوى على نفس لقطات الانتحار التي قام بها الضحية على نفسه[19].

ومن الجدير بالذكر أن هناك دراسات قام بها المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين وغيره من الجهات المتخصصة قد أظهرت أن عددا كبيرا من البرامج الأجنبية التي يتم عرضها في أجهزة التليفزيون العربي لا تخلو من مشاهد العنف والجريمة والإدمان على المخدرات والجنس، وأن كثيرا منها يحتوي على قيم وممارسات مغايرة للعادات والقيم الإسلامية ومن ثم فإن لهذه المضامين تأثيرات ضارة على النشء بوجه خاص[20].

ويؤكد الدكتور عبد الله بوجلال هذه الحقيقة بعد عرضه لعدد من الدراسات الميدانية التي أجريت في عدد من دول أمريكا اللاتينية لقياس مدى تأثر الأطفال بمحتوى المنتوج الإعلامي الأجنبي فيقول: (وتشير هذه نتائج

هذه الدراسات الميدانية إلى قوة تأثير البرامج والمواد الإعلامية التليفزيونية الأجنبية على الأفراد والشباب والأطفال منهم بصفة خاصة ويتضاعف هذا التأثير على الصغار، لدرجة تجعلهم يتذكّرون أحداث ووقائع المسلسلات الأجنبية ذات المضمون السيئ ويلمّون بمحتواها ويعرفون أبطالها ورموزها، وفي مقابل ذلك يجهلون معظم المقرّرات الدراسية المتعلقة بتاريخ بلادهم ويجهلون رموزها الوطنية وأبطالها التاريخيين، وهذا ما يعمل على تزييف وعي هؤلاء الصغار بقضايا مجتمعهم وتاريخه وواقعه السياسي والثقافي والاجتماعي ويدفعهم إلى إتباع سلوكات سلبية تحتوي عليها البرامج التليفزيونية الأجنبية أو المحلية المشابهة لها مثل الفردية والخروج على القانون وارتكاب الجريمة والعنف والتدمير وغيرها)[21].

وفي دراسة ميدانية أجريت على عدد من أطفال دولة قطر، وكان عنوان هذه الدراسة: "أثر برامج التليفزيون في السلوك العدواني عند الأطفال" فجاءت النتائج فيمن يعانون من السلوك العدواني لفظيا كان أو جسميا كالتالي:

6 % بدرجة كبيرة جدا.

33 % بدرجة كبيرة.

51 % بدرجة معتدلة[22].

وقام محمد الجيوشي وفوزية بدوي عام 1990 بدراسة تحليلية لأفلام الرسوم المتحركة لتعرف تأثير هذه الأفلام على الأطفال.

وتوصلت الدراسة إلى أن مسلسل "توم وجيري" يعتمد على فكرة العداء الفطري ويحوي مكائد ومغامرات تعتمد على الخيال، وقد وصفته إحدى المجلات في الولايات المتحدة الأمريكية، بأنه عنيف جدا. أما مسلسل"جونجر" فيثير في الطفل مشاعر القلق ويعزز السلوك العدواني، ويسبب هياجا حركيا للأطفال، وبالنسبة إلى مسلسل"غراندیزر" فإن مشاهدته، تسبب هياجا حركيا للطفل، ويعزز سمات العدوانية، أما باقي المسلسلات، فهي تعزز مشاعر العنف، وأنه لا سبيل لحل المشكلات إلا بالعدوان، ومثال ذلك مسلسل"الرجل الحديدي"[23].

وفي دراسة أخرى أجرتها منال أبو الحسن بعنوان"الرسوم المتحركة بالتليفزيون وعلاقتها بالجوانب المعرفية لدى الطفل" وفي عينة من هذه الدراسة تم اختيار ثلاث حلقات من مسلسل الأطفال "البوكيمون" عشوائيا، وتم تحليل مضمونها حسب الفئات العمرية التي وضعتها الباحثة ـــ والدراسة أجريت على عينة من أطفال قطر أيضا ـــ وبعد عرضها لبعض القيم الإيجابية في هذا المسلسل، خلصت إلى القول بطغيان الجانب السلبي على الإيجابي، ومما قالته في هذا المجال: (يلاحظ أن الحلقات الثلاثة المختارة عشوائيا من مسلسل البوكيمون، قد سيطر عليه العنف بدرجة كبيرة، إذ حفلت كل المشاهد تقريبا بمواقف العنف والصراع والاستقتال المميت، وقد لاحظت أن النظرية الميكافيللية كانت سائدة في التعامل لدى شخصيات المسلسل فالغاية لديهم تبرر الوسيلة، لأنهم في سبيل الوصول إلى الهدف يعاركون ويتصارعون، في مشاهد لا يخفى على الشخص البالغ ولا حتى الطفل أثرها على السلوك، بحيث تشجع على انتهاج أسلوب العنف كوسيلة للحصول على الهدف، إلى الدرجة التي جعلت الأطفال يقلدون سلوك البوكيمونات، بل إلى الدرجة التي جعلت تذكر الأطفال لمواقف سابقة من المسلسل تنصب على تلك المشاهد، وهذا يؤكد تأكيدا بالغا القيم المقلوبة التي حرص مسلسل البوكيمون على تشكيلها لدى الطفل بأسلوب إعلامي، اهتم بالجذب والإثارة والحركة التي تشد انتباه الطفل لا محالة، حتى تصور الأطفال أن العنف هو الذي يوصل إلى بر الأمان، وأن الإنسان الشجاع هو الإنسان العنيف الذي يضرب ولا يُهزم..... ـــ وتواصل الباحثة كلامها إلى أن تقول ـــ ولعل ذلك ما لاحظته في مسلسل البوكيمون وإجابات التلاميذ و التلميذات حوله فكان العنف مسلكا لهم، حيث أن بعض التلاميذ قد استخدم عود الثقاب واضعا إياه في فمه تقليدا لشخصية "تشارمندر"

ـــ من البوكيمونات النارية في المسلسل ـــ .كما أن بعض التلميذات ذكرن أنهن يصعدن على الطاولة ليقفزن من أعلاها تقليدا لـــ "بيدجيوتو")[24].

هذا ناهيك عن سلبيات أخرى لهذا المسلسل تتنافى مع قيمنا الدينية والاجتماعية كما ذكرتها الباحثة[25].

وفي دراسة ميدانية مهمة جدا أجراها الدكتور نصير بوعلي[26]، والتي عالج من خلالها أثر البث التليفزيوني الفضائي المباشر على الشباب الجزائري، وذلك من خلال اتخاذ مدينتيْ قسنطينة وأم البواقي نموذجا للدراسة، ومن خلال اختيار عينة من 500 مبحوث (250 لكل منطقة). وفي النقطة المتعلقة بعلاقة الفضائيات بالأنساق القيمية وهوية المتلقي الثقافية وتحديدا في الشق المتعلق بالآثار الاجتماعية والسلوكيات السلبية، كانت النتائج كالتالي[27]:

ـــ نمو ظاهرة التقليد الأعمى 73.2%.
ـــ زيادة العنف 69%.
ـــ إثارة الغرائز 65%.
ـــ تعمل على زرع عادات وتقاليد دخيلة 59.6%.
ـــ تساعد على ارتكاب الجريمة 42.6%.
ـــ تساعد على تفكك قيم المجتمع 42%.

والذي يهمنا فيما نعالجه في مطلبنا هذا، هو أثر التليفزيون في نشر العنف والجريمة والملاحظ أن نسب كل منهما كانت عالية 69% و42.6% على التوالي، ويمكن سحب نتائج هذه العينة المبحوثة على كامل مناطق القطر الجزائري تقريبا بحكم تشابه أنماط العيش والتفكير عندنا مع تفاوت بسيط بين منطقة وأخرى، وهذا مؤشر خطير على ما وصلت إليه الأوضاع عندنا في الجزائر، وما يمكن للتليفزيون أن يحدثه على مستوى المنظومة القيمية والأخلاقية عندنا.

ولعل هذا ماحدا بالبعض لإطلاق لقب جامعة الجريمة على التليفزيون أو كما يصفه أحد الأطباء النفسيين بجامعة كولومبيا، بأنه إذا كان السجن بالنسبة للمراهقين هو كلية يتعلمون فيها الجريمة، فإن التليفزيون هو المدرسة الإعدادية للانحراف[28].

وما يؤكد صحة هذه النظرية زيادة على ما ذكرناه،هو ما جاء في دراسة أخرى مشهورة قام بها bradon centerwall الأستاذ بجامعة واشنطن،حيث توصل الباحث إلى نتيجة مفادها أنه لو لم يكن هناك تليفزيون لكان معدل الجريمة في أمريكا أقل من ما هو عليه الآن بمقدار10000 جريمة قتل كل سنة، ومعدل الاغتصاب أقل مما هو عليه بـــ 70000، ومعدل الاعتداء المؤدي إلى الجروح أقل مما هو عليه بـــ 700000 اعتداء، ومعدل الجريمة بصفة عامة ينخفض إلى النصف مما هو عليه الآن[29].

كما تلعب ألعاب الفيديو الإلكترونية الموجهة للأطفال دورا مهما في نشر العنف والإجرام بحكم أن كثيرا من هذه الألعاب تعتمد على طرق عنيفة جدا.

ويعتقد بعض علماء النفس أن اللاعب المعتاد على ألعاب الفيديو يمكن أن يدفع إلى ممارسة العنف في الحياة العملية، ويقول everett .Koop وهو كبير أطباء الجيش الأمريكي(سابقا): أنه لا يوجد شيء بنّاء في ألعاب الفيديو، فكل شيء في هذه الألعاب لا يعدو سوى أن يكون أوامر وتعليمات بالضرب والقتل والتخلص من الخصم، ويميل عالم النفس الاجتماعي zimbardo إلى نفس الرأي

فيقول أن لاعب الفيديو محاط دائما بجو متوتر، يصيح به صوت، أن اضرب، أقتل، احرق، دمّر، بدلا من تفاوض، تعاون، افعل شيئا من أجل الآخرين. إن كل ألعاب الفيديو تميل إلى تغذية العضلات بالقوة والتدمير[30].

والخطورة تتمثل في أن أكثر الألعاب انتشارا تتطلب من الطفل أو اللاعب عامة القيام بأعمال تتّسم بالعنف والخطورة[31].

وما يقال عن ألعاب الفيديو يقال أيضا عن نظيرتها عبر شبكة الإنترنيت، ففي دراسة ميدانية حديثة حول استعمال الإنترنيت في الجزائر وفي الشق المتعلق بمواقع الترفيه تقول الدراسة: (قد تبدو للملاحظ في الوهلة الأولى أنها مواقع ترفيهية هدفها التسلية والترويح عن النفس، لكن المتصفح لأخطارها يرى فيها قنبلة موقوتة وفيروسا ينخر فئة كبيرة من الجزائريين، حيث تقدر نسبة من يتصفحون هذه المواقع بـــ51.64%، ولا تتضمن هذه النسبة الزائرين الزوار فحسب، ولكن بالمدنين عليها خصوصا الفئة العمرية ما بين 10و17سنة، حيث بلغت النسبة71.71% مقابل 68.47% ممن تتراوح أعمارهم ما بين18و25 سنة، أما عن المستوى التعليمي فالنتائج جد متقاربة بين كل المستويات أعلاها المستوى الثانوي بـــ67% تليها المستوى المتوسط63.75%، والمتصفح لهذه المواقع حسب نتائج الدراسة،لا يرى فيها سوى مواضيع العنف والحرب والدماء والقوة.

ونفسيا فإن هذه المواقع تزيد من إفرازات العدوانية والكراهية والعنف، خصوصا وأن الأطفال في الجزائر تحولوا من الألعاب البريئة إلى التشبه والتمثل بشخصيات كارتونية غريبة، بعيدة كل البعد عن سنهم ومستواهم الفكري والعقلي، مما جعلها تفسد الحس الروحي للطفل وحوّلته إلى آلة للحرب مستعدة للتخريب والعنف. والخطر ليس اللعب في حد ذاته،ولكن في الإدمان عليه، مما دفع بالأطفال للتوجه مباشرة من المدرسة والثانوية إلى فضاء الانترنيت للعب الجماعي مكوّنين عصابات وهمية ضد مجموعات أخرى)[32].

ثانيا: التدخين والخمر والمخدرات

ففيما يتعلق بالتدخين فنستطيع أن نقول دون أدنى موارية أن جميع وسائل الإعلام العربية والغربية وتحديدا التليفزيون يعمل على تشجيع ونشر هذه الآفة لا بتعداد محاسنها وإنما بارتباطها بأبطال الأفلام والمسلسلات الذين لا يترددون في احتساء التدخين بنهم وشراسة وربط ذلك بالقدرة على التفكير السليم، والوصول إلى حل المشكلات والخروج من المآزق، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة.

ناهيك على ارتباط هذه الآفة بكبار الساسة ورجال الأعمال فكل الجلسات لا يمكن أن تعقد بدونها، ولا يخفى مدى خطر ذلك على المشاهد غير المحصّن، خصوصا الأطفال بحيث يصور لهم بأن تعاطي التدخين جزء لا يتجزّأ من كمال الرجولة.

ففي دراسة حديثة أجرتها وزارة التربية والتعليم العالي في رام الله بفلسطين على عينة من طلبة المدارس الفلسطينية، وفي النقطة الخامسة المتعلقة بوسائل الإعلام والدعاية لمنتجات التبغ، صرّح 87.3% من الطلبة بأنهم شاهدوا في التليفزيون ممثلين يدخنون خلال الأيام الثلاثين من بدء المسح، و70.7% من الطلبة شاهدوا دعاية وإعلانات لترويج التدخين في الشوارع والأماكن العامة، و66% شاهد دعايات لترويج التدخين في الجرائد والإعلانات خلال الثلاثين يوما الماضية[33].

والدراسة السابقة أشارت أيضا إلى ما تلعبه الجرائد والإعلانات من دور كبير في الترويج لهذه الآفة وللشركات المنتجة لها وبأساليب جذابة تغري الشباب خصوصا من فئة المراهقين غير المحصنين فكريا وأخلاقيا الذين يعشقون المغامرة في كل شيء.

ففي مصر التي تعد واحدة من أكبر دول العالم العربي استهلاكا للتبغ حيث يصل معدل الذكور المدخنين إلى 44%، أما عند النساء ففي حدود 5%، تعمل شركات التدخين هناك على مداعبة أحلام المواطنين العاديين ودفعهم لإدمان التدخين، وتستخدم في الترويج لمنتوجها، الجرائد والإعلانات في الشوارع والساحات العامة، فتجد عنوانا أحمر فاقع اللون باسم "غيّر الإيقاع" لراعي البقر المذكور الذي يستمتع بتدخين السيجارة بجانب منظر طبيعي هادىء، وتقرأ عليه جرّب هذا النوع، وابعث خمس علب من سجائر "عادي أو خفيف" لتكسب رحلة خيالية لمدة عشرة أيام، ولا بأس أن تقف امرأة جميلة عن بُعد.

وأصبحت هذه الشركات تظهر الشيشة (أو النرجيلة) كموضة جديدة للمرأة المتحضرة كما تذكر مجلة "reports". ويكتب على إعلان الشيشة كلمات مثل "بطعم الفاكهة النعناع التفاح"[34].

وقريب منها آفة الخمر ـــ وإن بدرجة أقل ـــ فكثير من المشاهد خصوصا في بيوت الأغنياء والأرستقراطيين،وكذا المشاهد التي تصور الجلسات الحميمية بين الأصدقاء والأحباب في النوادي والمقاهي مرتبطة بقنينة الخمر،هذا في كثير المنتجات الإعلامية العربية خصوصا السينما المصرية، ولا أتحدّث عمّا يعرض في القنوات الغربية على اعتبار كون ذلك عاديا عندهم.

وقد يعتقد البعض أن وسائل الإعلام العربية مهما بلغت حدا في الرداءة، فلا يمكن أن تروّج لآفة المخدرات، لكننا نقول بأن الرداءة وصلت حدا لا تعترف فيه بالحدود.

ثالثا: جرائم الشرف (الزنا)

والترويج للفاحشة تشترك فيه جميع وسائل الإعلام تقريبا، التليفزيون والفيديو، والإنترنيت والصحف والكتب والصور...الخ.

ـــ **ففيما يخص التليفزيون** فقد صارت هناك قنوات فضائية متخصصة في الجنس تبث على مدار الساعة، كما أن هناك عديد الأفلام والمسلسلات التي تحوي لقطات جنسية مباشرة، أما مقدمات الزنا فأكثر من أن تعد وأن تحصى وللقنوات العربية في ذلك نصيب.

يقول الدكتور عزت حجاب: (ومن الأمور الأخرى التي يجب ملاحظتها، أن وسائل الإعلام العربية المختلفة قد استغلت المرأة باعتبارها موضوعا للجنس. فالعديد من المسلسلات التلفزيونية خاصة المصرية تزخر بمشاهد الإثارة والجنس مما يسيء إلى سمعة المرأة المصرية. كما كشفت دراسة أخرى متعلقة بتحليل مضمون بعض البرامج الإذاعية، أن مضمون هذه البرامج قد صور أن العلاقة بين المرأة والرجل على أنها علاقة جسدية وأن المرأة موضوع الجنس، فهي تهتم بجمالها وجسدها حيث أن هذا مرغوب من الرجل)[35].

وأخطر ما في الأمر أن يتوجّه نصيب وافر من هذا المنتوج الساقط إلى الأطفال، فقد أحصى أحد الباحثين مجموعة الأفلام التي تعرض على الأطفال عالميا فوجد أن 29.6% تتناول موضوعات جنسية، وأن 27.4% تعالج الجريمة، كما تدور 15% منها حول الحب بمعناه الشهواني العصري المكشوف، ووجد "بلوسر" أن الأفلام التجارية التي تنتشر في العالم تثير الرغبة الجنسية في معظم موضوعاتها، وتعلم المراهقين والمراهقات من الفتيات العادات الضارة وفنون التقبيل والحب والمغازلة والإثارة الجنسية والتدخين واحتساء الخمر[36].

إن الغرب ينشر ثقافة إباحية جعلت كل شيء مكشوفا أمام الأطفال، وصار الفتيان والفتيات يفقدون براءة الطفولة في وقت مبكر جدا، مما جعلهم يعيشون تحت وطأة مشاعر جنسية ليسوا مؤهلين للتعامل معها والسيطرة عليها[37].

ولقد سقط في عالمنا العربي والإسلامي من جرّاء ذلك كثير من شبابنا في وحل الرذيلة يقول الأستاذ حسين نعمان مدير نيابة أمن القاهرة: (أن نسبة طالبات الثانوية المتهمات في جرائم الآداب في ارتفاع، وهذا مرجعه في الأصل كما أسفرت التحقيقات إلى تفكك أسر هؤلاء الطالبات وانشغال رب الأسرة وانصرافه عن رعاية بناته. ويضاف إلى ذلك تأثرهن بما يشاهدن من التليفزيون من مشاهد الحب والغرام ومحاولة تقليده وتقمّصه بشكل طبيعي، كما يحدث في أفلام وتمثيليات التليفزيون في أحداث روايته)[38].

وما حدث ويحدث في مصر يمكن أن يعمّم على معظم دول العالمين العربي والإسلامي.

ـــ وأما الفيديو فخطره أشد وذلك لأن خطورته تكمن في حرية الفرد في اختيار المادة التي يريد مشاهدتها، خصوصا مع عدم قدرة الرقابة أو الإجراءات الرسمية على القيام بدورها في تحديد نوعيات المواد التي تعرض، وقد يتم بتواطؤ منها في بعض الأحيان وفي بعض البلاد،بغرض الإلهاء والإشغال عن القضايا الأساسية للمواطن وكذا لإطفاء جذوة التديّن التي تزداد بين شباب الأمة يوما بعد يوم.

فلقد أجريت إحدى الأبحاث الميدانية التي أستُطلِع فيها رأي المبحوثين فيما يفضلون من أفلام ـــ أي على الفيديو ـــ فتبيّن أن هناك عددا كبيرا من جميع الأعمار والمستويات المادية والمهنية والثقافية يهتمون بأفلام الجنس. فقد اتضح أن 76.6%من الذكور يشاهدون أفلام الجنس مقابل 51.1%من الإناث[39].

ـــ وإذا أضفنا إلى ذلك الفيديو كليب الغنائية الفاضحة وكذا الإعلانات التي تبرز فيها المرأة وكذا الرجل بوضعيات أو ألبسة جد مغرية وكذا ما يعرض من حصص لعرض الأزياء وكذا مسابقات الجمال والتي صار التعرّي فيها شرطا أساسيا، فإننا نصل إلى نتيجة مفادها أن الأمر مخطط له لإغراق المجتمع في وحل الرذيلة.

والأخطر من كل ذلك أن تُسمى الأمور بغير مسمياتها، وتُزيّف الحقائق، بتصوير الممنوع مشروعا، والخطأ صوابا والحرام حلالا، ودليلنا على ذلك أن مفهوم"البطولة" صار يطرح على أنه نوع من المغامرات الجنسية أو العاطفية، وتصوير الخيانات الزوجية على أنها عواطف مشروعة، واستخدام كلمة "الحب" كبديل عن كلمة "الزنا" حتى صار الكثير منا يتقبل رؤية مشاهد احتضان رجل لفتاة شابة بحجة أنه يمثل دور أبيها أو رجل وامرأة في سرير واحد بحجة أنه يمثل دور زوجها...الخ.

ـــ وأما الأنترنيت فلا يخفى ما تبثه من صور خلاعية وأفلام إباحية، حيث تتضمن الشبكة حوالي مليون صورة أو رواية لها علاقة مباشرة بالجنس، كما توفر معلومات دقيقة حول بيوت الدعارة في العديد من دول العالم، هذا إضافة إلى أمور تتعلق بالانتحار وبما يشجّع على العنف وارتكاب الجرائم[40].

ومن المخاطر التي تحوط شبكة الإنترنت أنه توجد مواقع على هذه الشبكة للحب والزواج والعلاقات غير الشرعية، وبمجرد دخول المشترك إلى هذه المواقع عليه أن يحدد بالضبط شكل العلاقة التي يريدها، هل هي صداقة أم علاقة حميمة أم مجرد الحصول على بعض المتعة. ومن أشهر هذه المواقع وأكثرها انتشارا الموقع الأمريكي المعروف باسم "العزاب الأمريكيون" amerikansingles.com والخدمة فيه ليست مقصورة على الأمريكيين، بل كل العالم، على اعتبار أن الولايات المتحدة هي الحاكم الفعلي للنظام العالمي الجديد.

ولكي يتم الاستفادة من العروض التي يقدمها هذا الموقع، فعلى المرء أن يدون بياناته الشخصية والمواصفات التي يريدها في شريكته أو شريكها، وذلك من خلال الإجابة على عشرات الأسئلة التي تكشف ـــ رغم بساطتها ـــ عن أدق التفصيلات والسمات الشخصية.

وقد دخل الشباب العربي ـــ للأسف ـــ سواء الرجال الذين يبحثون عن سيدات أو العكس، إلى هذا الموقع حيث توجد صفحات مخصصة لبعض الدول العربية (ومنها الجزائر للأسف الشديد) التي تتمتع بانتشار جماهيري لشبكة الإنترنيت[41].

وبالعودة إلى الدراسة التي أشرنا إليها سلفا حول استعمال الانترنت في الجزائر، كشفت أن المواقع الإباحية أصبحت مزارا طبيعيا لكثير من الشباب خصوصا من فئة المراهقين حيث أكد 48.79% الإدمان على زيارتها منهم 6.58% من الإناث وتقدر أعلى نسبة لدى الشباب في الفئة العمرية ما بين 18و25 سنة[42].

ـــ أما الصحف فدورها في ذلك لا يستهان به خصوصا مع انتشار ما يسمى بالصحافة الصفراء في عالمنا العربي والتي تتستر وراء ما يسمى بالصحف الفنية التي تتتبع أحوال وأخبار الفنانين والفنانات والممثلين والممثلات، فقد تخصصت في نشر صور جد فاضحة لنساء شبه عاريات وعلى صدر صفحاتها الأولى وبألوان جذّابة، وسرد حكايات عن مغامرات جنسية بكلمات تخدش الحياء والذوق العام وكلما زادت جرأة الصحيفة كلما عظم دخلها، فصارت سياسة متبعة لكثير من هذه الصحف.

وقد يظن البعض أن من يقف وراء هذا الابتذال، هم فقط مجموعة من المراهقين الذين لاحظ لهم من الثقافة والتعليم. ولكن الواقع يقول بأن هناك عددا من الأقلام الشهيرة في عالم الثقافة تدفع وبقوة نحو هذا الاتجاه، فهذا إحسان عبد القدوس يقول وبكل جرأة في إحدى مقالاته: (إنني أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها في يدها، وتذهب إلى أبيها وتقول:هذا صديقي)[43].

وكتب أنيس منصور في مقال بجريدة "أخبار اليوم" (أنه زار إحدى الجامعات الألمانية، ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجا أزواجا مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة، قال: فقلت في نفسي: متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط لكي تراه عيون أهل الصعيد وتتعود عليه)[44].

وكتب الدكتور مصطفى الديواني رسالة في جريدة الأهرام تساءل فيها مستنكرا: ("...لماذا لا نراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلقي؟ فللشباب ثورته، ولا مفر من مهادنته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عندما يراها في متناول يده)[45].

ويعلق فضيلة الشيخ محمد الغزالي ـــ رحمه الله ـــ على ذلك بالقول: والدكتور يقول ذلك بعد أن يعلن رضاه عن الحال التي وصل إليها الغرب من ناحية العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة فيعرض علينا المشاهد التي راقته: (..نظرت من نافذتي وأنا أكتب هذا فرأيت أجمل السويسريات يمشين في الشوارع دون أن يلتفت إليهن شاب أو يعاكسهن فتى رقيع، وتذكرت كيف ذهبت أمس إلى مسرح "باتكلان" ـــ الذي تقصده أرقى طبقات جنيف ـــ وكيف صدمنا ـــ نحن المصريين ـــ في بداية الاستعراض، إذ وجدنا الراقصات عرايا تماما إلا من ورقة توت صغيرة، ثم لم نلبث أن اعتدنا العري والجمال بعد الدقائق الخمس وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض، على أنه قطعة من روائع الفن العالمي.

ثم تذكرت باريس وكيف أبيحت فيها الدعارة سرا وعلنا، وإيطاليا وكيف نظمت الدعارة بشكل محتشم غامض، وإنجلترا العجوز وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في الحدائق العامة.

تذكرت هذا كله ثم قلت في نفسي: هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأمم؟)[46].

ويعاود الشيخ محمد الغزالي التعليق مرة أخرى بالقول: (كاتب الرسالة مثل صادق للجيل الذي يرمق حضارة الغرب بإعجاب وإعزاز، ويتقبل تقاليده في نواح شتى، لا في الناحية الجنسية وحدها،تقبل الفاقه المقتنع، أو تقبل التابع المسحور)[47].

ـــ والقصة المكتوبة هي لون من ألوان الأدب ذات التأثير الفعال لكن كثيرا من الكتاب المستلبين حضاريا اتجهوا بها وجهة خاطئة حتى صارت كثير من القصص تخاطب الغريزة بدل العقول، ولا يخفى خطر ذلك على المراهقين خصوصا من الفتيات اللاتي يملن كثيرا إلى هذا اللون من القصص.

رابعا: آفة التقليد والمحاكاة

تبعا للقاعدة التي أكدها عالم الاجتماع ابن خلدون "أن المغلوب مولع بتقليد الغالب". فإن كثيرا من فئات مجتمعنا خصوصا الأطفال والشباب، يجد في النموذج الغربي مثلا يحتذى بحكم أنهم هم أصحاب القوة والنفوذ والتكنولوجيا عالميا فضلا على تفننهم في صناعة المؤثرات الفنية التي تجعل المشاهد أسيرا لما يرى. (وتوضح الدراسات أن المشاهدين يتقمصون الشخصيات التليفزيونية، وأن الأطفال يكررون السلوك الذي يشاهدونه على الشاشة، حيث ثبت نفسيا، أن التليفزيون يؤثر في مفهوم الأطفال عن أمور الحياة وقيمها كما يؤثر في مشاعرهم وأحاسيسهم)[48].

وكشفت دراسة ميدانية على عينة تتكون من 1005 من تلاميذ المدرسة المتوسطة بالكويت، تتراوح أعمارهم بين 10و14 سنة، أن67% من الأطفال يميلون إلى تقليد البطل الذي يشاهدونه في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، مقابل 32.8% منهم لا يميلون إلى تقليده، وكشفت نتائج الدراسة وجود تفاوت بين الذكور والإناث في درجة الميل إلى التقليد، ففي حين بلغت نسبة الذكور 75% بلغت نسبة الإناث 59.8%. أما عن رغبة الطفل في أن يكون مثل البطل، فقد أجاب 75.7% من الأطفال بنعم عن سؤال في هذا المضمار وأجاب 24% منهم بلا، ويتضح أن الأطفال في هذه السن لا يميلون إلى تقليد البطل فقط،وإنما يرغبون أيضا في أن يتصفوا بالصفات التي تتميز بها شخصية البطل، مما يعكس قوة تأثير التلفزيون على شخصية الطفل التي لا زالت تمر في هذه السن بدور النمو والتكوين، ويضح أيضا أن ميل الذكور إلى أن يكونوا مثل البطل أوضح من ميل الإناث، حيث بلغت نسبة الأطفال الذكور الذين أجابوا بنعم 83.3% منهم،مقابل 65% من الإناث، أما الذين أجابوا بلا من الذكور فكانت نسبتهم 12.7% ومن الإناث 34.5%[49].

ويعلق الدكتور عبد الله بوجلال على هذه النسب بالقول: (وتظهر هذه الإجابات أن الأطفال الذكور أكثر تأثرا بالبرامج والمسلسلات التلفزيونية من الإناث في هذه السن وربما يرجع ذلك إلى الأدوار المسندة لأبطال الأفلام والبرامج والمسلسلات التلفزيونية والتي في معظمها تسند إلى الرجال، إضافة إلى ما يبدو عليه أولئك الأبطال من أشكال في الشجاعة وما يحققونه من نجاح مدهش في معظم تلك الأفلام والمسلسلات خاصة الغربية منها. وفي نفس الوقت فإن الأدوار المسندة إلى المرأة ـــ وهي النموذج المفترض الذي تقتدي به البنت ـــ تظهرها في معظم الأفلام والمسلسلات في مواقف غير مقبولة، فهي في الغالب مستسلمة للرجل وتنفذ له مآربه...الخ من الصفات التي تتصف بها بطلات الأفلام والمسلسلات، سواء أكانت عربية أو أجنبية)[50].

ويمكن أن نلخص عددا من صور التقليد والمحاكاة والتي استشرت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية والتي لم تكن معهودة ولا معروفة من ذي قبل.

ـــ ألبسة فتياتنا اليوم وطريقة تزينهن انعكاس مباشر لتأثرهن بنجمات الأفلام والمسلسلات والفيديو كليبات...الخ.

ـــ السعي إلى نسج العلاقات بين الجنسين وترجمتها إلى مواعيد ولقاءات وملاطفات ومحاولة إقناع النفس بأن ذلك من باب التحرر والتحضر.

ـــ تقليد كثير من شبابنا لنجوم الفن والسينما والرياضة والغناء في طريقة اللباس وتسريحة الشعر ...الخ.

ـــ حفظ الأطفال وبسرعة فائقة لأغاني الإعلانات والرسوم المتحركة، بغض النظر عن مضمونها وتقليد أبطالها حركة وصوتا.

ـــ تقليد بعض الأطفال لمشاهد غاية في الخيال والخطورة، وحصول الضرر في أغلب الأحيان، كمشاهد الطيران في الهواء مثلا يقول يوسف غراب: (لقد حدث في إحدى الدول العربية إذاعة مرئية لمسلسل للأطفال يسمى"فرافيرو" وهو شبيه بـــ"قراندايزار وسوبرمان". وفرافيرو هذا هو أحد الأشكال المبتكرة لـــ "والت ديزني"، أو التي تنتمي إلى أشكاله، وهو يطير من فوق المباني ومن فوق الأماكن العالية، ويصيح في كل مرة أنه قادم وحدث أن أراد أحد الأطفال تقليده فخرج إلى سطح المبنى الشاهق الذي يسكن به وألقى بنفسه من علو ستة طوابق متخيلا بأن الهواء سيحمله كما حمل فرافيرو)[51].

هذا عدد من الآفات التي أردنا أن نقف عندها نظرا للأثر البالغ لوسائل الإعلام في انتشارها، ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فإن الآفات التي تتسبب هذه الوسائل في نشرها وتشجيعها إن بقصد أو بغير قصد، أكثر مما ذكرنا ومن ذلك السرقة والاحتيال والاختلاس والرشوة والتجسس والدجل والشعوذة....الخ.

وحسبنا أن ما سلطنا عليه الضوء بالمعالجة والتحليل وتقديم الأرقام والإحصاءات، يقدم صورة حية فيما يمكن أن تحدثه وسائل الإعلام من آثار مدمرة على البنية الاجتماعية إن نحن لم نحكم السيطرة على نوعية المنتوج الإعلامي، الذي يتلاءم مع أصالتنا وثقافتنا حتى نحافظ على الأجيال من الضياع والتيه.

خـــاتمـــة

إن هذه الإحصاءات والأرقام التي قدمناها تدلل بما لا يدع مجالا للشك أن الآفات الاجتماعية قد اتخذت منحنيات ومنعرجات خطيرة تهدد المجتمع في أمنه واستقراره بل وفي وجوده أصلا ووسائل الإعلام وإن لم تكن هي السبب الوحيد في وجود هذه الآفات، ولكنها صارت اليوم السبب الأكبر في نشرها وتشجيعها.

وليس الحل كما يعتقد البعض في الهروب من الواقع، أو تسويق فتاوى حرمة اقتناء أجهزة التلفزيون أو الفيديو أو مشاهدة الفضائيات، ولا في تحريم التعاطي مع شبكة الإنترنيت أو عدم جواز التعامل مع وسائل الإعلام عموما خوفا على المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع، بل الحل يكمن في تطوير وسائلنا الدفاعية باستخدام نفس الوسائل واستثمارها لخدمة أهدافنا ولتحصين أجيالنا بل وللتعريف برسالتنا الحضارية للعالمين.

يقول الخبير الإعلامي حمدي قنديل: (إن الغزو الثقافي قادم لا محالة ولا يمكن صده بسلاح التشويش أو منع استيراد الهوائيات الفضائية... والحل هو أن نطور إنتاجنا التليفزيوني ونجعله أكثر تنوع وجاذبية، ويلبي احتياجات كل الأذواق والآراء وأن يصل الإرسال إلى كل بقعة نائية أو معزولة)[52].

مع ملاحظة أن هذه الأذواق التي ينبغي أن تلبى مقيدة بضوابط أخلاقية، من الضروري مراعاتها لخصوصية مجتمعاتنا الإسلامية. وللحد من التأثير السلبي لهذه الوسائل نقدم عددا من التوصيات والمقترحات .

1. تدعيم المنتوج الوطني ببرامج هادفة نفية تراعي جميع الطبقات والمستويات، وتلبي شتى الأذواق مع ضرورة توظيف آخر التقنيات التكنولوجية لتكون قادرة على المنافسة والتفوق.
2. تدعيم تبادل البرامج الهادفة فيما بين الدول الإسلامية مع ضرورة تكامل الخبرات والإمكانات.
3. الاستفادة من منتوج الأمم والحضارات الأخرى وانتقاء المناسب منها.
4. تشجيع أصحاب رؤوس الأموال للاستثمار في المجال الإعلامي الرسالي الهادف، بإنشاء قنوات تلفزيونية وإذاعية ومواقع وشبكات إلكترونية، أو إصدار صحف يومية أو أسبوعية، لتشكل بديلا عن الإسفاف المعروض حاليا، فالموجود حاليا من هذه القنوات والصحف الجادة على الرغم من أنه ازداد انتشارا وتوسعا، إلا أنه لم يرق بعد إلى مستوى الطموح الذي ننشده.

5. تكثيف البرامج التي تعمل على تحصين الأجيال والتي تسلط الضوء على هذه الآفات بالتحليل والمعالجة.

6. تعزيز وتفعيل لجان الرقابة عبر جميع وسائل الإعلام بما فيها نوادي الإنترنيت ومحلات ألعاب الفيديو للحد من انتشار البرامج الهدامة والموضوعات العابثة والصور الفاضحة ومحاسبة العابثين بقيم المجتمع بإجراءات رادعة.

7. تأسيس نوادي تهتم بالنشاطات العلمية والرياضية والترفيهية المدروسة والهادفة للشباب وتعميمها في كل القرى و المداشر والأحياء.

8. إصدار نشرات تقدم معلومات لأفراد المجتمع توزع مجانا على الأصناف المثقفة وطلاب الجامعات وتلامذة المدارس المتوسطة والثانوية، وتتناول هذه النشرات بنوع من التفصيل مشكلة الجريمة والإجراءات التي يمكن اتخاذها لمنعها أو التقليل من انتشارها[53].

ببيليوغرافيا

1 – الطفل بين منافع التليفزيون ومضاره،د/محمد عبد العليم مرسي مكتبة العبيكان الرياض ط1997/1418،ص77 نقلا عن مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، عمر عبيد حسنة كتاب الأمة رقم28 ص8-9

2 – المرجع نفسه،ص88 نقلا عن نفس المرجع .

3 – بث وافد على شاشات التليفزيون،د: انشراح الشال ط 1994 دار الفكر العربي ص210.

4 ـ أثر وسائل الإعلام على الطفل،عبد الفتاح أبو المعال ط1 دار الشروق الأردن ص13-15بتصرف واختصار .

ـ التلفزيون بين الهدم والبناء ص7 نقلا عن أحد التقارير العلمية التي نشرتها "هيئة اليونسكو". 5

6 ـ أثر وسائل الإعلام على الطفل ـ مرجع سابق ـ ص16-24 بتصرف واختصار .

7 – دور وسائل الاتصال في رفع مستوى الانحراف والجريمة والوقاية منهما د:عمر عسوس مقال منشور في المجلة الجزائرية للاتصال العدد15 (جانفي ـ جوان) 1997 ص15 .

8 – الأطفال والتليفزيون د:عبد الله بوجلال مقال منشور في المجلة الجزائرية للاتصال العدد13 (جانفي ـ جوان) ص78. نقلا عن أثر التليفزيون على الأطفال إحسان محمد حسن مجلة الإذاعات العربيةالعدد57 يوليو 1974.

9- الطفل بين منافع التليفزيون ومضاره، مرجع سابق ص126-127 نقلا عن " أبناؤنا بين وسائل الإعلام وأخلاق الإسلام "،منى يكن مؤسسة الرسالة بيروت ص34-35.

10- المرجع نفسه ص126.

11- بث وافد،مرجع سابق ص211

12- المرجع نفسه ص211

13- الاتصال و الرأي العام ص278 وقد طالب الرئيس الأمريكي كلينتون بظهور مستطيل أبيض على الشاشة قبل بث أي برنامج به مشاهد إثارة حتى ينتبه الآباء ويمنعوا أطفالهم من مشاهدته. المرجع نفسه، نقلا عن جريدة الشبيبة العمانية 1993/7/9 .

14- التليفزيون بين الهدم والبناء ص92

15 ـ الاتصال والرأي العام، ص265.

16- التليفزيون بين الهدم والبناء، ص 144

17- دور وسائل الاتصال ـ مقال ـ مرجع سابق ص15

18- الأطفال والتليفزيون ـ مقال ـ مرجع سابق ص86 نقلاعن جريدة السلام الصادرة في29فيفري1992 ص12.

19- المرجع نفسه ص87 نقلا عن جريدة الخبر الصادرة في03 أوت 1993 ص9

20- التليفزيون بين الهدم والبناء ص191 نقلا عن مقال بمجلة العربي عددنوفمبر1989 حول البرامج الأجنبية في التلفزة العربية

21-الأطفال والتليفزيون ـ مقال ـ مرجع سابق ص84.

22 –تأثير الرسوم المتحركة المستوردة على الطفل القطري ،لولوة راشد ـ مقال ـ منشور في مجلة الطفولة والتنمية العدد:7 مجلد2،خريف 2002 ص63.وهذه الدراسة مستفادة من مقال بعنوان:أثر برامج التليفزيون في السلوك العدواني عند

الأطفال،العبد الله فواز، منشور في"التربية" مجلة اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ،العدد:130،مارس 1997م .
23 –المرجع نفسه ص65.
24– المرجع نفسه ص69 ،ودراسة الباحثة منال أبو الحسن المشار إليها أعلاه والتي استند إليها الأستاذ لولوة راشد والذي أخذنا من بحثه المشار إليه آنفا هذه المعلومات ،طبعتها دار النشر للجامعات بمصر ط1 .
25– المرجع نفسه ص69-70.
26 – الدراسة الميدانية هذه هي عبارة عن محتوى رسالته في الدكتوراه والتي كان عنوانها "أثر البث التليفزيوني الفضائي المباشر على الشباب الجزائري ـ دراسة تحليلية ميدانية ـ " والتي نوقشت في السنة الجامعية 2003/2002 بقسم الدعوة والإعلام بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة .
27 – المرجع نفسه ص209 .
28- الاتصال و الرأي العام ص262 نقلا عن التليفزيون وأثره في حياة أطفالنا:ولبر شرام.جاك ليل أدوين باركر ترجمة:زكريا سيد حسن. وانظر أيضا بث وافد ـ مرجع سابق ـ ص211.
29- دور وسائل الاتصال،مرجع سابق ص17.
30 – مقدمة في دراسة وسائل وأساليب الاتصال،د حمدي حسن ط1987 دار الفكر العربي القاهرة ص154-155.
31 – الاتصال والرأي العام ـ مرجع سابق ـ ص273.
32 – جريدة الخبر اليومية الصادرة بتاريخ 16ديسمبر 2006 الموافق م لـ 25 ذي القعدة 1427هـ ص12 في ركن أحوال الناس، والدراسة الميدانية أجريت بولاية المسيلة شملت عينة تقدرب 455 شخص منهم 291ذكرو 164أنثى.
33– www.pnic.gov.ps
34 – www.islamonline.net
35- وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي المعاصر د:عزت حجاب ـ مقال ـ منشور في المجلة الجزائرية للاتصال العدد9 ربيع 1992م ،ص33.
36 – الاتصال والرأي العام ص278 نقلا عن "تلوث بيئة الطفل تليفزيونيا" لإبراهيم إمام .مقال لمجلة الفن الإذاعي العدد:81أكتوبر 1978م.
37 – بناء الأجيال، د:عبد الكريم بكار ـ سلسلة تصدر عن مجلة البيان بالرياض ـ ط1 1423هـ/2002م ص181
38 – التليفزيون بين الهدم والبناء -مرجع سابق- ص114.
39 – المرجع نفسه ص200.أما البحث الميداني الذي أشار إليه صاحب الكتاب فهو "دراسة عن الفيديو والتحولات الثقافية والقيمية في المجتمع"د:نوال عمر.
40 – العولمة ومستقبل البشرية،أيمن نور الدين عمر ط1 .1421هـ/2000م دار لبنان للطباعة والنشر ص93.
41– تكنولوجيا الاتصال المخاطر والتأثيرات الاجتماعية،د: شريف درويش لبان ط1:شوال1420 هـ/يناير2000م الدار المصرية اللبنانية القاهرة ص123-124 بشيء من الاختصار.
42 – جريدة الخبر ـ مرجع سابق ـ ص12.
43 – التليفزيون بين الهدم والبناء مرجع سابق.
44 – المرجع نفسه .
45 – من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث محمد الغزالي دار الشهاب باتنة ص158.
46 – نفس المرجع السابق والصفحة.
47 – المرجع نفسه ص159.
48 – التليفزيون بين الهدم والبناء ص14.
49– الأطفال والتلفزيون ـ مقال ـ مرجع سابق ص73 -74 نقلا عن التلفيزيون والطفل الإعلامي بالكويت مجلة الإذاعة العربية العدد63 ديسمبر 1974.
50 – المرجع نفسه ص74.
51 – الطفل بين منافع التليفزيون ومضاره، مرجع سابق ص131 نقلا عن"التأثير السلبي غير الموجه على الطفل العربي "يوسف غراب مجلة القافلة العدد 6 المجلد 38 جمادى الآخرة،1410/ديسمبر 1989-يناير 1990.
52 – التلفزيون بين الهدم والبناء ص204.
53 – التوصية الثامنة من اقتراح الدكتور عمر عسوس في مقاله "دور وسائل الإعلام في رفع مستوى الانحراف" ـ مرجع سابق ـ المجلة الجزائرية للاتصال ص25.

النظام التعليمي بين البيداغوجيا والأيديولوجيا

د / سعيد عيادي
جامعـــة البليـــدة

مقدمـــة

في الغالب تواجهنا الكثير من الأسئلة المنهجية والمعرفية عندما نكون بصدد تفحص المضامين التعليمية والوحدات التربوية لتحليل العلاقة المفترضة أو المعلنة فعلا بين مقتضى المكونات البيداغوجية ومتطلبات الاستمداد الأيديولوجي المناسب الذي يحتاج إليه القائمون على ضبط المقومات الفلسفية للنظام التعليمي، خاصة إذا كان ميلنا إلى هذا التحليل العلمي المتخصص هو فقط القيام بهذا الفحص والتشريح باعتماد أرضية علمية وبيداغوجية تستقي أدواتها ومعاينتها للواقع التعليمي في الجزائر انطلاقا من المعطيات التي تشكلت منها كل تجارب الإصلاح التعليمي في العالم.

هذا المسعى دفع بالقائمين على هذه المؤسسة باستلهام طبيعة التفكير الذي ساق المعنيين نحو هذا الإصلاح كما دفع بهم إلى اقتراح تعديلات آو تغييرات أو تحويل جذري للنظام التعليمي من نسق بيداغوجي إلى نسق جديد يتغاير معه بطريقة جذرية، ذلك وعلى عكس رأي **إيفان إيليتش** فإن مساعي إعادة توجيه مضامين النظام التعليمي ليس بالضرورة فشلا معلنا قد يكون ذريعا من قبل المشرفين على إدارته، وقد يكون من وراء ذلك مطالب غير بيداغوجية ولا تعليمية تسعى من خلال ذلك إلى فرض أفكار لتحويل النظام الفكري كلية داخل المجتمع من خلال الاستثمار المباشر في وحدات النظام التعليمي.

البنية المفاهيمية والوسائل التعبيرية في اللغة التعليمية

نجد في هذا الصّدد أن من ضمن هذه المداخل التحليلية تنطلق من أن المسألة الجوهرية في كل ذلك تكمن كما قد تحوم حول طبيعة الصياغات اللغوية والتعبيرية لمجموع المفاهيم المستعملة في مختلف مضامين الوحدات التعليمية والنشاطات التربوية في إطار توثيق الرابطة بين أسس الطرح القائم على البعد الإنساني للتعليم وهو البعد الحاسم الذي يتضمن فلسفة التعليم وتوجيهاته، وبين الوسائل والتقنيات التطبيقية المختارة التي قد تتساوق وقد لا تتساوق مع طبيعة مكونات هذه الفلسفة لكونها تعتبر القاعدة التي تضمن مبدئيا نجاح أو عدم نجاح التجربة التعليمية المقترحة في إطار تعديل أو تغيير النظام التعليمي.

الغرض من كل هذه العمليات المعقدة والمترابطة هو الوصول إلى تحقيق تجانس بين البعدين الفلسفي والتقني لإعطاء وحدات النظام التعليمي شرعية وقابلية للبرمجة والتنفيذ وربط ذلك بطموحات تحقيق النجاح في هذا النظام التعليمي أو ذاك، ويهمنا تناول الوضعية في الواقع التعليمي في الجزائر، ذلك أننا عشنا وشاهدنا تشكيل العديد من لجان الإصلاح التعليمي التي تقوم باقتراح برامج تعليمية جديدة تستثمر في فضاء تغيير النظام التعليمي وتوجيهه وجهات تقدم أو يعبر عنها على أنها أكثر تكيفا مع العصر ومع متطلبات العامل مع التطور التكنولوجي الذي يشهده التعليم في عالمنا المعاصر

على صعيد طبيعة النظام الفكري في أوساط الجماعات التربوية تشير الأيديولوجيا بمعناها البسيط إلى مجموعة من المعتقدات والأفكار المترابطة التي تميز جماعة بعينها، قد تنحصر في فئة من الناس، أو يشترك فيها كثيرون، وإذا كانت الظاهرة الإيديولوجية تعني ظاهرة الاعتقاد العام والفردي ترتبط بنوع من الاعتقاد، فهذا يجعل صاحبه غير قادر على تصور شيء آخر غير ما يعتقد، كما تقوده إلى اتخاذ مواقف عملية نتيجة هذا الاعتقاد للدفاع عن فكره(1).

في هذا الصدد يحدد "**كارل ما نهايم**" ***Karl Mannheim*** للإيديولوجيا معنيين اثنين، فالإيديولوجيا في معناها الجزئي تعبر عن مصالح ومقاصد الفئات الاجتماعية المسيطرة التي تسعى للحفاظ على وضعيتها الاجتماعية كما هي بالنسبة لبقية الفئات الأخرى التي هي دونها، فهي تشير إلى حالة الأنانية المتعالية على الآخرين في تكريس نمط الحياة الاجتماعية بما يخدمها، وهي بذلك ذات طبيعة سيكولوجي خاص.

أما في معناها الكلي فشأنها يتعلق بإرجاع صيغ ومضامين الأفكار والمفاهيم والآراء إلى مرحلة تاريخية خاصة لتقترن بذلك بوجود فئة اجتماعية رسمت الهيمنة تاريخيا، فهي بالتالي ذات معنى بنيوي أو مجتمعي، وهذا المعنى يتضمن نسبة معتبرة من الحياد والتماثل التاريخي يسمح بوصف الأفكار والقيم والتصورات وصفا محايدا وذلك بإرجاعها إلى محدد مجتمعي أو تاريخي(2).

من هنا يتضح لنا ببساطة كبيرة أن الإيديولوجيا هي في المحصلة الكلية مجموعة من الآراء والمفاهيم والأفكار التي يعتبر ارتباطها النسقي الوظيفي بمختلف مصالح وطموحات الفئة الاجتماعية عن وجود نظرة إنسانية بمعالم اجتماعية تفرض هيمنة الموقف الاجتماعي.

هنا تجد مثل هذه الأفكار موقعها فتتدخل لتباشر دورها في توزيع المفاهيم المرتبطة بها على أرضية الاستمداد من بعد التجربة التاريخية ومن مضامين الشروط الحياتية للفئة الاجتماعية التي تحمل المشروع الاجتماعي وتذود عنه لتحتكر الواقع وتشرف عليه، كما تتدخل أيضا بميولات فكرية وفنية وثقافية وإعلامية لتعطي صورة مشتملة عن مشروعها الاجتماعي باعتباره مشروع مجتمع.

من الطبيعي أن نرى في المناهج التعليمية الرسمية قيما ثقافية رسمية تمثل حدود النموذج الفكري الذي يعطي لأفراد المجتمع سمة المواطنة الفكرية والثقافية عن طريق تبني عدد من العمليات التعليمية والتربوية، التي يتم احتضانها وانتظامها سياسيا كما تقوم بدور اللحمة الفكرية بين مختلف الفئات الاجتماعية بحضور أجهزة الدولة المعنية ومؤسساتها، التي تؤدي دور الرعاية السياسية والفكرية في المجتمع وبخاصة على مستوى النظام التعليمي.

على هذا الأساس يسعى كل نظام سياسي إلى تعزيز هيئته الثقافية التاريخية عن طريق تدعيم المؤسسات التي تضطلع بأدوار التربية والتعليم والتنشئة، ولهذا نقف أمام نماذج عديدة من أسس النظام الفكري الذي يؤطر هذه البرامج والاختلاف بين هذه النماذج إنما هو في منحى اختيار التقنيات والوسائل والأدوات التقنية الكفيل بضمان نجاح التجربة التعليمية.

من أجل تحقيق ذلك وضمانه يعمل كل نظام على تسخير الإمكانيات والظروف المؤاتية أمام المؤسسات المعنية بهذا العمل لكسب رهانات التكيف والصراع داخله(3)، ويأتي على رأس فضاء النظام التعليمي كوسيلة لنشر الخطاب الثقافي والحصول على دعم وولاء ومؤازرة الطلاب الذين مع مرور الوقت سيتشربون ويعيدون إنتاج المعطى الإيديولوجي الذي تحمله هذه الخطابات.

إن الميل الفكري التحليلي الأكثر انتشارا في أوساط خبراء التربية والتعليم هو تحديد مضامين ومقتضيات مهمة مواءمة العلاقة بين خصائص المجتمع ومميزاته ومحتويات البرامج والمناهج المعتمدة مؤسساتيا التي سيتعامل معها الطلاب ضمن محور العلاقة بين الطالب والمعرفة العلمية، فهي دون شك مهمة حيوية باعتبارها تتكفل بتحديد شكل العلاقة بين الطلاب في مواقعهم الاجتماعية والثقافية انطلاقا من فضاء المعرفة العلمية.

الطلاب والمتعلمون ومن خلال محور العلاقة هنا، سيتعلمون طرق وأساليب الامتثال للأنماط السلوكية والفكرية والثقافية في مجتمعهم، والسياقات التنظيمية التي يتحركون ضمن أطرها، وقد يبرز لنا أن تحديد هذه العلاقة يخضع من جهته لمبادئ فلسفة التربية الثقافية القائمة في المجتمع، ففي ظلها يتم صياغة وترسيم قوالب ثقافية وفكرية محددة ونموذجية للتربية وللفعل التعليمي التعلمي، ومنها القالب الاجتماعي للفعل السياسي.

الخصائص الثقافية للنظام التعليمي وإرث التطور التاريخي

هنا يرى "**أرنولد أندرسون**" ***Arnold Andersson*** أن الهيكل التربوي لهذا القالب السياسي يعمل على توجيه الطلاب تربويا وتعليميا نحو تبني المبادئ الثقافية والاجتماعية المتعارف عليها في المجتمع والتكيف معها كمحصلة تاريخية للتطور الاجتماعي التاريخي للمجتمع، والتي تصل أحيانا إلى درجة تلقين بعض المنطلقات الإيديولوجية والقيم المشتركة المحددة للهيكل التنظيمي العام(4).

إذا كانت النظم التعليمية على اختلاف توجهاتها وأسسها وخطاباتها الثقافية تتأثر تأثيرا مباشرا بنمط الإيديولوجيا الرسمي السائد في المجتمع، فإن الإيديولوجيا التي ترافق مختلف البرامج والمناهج التربوية هي في كل الأحوال مجموعة من المفاهيم المختارة والأفكار المدرجة والتصورات المتضمنة في التمارين ونشاطات التعلم، التي تتدخل لتحدد نموذج إنسان وثقافة المجتمع وتحديد النمط السلوكي ضمن الاختيارات الضابطة لنموذج المواطن المثالي في قالب مواطنة مسؤولة، وهنا نجد "**محمد منير مرسي**" يميل في تصنيف وضبط توجهات الأنظمة التعليمية المعاصرة بصفة عامة إلى مجموعتين رئيسيتين وهما(5):

ـــ النظم النمطية: تهدف إلى تشكيل نمط موحد من الأفراد لإخضاعهم لمؤثرات تربوية واحدة، وتقوم السلطة الإدارية المركزية فيها بالمسؤولية الكبرى في إدارة وتوجيه التعليم على المستوى المدرسي الوطني.

ـــ النظم التنوعية: هي النظم التي تقوم على أساس تربوي ديمقراطي، وما من دولة في العالم مهما كانت فلسفتها وإيديولوجيتها وطرق تسيير مؤسساتها لا تعتبر نفسها تمثل النمط الأعلى للدولة الديموقراطية، إذ غالبا

ما يهدف خطاب التضخيم والتأكيد إلى طمس الواقع وتجاوزه بطريقة فجة ومهزوزة مع الميل إلى إخفاء الحقيقة، فالديمقراطية الحقيقية هي المبدأ الذي يؤسس ممارسات السلطة وخياراتها الكبرى على أساس اختيار شعبي حر، ويضعها تحت المراقبة المستمرة من قبل الرأي العام.

من خلال كل ذلك فإن الإطار الذي يتحرك فيه النظام التعليمي هو تعبير ثقافي عن تواجد شرعية بين الخيارات السياسية والخصائص الثقافية للمجتمع، وأن ما يتخذ من سياسات واستراتيجيات وتوظيف لمقاصد التعليم وبرامجه قد يجعل منه وسيلة لتحقيق أهداف أحد الطرفين، طرف جعله أداة لإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية والسياسية القائمة من خلال صياغة وبرمجة مناهج تنتج نمط محددا تتقولب فيه صورة الشخصية المتكيفة والمطيعة والمتوافقة مع هذه الخيارات، وذلك لجعله ينسجم ويتسق مع إشارات ورموز وقيم الإيديولوجية النمطية للسلطة السياسية التي تشرف وتدير مصالح ومقاليد الحكم.

هنا قد تتخذ السلطة السياسية في ذلك أساليب الترويض الفكري وتهيئة فضاء نفسي للقبول والإذعان أحيانا ليضمن بذلك أداء ما يعرف بالوظيفة التربوية الثقافية المحافظة على النظام التعليمي، ويقوم في سبيل ذلك بما يراه مناسبا من أنواع المعارف والقيم والسلوكات ومتطلبات التوافق والتفكير، والإشراف على أنواع المقررات والبرامج والتمارين والامتحانات وغيرها مما يدخل في إطار رسمية وإجرائية المناهج المدرسية الرسمية، فضلا على ما يمكن أن يتخذه من مناهج وأساليب محددة وموجهة ومتضمنة في ثنايا سياقات التعلم القائمة في سيرورة العملية التعليمية والمناهج المدرسية.

قد يكون التعليم أداة مفضلة ووحيدة لتحقيق أهداف ومرامي الطرف المضاد، سعيا من وراء ذلك لتحقيق التحرر والإتقان والإبداع في إطار نظام سياسي اجتماعي يرافع ويدافع من أجل تنشيط حركة التطوير المجتمعي، مؤكدا على ضرورة تنمية طاقات الفرد وتكوين الإنسان الواعي بذاته وبما حوله ومن حوله.

في سبيل ذلك لا يتخذ من المعلومات المقررة إلا ما هو مادة حيوية وحاسمة كتنمية العقل الناقد والإرادة الفاعلة، وأن غلبة أحد الطرفين إنما تتوقف على طبيعة الظروف والشروط السياسية والاجتماعية، حيث أن من الخصائص المميزة للنظام التعليمي وعملياته أنه قد يؤدي كلا الوظيفتين في نفس الوقت، وإن كان النظام السياسي وبنيته وتوجهاته هي التي تؤدي إلى تغليب أحدهما على الآخر(6).

الاقتضاء الإيديولوجي للمفاهيم ووحدات المناهج التعليمية

يعكس المفهوم التطبيقي للمناهج التعليمية والدراسية جملة من المقررات المتساوقة ثقافيا وتقنيا وتعليميا وهي تعبر عن كل الوحدات والموضوعات المتتابعة والمترابطة لتحقيق التخرج النموذجي الذي يستجيب لصورة طالب العلم المندمج اجتماعيا، ويتحدد المحتوى الرسمي للمناهج التعليمية والدراسية ضمن إطار الفلسفة التربوية العامة التي تنتظم الأهداف الثقافية والاجتماعية للمجتمع ولسياساته التعليمية والفكرية والاقتصادية والسياسية(7).

إن النظام التعليمي من خلال ما يقوم عليه من مجموعة المواثيق التربوية المقررات التعليمية، يرتبط ارتباطا تبعيا وتمثيليا للنظام السياسي القائم الذي يهيكله ويوجهه، ويتضمن المنهج التعليمي الرسمي الحقائق المعرفية المتصلة اتصالا وثيقا بأدوات الإيديولوجية السائدة، وفي ظل هيمنة النظام السياسي وسيطرته تصبح الأهداف التعليمية للمقررات الدراسية عاملا مساعدا على استمرار الأوضاع القائمة والمحافظة

على النظام القائم سواء كان هذا النظام طبقا لإيديولوجيته من خلال المقررات الدراسية يسعى لإكساب قيم ما، أو يحول دون اكتسابها، أو يعمل على إضعافها[8].

لما كانت القيم وراء السلوك الناجم عن العقل الاجتماعي، وتتضمن اتجاهات إيديولوجية وتعمل على تكييف الذات مع ما حولها، وباعتبار تلك القيم موجهات للاتجاهات الإيديولوجية من ناحية والسلوك الاجتماعي، من ناحية أخرى فإن كل قيمة إنسانية ما هي إلا منتوج اجتماعي نقل وحفظ في تتابع عبر الأجيال في مؤسسة أو أكثر.

لقد أشارت بعض الدراسات التي استهدفت الكشف عما حدث لأنساق القيم من تغييرات أن عزوف الأفراد عن المشاركة السياسية والتطوعية وظهور السلبية واللامبالاة هي نتيجة مباشرة للقهر السياسي وغياب الممارسة الديموقراطية، وقد أرجعت ذلك إلى دور التعليم في تخريج أجيال أكثر تكيفا مع ثقافة ورمزية النظام القائم[9] لأن التعليم هو وسيلة النظام السياسي المفضلة والمتمكن منها لإعداد نموذج المواطن الصالح الذي يمثل المواطنة المثالية[10].

الكتب المدرسية الرسمية ووسائل التوجيه والإقناع

يعتبر **ميشال فوكو** ***Michel Faucault*** أن الكتب المدرسية الرسمية لا يعدو إلا أن تكون منتوجا فكريا وتعليميا سياسيا يمثل طريقة مصاغة وموجهة بإحكام لضبط الرؤية نحو الذوات والمجتمع والأشياء، وذلك بفعل التوظيف النسقي والتقني لوسائل التوجيه والإقناع التي تستعملها السلطة بانتقاء دقيق وصارم والذي قد يصل إلى درجة تثبيت الفرد المتعلم عند مستوى مركز التأثر المفترض لديه وتقليد القيم والضوابط الشخصية، كما يسلط تحليل **ميشال فوكو** الضوء على محتوى ومضامين الكتب المدرسية وتوجيهاتها التربوية.

فقد أظهر تأثيرات خيارات السلطة السياسية ثقافيا وفكريا وتعليميا دورا كبيرا وبارزا في تشكيل بنية وأدوات الممارسة الخطابية بين المعلم والمتعلم والتي تجعل المشاركين فيها ملزمين بالتحدث والتفاعل والتواصل بانسجام وانتظام مع قواعدها التي نادرا ما تكون موضوعا للنقد أو الرفض آو المعارضة [11].

المناهج والمقررات الدراسية كما نعرف تمثل الصورة الإجرائية والتنفيذية للمشروع الفكري العام للتعليم وتعد بذلك الإطار النظري الذي يحيط به ويؤمنه، ولا يمكن الحديث هنا بإسهاب وتفصيل عن مضمون المناهج الدراسية برمتها وأنماطها المتنوعة، لأن المناهج تتضمن الخبرات والمهارات والنشاطات المصاحبة للعملية التعليمية، والتفاعل الذي يحصل بين طرفي عملية التعليم داخل فضاء المدرسة وخارجها أي التلاقي بين المعرفي والاجتماعي على صعيد التفاعل والتقبل، وكذا الوسائل التدريسية وغيرها.

إلا أن مضمون المقررات الدراسية يتجلى فيها الموقف الإيديولوجي بجانبه الثقافي والسلوكي والوجداني بوضوح تام، خاصة مقررات الدراسات الاجتماعية والإنسانية كالمواد الاجتماعية والتربية الوطنية أو المدنية لأنها وعاء إيديولوجي لمجمل الأفكار والتوجهات السياسية والاجتماعية للنظام السياسي.

ففي دراسة لتحليل مضمون الكتب المدرسية في مصر وسوريا والأردن، قامت بها الباحثة "**نادية حسن سالم**" وكذلك الباحثة **نجلاء نصير بشور** بدراسة تحليلية موسعة تحت عنوان "التنشئة السياسية للطفل العربي" وكان من نتائج الدراسة التي تمّ التوصّل إليها هي أن المقررات الدراسية تؤكد على أن هناك نزعة لتكوين الطالب العربي بعيدا عن دفعه وتهيئته لتحمل المسؤولية والمبادرة والحراك والتواصل الاجتماعي والمشاركة في فهم وإدارة قضايا المجتمع المختلفة بما يضمن للطالب من تحقيق الفهم المتعلق بظروف وشروط الاستقرار السياسي للنظام السياسي وللمجتمع.

كما تظهر نتائج هذه الدراسة أن هناك ارتباطا قويا بين مكونات ومضامين الإيديولوجيا الفكرية والسياسية السائدة ومضمون المواد الدراسية المبرمجة بشكل رسمي على مدار السنة، فإعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي في بعض البلدان العربية وما تبعها من إجراءات إطلاق حرية العمل والنشاط السياسي والنقابي والسماح بإنشاء الأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدني، مثل الإطار الفكري الذي تم في ضوئه تعديل المناهج الدراسية في مصر، وعلى رأس ذلك مناهج وبرامج المواد الاجتماعية، فبعد توقيع اتفاقية **كامب ديفيد *Camp David*** لم يعد هناك ذكر للصراع العربي الإسرائيلي في البرامج التعليمية والمدرسية المصرية(12).

تبرز المقاربة السوسيو ـــ معرفية لبنية الثقافة السياسية وإطارها التعليمي أو المعرفة العلمية المدرسية التي تتضمنها المناهج الدراسية، أن هذه الثقافة ما تزال في مجمل أسسها ومضامينها المعرفية وأبعادها الاجتماعية الإيديولوجية تحمل إرث النظام السياسي في بعده التاريخي وتقوم في نفس السياق بتكريس مواقف واتجاهات وأنماط للسلوك كنموذج للمواطنة المثالية المرمّزة بكثير من القيم والتصورات والتمثلات والرؤى الفكرية والسياسية والدينية العالم وللتاريخ وللآخر وللمجتمع...

يحصل ذلك تماما مثل صورة المرأة والطفل والسلطة والحاكم والغني والفقير والهيكل الطبقي للتفاوت الاجتماعي والحق والواجب والمواطن الصالح والطاعة والتمرد، مما يعد منافيا ومتناقضا في الكثير من مدلولاته الظاهرية أو الضمنية لمقتضيات ومضامين التربية على المواطنة والحق والواجب وعلى الديمقراطية في بعدها الثقافي العام(13)، ويدعم "**على أسعد وطفة**" هذه المآخذ بقوله: "إن عيوب مناهجنا التربوية تكمن في كونها منتجة لقيم الرضوخ والانصياع والاستسلام والسكينة والطاعة والاستكانة بالدرجة الأولى، وهذه المضامين ممنهجة لترويض الأجيال على الولاء والطاعة" (14).

تعد المدرسة الموضع المناسب لممارسة النقد العلمي الموجّه، لأنها في نظر الباحثين والدارسين ساهمت في إعادة توليد وتفعيل دوائر تواصلية لعلاقات القوة الراهنة، كما تعتبر من الناحية المادية سياقا تندرج فيه عملية إعادة الإنتاج الفكري والاجتماعي والسياسي لمختلف الفئات والأفراد، وهناك من رأى فيها الحلقة الأولى والأساسية في خلق سلوك نمطي يكرّس في الأنفس الخضوع وتعمل على تشكيل صورة مواطن يسهل التحكم والتأثير فيه.

يحصل ذلك لأنه تشرّب في المدرسة كيفيات القبول والإذعان على حساب هويته الفكرية، ويعد الرّاهب النمساوي وعالم الاجتماع "**إيفان أليتش**" ***Ivan Illich*** أبرز من طرح وتبنى هذا الرأي، ففي تقديره يشير إلى أن المناهج الدراسية ليست سوى بضاعة استهلاكية جاهزة ومعدة على نفس مقاسات البضائع الأخرى، فالقاعدة الأساسية في المدارس حسب **إيفان إيليتش** هي "التعليم من أجل التعليم"، إلا أننا لا نجد في المدارس الشروط الضرورية لتشجيع التجريب الحر للمعارف والاكتشاف الشخصي(15).

بيير بورديو والعنف المدرسي الرمزي

هنا يرى الثنائي الفرنسي "**بيير بورديو وجان جاك باسرون**" ***Bourdieu & Passeron*** بأن أية ظاهرة تعليمية لا يمكن أن تعطى معناها الكامل والصحيح ما لم يحدد موقعها الدقيق ضمن الوظيفة الاجتماعية لنظام التعليم في صلته بالعلاقات الاجتماعية.

يرفض **بيير بورديو** مفهوم إعادة الإنتاج الثقافة والفئة والمجتمع وفق رؤية **إميل دوركايم** وهو الذي كان يربطها في غالب تحليلاته بالاستجابة للتحولات والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحادثة في المجتمع(16)، وهو يعطي **للعنف الرمزي** أهمية في كبيرة وبارزة تحليله لطبيعة السلطة السياسية ومشروعها الثقافي التربوي ويظهر هذا المعنى في المؤسسة التعليمية، من خلال الدور الذي يقوم النظام المدرسي به، من ناحية الاقتناع والقبول الوجداني والفكري ببديهيات مبادئ الفلسفة التي قام عليها النظام السياسي.

هناك أهمية تقدير عامل إقامة الرابط النفسي التي يربط المتعلمين بنطاق علاقة تفاعل بمكونات السلطة السياسية وتكريسها في نفوسهم كعلاقة طبيعية من وجهة نظر المواطنة المثالية، وهي مضمنة بصورة أكثر عمقا في جميع مكونات وضوابط النظام المدرسي ومن خلال أدوات الفعل البيداغوجي وكذا من خلال سلطة المعلمين والمدرسين القائمين على فرض احترام نمطية المناهج التعليمية، هذا التسلسل كله يجعل المؤسسة التعليمية تكتسي طابع وصورة الشرعية التاريخية عبر الكثير من الوظائف الاجتماعية الظاهرة في شبكة العلاقة بين مختلف فعاليات فضاء المدرسة، وتحظى في النهاية بالقبول والحصانة كنمط إيجابي واستثنائي من العلاقة العقلانية المحايدة، لكنها في الواقع تمارس العنف الرمزي على حد تعبير **بيير بورديو**(17).

المعرفة العلمية وبناء السلطة المدرسية

تمثل المدرسة في إطارها المؤسساتي والنظامي وسطا معرفيا متميزا يمثل قاعدة التوجيه الفكري والسلوكي للمتعلمين والطلاب كما تشكل وتتشكل في هيئة بنية اجتماعية تتفاعل فيها قوى معرفية وفكرية واجتماعية عديدة لتخلق بذلك وسطا ثقافيا له قيمه وتقاليده وأهدافه وفلسفته التربوية عبر مجموعة المبادئ المعلن عنها كميثاق أخلاقي للمؤسسة.

المبادئ التي صيغت في أولها ووفق مقاصدها ومبررات وجودها وفاعليتها وتمت هيكلتها لتتكيف مع معطى الثقافة التعليمية من جهة وتتفق مع ثقافة وأهداف وفلسفة المجتمع المبرز لسمات هوية الانتماء والاندماج التي هي جزء أساسي منه تتفاعل فيه ومعه، وتؤثر فيه وتتأثر بما فيه، بهدف تحقيق أهدافه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

كلما كبر الطالب في مدرسته وتراكمت معارفه ومعلوماته وازدادت خبراته كلما تتملكه الرغبة أكثر وأكثر في السعي والمحاولة للدخول في دائرة الاشتراك في المسؤولية المدرسية وإبداء مزيد من التوافق، وإذا كان على المتعلمين والطلاب أن يطوروا تفكيرهم وطريقة تعاملهم وتحقيق انضباط ذاتي متناغم مع مبادئ فلسفة المجتمع، ولا يكون هذا الانضباط انضباطا آتيا من خارج دائرة التفاعل من الخارج.

إن ذلك يقتضي أن يحصلوا على خبرة تعلمية ثمينة في كيفيات تسيير أساليب المطارحة والمناقشة والحوار التي تتصل مباشرة بمبادئ الديمقراطية تتوافق مع فلسفة المجتمع، فيتعلم المتعلمون والطلاب من خلال تمكنهم من المشاركة في المسؤولية المدرسية مهارات تسيير وقيادة وإشراف ومتابعة وتقييم وتقدير، وامتلاك مفهوم سليم عن السلطة وكيفية إدارتها لصالح الجماعة، والتي تساعد المتعلم والمتحدث الماهر على تغيير نغمة واتجاه مضمون وسياق مناقشة معينة، وطلب إثراء محتوى الدروس الحقيقية للحياة تلك التي تعلم في المدرسة والتي يتمثلها التلاميذ من خلال المشاركة والعمل في المجتمع والمدرسة، وحتى الإحاطات التي يقابلها الكثير منهم في اتخاذ القرار في المدرسة سيكون لها بالتأكيد مثيلاتها في المجتمع الكبير عندما يصبحون أعضاء فيه(18).

إن الدراسات السوسيولوجية التحليلية التي قام بها الثنائي "**بيير بورديو**" و"**جان جاك باسرون**" حول البيئة المدرسية تؤكد أن النظام التعليمي يخدم الاتجاه الاجتماعي المحافظ تحت مظاهر الحياة والموضوعية ولا يحصل نقل الإيديولوجيا بطريقة مباشرة ولكن بترسيخ تصورات لا واعية من العقل الذي يهيئ للتحرك باتجاه الإيديولوجيات، ويضيفان أن المدرسة لا تعلم لغة، وإنما تعلم قواعد مولدة لسلوكيات سياسية(19).

التربية من أجل الحرية في مواجهة التعليم من أجل التعليم

يدعم "**باولو فريري**" ***Paulo Frerre*** هذه الفكرة حيث يؤكد أن ليس هناك تعليم بدون غايات ولا أهداف، وإنما هناك تعليم من أجل التعلم أو تعليم من أجل تكريس القيم السياسية والثقافية، غير أن أوضاع التعليم حسب رأيه تدعم جانب التعلم، وتكوين ثقافة الموافقة والقبول والانسياب والسير وراء إرادات السلطة دون تحري ولا نقد.

هناك أحيانا توجه سياسي قد يتجاوز إطار الثقافة الديمقراطية، حتى فيما يتعلق بالارتباط الأخلاقي والسلوكي بين عالم المدرسة المقنن وعالم الطلاب أو المتعلمين، من خلال ما تتضمنه المناهج الدراسية من أساليب منمطة للجزاء، وفي اقتصار العملية التعليمية على التلقين والمعرفة النهائية المقدمة من المعلم دون الاهتمام بعملية التعلم الذاتي(20).

لعل من أهم الأمور التي يجب الإشارة إليها هنا، هو أن عملية صناعة وإدارة مضامين العمل التربوي في المدرسة لا يزال يخضع لتحيزات في الضبط والتقدير، ما يفتح بابا للإهمال أثناء التطبيق، والتضييق هكذا الحرية الفكرية المتاح أمام المعلمين داخل قاعات الدراسة وخارجها وتبقى دائما تحت التهميش ضيقة ومحدودة الفعل والتأثير.

المعلمون يصيرون من ثمة مجرد منفذين لتوجيهات وتعليمات وبرامج لم يشاركوا في تحديد مضامين صياغتها لكونها قد حددت سلفا من قبل جهاز إداري غير قريب منهم، ومن ثم يتحولون إلى قنوات إنسانية وليس بيداغوجية لتوصيل مضامين هذه التوجيهات والتعليمات إلى طلابهم.

إذا أضفنا إلى هذا الواقع الإداري المدرسي ما يتعلق بالمناخ الاجتماعي والنفسي الذي يعمل فيه هؤلاء المعلمون، فإننا نجد الطلاب والمتعلمين بدورهم يتأثرون لطابع الضغط المفروض على الفضاء المدرسي عموما، ففي مثل هذا المناخ تتضاعف معاناتهم النفسية والاجتماعية تجاه أنفسهم وتجاه معلميهم، ومثل هذه الوضعيات ستؤثر حتما في مستوى التعلم والتحصيل.

من هنا فإنهم يدخلون في حلقة مفرغة من المعاناة النفسية الاجتماعية بعامل إنساني، ويدخلون كذلك في معاناة بيداغوجية تربوية تدفع بهم نحو الرسوب أو التسرب بعامل تأثير نفسي نظامي، وهذه الحالة المتأزمة هي الحلقة المفقودة في فهم مآسي الأنظمة التعليمية المعاصرة وعدم قدرة الطلاب على مواكبتها والسير في رحابها الضاغط، ما يلزم بمعاودة إجراء فحص دقيق للوضعية.

إنهم في مواجهة دائمة مع واقع مدرسي ووضعية تعليمية تتجاوزهم، كلاهما في وضعية متشابهة المعلم والمتعلم، وهنا يستدعي الأمر الالتفات إلى المعلم أولا وإعطائه ما يستحقه من الاحترام وشعوره ذاتيته وحريته في ابتداع رؤى خاصة في تعليم طلابه(21).

هناك جانب آخر يساهم بشكل غير مباشر في تمكين حالة الضغط التي تفرضها التعليمات والإجراءات التي يتم إملائها عن بعد في العملية التعليمية، وهذا الجانب يتحقق بتوفر تطوير فاعلية إرادة الفصل الدراسي وتنظيمه، وطريقة توزيع الطلاب، فالاكتظاظ داخل قاعات الدراسة يحول حتما دون تحقيق إدارة فاعلة للعملية التعليمية.

من غير الممكن أن تقوم هذه العملية على مشاركة الطلاب فيما يتعلمون، وانخراطهم في العملية التعليمية، بشكل فاعل وإيجابي وحتى في وجود المعلم المقتنع بأهمية فتح أبواب المناقشة الحرة ومشاركة المتعلمين وفعاليتهم، يصبح تطبيق ما يؤمن به في الواقع من المستحيلات، بسبب العدد الكبير من الطلاب في التنظيم الصفي، حيث أن الوقت لا يكفي لإعطاء الفرصة لكل طالب ومتعلم في المشاركة، وهذا يرجع بالأساس إلى كثافة المنهج والضغط الزمني للبرنامج.

يرى المفكر البرازيلي" باولو فريري" أن كل ما يتعرض له المتعلم في المدرسة من خبرات له أبعاد ونتائج فكرية ومعرفية على احتكاك كبير بالثقافة السياسية للمدرسة وهذه الوجهة ما انفكت تتدعم سنة بعد أخرى على اختلاف أطوار مراحل التعليم، وهي بذلك تهدف إلى ترسيخ ثقافة سياسية رسمية بمبادئ فلسفية تربوية، تسعى لتحقيق الانسجام والتكيف مع المسلمات والقيم المعرفية والسلوكية التي تنشدها السلطة السياسية من وراء بناء الخبرات التعليمية.

الإصلاح التعليمي وإصلاح تقنيات التدريس

مثل هذا التلقين الثقافي والفكري الموجه للطلاب والمتعلمين يعمل على تشكيل مكونات إضافية تسمح لهم بامتلاك المزيد من قيم الانتماء والاندماج وهو ما يجعل كل واحد منهم يشعر نفسه كإنسان فاعل له دور ومكانة وبإمكانه أن يساهم في إنجاز هذا التغيير، كما يرى نفسه قادرا على تجديد المعرفة العلمية من خلال التعبئة الثقافية وتسجيل حضوره في تطوير وظائف الحياة الاجتماعية في المجتمع.

يضيف من جهة أخرى أن هذه المفاضلة الموجودة بين الأنماط والقيم والنظم تعكس في التعليم التقليدي دور وتأثير العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في بنية المؤسسة المجتمعية، خارج نطاق التعليم، أي على مستوى الدوائر الفكرية والثقافية في منظمات المجتمع المدني، وهي في المدرسة كما في المجتمع تقوم على مفهوم سيادة مبادئ فلسفة السلطة السياسية، وفرض ثقافتها وفي المدرسة تتأسس وتطبق مبادئ الفلسفة السياسية للسلطة في مضمون ما يتعلمه الطلاب، وفي الطريقة التي يتعلم بها هؤلاء أفكارهم وأشياءهم.

المعلم بالتالي هو مصدر المعرفة الرئيسي ضمن هذه العلاقة الرسمية، وعلى الطلاب الاستمداد منه لأنه الوحيد من يعطي لتعلمهم شرعية وحظوة علمية وتربوية، فليست لديهم من دونه مصادر رسمية للتعلم وللحصول على المعرفة، ولذلك قلنا إن المعاناة بينهما مشتركة، فهو الذي يتكلم باعتباره حكيما وهم يسمعون لأنهم يبحثون عن الحكمة، فهم الموضوع وهو الذات الفاعلة.

عليهم أن يجتازوا الامتحان بنجاح ليثبتوا الولاء المعرفي للحكمة[22]، وهنا ضمن هذه العلاقة المتعامدة يتميز العمل الثقافي للعملية التعليمية بدور الإقناعي والتوجيهي الحاسم من أجل تحويل الحوار إلى فضاء نحد فيه من لوعة المعاناة، وحيث أنه هو صاحب الحكمة فإن أهم أهدافه هو توعية الطلاب نحو السير إلى مواقع متقدمة.

اتجاهان فكريان من أجل مواطنة نبيلة

هناك في ذلك اتجاهان فكريان يعتمدان لتوجيه العمل التربوي الإقناعي، الأول يتعلق بطرح المشاكل التعلمية والتربوية في الوقت الذي يطرح فيه الثاني الشعارات، أي كيفية الإيصال بالتشريب إلى الهدف المسطر والمتعلق بالمواطنة المثالية[23]، ومن ثم فإن موقف المعلم في اختيار أدوات التدريس المناسبة للوصول إلى الغاية سواء في قاعة الدراسة أو في الفضاءات الأخرى.

يمثل على هذا النحو موقف تأطير وتنظيم لتكريس التوافق بين الموقف التعلمي ومبادئ الفلسفة السياسية للسلطة، مما قد يتناقض مع نظرة المعلم إلى نفسه ضمن هذه المعادلة وتقييم ما يملكون من معارف حقا وإبراز حقهم في المشاركة الفاعلة في عملية التعليم والتعلم.

لا يعني ذلك أن يفقد المعلم إنسانيته وحريته كصاحب خبرة ومعرفة ولكن في الوقت ذاته لا يحق له أن يتحول عن مهامه الأساسية ويجردهم من خبراتهم النفسية، ومن حق الطلاب التربوي والانساني في المشاركة وبناء بنك معلوماتهم، والتمكن من إدراك أن المعرفة قابلة للشك والنقد والمراجعة والتجديد.

إننا إذا ألقينا نظرة على واقع ما يقدمه الرأي المعارض في مستويات الصياغة والتوجيه لأساسات انظام التعليمي، فسوف نجد أن من أبرز النقاط السوداء التي تسيطر على دور المعلمين في المدرسة، هو تصورهم الخاص والشخصي عن نموذج **الطالب المثالي**، الذي سيصير **المواطن المثالي** ويحقق صورة **المواطنة النبيلة**، هو ذلك الطالب الذي يبدي اهتماما بالدراسة وتفرغا لها وتقبلا لما فيها ولا يمارس حقه في النقد والمراجعة.

هو الذي يبدي الطاعة النفسية والوجدانية لما يعطى له من قبل معلميه، وهو أيضا الطالب المهذب الذي لا يكون وراء مشاكل بيداغوجية ولا تعليمية ولا يتورط في مشكلات أخلاقية وسلوكية مع الآخرين، وهو الطالب الذي يحافظ على النظام العام للمدرسة، وهنا تستطيع المدرسة أن تتساهل وضع الضوابط والتشدد فيها فيما يتعلق بموضوع المنافسة والنتائج والتفوق المدرسي، على أساس أن الفروقات الفردية والقدرات العقلية هي عامل فردي ذاتي لا دخل للبرنامج ولا للمعلم فيها، حيث تميل إدارة المدرسة إلى التساهل في المواصفات العقلية والنقدية الأخرى للطالب المثالي[24].

هذا التصور القبلي والمسبق عن نموذج وصورة الشخصية المثالية للطالب وبهذا النسق والتقدير، لا تتناسب في نظرنا مع مبادئ التربية وقواعدها ولا على السلوك الديمقراطي، الذي من أهم مبادئه أن يمتلك الطالب المبادرة والقدرة على أن يفكر بنفسه لصالحه ولصالح المجتمع والذي يكون قادرا على المواجهة الإيجابية لمشاكل الحياة المتغيرة من حوله، فالمدارس ببرامجها وانضباطها وهياكلها الإدارية تمثل أو قد تكون عندئذ بمثابة سجن رهيب، من خلال سعيها لخلق النظام وفرضه والتصميم على عقاب من يخالف ضوابطه، عن طريق تكثيف المراقبة المستمرة وترسيم سلطة العقاب الرمزية والمعنوية والبدنية[25].

التحول الديمقراطي والتحول التربوي – البيداغوجي

لم تكن عملية التحول الديمقراطي التي عرفتها ومرت بها الجزائر منذ إقرار دستور فيفري 1989م عملية سهلة أو يسيرة من حيث الربط بين المقتضى الديمقراطي بهوية سياسية والمقتضى التعليمي بهوية بيداغوجية، وإنما حصل كل ذلك وتطوّر من خلال انتقال الجزائر من نظام حكم سياسي في ظل نظام مركزي يتحرك

في دواليب الحزب الواحد، ويقوم على شكل نظام الحكم الواحد إلى نظام سياسي يقوم على التعددية الحزبية والنقابية والمدنية، حيث يواجه السعي إلى التحول الديمقراطي الكثير من العقبات والمعوقات التي أثرت بشكل مباشر في مجمل عملية التحول الديمقراطي وجعلتها في كثير من الأحيان أمام امتحانات عسيرة لا سيما وأن تعارض المصالح بدا واضحا فيها بين فريقين، أحدهما مؤيد لإجراء الإصلاحات السياسية والاقتصادية كنقطة انطلاق في التحول الديمقراطي، والآخر معارض للاستمرار بتلك الإصلاحات جملة وتفصيلا، ويرمي إلى المحافظة على أدائية الهياكل السياسية والاقتصادية التي انتهجتها الجزائر منذ استقلالها.

في هذا الإطار يقول "**نور الدين بوكروح**" : أن رغبة التغيير ظهرت في الجزائر على نطاق واسع منذ نهاية عقد السبعينيات لكن في أواخر الثمانينيات أصبحت ملحة، وغير ممكن مقاومتها وقبلت على مضض بإصلاحات مؤسساتية محدودة، تتمثل في الترخيص بالتعددية الحزبية بدل الحزب الواحد، لأنها لم تكن ترغب في التخلي عن الحكم، ولا قابلة بمبدأ مشاركتها في القرار(26).

فمع انتخاب الشاذلي بن جديد للمرة الثانية رئيسا سنة 1984 ظهرت رغبة نحو التوجه في إعادة توجيه نظام الحكم من خلال تغيير نمط تسيير الاقتصاد الجزائري وهذا بالتوجه التدريجي نحو اقتصاد السوق، فلم تكتسب المطالبة بالديمقراطية على العموم البعد الشعبي، وإنما جاءت متزامنة مع الهجوم الشامل في صالح تحرير "قوى السوق" وترافقت مع إعادة الاعتبار للأطروحات الإيديولوجية القائلة بالتفوق المطلق للملكية الخاصة، ويبدو كأنه بديهي، اعتبار الديمقراطية نتاجا ضروريا وطبيعيا للخضوع لعقلانية السوق المعولمة(27).

إلا أن بعض الشخصيات الفاعلة في الحزب والدولة ذات التوجه الاشتراكي واليساري لم يرضها هذا الخيار وعملت على عرقلته، فظهر على الساحة الجزائرية آنذاك قطبان رئيسيان، قطب يتشكل من مؤيدي السياسة الليبرالية من أنصار الرئيس الشاذلي بن جديد، وقطب متشكل من فريق المحافظين المعارضين للإصلاحات ويمثلون أنصار النهج الاشتراكي(28)، وكان موقف الاتحاد العام للعمال الجزائريين واضحا في معارضته للإصلاحات، حيث أن ممثلي العمال الجزائريين المركزيين لن يقبلوا بأي مساس بمكتسبات الثورة الاشتراكية ولا بالاستقلال السياسي، ولا بالاستقلال الاقتصادي للبلاد(29).

في هذا التحول من التغيير والتجاذب السياسي والنقابي، برزت أفكار عديدة تنادي بالإسراع في صياغة نظام تربوي جديد، وعليه فقد تمخضت الحركة السياسية الجديدة عن ميلاد نزعة إصلاحية تربوية وتعليمية، قامت بإصلاحات 1989م الشهيرة، والتي حاولت قوى سياسية وفكرية من خلالها، إعطاء ملامح لهوية وطنية جديدة، ارتسمت معالمها مع دستور 1989م، ولكن طبيعة الظرف السياسي المعقد الذي عرفته الجزائر، سينعكس بثقله على مجالات التربية والتعليم، حيث سيشهد القطاع بدوره إلى تجاذبات حول جدوى الإصلاحات المقترحة، إذ وعلى غرار ما كان يجري في الساحة السياسية، هو من سار في خط الإصلاحات وطالب بالتغيير وهنا من عارضها مؤكدا أن القطاع بخير ولا يجوز المساس به.

ببيليوغرافيا

(1) أحمد عبد العظيم السيد: الجدل التربوي والموقف السياسي، مجلة مواقف تربوية، العدد 18، السنة 08، بيروت 2007، ص ص 13 - 18

(2): شبل بدران: مناهج التربية والنظام السياسي، الشركة العربية المتحدة للنشر والوزيع، بيروت، 1996، ص71

(3): ميريل كيرتي: التربية والصراع الاجتماعي، ترجمة يوسف حنا مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة 1977، ص 4.

(4) .Anderson (Arnold) : Le contexte social de la planification de l'éducation, IIPR, paris, 1968, p36.
(5): محمد منير مرسي: المرجع في التربية المقارنة، عالم الكتب، القاهرة، 1999، ص 78.
(6): شبل بدران: التربية والنظام السياسي، مرجع سابق، ،ص 15.
(7): نادية عمر الجولاني: علم الاجتماع التربوي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1997، ص 70.
(8): لطيفة إبراهيم خضر، فكرة المواطنة والتغيير السياسي في الوطن العربي، مؤسسة الزهراء للكتاب، بغداد، 1998،، ص ص 132،
(9): فادية عمر الجولاني، مرجع سابق، ص 119.
(10): محمد بوبكري: التربية والحرية ، مؤسسة إفريقيا الشرق للإعلام والثقافة ، بيروت، 1997، ص 103.
(11) وليد عبد الغفور السقا: مبادئ فلسفة التربية والتعليم، المؤسسة الجامعية للكتاب، القاهرة، 2003، ص 77.
(12): شبل بدران: التربية والنظام السياسي، مرجع سابق، ص 275.
(13): مصطفى محسن: التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص 37.
(14): محمد الراشد، التربية والنظام الفكري العربي، دار اليازوري، عمان، 2005، ، ص 115.
(15) - سعيد إسماعيل علي: الأصول السياسية للتربية، مرصد الفكري العربي، عمان، 2001، ص ص 297-298.
(16) De Queiroz (Jean – Manuel), l'école et ses sociologies. Ed, NATHAN, paris, 2001, p40.
(17) - سعيد إسماعيل علي: الأصول السياسية للتربية، مرجع سابق، ص 170.
(18): نفس المرجع، ص 171.
(19): وليد عبد الغفور السقا ، مرجع سابق، ص 190.
(20): سعيد إسماعيل علي: الأصول السياسية للتربية، مرجع سابق، ص 174.
(21) عبد الناصر منير صفدي: الإدارة المدرسية و النظم التربوية المعاصرة، دار الآداب، بيوت، 1993، ص 128.
(22):وليد عبد الغفور السقا ، ،مرجع سابق ، ص 110.
(23): باولو فريري: العمل الثقافي من أجل الحرية، ترجمة: خليفة العزابي، المركز العالمي للدراسات والأبحاث، طرابلس، ط1، 1992، ص 92.
(24): سعيد اسماعيل علي: الأصول السياسية للتربية ، مرجع سابق، ص 309.
(25) De Queiroz (Jean Manuel), op.Cit. p 41.
(26): نورالدين بوكروح: الجزائر بين السيئ والأسوء، ترجمة: نورة بوزيدة، دار القصبة للنشر، الجزائر،2000، ص 21.
(27) - سمير أمين: إمبراطورية الفوضى، ترجمة: سناء أبو شقرا،دار الفارابي ، بيروت،2003، ص.95.
(28) - حوار مع أحمد طالب الإبراهيمي ،جريدة الصحوة ، الجزائر ، العدد 55،جوان 1992.
(29)- Ramonet (Ignacio), L'Algérie sous le choc, le monde diplomatique , N°416, novembre 1988, p12.

الهـــوية المغاربية وتحدي العـــولمة... بين النفـــي والتأكيد

د / يوسف قاسمي
جامعـــة قـــالمـــة

ملخص

تأتي هذه الورقة البحثية، كمحاولة لقراءة عناصر الهوية المغاربية وأسباب الأزمة التي حاقت بها، وتأثيراتها السلبية على الهوية العربية الموحدة. كما تتوخى الإسهام الفكري المنهجي في سياق تحليلي هدفه إثراء النقاش والحوار حول هذه العناصر؛ بهدف إعادة اللحمة التي تجمعها، وإحداث الفاعلية المطلوبة في مقومات الهوية المغاربية. باعتبارها جزء لا يتجزأ من الهوية العربية الإسلامية التاريخية والثقافية، ومصيرها الواحد المشترك... ومن ثم الدفع بها كي تؤدي دورها الايجابي بنجاح، في كنف فضاء مفتوح على حرية الرأي والرأي المعارض البناء؛ كطريق أوحد لإنضاج الوعي ورسم معالم المستقبل الواعد لامتنا.

Résumé

Ce document, comme une tentative de lire les éléments de l'identité du Maghreb et les causes de la crise qui les a assailli, et leurs effets négatifs sur la norme identité arabe. prévoit également l'entrée systématique intellectuelle dans le contexte de l'AIM d'analyse pour enrichir le débat et le dialogue sur ces éléments; pour recoller qu'il recueille, et pour rendre effectives les éléments requis de l'identité dans le Maghreb. En tantque partie intégrante de l'identité arabe de l'islam historique et culturel de l'homme, un destin commun ... Et puis la pousser à jouer son rôle positif de succès, dans une atmosphère de l'espace ouvert sur la liberté d'opinion et de s'opposer à la construction vue, comme un moyen de s'unir la prise de conscience de maturation et de façonner l'avenir de la promesse de notre pays.

مقدمـــة

إن الذات العربية عامة و المغاربية خاصة – بكل مكوناتها الحضارية، الثقافية، التاريخية، والجغرافية الموحدة – تواجه أزمة حادة وعميقة لإثبات الأصالة الاجتماعية والتاريخية، التي تكسبها التجانس والانسجام المطلوبين، وتأكيد العمق الثقافي المشترك فيها... في عالمنا اليوم. حيث وبعد التخلص من الدورة الاستعمارية التقليدية الطويلة والعنيفة؛ التي عملت على سلب وعينا التاريخي بذاتنا، وتمزيق أواصر التواصل الجماعي بين أمتنا بالأمس، بهدف إسقاط انتمائنا الوطني والقومي معناه و وظيفيته، كما تشتيت الجهد المشترك لشعوبنا في المقاومة والتنمية. وحتى لا يبقى من عنوان نجتمع عليه غير: ذاكرة مقطوعة، ودورات للقطيعة والعنف المتجدد؛ حيث تغذي سلبيته واستمرار يته دوائر الاستعمار الجديد في تجلياته المتجددة وفي إطار عنوانه الأبرز اليوم؛ وهو العولمة بأبعادها المختلفة: اقتصادية، ثقافية، إعلامية، وتكنولوجية.... وغيرها.

للأسف فان جل النخب المغاربية والعربية معا، وخاصة الرسمية منها؛ لم تحسن إدارة الاستقلالات الوطنية، وربطها بأطرها القومية والحضارية الجامعة بجدية وموضوعية كافية؛ هذا ما جعل أركان بنية الهوية العربية تتعرض

للارتباك وحالات من التآكل والتراجع في حياة الشعوب، حتى أوشكت على السقوط والانهيار. وكان لذلك المشهد الدراماتيكي أن مثل انعكاسا واضحا لواقع الإخفاق والانتكاسة الذي أصاب مشاريع الوحدة السياسية العربية و المغاربية على مدى أكثر من نصف قرن ولا تزال.

في هذا المناخ المسموم وغير الصحي تسللت شعارات التحديث الغربية إلى بيئتنا العربية، في محاولة استعمارية جديد –مسنودة محليا من بعض العناصر والقوى المتغربة– لفرض هوية جديدة مخالفة لروح الأمة وشخصيتها؛ قوامها تحريك عناصر التجزئة العرقية، واختلاف اللسان، وتضخيم الثقافة الفلكلورية الشعبية المحلية... الخ. في مخطط مبرمج هدفه قطع أواصر القربى والتكامل بين قيم الوحدة في أمتنا، وربط المجتمع العربي برمته بمنظومة المجتمع والثقافة الأوروبية. ناهيك عن السعي إلى إقناع الأجيال الجديدة بمزايا الارتباط بها، وإظهار ثقافة الانفتاح – غير المنضبط – على الغرب؛ بكونها جوهر التقدم ومقومه الأول: لغة، فكرا، وسلوكا.

غير أن يقظة الخيرين والعناصر الفاعلة في شعبنا العربي، وتصديها الحازم لهذه المشاريع المشبوهة حال دون نجاحها في بلوغ أهدافها ومراميها؛ خاصة ما تعلق منها بسياسات الإحياء غير الموضوعي لعناصر التقسيم الاجتماعي والثقافي في الأمة. وكذلك إبطال مفعول التوطين للهوية الاستعمارية الجديدة؛ تلك التي تصل حبلها السري بمشيمة الثقافة الغربية الغازية، وترتبط بعناصر التغذية للاستعمار الجديد ومشاريعه المتعلقة بالحنين إلى ماضيه القريب في منطقتنا العربية.

ضمن هذا السياق تأتي هذه الورقة البحثية، في محاولة لقراءة عناصر الهوية المغاربية وأسباب الأزمة التي حاقت بها، وتأثيراتها السلبية على الهوية العربية الموحدة. كما تتوخى الإسهام الفكري المنهجي في سياق تحليلي هدفه إثراء النقاش والحوار حول هذه العناصر؛ بهدف إعادة اللحمة التي تجمعها، وإحداث الفاعلية المطلوبة في مقومات الهوية المغاربية، باعتبارها جزء لا يتجزأ من الهوية العربية الإسلامية التاريخية والثقافية، ومصيرها الواحد المشترك... ولتمكينها من أن تؤدي دورها الايجابي بنجاح، في كنف فضاء مفتوح على حرية الرأي والرأي المعارض البناء؛ كطريق لإنضاج الوعي ورسم معالم المستقبل. تأكيدا للذات القومية والحضارية، وانفتاح على التجديد بالتزام وإصرار مسؤولين.

وسيكون للمنهج التحليلي النقدي دوره في تأطير هذا العمل، وإحداث المقاربة المطلوبة لأجل الاجتهاد في طرح رؤية بديلة لجدلية: الهوية العربية والعولمة، وصولا إلى اقتراح متواضع لقواعد منهجية وفكرية للتعاطي مع طوفان العولمة الجارف؛ بما يضمن ويكفل هوية الأمة وسلامتها، ويوفر لها أيضا أسباب انتشالها من واقع الانكفاء على الذات؛ في محيط متغير ومتسارع ليس فيه لمنطق النعامة مكان؟

توطـــئـــــة

الأفكار والمعتقدات جزء أساسي ومكون هام لشخصية الإنسان، غير أنه من المؤكد أن هذه الأخيرة ومفاهيم أخرى إلى جانب طرائق للتفكير مشابهة، لم تخلق معنا مثل الأعضاء البيولوجية المكونة لأجسامنا؛ بل هي وليدة ونتاج واقع محيط بنا بملابساته ومعطياته الكثيرة والمعقدة، إلى جانب كون بعضها من مصدر الوحي المنزل الذي جاء به أشخاص مصطفون من قبل العناية الإلهية المنزهة. أما الجزء المتغير والمتجدد فيها مع الزمن فهو من بنات صناعتنا نحن كبشر في أزمنة متباعدة، ووفق شروط موضوعية فرضتها حاجاتنا المتنوعة ماديا ومعنويا.

وعليه فانه من الضروري والمنطقي أن تخضع هذه العناصر المزيجة كلها أو بعضها، لعمليات النقد والغربلة والتقويم؛ التي قد تضطرنا معها الظروف إلى التخلي عن جزء منها، آو إعادة الصياغة للجزء الأخر وتطعيمه بمغذيات جديدة يفرضها واقع التبدل والتطور الإنساني: زمانا ومكانا وحاجيات... الخ. لأجل ضمان تحقق

الشروط الطبيعية والبناءة لمسيرة تطورنا نحو الأفضل... فهذا خيارنا وتقديرنا نحن البشر ليس إلا! فليس لأية حقيقة أو فكرة تواجهنا أهمية تذكر، إلا بمقدار أهمية موقفنا منها، وتصرفنا حيالها إيجابا أو سلبا. يقول العالم الأمريكي وليام جيمس: "إن تغيير المواقف الداخلية لعقولنا يمكننا من تغيير حياتنا...،... إن أعظم اكتشاف لجيلي هو أن الناس يستطيعون تبديل حياتهم بتبديل مواقف عقولهم."[1]

تبدو حقيقة بسيطة لكنها لدى الكثيرين صعبة ومعقدة إن لم تكن مؤلمة؛ لأنها مسالة ترتبط بقوانين خفية في النفس والعقل الباطن الذي يوجه شعورنا واتجاهاتنا الحياتية، فينعكس عنه مستوى الثقة بقدرتنا على تغيير أحوالنا، أو العكس عند حالات العجز والإحباط التي تكبل إرادتنا. من اجل هذا جاء التوجيه الإلهي مؤكدا الربط بين قضية التغيير وواقع النفس واستعداداتها. قال تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم." الأعراف ـــ الآية ... وقد أشار إلى المعنى نفسه المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله؛ حينما شخص مشكلتنا مع التغيير بالقول: "إن مشكلتنا ليس فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار ومن تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم."[1مكرر]

من جهة أخرى فان إطار التفكير والتصدي للمشكلات المطروحة أمامنا، وبحث الحلول المناسبة والناجعة لها؛ يقتضي في تلك العملية تكيفا ومواءمة مع طبيعة هذه المشكلات، وتحديد المنظار الذي ننظر من خلاله حتى يتوافق مع طبيعة " الحدث ـــ المشكلة". بذلك فقط نعزز استجابتنا بما يعبر عن الموقف الذي نشكله منها؛ أي بمعنى تأطير المشكلة ووضعها في سياق جديد يتناسب مع وقائعها وحقائقها الموضوعية، وإنتاج الحلول الكفيلة بمعالجتها بحسب ما تقتضيه الحاجة ويستدعيه الهدف المحدد من تلك العملية. وقضايا الهوية، الثقافة، العولمة، وعناوين أخرى من القضايا والمشكلات القديمة الجديدة التي تطرح نفسها على حياتنا باستمرار، وتلزمنا بتناولها ومراجعتها بما يتناسب ومجموع المبادئ والثوابت، والخصوصيات التي تشكل معالم شخصية كل مجتمع وأمة، لتؤشر إلى التمايز أو التطابق فيما بينها.

وتمثل الخصوصية الاجتماعية والثقافية ركنا الهوية في مجتمعنا المغاربي؛ بما يمثلانه من ثقل ورصيد انثر بولوجي وتاريخي... سجل ولا يزال يسجل حضوره الفاعل في أية مقاربة موضوعية لإشكالية الهوية في أبعادها المذكورة. ضمن هذا المنظور تبرز إشكالية الهوية المغاربية في أبعادها الفكرية، الثقافية، والسياسية... أمام تحد كبير يواجهها في ظل عولمة "الثقافة"، "التاريخ"، "السلوك وأنماط الحياة"، و" الإنسان" نفسه!.. مما يجعلها تركن في زاوية التهديد والخطر الذي يحيق بها تاريخيا وحضاريا وإنسانيا؛ وما ينجم عن ذلك من تداعيات سلبية تتهدد البنية الكلية للمجتمع وتماسكه. وكذا بنية المؤسسة الرسمية المغاربية؛ ممثلة بشكل خاص في الدولة القطرية، وتراجع الانتماء الوطني وانكماشه ليفقد معناه ووظيفيته السياسية القومية لدى مجموع الفعاليات الوطنية وعموم الشعب؟!

إن مثل هذا المأزق في إشكالية الهوية قد يجر المجتمع المغاربي برمته ـــ إن لم نتدارك الأمر بسرعة – إلى حالات من فقدان الثقة بالذات والأخر، وتنامي بواعث التفكك، ودورات العنف والعنف المضاد، وسلوكيات الرفض والعدوان..، المفضية إلى تفشي الجريمة المنظمة؛ المسنودة من قبل قوى وأطراف خارجية تحركها المصالح والامتيازات الامبريالية، باسم العولمة وتيارها الجارف تارة، وتحت عناوين أخرى لمسميات واحدة، تتخفى من ورائها بهدف بسط النفوذ الاقتصادي، والهيمنة الثقافية ومحو الخصوصيات الاجتماعية والحضارية للغير. لنجد بذلك أنفسنا أمام احد خيارين: إما الاستقالة الجماعية من الحياة، وبالتالي القبول بموقع التابع الخانع، أو الاستجابة والذوبان الهالك. وأحلى الخيارين مر!!

وتبدو لنا كل مظاهر الخيبة والسقوط التي حاقت بمنطقتنا المغاربية وامتنا العربية اقتصاديا وسياسيا، وتغشى السلوكيات والممارسات السلبية والشاذة في واقع مجتمعنا اليوم، وتداعي الأعداء علينا من كل صوب... الخ؛ ما هي إلا تعبير ومؤشر عن حجم الأزمة الفكرية ومأزق الهوية الذي نحياه، ورسالة بليغة عن منطق الرفض الجماهيري للواقع الراهن، وعدم قبوله التكيف مع أدواته الفكرية والمنهجية الاستهلاكية، فضلا عن منظومة

القيـــم الجديدة التي يراد فـــرضها لشطب المسار التاريخي الزاخر للأمة، ومحو قيمها الاجتماعية المتأصلة التي تعاقب الناس على العيش والتعايش معها في وئام وسلام ورقي... انه أمر يستوجب منا وقفة تحليلية في الموضوع، وإبراز لإشكالية الهـــوية المغاربية وتحديات العولمة ؟

1- البنية التاريخية- السوسيو ثقافية للهوية المغاربية

إن الفاعلية الحضارية المبدعة لأي مجتمع لا يمكن أن تتمثل شروطها الكاملة إلا إذا استندت إلـــى مكونات الحضن الطبيعي للمجتمع، وتمثلت أساسيات وعناصر شخصيته التاريخية والحضارية، وتـــم تفعيل دور العـــوامل الثقافية المحفـــزة في سبيل بذل المـــزيد مـــن الجهد البناء لأجل ضمانة الوحدة والتماسك الاجتماعي المطلوبين. كل ذلك لن يتأتى إلا في ظل فضاء مفتوح، يعترف بالتنوع والتمايـــز إلى حد التعارض؛ كمسلك وحيد للتعبير عن الوجود والقناعات، وطريقا لوعي الذات، وتحديد خطـــوط الحركة ومعالم السير باتجاه صياغة منظومة حياتية فاعلة، تستوعب كامل المكونات والإطراف الفعالة في معادلة البناء الاجتماعي، لتطوير أدائها في كنف الأصالة والتجدد دون تنازع أو تناقض!

والتصدي لانجاز مهمة بهذا الحجم ومن هذا النوع، في فضاء مغاربي متنوع عـــرقا ولسانا، يشكل بذاته حالة من الصعوبة والسهولة فـــي أن واحد ؟.. صعوبة تتجسد فـــي كيفية الجمع بين العناصر المختلفة إلى حد التناقض أحيانا، والقـــدرة على تحويلها إلى عنصر تغـــذية مشترك ومصدر لهدف واحد؛هو وحدة المجتمع والمصير... وسهولة لان في التنوع والاختلاف خصوبة وثراء، وتجديد للدم الذي يضخ في جسم الكيان ليساعده على استئناف دورة الحياة بنشاط وفعالية أنجع. مستفيدا من خلاصة العناصر الايجابية في العملية، ومحفـــزا على تجاوز العوامل السلبية التي تهدد كيان الجميع بالمصير المحتوم تفككا وتحللا... بذلك يعدو التنوع المذكور إجماعي لا عدائي؛ بشرط أن نتمكن من تحييد بل إبطال مفعول تدخل العامل الخارجي في المسالة كعنصر مرجح؛ ونعني به بالخصوص "العامل الاستعماري" بكامل تجلياته التاريخية بالأمس، وكـــذا في صورته الجديدة التي تعبـــر عنها "العولمة الرأسمالية" المتغولة.

فالهوية المغاربية في تعريفها العام البسيط هي جزء من كل؛ أي أنها فرع من الهـــوية العربية الإسلامية الشاملة، لا تحتمل في المنطق الشعبي العام التجزئة أو التناقض، وهي تمثل آلية تماسك ودفاع ضد أخطار الغزو للثقافات والهويات الشمولية الوافدة؛ على غرار المذاهب الإلحادية الشيوعية أو الرأسمالية المادية وعولمتها المتوحشة. وقد شكلت بحق في مرحلة النضال ضد الاستعمار خط الدفاع الأول بمضمنتها الدينية والقومية، وظلت محل إجماع الكل حتى في صورتها التقليدية الأكثر إمعانا في المغالاة والتشبث بقيم الماضي وأمجاده التاريخية، الأكثر ارتباطا والتصاقا بالدين كونه المحرك والمغذي الأساسي لعنصر المقاومة والدفاع عن قيم الشرف والحرية للأشخاص والأوطان.

في ظل هذا المعنى نجد حتى النخب العلمانية الأكثر تنويرا وانفتاحا على قيم الغـــرب وسلوكياته، لا تقوى على التنكر لها أو السباحة ضد التيار العام بهذا الخصوص، بل تتمسك ولو تكتيكيا بعناصر هذه الهـــوية؛ كأداة ووسيلة ناجعة فـــي مواقـــفها حيال المشروع الاستعماري ومنظومته الفكرية والسلوكية. فهذا فرحات عباس أحد أبـــرز وجوه النضال الجـــزائري، وواحد مـــن الأقطاب العلمانية في رؤيته السياسية، صاحب المرونة الكبرى في التعاطي مع إدارة الاحتلال الفرنسي – وهو خريج المدرسة الاستعمارية و معاهدها – نجده يرفض ويأبى بقوة و إصرار التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل حصول الجزائريين على حقوقهم في المساواة والمواطنة الفرنسية. بالرغم من أنه أحد أكثر من أشهر من كشف عن تعلقه بفرنسا؛ مسجلا ذلك على صفحات الإعلام مـــن خلال مقـــاله الشهير: "فرنسا هي انا"[2]، الذي نشره سنة 1936م. نفس الموقف نسحله لدى الزعيم التونسي لحبيب بورقيبة، العلماني المذهب، المفتون بالثقافة ومظاهر الحياة الأوروبية؛ حيث نجده يتمسك

بحجاب المرأة كمقوم من مقومات الشخصية الوطنية التونسية على عهد الاحتلال[3]... لكنه يتراجع عـــن هذا الموقف لاحقا في مرحلة الاستقلال؛ ليمنع ارتدائه وتداوله داخل المجتمع التونسي!؟

بهذا يصبح سؤال الهـــوية محل التشكيك و المواربة، بل موضع الاهتمـــام لدى البعض! خاصة من قبل الفئة المتغربة من اليمين واليسار؛ ذلك أن الأيديولوجيات الوطنية التي حكمت دويلات الاستقـــلال بالمنطقة المغاربية كانت قد تبنت في مشاريعها الفكرية والسياسية مضامين غير تلك التي حملتها وقت تصديها للاستعمار؟... وبالتالي فقد غيرت المخزون العربي الإسلامي كمصدر وعنصر جامع، لتحل محله المرجعية الغـــربية كمضمون جديد، يجسد طموحات قطـــرية ضيقة، كما يعكس آفـــاق التبعيـــة الفكـــرية، الاجتماعية، والسياسية... لهذه الدول باتجاه الغرب بشقيـــه اليميني واليساري. متخذة من التاريخ العرقي"البربري" تارة و"العشائرية"، و"الفئوية" تارة أخرى، ومن بطولات الزعامات الوطنية في القديم والحديث، ناهيك عن أدبيات النضال السياسي المحلي، وقيم الحداثة، وشعارات المواطنة والتنمية... وغيرها؛ مزيجا لهوية فكرية بديلة تفتقر إلى الانسجام والتناغم... وملاذا لانتماءات وطنية قطرية متعصبة، قطعت صلتها بعمقـــها الحضاري التليد، الذي كان الجميع صاحب الحظ والشرف في صناعته.

غير أن هذا التوجه و إن بدا في مرحلته الأولى يحمل من النجاحات المحدودة اقتصاديا وسياسيا إلا انه سرعان ما تكشفت عورته، وأفضى إلى إخفاقات سواء على مستوى الصمود السياسي في وجه موجات وعواصف التوحد الأوروبي والعالمي، أو في جانب الإخفاقات الاجتماعية والتربوية والفكرية... الخ، أشرت هذه بوضوح لضرورة العودة إلى ثوابت الهوية العربية الإسلامية الجامعة. خصوصا في ظل حدوث انتفاضات داخلية انفصالية، ونزوع خارجي واضح باتجاه المركزية الثقافية، وفرض عولمة في الأيديولوجية والخيارات، بل أمركة العالم قسرا...! عبر أطروحات وبدائل تستهدف القضاء على الهوية العـــربية الإسلامية الأم. وطرح الهويات الشرق أوسطية، والمتوسطية... كبدائـــل جاهزة. وفي أماكن بعينها العزف على وتر طائفيات وعشائريات يتم تحريكها لخدمة حاجات سياسية ظرفية داخلية، ومسلكية عالمية للهيمنة على منطقتنا العربية كلها.

فما حقيقة هذا الصراع، وما الهوية المطلوب تثبيتها في الفضاء المغاربي؟.. وما السبيل إلى توطينها إلى جانب الهوية الأم العربية الإسلامية ؟

2 – مكونات الهوية المغاربية

تقوم الهوية المغاربية على ثلاثة عوامل ترتكز عليها اجتماعيا وتاريخيا في عملية البناء الاجتماعي، وتشكيل الشخصية القومية و الوطنية ، هذه العوامل تتجسد في:

– التراث الثقافي الشفهي؛ المعروف "بالتراث البربري" أو الأمازيغي بأطيافه وأشكال تعبيره اللساني خاصة، وهو محفوظ فـــي صورة عادات وتقاليد وأعـــراف متوارثة في التنظيم الاجتماعي القبلي، وطقوس الزواج، والأفراح والأتراح، ومظاهر اللباس وباقي أنماط الحياة الأخرى. ويستوعب مجموعات قبلية وعرقية عديدة ومتنوعة في المنطقة المغاربية؛ كسكان البربر في الأطلس والريف المغربي، وبشمال الجزائر في جرجرة والأوراس، والتـــوارق في الصحراء، وكذا بالمجموعات البربرية بجبال الخمير والغرب التونسي، وما يماثلها في منطقة زواره بغـــرب ليبيا...وغيرها. حيث تتحدر جميعها من أصول مشترك موغلة في القدم؛ يعتقد في كونها أول من سكن منطقة شمال إفريقيا. وبالتالي فهذا التراث الثقافي المتنوع والثـــري يمثل مقوم أساسي من مقـــومات الهوية المغاربية، على الأقل في بعديها التاريخي والاجتماعي.

– أما المكونان الآخران فيتمثلان بالتحديد في: العروبة كلغة وثقافة، والإسلام كعقيدة ونظام سلوكي حياتي... وهما ركنان راسخان في الوعي الجماعي المغاربي؛ تتأسس عليهما الهوية المغاربية وتتقاطع من خلالهما.

بل وتتواصل بايجابية وفعالية مع باقي عناصر الهوية العربية الإسلامية الجامعة؛ باعتبارها مكونات ثابتة تاريخيا واجتماعيا في الشخصية المغاربية على مدار الزمن.

فالمغرب العربي يحظى بميزة أساسية عن المشرق العربي، تلك المتمثلة فـــي غياب التنوع الديني والمذهبي، حيث الأغلبية المطلقة من السكان يدينون بالإسلام ومذهبهم الفقهي مالكي، مع وجود نسبة محدودة من أتباع المذهب الاباضي، مكنه ذلك من توفير الحصانة من الصراعات والفتن الطائفية والمذهبية وغيرها. لكن في المقابل تبرز التعددية العرقية ممثلة في عنصر البربر بمجموعاته اللسانية والجغرافية، والجنس العربي، لكن العلاقة بين الطرفين يحكمها الانسجام والتجانس وتعاون، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الكثير من البربر لا يتداولون لسانهم الأصلي ويتحدثون العـــربية كلغة، كما يعتبرون أنفسهم عرب مسلمين وكفى! دون إنكار أو تنكر للهجاتهم المحلية التي لا تستعمل في التواصل إلا عند الحاجة والضرورة الملحة. ولعل "مجموعة الشاوية" بمنطقة الأوراس بالشرق الجزائري خير شاهد على قولنا. وقد لعبت العقيدة والأخوة الإسلاميتين دورهما في صناعة هذا التلاحم والتعايش المشترك[4]، الذي قد لا نجده متوفرا في أقطار عربية وغيرها بين مجموعاتها العرقية.

وعلى صخرة هذه الوحدة والأخوة المتينة تحطمت وأخفقت كل المحاولات الكولونيالية ومشاريعها؛ الهادفة إلى توظيف الخصوصية العرقية البربرية في المغرب العربي، في خدمة سياسته الشهيرة "فرق تسد". ونفس المصير حاق بالمحاولات اللاحقة؛ الخارجية المسنودة محليا، والرامية إلى إثارة المشكلة تحت عناوين مختلفة؛ كحقوق الأقليات، وحق التنوع الثقافي... وغيرها. وهي في مجملها تبتغي تغذية عناصر التجزئة في المجتمع، لاختراق بنية هويته وتفكيكها؛ وفتح الثغرات في جدارها المتماسك، لتتسلل منه هويات وافدة أو مستوردة؛ فرانكفونية تغريبية، تتبعها مشاريع للهيمنة الأمريكية تحت مسميات وفضاءات مكشوفة: كالمتوسطية، والشرق أوسطية، والعولمة الثقافية والتكنولوجية، والوحدة الإنسانية... الخ.

من جهة أخرى فان الدولة الوطنية الحديثة التي نشأت عقب طي الحقبة الاستعمارية في المغرب العربي، تميز تعاطيها مع التراث الثقافي البربري من جهة، ومقومات الهوية المغاربية التاريخية والحضارية كاللغة العربية، والدين الإسلامي..، بنوع من التنافر والتنكر الذي بلغ في بعض الأقطار مستوى من الحدة والتناقض إلى درجة التوتر الاجتماعي والسياسي خاصة على صعيد تثبيت الهوية. ذلك أن هذه الكيانات القطرية في حقيقتها تماهت إلى حد بعيد في استيراد أنماط أيديولوجية، واجتماعية تناغمت مع شعارات الحداثة والتنوير، ومشاريع التنمية المرتبط بالنمط الاجتماعي والسياسي الأوروبي خاصة. هذا في الوقت الذي تنكرت فيه للهوية الأصلية والأصيلة لمجتمعاتها! وليس غريبا أن تظهر هذه الكيانات السياسية الحديثة كما وكأنها مقطوعة وغير موصولة بالمرة بواقعها الاجتماعي والثقافي، وبعناصر هويتها الموروثة تاريخيا. مما هادى إلى التنكر لها روحا وولاء من قبل القطاع الأغلب من الجماهير، وكذلك من مجموع الفعاليات الدينية والثقافية والسياسية المعارضة. افقدها ذلك جانبا مهما من شرعيتها الواقعية والسياسية، فضلا عن مشروعيتها التاريخية، وزخمها الوطني. حيث أضحت تحيا في عزلها عن بيئتها الاجتماعية، في الوقت الذي عززت فيه أواصر التبعية وآثارها... مع قـــوى الاستعمار والامبريالية العالمية. تلك التبعية التي أصبحت معها الدول المستقلة بالمنطقة المغاربية: "لا تتخذ شكل السلطة السياسية العامة التي ترتفع فوق الحكام والمحكومين بقدر بما تتخذ شكل الحكام، وبالتالي تتقلص الدولة فعليا في أجهزة قهرية مباشرة."[5]

في هذا المناخ العاق وفي سياق التطورات الحاصلة بعد الاستقلال، وفي خضم المعركة الجديدة التي فتحت جبهاتها على مستويات عدة؛ طفا على السطح صراع فكري وثقافي، تجلى اجتماعيا وسياسيا في إثارة موضوع الهوية و اشكالياتهما.... فبرزت تيارات نظرت إلى القضية من زوايا مختلفة، توزعت بين الداعين للأصالة التاريخية، وضرورة تفعيل دور العناصر التقليدية للهوية؛ ممثلة في العـــروبة والإسلام خاصة؛ كونهما شكلا بالأمس في سياق مقاومة الاستعمار تحديدا، الحصن المنيع فـــي مواجهة مخططات الفرنسة والتغريب، كما أبطلا

مفعول الاندماج والتذويب لمكونات الهوية المغاربية العـــربية الإسلامية لصالح الثقافة الغازية القادمة من الضفة الشمالية للبحر المتوسط، ومن وراء البحار.[6]

بينما نظر البعض الآخـــر إلى المسالة نظرة مختلفة تماما، إلى حد اعتبار العـــروبة و الإسلام هما المسؤولان عن مختلف السلبيات ومظاهر التخلف التي سادت في بعض المجتمعات المغاربية، وتحديدا في المجتمع الجزائـــري. من مثل ضياع الحقوق وغياب الحرية والمساواة، وعدم إفشاء الثقافة الديمقراطية، وباقي مظاهر العدالة الاجتماعية... وغيرها من القيم التي لا تتوفـــر – بحسب هؤلاء- إلا في سياقات التحديث والعلمانية[7]. كما برزت تيارات إيديولوجية واتجاهات سياسية اشتغلت على مسالة الهوية؛ إما من منظور الإنكار لبعض المقومات على حساب الأخرى، أو المغالاة في تضخيم دور عنصر ما، كالإسلام مثلا على حساب اللغة العربية وثقافتها أو العكس، وأحيانا الانتصار لتضخيم عنصر التراث الشعبي واللهجات المحلية، والثقافة الفلكلورية... الخ، واعتبارها مقوم الهوية والنهوض وأسه![8]

الحقيقة أن تباين المواقف واختلافها بشأن هذه المسالة ليس عيبا في حد ذاته؛ ذالك أن تنوع الآراء والاجتهادات يمثل – في نظرنا — ظاهرة صحية تساعد على الإثراء المستمر لمكونات الهوية، ويمكنها من ضخ دم التجديد في عروقها؛ لتقوى على النهوض والتفاعل الايجابي مع التحديات. كما أن إشاعة ثقافة النقد البناء يسهم في إنضاج الرؤية وتكاملها باتجاه دعم مرتكزاتها، وسهولة التأقلم والتعايش مع الأوضاع الجديدة بمزيد من المرونة والفاعلية. هذا الذي يمكن في النهاية من تجاوز منطق الانكفاء على الذات إلى تبني روح الانفتاح على الآخر، في ظل واقع متغير تتدفـــق عليه المعارف والمفاهيم بسرعة لا متناهية. غير انه إلى جانب كل ما سبق ذكره؛ مطلوب من الجميع عدم تجاوز الموروث التاريخي أو القفز فوق حقائقه الموضوعية وكذا عدم الاستهانة بالمقدسات والثوابت.. الخ؛ خاصة تلك التي حكمت تجارب التاريخ بصحتها وجدواها، وأجمع عليها خاصة وعمـــوم الناس المرتبطة بموضوع الهوية، التي صنعت مصائر شعوب المنطقة المغاربية والعربية في الســـراء والضراء.

الخلاصة أن النظرة التقديسية للهوية تتساوى في رأينا تماما مع النظرة التحقيـــرية لها، كـــما أن منطق الاختزال لكذا عنصر لصالح آخر، أو التوظيف الإيديولوجي لمقوم معين لأجل خدمة سياسات ظرفية محدودة ؛ لا تعدو في حقيقة الأمر أن تتداعى وتسقط أمام منطق التاريخ والواقع معا، فضـــلا عن زخم الرفض الجماهيري. وقد تتحول بموجب الترويج لمواقف معينة إلى لون من العنصرية والعدائية المقيتة... كل ذلك يفرض علينا واجب التصدي للإشكالية بما يمكننا حقيقة من إعادة النظر وصناعة موقف متوازن منها، يضمن للهوية المغاربية عضويتها وتكامل عناصرها. فنقر بالثابت فيها وندعمه بالتعاطي معه من حيث طبيعته ودوره ووظيفته، كما نتحاور مع المتغير من مقوماتها بما يتناسب ويتلاءم مع حركية التغيير، وواقع التبدل والتجدد في الفكـــر، الثقـــافة، السلوك، وأنماط الحياة الأخرى . بذلك فقط نتمكن من مقاربة إشكالية الهوية بروح الأصالة، ومنطق التفتح المستنير، والأسلوب البرغماتي الذكي؛ لنتمكن من اللحاق بركب العالمية والتجاوب مع متطلباتها، دون التخلي عن بصمة وجودنا التاريخي والحضاري.

3 – الهوية المغاربية... بين النفي والإثبات

ابتداء يمكن التأكيد على أن مفهـــوم الهـــوية يشتمل على مجموع الروابط الموضوعية، الروحية، والشعورية التي تميز جماعة ما عن غيـــرها، وتجعلها تستقل بمنظـــومتها القيمية، ولسانها الناطق، وقوميتها المشكلة. وبالتالي فهي بهذا المعنى محققة في النفس والتاريخ؛ في الوقت الذي تضفي فيه التطورات الاجتماعية والتاريخية –بتفاعلاتها الايجابية والسلبية عبر الزمن على هذه الهوية– بعدا ثقافيا يختلط فيه المحلي مع العالمي، الثابت مع المتغير..، مشكلا ملامح الهوية الثقافية في مرحلة ما. وقد شكل النضال الوطني القومي إبان حقبة الاستعمار الأوروبي بالمنطقة المغاربية والعـــربية عامة، عنصر تغذية قوي، وزخم حيوي عـــزز من صمود الهوية المغاربية في وجه سياسات

التذويب والنفي لها. أما بعد استقلال المنطقة وقيام الدول الوطنية فقد انظاف عنصرا جديدا إلى حزمة عناصر الهوية المغاربية؛ انه الانتماء الوطني الذي احتل المقام الأول في ترتيب هذه العناصر مشكلا ما يمكن تسميته "بالهوية القطرية"؛ كبديل للهوية القومية والحضارية التاريخية الجامعة!

هكذا فبعد أن كنا جميعا نستظل بشجرة الهوية المغاربية – العربية الوارفة؛ انحصرت تدريجيا لتحل محلها الهويات الوطنية، لتختزل بعدها في هويات قطرية مستغرقة في المحلية ونرجسية الذات المضخمة! وأصبحنا نسمع عن أصوات تعلي الهوية الجزائرية، التونسية، المغربية، والليبية... على حساب الهويات الجامعة مغاربية كانت أم عربية، وإسلامية؟

وقد بدأت تظهر وتنمو التوترات الاجتماعية ومظاهر التطرف في المجتمع المغاربي، أفضت إلى نزاعات عدائية بين أصحابها أنتجت نفيا متبادلا بين أنصار الهوية القومية وأنصار الهوية الوطنية، حتى أصبحت العلاقة بين الدولة الوطنية الحداثة الوليدة، والدولة القومية التاريخية؛ علاقة خصومة وتناقص. أفقدت الكيانين معا فعاليتهما الاجتماعية بالداخل، كما عززت من أسباب الانغلاق والانكماش للمنطقة سياسيا ودوليا. وانتهى كل ذلك إلى شيوع ظاهرة الانقسام الفكري والإيديولوجي بين النخب المغاربية حول موضوع الهوية! وبدت الساحة متحـــركة من وحي تيارات ثـــلاث: التيار القـــومي المنتصر للغة العربية وثقافتها كمقوم للهوية وعنصر جامع للأمة، واعتبارها بمثابة المرتكز الأول في بناء الدولة. وتيار إسلامي تمذهب وتشيع للدين باعتباره عامل وحدة عقدية وشعورية، وعنوان حضارة وعز، ورابطة للإخوة الإسلامية الجامعة؛ مع اعتباره اللغة العربية وعاء له.[9]

وفريق ثالث؛ إنهم القطريون العلمانيون؛ سواء ظهروا في ثوب اليمين الفرانكفوني أو اليسار الشيوعي، عززوا من موقع الجغرافيا، العرق، الثقافة المحلية، واللسان القومي ولهجاته المحلية...الخ؛ معتبرينها عوامل كافية لبناء الهوية الوطنية المستقلة. بعيدا عن الفكر الديني الماضوي وطوبوياته، وشعارات العروبة المستهلكة. هكذا بدت الهوية المغاربية في حالة من النفي والمصادرة من الجميع؛ باسم الدين تارة، وباسم اللغة العربية أخرى، وتحت مسمى الوطن و الجنس ثالثة!!.. والحقيقة لو أمعنا النظر في أطروحات هؤلاء لوجدناها مجتمعة تمثل في مجملها أركان الهوية المغاربية المتنازع بشأنها، المدعى حمايتها من الأطراف المذكورة نفسها.

فالخصوصية العرقية الثقافية المغاربية لا تتناقض مع العنوان الكبير للهوية؛ ممثلا في العروبة والإسلام. فكما يقول الدكتور سعد الدين إبراهيم، فإن حقائق الواقع تثبت: "أن الموحدات الكبرى قد دفعت بالخصوصيات الإقليمية و القطرية و المحلية إلى خلفية المسرح الحضاري للمنطقة، ولكنها لم تلغها أو تقض عليها..."[10]

إجمالا فإننا نعضد وننتصر للموقف القائل بتكامل الخصوصية المغاربية مع الهوية العربية الإسلامية، دون الإنكار للخصوصيات المحلية القطرية: كالجزائرية، المغربية، والليبية...وغيرها. ومن الضروري اعتبار هذه الأخيرة بمكانة المغذي برصيدها الهام من التراث الثقافي واللغوي الخصب؛ الذي يجب الحفاظ عليه وتطويره. بنفس القدر الذي يضمن عطاءه المتجدد، ويعزز من تماسك لحمة الهوية المشتركة: المغاربية ـــ العربية ذات الملمحين البارزين وهما العروبة و الإسلام كعاملين يعبر كل واحد عن الأخر: روحا وفكرا وموقـــفا ثقافيا...

أما الهوية القطرية فهي تعكس ـــ في نظرنا ـــ واقعا اجتماعيا وسياسيا قائما لا يمكن لأحد إنكاره أو تجاوزه، بل من الممكن الاستفادة منه لتعزيز أركان الهوية، لنجعل منه عامل إخصاب وحيوية؛ يتواصل بايجابية وفعالية مع المكونات الثانية للهوية المغاربية. بهذا فقط نحقق التطلع الذي تعلق به الكاتب التونسي المنصف وناس، حيثما أكد على: "أن الهوية في المغرب العربي هي هوية وطنية، لكنها تتميز بتكامل أبعادها الثلاثة: الوطنية والإسلام والعـــروبة."[11]

4 – الهوية المغاربية... بين المؤيدين والمعارضين

في ظل تنامي التيارات الفكرية والأيديولوجية السياسية في مجتمعنا المعاصرة، ونزوع منظوماتها القيمية إلى اكتسابها صفة العالمية، وإظهارها للبعد الإنساني في خطابها كقيمة مشتركة جامعة؛ تهدف من وراءها إلى توحيد الإنسان كجوهر، وككائن ثقافي واع. يميزه منطق العقل وحكمته، تتحرك ضمن مساحة وجدانية تستشعر مجموعة

من المشتركات الإنسانية كقيم: الأخوة، الحرية، والعدالة، وتحقيق السعادة، الأمن والسلام... في ظل كل ذلك تبرز إشكاليات التوافق أو التعارض بين هذه المدارس الفكرية والحضارية، ومؤسساتها الإيديولوجية المتحركة من داخل: المدرسة، المؤسسة الدينية، وفعاليات المجتمع المدني... إلى جانب الإعلام، وأجهزة الدولة الرسمية، وانتهاء بمصادر إنتاج المعرفة والتكنولوجيا. يضاف إليها ثورة الاتصال، غزو الفضاء، وعالم الانترنت...الخ؛ هذه الفضاءات جميعها ساهمت في تقريب البعيد، واختزال الزمن وحياة الإنسان، إلى حد أصبح العالم يدعى بالقرية الكونية الواحدة المفتوحة؛ التي يمكن لساكنيها أن يتواصلوا ويتعرفوا إلى أدق التفاصيل التي تحدث في زوايا الكرة الأرضية بل وأجزاء كبيرة من الفضاء الخارجي المحيط بها في كل لحظة.

هنا تبرز إشكالية الخصوصيات في جوانبها: العقدية، الثقافية، الوطنية، والمحلية...الخ؛ وضرورة تحديد موقفها من زخم التحول المتسارع المرئي وغير المرئي وتفاعلاته اللامحدودة. كما يطرح السؤال: ما هو المطلوب منا كمغاربة وعرب... هل هو الانصهار والذوبان في موجة العالمية والعولمة، أم هو الانكفاء على الذات للحفاظ على كياناتنا الثقافية والسياسية الخاصة؛ كونها تمثل رصيدا تاريخيا–اجتماعيا، لا يتجزأ عن الهوية الوطنية والقومية، التي لا يجب التنازل عنها بأي حال من الأحوال؟

إن الواقع المغاربي جزء لا يتجزأ من الواقع العربي الذي تجري فيهما هذه الأحداث، وتتحرك في بيئتهما هذه التغيرات. وسؤال الهوية المغاربية... وتحدي العولمة يظل واحد من الأسئلة الإشكالية الملحة والمؤرقة، التي تنتظر منا الإجابة الصريحة وبحث الحلول الممكنة له؟... فالواقع الاجتماعي والفكري لمنطقة المغرب العربي يذكرنا بحقيقة تاريخية مفادها: أن سكانها قد تعرضوا في هويتهم إلى مجابهة مفتوحة منذ أمد بعيد استهدفت أركانها الأساسية خاصة اللغة العربية والدين الإسلامي، قادتها دوائر الاستعمار الأوروبي أثناء الاحتلال الذي مس أقطارهم، وبعد الاستقلال مباشرة؛ بسبب سياسات الدمج، الفرنسة، والتمسيح التي طبقتها. ثم بفعل آثارها الاجتماعية والثقافية التي أعقبت الحقبة الاستعمارية بالمنطقة؛ حيث برز صراع الهوية بحدة في شكل مواجهة مفتوحة بين التيار القومي العروبي الإسلامي المدافع عن هوية الأمة التاريخية والحضارية، التمسك بها كعنصر مقاومة بالأمس، وركنا لهوية المغرب العربي المستقل... والطرف الأخر هو التيار الفرانكفوني الذي تمثله العناصر الأوروبية الدينية المتعصبة، واللغوية والثقافية المستعلية. تتبعهم نخبة متغربة محلية مسلوبة الإرادة، التفكير، والوعي؛ اتخذت لنفسها مرجعية بديلة مستوردة من سادة الأمس، دافعت ولا تزال عنها كمظهر للحداثة، وعنوان للنهوض لانجاز التطور الاجتماعي–الثقافي المنشود، في كنف الدولة العلمانية التي أقيمت على النمط الأوروبي–الغربي.[12]

غير أننا نؤكد للجميع بأن الشخصية المغاربية ليست وليدة الظرفية، ولا هي صورة مستنسخة عن الأنساق الأوروبية المستوردة بعد الاستقلال، كما هي ليست نتاج نزوة قومية، أو مزاجات وطنية...الخ؛ إنما هي حصيلة تراكم تاريخي وحضاري، وتفاعل أنساق عديدة؛ تمازجت فيها عناصر: التاريخ والجغرافيا، مع مختلف المكونات الاجتماعية، والمزاج الشعبي، والثقافات المحلية.. وغيرها. كلها أنتجت ما يمكن أن نطلق عليه: منظومة القيم والمفاهيم، والمشتركات التي تفاعل فيها الإنسان المغاربي مع محيطه الاجتماعي، متواصلا من خلالها مع وسطه الطبيعي وانتمائه القومي العربي الإسلامي، ومنفتحا في الوقت ذاته على العالمية بمسؤولية والتزام إنساني وأخلاقي كبيرين.

بالتالي فإننا نقول بأن عولمة اليوم، وثقافة العولمة المطروحة، لا تخيف الإنسان المغاربي، وليست بدعا جديدا على المنطقة؛ إنما هي جولة جديدة في معركة قديمة متجددة. لكن بأدوات وأسلحة عصرية شديدة التطور والفاعلية والتأثير؛ تتطلب منا فقط، وعيها والتعرف على طبيعتها، مع الاستفادة من زخمها، والتصدي لمخاطرها وآثارها السلبية... فكيف السبيل لانجاز كل ذلك يا ترى؟

5 – الهوية المغاربية... و تحديات العولمة

منذ زمن غير بعيد بدأت تشغل أذهان الكثير من النحب الوطنية و القومية العربية وكذا الإسلامية، ظاهرة اجتماعية، اقتصادية–ثقافية، متشابكة محليا وعالميا؛ اصطلح على تسميتها "بالعولمة". وهي بنية جديدة تطبع النظام العالمي، كما يقول د. برهان غليون[13]؛ تتميز بالديناميكية الاجتماعية و التفاعل والتأثر المتبادل بين عوامل ذاتية نابعة عن الإرادة والوعي، وأخرى موضوعية تحركها عوامل مادية وتقنية متسارعة الوقوع والتأثير... أبرزها ثورة الاتصال والمعلوماتية، وآفاقهما التكنولوجية المرئية وغير المرئية. وتدور في ساحتنا المغاربية والعربية عامة معركة إيديولوجية وثقافية كبرى حول قضية العولمة، تمحورت في ثلاث أقطاب فكرية:

– قطب يرفض العولمة جملة وتفصيلا بدعوى أنها تتحرك بوحي من خلفية الهيمنة والاستعمار، والمركزية الغربية المهددة للخصوصية المحلية... وما إلى ذلك من التبريرات المقدمة. يبدو لنا في هذا الموقف ضعفا نخاله ناجم عن تحركه ضد تيار التاريخ ومساره، ناهيك عن حركة التغيير وقوانينها الاجتماعية التي لا تجامل أحدا.

– قطب يعلن قبوله العولمة، ويكشف عن استعداده للتعاطي مع العناوين التي تطرحها دون تحفظ أو تفحص جاد ومسؤول لبعض مقولاتها التي لا تتطابق في كثير أو قليل مع المعطيات الموضوعية للواقع، والخصوصيات الذاتية لشعوبنا. فضلا على المصالح العليا لمجتمعاتنا ودولها... وفي ذلك في رأينا تجاهل غير مبرر لبعض سلبيات ومخاطر ظاهرة العولمة؛ كمنتوج تستنبت بعض قيمه وأفكاره خارج المنظومات القيمية–الاجتماعية لبيئات أخرى، كما هو حال مع بيئتنا المغاربية والعربية.

– ثالث يرنو إلى طرح بديل توفيقي، يجتهد في قراءة موضوع العولمة من منظور نقدي مستنير هدفه فهم الظاهرة، مكوناتها، وقوانينها...الخ؛ باعتبارها تعكس الصيرورة التاريخية–الاجتماعية، ذات الأبعاد والتفاعلات المختلفة. حيث تقتضي العملية إضفاء مزيد من المرونة الفكرية في تلقي زخمها، وفرز ما يتناسب منها مع الهوية الخاصة، وتحديث للعناصر الذاتية بما لا يتناقض أو يتصادم مع الوافد الذي يجسد الموضوعية من نتاج العولمة أو الكونية كما يلقبها البعض.[14]

في غمار هذا الجدل العاصف، والنقاش المحتدم بين المؤيدين والمعارضين للعولمة، يطرح السؤال التالي، وهو: هل تتعارض العولمة مع مسألة الهوية أم لا؟ وهل اعد المجتمع المغاربي والعربي عامة موقفه من قضية العولمة ونظرتها حيال موضوع الهوية؟ ماذا حضرنا في هذا السياق من بدائل للتعاطي مع اشكالياتهما وتحدياتها المعقدة؛ خاصة ما تعلق منها بالخصوصية المحلية وعلاقتها بالعالمية؟ الحقيقة أن العولمة بوصفها تعبير عن حالة من التشكل للنظام العالمي في أبنيته الفكرية والإيديولوجية، الاجتماعية والثقافية، الاقتصادية والإعلامية، المعرفية والتكنولوجية...الخ. هي في المحصلة: صياغة جديدة لأفكار، وقيم، وآليات وسلوكيات... للتعامل مع واقع متغير ومتجدد باستمرار؛ وهو وضع طبيعي في مجتمع بشري خاضع لصيرورة التطور التاريخي، الطامح دوما نحو تعزيز المشتركات الإنسانية، الرامي إلى تأمين حال أفضل لمجتمع إنساني متعايش ومزدهر. ومـــن ثم فان الحاجة لمواكبة حركية العولمة أمر في غاية الأهمية؛ لكن على خلفية كونها تقـــودنا إلى توحيد العنصر البشري وتنمية حياته، وتحقق مبدأي الاستمرارية والتواصل لبعدي المكان والزمان اللذان نحيا في كنفها.

ومعلوم لدى الجميع أن الثورة المعلوماتية والاتصال هما من ابرز عناوين العولمة وميزاتها البارزة؛ بما فرضته من ترتيبات جديدة ومؤسسات ذات صبغة عالمية، وتنافس شرس بين القوى المتنفذة لغرض التموقع واحتلال مصادر القرار والتوجيه العالمي. وهو أمر يستلزم منا كمغاربة وعرب تحديدا، إعادة النظر في طرائق ومناهج تفكيرنا، وأساليب العمل والانجاز، فضلا عن منهجيات تعاملنا مع الغير... حتى نستطيع أن نضمن التكافؤ المطلوب مع لغة وخطاب العولمة؛ كخطوة أولى لفهمها، ثم التعاطي بفعالية مع موضوعاتها الشائكة. ذلك انه من غير المنطقي حماية أنفسنا وميراثنا ومكاسبنا المادية الوطنية والقومية؛ ونحن نتحرك بعيدا عن السياق العالمي، غير منخرطين بايجابية في واقع الصيرورة العلمية والتقية المتسارعة، لنتفاعل معها بروح المبادرة والإبداع والفعالية، تضمن لنا الحد المطلوب من الأهلية والجدارة

لدخول المنافسة التي تفرضها سياقات العولمة، وضرورة تكوين قوة استقطاب موازية تتكافأ مع منظومة القوى الأخرى عالميا.

إن مثل هذه القوة المطلوب إعدادها هي وحدها المؤهلة والكفيلة للحفاظ على الخصوصيات الذاتية، وضمان المناخ المناسب لتطورها، وتحقيق أمنها الاجتماعي فضلا عن تطورها العام. لتحقق بها المناعة الفكرية والحضارية للأمة، واستقلال خياراتها السياسية في تحركاتها المحلية والدولية. أما احتلال مواقع: التابع، والملحق، أو المتحرك خارج السياق... وغيرها؛ فهي مواقع لا تخول لنا كمغاربة وعرب حتى حق طرح التساؤل حول العولمة والموقف منها !... فضلا عن إشهار موقف الرفض أو القبول لها؛ لأنه ـــ في تقديرنا ـــ في كلتا الحالتين سيكون موقفنا هزيلا وعدميا؛ على اعتبار أننا بالحالة الموصوفة تلك ينطبق علينا المثل الشائع: "كالأطـــرش في الـــزفة!"

فغيابنا عما يجـــري على المسرح العالمي سيحولنا بدون شك إلى ما يشبه الكائنات الهزيلة، التي تحيا خارج دورة التاريخ والفعالية؛ تفتقد عنصري الإنتاجية والمرودية، وايجابية الحضور في شتى ميادين الحياة. وقتها سيستغلنا الآخر قهرا، إذلالا، وإقصاء... فماذا يبقى بعد ها من قيمة للإنسان، الهـــوية، والحاضر، والمستقبل؟!

إن التعاطي مع العولمة – كما يؤكد د. برهان غليون – هو ليس بالضرورة استسلاما وخضوعا وكأنها قدرا مترلا، كما أنه من قبيل التعامل مع الحتميات الموضوعية التي لا فكاك عنها، أو هي خيار واحد ليس لنا سوى قبوله!.. بمثل ما أن موقفنا منها ليس حكما بالرفض وإدارة الظهر، أو الإعلاء من الحصون والأسوار وسد المنافذ التي تمنع وصول رياحها وتأثيراتها، وتوفر أجواء مناخ مغلق يفتقر إلى حيوية وخصوبة الهواء الذي يهب علينا من العالم الأخر... إنما هو طريق ثالث نختاره ونصنعه بأيدينا؟ انه: "الأخذ بتقنيات العولمة... لضمان النجاعة الاقتصادية والثقافية، لكن الاستفادة الفعلية من هذه التقنيات غير ممكن من دون أن تقف وراءها إستراتيجية ذاتية تحد من استخداماتها من قبل القوى الكبرى لأهداف هيمنية."[15]

أما عن موضوع الخصوصية الثقافية، وإشكالية التعامل مع هـــويتنا المغاربية في ظل واقع العولمة الجارف؛ فإننا نقر بالفعل بان الثورة الحاصلة على مستوى الإعلام والاتصال، وعلى نطاق القيم والمفاهيم والسلوكيات... الخ، التي تطرحها وتجعل الكل أمام خطر زحفه عبر شبكات الاتصال العالمية المتطورة؛ كالانترنت، الخلوي، الفضائيات المشفرة وغير المشفرة؛ التي تضخ برامجها الموجهة عبر الأقمار الصناعية... وما إلى ذلك من الوسائل التي لم يعد احد منا بمنأى عنها أو قادر على منع وصولها إليه في أية نقطة من كوكبنا الأرضي. لكن الخطر الحقيقي ليس في هذا الذي ذكرنا في حد ذاته، إنما هو في مدى استعدادنا وقدرتنا على التعاطي مع تلك المضامين التي تحملها، وذلك الزخم الذي تصنعه. فالخطر إذا مسكون فينا نحن المغاربة والعرب من خلال توفرنا على المناعة الذاتية أم لا؟ والى إي حد نحن متمسكون بهويتنا، محققين الإجماع حول عناصرها، ونتوفر على الفاعلية اللازمة التي تمكننا من تطويرها بما يتناسب وخصوصياتنا التاريخية والاجتماعية دون تردد آو وجل... ذلكم هو التحدي الحقيقي الذي نواجهه وتواجهه هويتنا المغاربية كذلك؛ لضمانها بوصفها عنوان الوجود ومصدر الإلهام والتوجيه في حياتنا المستقبلية.

فماذا اعددنا من عدة في سبيل توفير تلك الشروط الذاتية والموضوعية، التي تؤهلنا لعمليات التطوير والتفاعل الخلاق والمبدع مع قضايا الهوية والتحديات التي تطرحها العولمة ؟ وهل نملك من الإرادة الكافية والشجاعة المطلوبة لتقبل جرعة التحديث، في ظل ثقافة الالتزام والانفتاح المرن على العالمية؛ مما يمكننا من صناعة توأمة تعزز أواصر الاتصال والقربى بين الأصالة والحداثة بوعي مسؤول؟

6 – مقترحات وآفاق للتعاطي مع إشكاليات الهوية... والعولمة!

في تقديرنا الشخصي، ومن خلال تتبعنا لواقع وصيرورة الواقع الثقافي ببلدان المغرب العربي، ومدى التأثير الذي يحدثه في الموقف والسلوك الفردي والجماعي، الرسمي والشعبي... فان موضوع الهوية لا يزال يراوح مكانه،

و لم يحظ بعد بالعناية الكافية إن على مستوى الفهم أو التطبيق؛ كمحدد ومرجع رئيس في أي مسعى جدي باتجاه التطوير الاجتماعي، والحسم في خيارات الهوية المغاربية ومشروع المجتمع الذي يجب اعتماده!؟.. بل انه من المؤسف حقا أن نجد عدم توفر مناخ النقاش الحر والبناء، المفضي إلى التوافق والإجماع حول أركان الهوية المغاربية، بين النخب والفعاليات السياسية والمدنية في أقطارنا المغاربية. ذلك أن المؤسسة الرسمية في هذه البلدان، ومثيلاتها في المعارضة –بعد قيام الاستقلالات الوطنية– لم تعمل على تمكين عنصر الهوية من تبوء مكانته وموقعه في تأطير الذات الاجتماعية، والتأسيس لمنظومة القيم والسلوك في الحياة العامة. بل غالبا ما تحركت لتعمل باتجاه "التوظيف السياسي والإيديولوجي" لعناصر الهوية؛ بهدف إضفاء الشرعية على خياراتها وتوجهاتها ومواقفها وصراعاتها... المحلية والإقليمية والعالمية !

هذا في الوقت نفسه فقد نظرت النخب المتغربة بدورها إلى المسألة نظرة دونية يطبعها، بوصفها عاملا من عوامل التخلف المعيق عن اللحاق بركب الحداثة والعالمية... خصوصا ما تعلق بركني الإسلام والعروبة كمقومين أساسيين في الهوية المغاربية والعربية الإسلامية عامة. متذرعين تارة بدعوى استنفاذ المجتمع الإسلامي التاريخي التقليدي لوظيفته الحضارية، وأخرى بانتشار وذيوع سلوكيات التطرف والعنف داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة. لكن الحقيقة والواقع يؤكدان – كما يقول د. محمد عابد الجابري – أن: "التطرف الذي تعاني منه بعض الدول العربية والإسلامية تحت شعار الإسلام، فالمسئول عنه ليس الإسلام،؛ فهو مجـــرد شعار للتعبئة، إن المسؤول هي السياسة الامبريالية الاستغلالية التي يتبعها الغرب."[16]

فالإسلام في حقيقته هو دفاع عن الذات واستحضار للهوية، وخطره يتمركز بالأساس حول مواجهة المخططات التوسعية في أبعادها الاقتصادية الثقافية...وغيرها. أما ثقافة الحوار فهي متأصلة حكما في منظومته الحضارية؛ يتداولها حتى مع خصومه العقائديين، فضلا عن مناوئيه في ميادين الفكر والثقافة وأفاق التعامل الحياتية الأخرى. وقد تضافرت عوامل وجهود عدة: تاريخية، اجتماعية، ذاتية، وموضوعية، وأخرى تتعلق بواقع التحول والتبدل العالمي..؛ مهيأة مناخ قيام صراعات فكـــرية وإيديولوجية، وحدوث مواجهات ذات طابع ثقافي وسياسي غطت مساحة كبيـــرة من المعاملات على المستويين: المحلي القطري والقومي، وعلى المستوى الحضاري العالمي. وكان حظ "الهوية" من هذا الصراع وافرا ليطرح سؤالها بإلحاح على نطاقات ومستويات عدة: شعبية وعلى صعيد النخب الفكرية والسياسية، وفي داخل أجهزة الدولة الوطنية القطرية ومؤسساتها ؟.. تجلى ذلك خاصة مع نهاية مرحلة الاستعمار التقليدي، ومباشرة مع عصر الاستقلالات وبداية خوض معركة التنمية الاجتماعية والاقتصادية. الأمر الذي جعل سؤال الهوية والوجود بمنطقتنا المغاربية يشكل احد عناصر الاستقطاب والتواصل. وقد جاءت التحولات الدولية الأخيرة، وانهيار الإيديولوجية الشيوعية، لينفرد النظام الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة بزعامة العالم، في إطار ما عرف بالأحادية القطبية... كل ذلك فسح المجال واسعا أمام القوى الرأسمالية الغربية لتعبر عن طموحاتها المشروعة وغير المشروعة الهادفة إلى "رأسمالة العالم" اقتصاديا، ثم ليمتد عملها بعد ذلك إلى المسافة الأبعد؛ حيث العمل المنسق على تصدير مشاريع الهيمنة الإيديولوجية وعولمة الإنسانية جمعاء: وجودا وفكرا، وموقفا وسلوكا!؟

هذا الأمر أحدث ارتباكا وخللا في موازين القوة الدولية، كما فجر العديد من الأزمات في سياق المشروع الرأسمالي الأمريكي – الغربي المتغول؛ الذي يستهدف تدمير مختلف بنى النظام العالمي لصالح الهيمنة الأمـــريكية على العالم . وقد عبر هذا عن عمق الصراع وتناقضاته الكبيرة تاريخيا وحضاريا؛ متجليا في الأبعاد النفسية المضمرة التي تحركها نزعات الحقد والعنصرية المقيتة، وسلوكيات التعالي والوصايا... وغيرها؛ والتي نشم رائحتها الكريهة تفوح في كل مكان وتملأ زوايا العالم؛ من خلال شواهد ومواقف عدة، جرى بعضها على ألسنة الساسة والمفكرين، وبعضها الأخـــر بدا في مواقف بعض المجموعات المناهضة لكل ما له صلة بالعرب المسلمين. ولعل في تصريحات بوش الأب والابن حول فلسطين والعراق وطبيعة الصراع القائم في المنطقة، وكذا أراء ونظريات هنغتون وفوكوياما

حول مصير الإنسان، وقيام الحضارات، وادعاء نهاية التاريخ... ثم مواقف بعض الشعوب الأوروبية في الدانمرك وهولندا واستراليا... المدعومة صهيونيا؛ من مقام الرسول الأكرم – صلع –... وغيرها لهي أقوى الشواهد والأدلة المعبرة عن منطق التمركز والتوجيه للصراع العالمي، وإعطائه تعريفا محددا؛ يتضمن بالخصوص إعلان الحرب ضد العالم العربي الإسلامي وهويته الحضارية الشاملة.

فالمطلوب للتصدي لهذا الإعلان ليس هو مبادلة هؤلاء بالمثل، أو هو مجرد الإستقواء بالماضي والتاريخ وأمجادهما، ولا الانغلاق على الذات معتمدين منطق النعامة حيال عاصفة العولمة الهوجاء وأعاصيرها المدمرة... إنما يكون بتجميع قوى وفعاليات الأمة المتنوعة لتحضير خطة عمل شاملة؛ تتأسس على إعداد حزمة أهداف تكتيكية وأخرى إستراتيجية تتعلق أساسا بشروط نهضتنا وأفاقها الشاملة. تكون خطوطها العامة متضمنة إعادة اكتشاف ذاتيتنا الواعية و بعثها، ونفخ روح الفعالية في عناصر ومقومات هويتنا المغاربية العربية؛ بما يكفل لها التجديد والإبداع في حياة الفرد والمجتمع. وتتجلى معالم هذه الخطة في رأينا في العناوين التالية:

1- تحرير الإنسان المغاربي والعربي من حالة السكون والسلبية التي سكنته دهرا طويلا، وساهمت في صنع وعيه المزيف الذي تجلى في صورة: وجدانيات رومانتيكية ماضوية، وفكر مسكون بالقدرية و معشش بالخرافة؛ أفضيا إلى دوغماتية حياتية أفسدت عليه ذاته وشوهت كل قيمة: دينية، أخلاقية، ومدنية جميلة .

2- إعادة التعريف للذات والوجود والهوية المغاربية، وتفعيل هذه الأخيرة بالشكل الذي يمكنها من إعادة الصياغة الدقيقة والموضوعية لعناصرها ومقوماتها؛ في إطار تعزيز الانتماء والولاء للأمة، وتركزها على أرضية فكرية ومنهجية عملية تستجيب لتطلعات الأجيال، كما تتجاوب مع منطق العصر وتحولاته، وتستلهم من مفاهيمه ومضامينه الايجابية بما يكفل التكيف والمواكبة دون انغلاق أو تحلل.

3- تبني فكر العقلانية المستنير، والمنهجية الموضوعية الملتزمة، والمنطق العلمي العملي وأدواته؛ في فهم الواقع وإدراك حقائقه، والتعاطي معه على خلفية الاعتراف بكامل مكوناته وتفاعلاته.

4- بحث منهجية رشيدة للتواصل والاستيعاب للأخر؛ عبر تفعيل الايجابي من القواسم المشتركة كضمانة لتحقيق الحد الأدنى المطلوب من الإجماع الوطني، القومي، والإنساني؛ بعيدا عن منطق ولغة الإنكار أو الاستكبار.

5- إعادة الاعتبار للقيم الثقافية والإنسانية، واعتبارها بمثابة المخزون الحقيقي لكل مسعى للتطور المنشود، وضرورة تموضع الهوية لدى الفرد والمجتمع؛ كفعل واع يؤسس لمرحلة قادمة من الإقلاع الحضاري للأمة. ذلك وحده هو المسلك الذي يضمن لها الرؤية المتميزة التي تحدد مكانتها من فكرة العولمة والعالمية، وتوفر لها التقاطعات الممكنة ضمن أرضية صلبة وملائمة، تتيح لكل أطياف الحياة المعاصرة حق التعبير عن أبعادها وتجلياتها، في كنف التعاون والتعايش والسلام.

تلك هي رؤيتنا لمسألة الهوية المغاربية، ومنظور اقتراحاتنا المتواضعة لإعادة التعريف والتأهيل لموضوعها، استلهمناها على ضوء محددات وشروط تضمن لها مقاربة تيار العولمة بمنهجية وفعالية.

خاتمة

في إطار هذه الملامح ، وتلك المقاربة الفكرية السوسيو-تاريخية المذكورة يتحدد -في تقديرنا- سؤال الهوية المغاربية... وتحديات العولمة؛ ضمن أفق يتوخى توفير إطار التموقع للهوية العربية الإسلامية كفضاء أوسع جامع للأمة، وعنوان عريض لمشروع النهوض الحضاري. لتقترح الحلول، كما تقدم الإجابات المنطقية، التاريخية والواقعية؛ المؤطرة لفكرة الانتماء والمواطنة الفاعلة؛ حيث تكفل الحقوق والحريات، وتحترم الخصوصيات، وتفشى الثقافة الديمقراطية، ومبادئ الإنسانية الشاملة. تلك التي نحسبها بمكانة الأركان والدعائم التي بواسطتها وعليها يمكن لنا إعادة تشكيل وصياغة الهوية المغاربية، وبناء دولة الوطن ـــ الأمة في الفضاء

المغاربي، كخطوة أولى في مرحلة تجميع الشتات العربي، وإعادة اللحمة إلى كيانه؛ وتحقيق الوحدة العـــربية الكبرى في ظل الدولة العـــربية الجامعة؛ صاحبة الهوية العربية الإسلامية المانعة.

ونعتقد أن الإرادات الخيرة متوفرة والرغبة ملحة، كما الإمكانية البشرية والمادية والحضارية قائمة، إلى جانب المصلحة والضرورة فكلاهما يفرضان الإسراع في انجاز وتحقيق هذا المشروع القومي والإنساني الطموح والنبيل. فالتاريخ لم يصل بعد إلى نهايته كما يدعي فوكوياما، وبمقدورنا استحضاره وصناعته من جديد، وبالتالي إعادة إدخال امتنا العربية الإسلامية ضمن دورته الحضارية الجديدة بقوة و فعالية... فهل نعي ذاتيتنا كمغاربة وعرب ومسلمين، ونقوى على ذلك في ظل حركة التاريخ غير المتوقفة؟!

بيبليوغرافيا

1- جمال جمال الدين ، الإنسان الفعال ، ط 3 ، دار الفكر دمشق - سوريا 2006 صص 169 - 179
1مكرر- نفسه
2- يوسف قاسمي، المثقفون الجزائريون و الثورة التحريرية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة باتنة - الجزائر
3- سالم الحداد ، صراع الهوية ، الأطلسية للنشر ، تونس 2000 ، ص 15
4- محمد الصالح الهر ماسي، مقاربة في إشكالية الهوية ، ط 1 دار الفكر دمشق - سوريا 2001 ص 35
5- مجموعة من الباحثين، العقلانية العلمانية، " الشرق أوسطية " ، إصدار جامعة دمشق - سوريا 1996 ص 95
6- احمد بن نعمان ، الهوية الوطنية ، دار الأمة ، الجزائر 1996 ص 23 و ما بعدها
7- Saïd Sadi , Culture et démocratie , Ed – Parenthèses , Alger 1991
8- لمزيد من التفاصيل حول هذه الدعوات انظر : عبد الكريم غلاب ، أزمة المفاهيم و انحراف التفكير، مركز دراسات الوحدة العربية 1998 صص 253 - 264
9- سعد الدين إبراهيم و آخرون ، المجتمع و الدولة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1988 ص 170
10- حسن الترابي ، السياسة و الحكم ... ط 2 ، دار الساقي بيروت - لبنان 2004 صص 484 - 487
11- المنصف وناس، الدولة و المسالة الثقافية في المغرب العربي ، ط1 ، دار سراس للنشر تونس 1996 ص 146
12- الهر ماسي ، مقاربة في إشكالية الهوية ، مرجع سابق ص 33
13- برهان غليون و آخر، ثقافة العولمة و عولمة الثقافة ، ط 2 ، دار الفكر بيروت لبنان 2002 ص 23
14- للمزيد من التفاصيل حول هذه المواقف انظر : السيد ياسين، العولمة و الطريق الثالث ، ط2 ، مريت للنشر والمعلومات القاهرة 2001 ، صص 27 - 48
15- برهان غليون مرجع سابق، ص 28
16- محمد عابد الجابري ، مسالة الهوية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان 1995 ص 196

سياسة الإخضاع وقوانين الأنديجينا
من خلال أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر

د / كريم ولد النبية
جامعة الجيلالي ليابس/سيدي بلعباس

ملخص

نحاول من خلال الوثائق الأرشيفية لإدارة الاستعمارية تفهم تاريخ ارتباط المسؤولية الجماعية في حق الجزائريين وحدهم عند وقوع مخالفات تمس المصلحة الاستعمارية .بما عرف رسميًا بقوانين الأنديجينا التي تخضع مبدئيًا إلى سياسة الإخضاع.أصبح عندئذ جميع الجزائريين يخضعون للعقوبة الجماعية المترتبة عن أي مخالفة استثنائية. وتحولت الإدارة بسرعة إلى مؤسسة تعسفية.بالرغم من أن مبدأ المسؤولية الجماعية ظهر منذ 1830 رافق كل القوانين الزجرية والقمعية المتعلقة بالمصادرة والتحديد والتغريم إلا أنه لم يتم صياغته في تشريع قانوني مستقل .بمقتضى قوانين 29 أوت و11 سبتمبر 1874. ثم عُممت وجُمعت هذه المخالفات في قانون 28 جوان 1881. يتضح أن قوانين الأنديجينا عبارة عن مجموعة من المخالفات الاستثنائية غير الإنسانية المخالفة لأبسط حقوق الإنسان، تطبق على الجزائريين أي إذا ارتكبها الأوروبيون لا تعتبر مخالفات.

Résumé

Pendant la conquête, le commandement militaire est investi dès 1830 de pouvoirs discrétionnaires; en 1844, une circulaire édicte un règlement codifiant les infractions passibles de prison ou d'internement et tarifiant les amendes. Les bureaux arabes reçoivent des pouvoirs disciplinaires. Après l'extension du territoire civil, le régime de l'indigénat a était codifier et la répression de ces infractions, confier aux administrateurs, par la loi du 28 juin 1881. Il prévoyait des pénalités pour des infractions dont le nombre passe de 41 en 1881 à 21 en 1888 et 8 en 1914, comme la réunion sans autorisation. Le gouverneur général, était aussi juge répressif, il exerçait en Algérie les pouvoirs de haute police, internement devenu mise en surveillance spéciale, amende et séquestre. Cela va évidemment contre le principe de la personnalité des Lois.

مقدمـــة

منذ بداية الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م ارتبطت المسؤولية الجماعية في حق الجزائريين وحدهم عند وقوع اعتداءات على أوروبي أو"ضجة" تمس المصلحة العامة .بما عرف رسميًا فيما بعد بقوانين الأنديجينا التي تخضع مبدئيًا إلى سياسة الإخضاع (L'assujettissement) أي إخضاع المستعمرة لدولة الأصل ولمصلحتها وحدها. أصبح عندئذ جميع الجزائريين يخضعون للعقوبة الجماعية المترتبة عن أي مخالفة استثنائية. وتعود أسباب سّن هذا الإجراء في شكل قانون في برلمان باريس.بمساعدة النواب الأوروبيين إلى ذرائع واهية منها مسألة عدم توفر الأمن واضطراب الأوضاع في الأرياف الجزائرية،وتزايد وتيرة إشعال الأعمال العدائية ضد المصالح الفرنسية كالهجمات على مراكز الاستيطان1، الاغتيالات، إشعال النار في الغابات... وهي الأمور ذاتها

التي أعطت الفرصة للسلطة الاستعمارية على استغلال انتشار ما سمي بظاهرة اللصوصية أو ما كانت تسميه الإدارة الاستعمارية في كامل الجزائر بقُطاع الطرق والخارجين عن القانون[2].

تحولت الإدارة المحلية بسرعة إلى مؤسسة تعسفية، وذلك بالرغم من أن فرنسا بلد الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان،بلد فكرة الفصل بين السلطات والعقد الاجتماعي! ورموزها مونتسكيو صاحب كتاب «روح القوانين» والمفكر جان جاك روسو صاحب كتاب «العقد الاجتماعي».

الإجراءات القمعية التي تحفل بها السياسة الأهلية للجمهورية الفرنسية الثالثة تمثلت في إقرار مبدأ المسؤولية الجماعية عند وقوع الجريمة. ورغم أن مبدأ المسؤولية الجماعية مبدأ قديم رافق كل القوانين الزجرية و القمعية، ابتداء من عام 1845 حيث عُمم فيما بعد على قانون المصادرة بالتحديد و التغريم إلا أنه لم يتم صياغته في تشريع قانوني مستقل وبصفة رسمية إلاّ في عام 1881.

1 – مفهوم قوانين الأنديجينا

السلطة الاستعمارية الفرنسية، تعتبر "الشعب الجزائري" ملكية خاصة حصلت عليها بفعل الاحتلال والاستعمار. الجزائر أرض مفتوحة على حد تعبير مؤرخي المدرسة الاستعمارية بالنسبة لهم الجزائريين أي الأهالي كما كانوا يسمونهم ليسو أكثر من مغلوبين لا يستحقون أي حق من حقوق والمساواة[3]. وعليه فإن سنة 1830 هي السنة التي ظهرت فيها القوانين الاستثنائية الرهيبة في حق الجزائريين وحدهم. وقد نشطت هذه السياسة بعد انهيار النظام العسكري عام1870، وانتهاء عهد المكاتب العربية العسكرية.

هذا القانون التعسفي، هو نتيجة من نتائج سياسة إخضاع الجزائريين حين أصبح الرأي السائد أنه لا لزوم اعتبار الجزائريين كفرنسيين بل على العكس سياسة الإخضاع هي التي ينبغي أن تفرض عليهم. ومن هذا جاءت فكرة قانون الأهالي أو بتعبير أدق الأنديجينا وهو المصطلح الذي أفضله باعتبار أن الترجمة الحرفية غير مناسبة،ثم أن نعت الجزائريين بالأهالي هو اصطلاح استعماري نجده في الوثائق الإدارية الاستعمارية ليس إلا ؛ فما طبيعة وحقيقة هذا القانون الرهيب؟

لقد بُعثت سياسة الإخضاع بالقوة بعد أن حقق الأوروبيون النجاح الكامل في ضبط إدارة الجزائريين لكنهم أدركوا بسرعة؛ أن هذا الانتصار الاستعماري يمكن أن يتحول ضدهم. وأخذ هاجس الخوف من المشاكل الأمنية، يهدد نظامهم الاستعماري. فأسرعوا إلى جمع مجموعة من الإجراءات التعسفية مارسها الاستعمار منذ دخوله أرض الجزائر. وبالرغم أن الكثير من المؤرخين من يحاول بقصد أو دون قصد إرجاع هدا القانون إلى الجمهورية الثالثة، إلا أن الأحداث التاريخية لجرائم الاستعمار في الجزائر تثبت أن بالرغم من صدور هذه القوانين عام 1874، إلا أن جذورها ترجع إلى بداية الاحتلال.

«قانون الأهالي» مجموعة من القوانين الاستثنائية فرضت على الشعب الجزائري بمقتضى قوانين 29 أوت و11 سبتمبر 1874 أي مند ظهور مرسوم ينظم القضاء الجنائي الخاص بالجزائريين، والذي أخضعهم إلى المخالفات الخاصة[4]. ثم عُممت وجُمعت هذه المخالفات في قانون 28جوان1881عندما اتسعت الأراضي المدنية على حساب الأراضي التي تخضع إلى الحكم العسكري.

بالإضافة إلى الإجراءات الزجرية والقهرية، نشير إلى إجراء "الحجز الإداري" (AdministrativeL'internement). وهو وإجراء كسابقيه طبق على الجزائريين دون غيرهم. زيادة على أن تطبيقه على المتهمين لا يخضع

لأي شكل من أشكال المقاضاة المتعارف عليها. فمثلا، يكفي فقط قرار من الحاكم العام أو الحاكم الإداري أو الضابط العسكري، وبطريقة تعسفية؛ يؤخذ الجزائري عنوة من بلدته أو قريته ويفرق بينه وبين أفراد عائلته دون إعطاءه الوقت الكاف للاستفسار عن طبيعة جرمه أو السماح له بالدفاع عن نفسه. ليرسل بعدها إلى مكان مجهول قد يكون السجن أو مزرعة من مزارع الكولون أو حتى ورشة عمل مشبوهة لأحد المقاولين الأوروبيين! ولفترة غير محددة زمنيا، قد تكون قصيرة أو متوسطة أو لمدى الحياة. فهذا التحديد يخضع كذلك لمزاج الحاكم وطبيعة المخالفة التي يكون قد ارتكبها المعني.

ظهور قانون الأنديجينا مرتبط بتطور التشريع الاستعماري. وإذا ما تتبعنا تطور هذا التشريع، فإننا نسجل أن أحكام هذا القانون بدأت فعليا مع أوامر الجنرال بيجو إلى ضباطه العسكريين الذي منحهم بموجبها صلاحيات مطلقة لمعاقبة الجزائريين بسرعة وبقسوة[5]. منذ بداية الاحتلال مُنحت للقيادات العسكرية صلاحيات واسعة جدا خارجة عن القضاء ومناقضة له أعطت القاعدة الأساسية للتنظيم الأمني الاستعماري، وعليه، فإن ظهور قانون الأنديجينا مرتبط بظهور الاستعمار في الجزائر،وليس بانتفاضة 1871 أو 1881.

إنه عبارة عن قوانين استثنائية فرضت على الجزائريين منذ بداية الاحتلال ضد مخالفات يرتكبونها؛ وبعد تحطيم مقاومتهم المسلحة بقيادة المقراني، جُمعت هذه المخالفات وقُننت، وقد ضمت عام 1890 إحدى وعشرون مخالفة قبل أن تعدل عدّة مرات.

ما يهمُنا هنا أن هذه القوانين عممّت بمقتضى قانون 1881 في البلديات، وسمحت للإداريين في ب/م التي كانت تغطي أكبر مساحة من أرض الجزائر،ويعيش فيها أغلب فئات الشعب الجزائري المغلوب على أمره. بحيث يحل الحاكم الإداري منصب القاضي، وبذلك يزول الفصل بين السلطات في جمهورية مونتيسكيو وجان جاك روسو، وفي جمهورية تدّعي أنها مهد حقوق الإنسان. أما بلديات ذات الصلاحيات الكاملة فيتولى قاضي الصلح صلاحيات القاضي بدون أن يكون لذلك الجزائري الضعيف حق الاستئناف، وحتى إن وُجد فليس له أي حظ للوصول إلى السلطات الإدارية العليا.

ويتضح أن قانون الأهالي عبارة عن مجموعة من المخالفات الاستثنائية غير الإنسانية والمخالفة لأبسط حقوق الإنسان. تطبق على الجزائريين أي إذا ارتكبها الأوروبيون لا تعتبر مخالفات.

ظهرت هذه الأحكام الزجرية منذ بداية الاحتلال لأنها عبارة عن صلاحيات قانونية تخول للجيش أولا ثم الإدارة سلطات مطلقة في فرض العقوبات على الجزائريين، فأين هي المُهمة الحضارية التي لطالما تغنى بها رجال الاستعمار؟

والحقيقة أن قانون الأنديجينا واحد من مجموعة من القوانين الردعية الكثيرة المسلطة على الجزائريين تصب كلها في قالب واحد. كانت بمثابة السوط في يد الإدارة المحلية الاستعمارية. وفي كل مرحلة من مراحل التسلط يدعم هذا القانون بمجموعة من النصوص الزجرية والتشريعات المجحفة بحجة المحافظة على الأمن العام. لكن الهدف الحقيقي كان المحافظة على النظام الاستعماري.

قانون الأهالي هذا لم يخص فئة الفلاحين فقط، بل كان يخص كل الجزائريين،حتى أولائك "المتجنسين" الذين ظنوا أنهم سوف يفلتون من قبضة مخالفات هذا القانون،باعتبار أن "الحقوق" التي اعتقدوا أنهم حصلوا عليها ظلت مُجرد حبر على ورق[6]. وهنا نتذكر تلك القصة الطريفة التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية في منطقة الغرب الجزائري، والتي مفادها أن المدعو الكولونال محمد بن داود، قائد فرقة الصبايحية،كان له ملكيات واسعة في منطقة وهران ،أصله من قبيلة الدوائر المخلصة للسلطة الفرنسية حيث وقف زعيمها مصطفى بن اسماعيل ضد الأمير عبد القادر وتحالف مع العدو في معاهدة الكرمة 16جوان1835. وهو الشخص الذي اعتقد أنه

نجح في حياته وحقق كل أهدافه، وذات يوم رغب في حضور حفل بلدي أقامه الأوروبيون في مدينة وهران، بمبادرة من شيخ البلدية، لكن محمد بن داود مُنع من الدخول رغم أنه فرنسي كما كان يقول بل هو كلونيل، وحينها قال مقولته المشهورة: «عربي،عربي، ولو الكولونال بن داود»، ثم انتحر بالقرب من منطقة الكرمة!

2 – أصناف قوانين الأنديجينا

عندما استقر الوضع بالنسبة لأوروبيين وقمعوا المقاومات الشعبية المسلحة أدركوا أن انتصاراتهم يمكن أن تتحول ضدهم، فاستعملوا الترسانة القانونية بجمع تلك المخالفان في قانون خاص أخذ يتطور ويتجدد باستمرار وكان لهذا القانون المعروف بقانون الأنديجينا أربعة أصناف هي:

أ– سلطة قضاة الصلح (Juges de paix) نجدها في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة. (عدد كبير أكثر من مليون سنة 1919 من الجزائريين كان يعيش في هذه البلديات)زيادة على أن قانون 15 جويلية 1914 منح له صلاحيات واسعة7. كما أن قانون 01 جانفي 1928 وضع حد لسلطة الحاكم الإداري وأصبحت في يد قاضي الصلح. ولعله من المفيد التذكير أن قانون 04 فبراير 1919 لا يلغي قانون الأهالي كما يذكر دلك سهوا المرحوم أحمد توفيق المدني، في كتابه الجزائر ، بل أن هدا القانون يحمي المسجلين في قائمة الانتخابات من الجزائريين فقط. علما أن مرسوم 06 فبراير 1919 المادة 10 تضع شروطًا قاسية لتشكيل الهيئة الانتخابية بالنسبة للجزائريين. نذكر أيضًا أنه في إحصاء 1911 عدد الجزائريين في البلديات ص.ك بلغ في عمالة الجزائر 978.463 في عمالة قسنطينة 761 .375 وفي عمالة وهران 046 .233.

ب– سلطة الحكام الإداريين في البلديات المختلطة التي كانت رمزا لقانون الأهالي لأن سلطة الإدارة في هذه البلديات كانت واسعة جدا لدرجة سجن الأشخاص، ومصادرة أملاكهم وفرض الغرامات المالية عليهم. وظل تعسف الإدارة و أعوانها سائدا رغم إلغاء صلاحيتها التعسفية نظريا عام 1928. وهكذا فإن تاريخ 1جانفي 1928 لا يعني نهاية قانون الأهالي كما يعتقد البعض، بل يعني أن صلاحيات السلطة القضائية بالنسبة للحاكم الإداري في البلديات المختلطة تنتهي لكن قوانين الأنديجينيا ظلّت سارية في شكل سلطة الحاكم العام.

ج– سلطة المحاكم الزجرية المختصة بالسكان الجزائريين فقط، حين استجابت الحكومة الفرنسية إلى مطالب الكولون فأنشئت محاكم سمتها بالمحاكم الردعية (Tribunal Répressif) لتقوم مقام محاكم الدرجة الأولى بالنسبة للجزائريين . ويظهر أن الجزائريين كانوا يستهزئون بهذه المحاكم فيما بينهم ولهذا أطلقوا عليها اسم «ترُوبيناَل بَسيف»،كما أنها أحلت المحاكم الجنائية محل محاكم الجنح في جميع ما يختص بمخالفات الجزائريين. تأسست بمرسوم 29مارس 1902[8] مباشرة بعد أحداث عين تركيت (Margueritte) يوم 26 أفريل 1901. وهي المحاكم المنافية لأدنى شروط النظام الجمهوري.كانت منتشرة عبر دوائر قضائية هدفها إصدار أحكام تعسفية وزجرية بسرعة ضد الجزائريين. لقد أحصيت أنها حاكمت حوالي 71.162 جزائري في الفترة الممتدة ما بين 1902 و1905، 30ألف منهم من منطقة عمالة وهران. ونظرت هذه المحاكم أيضًا في 557797 قضية عرضت عليها في نفس الفترة.

د– سلطة الحاكم العام في توسيع العقوبات على الجزائريين و لها أربعة أشكال أساسية.

سلطة الحجز في المعتقلات رغم أن قانون 15 جويلية 1814 حاول إلغاءها.

سلطة الوضع تحت الحراسة المشددة وهي من أخطر الوسائل التي سلطت على زعماء الحركة الوطنية الجزائرية خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية، ومنهم مصالي الحاج والبشير الإبراهيمي ... وغيرهم.

سلطة فرض الغرامة الجماعية، هي وسيلة إدارية رهيبة سُلطت على الجزائريين أثناء المقاومة الشعبية ثم صدر قانون الغابات بتاريخ 25 فبراير 1903، الذي أعطى ديناميكية وفعالية أكثر للقمع الاستعمار ضدّ السكان الجزائريين خاصة في الريف.

سلطة العزل وحبس الأشخاص بلاحق، وهي سلطة قديمة في يد الحاكم العام، مُنذ الاعتداء الفرنسي على الجزائر. تم تدعيمها أكثر بقانون 17 جويلية 1874[9].

3 – مظاهرها الرهيبة

قانون الأهالي لسنة 1881 كان يتضمن 41 مخالفة وتم تعديل هدا القانون تسع مرات متتالية. أما المخالفات التي صدرت عام 1881 في شكل قانون في عهد حكومة جول فيري. أعطت صلاحيات تعسفية للحاكم الإداري عام 1890 نذكرها في ما يلي:

1- كلام- ضد فرنسا و الحكومة .
2- رفض خدمة الحراسة و المراقبة أو عدم القيام بهما .
3- رفض توفير الغداء ووسائل نقل للأعوان المساعدين (القياد)مقابل استرجاع فوري.
4- عدم تطبيق الأوامر الواردة في نص قوانين 26 جويلية 1873 و28 أبريل 1887 و23 مارس 1882.
5- الإخلال بالقرارات الإدارية الخاصة بإسناد الأراضي الجماعية.
6- التأخر في دفع الضرائب.
7- رفض المثول لاستدعاء القابض.
8- عدم التصريح بالمواد الموظفة.
9- حجز الحيوانات الضائعة (ملك للكولون) أكثر من يوم واحد.
10- حق اللجوء لكل شخص أجنبي بدون رخصة تجول.
11- الأخطاء في تسجيل الأسلحة النارية.
12- المساكن المعزولة خارج الدوار بدون ترخيص و الإقامة في الأماكن المحرمة.
13- الخروج من منطقة البلدية بدون إعلان و الخروج من الإقامة بدون جواز سفر.
14- التغافل عن توقيع رخصة الخروج من الأماكن بعد الإقامة فيها أكثر من يوم واحد.
15- مخالفة القانون لكل من لا يحمل ترخيصا في استعمال الحيوان.
16- الخصومات و الشكاوى و أعمال العنف .
17- رفض الأشغال و الخدمات الخاصة بتقديم النجدة أو التهاون في قمع الانتفاضات.
18- الاجتماع بدون ترخيص لأكثر من عشرون شخصًا في المناسبات: الزردة، الأعراس، الحج...
19- فتح مدارس دينية أو تعليمية بدون رخصة.
20- ممارسة حرفة التعليم الابتدائي بدون إذن.
21- رفض المثول.

نضيف إلى هذه القائمة عددًا من المخالفات المُصنفة في عام 1881، مثل الأعمال والأقوال التي تمس السلطة أو عون من أعوانها وعدم امتلاك جواز سفر ورخصة سفر وبطاقة الأمن ودفتر الشغل...، ومراجعة قوائم قانون الأهالي، تمت في سنوات 1881 و1890 وفي 1904 لغاية التنسيق بين المخالفات المتنوعة وجمعها في عام 1914.

أما قانون 15 جويلية 1914 فقد منح لقاضي الصلح صلاحيات مخالفات القانون الخاص، وحافظ الحاكم الإداري في البلديات المختلطة على صلاحيات إدارية تعسفية. لقد سعى هذا القانون إلى الحد من التأويل الشخصي نظرا لغموض الكثير من المخالفات مثل أعمال الفوضى في الأسواق... وصنابير المياه العمومية وتحديد الغرامة المالية. علما أن مخالفة حماية الغابات في فصل الصيف يؤدي إلى غرامات تتروح ما بين عشرون أو خمسة مائة فرنكا والسجن من ستة أيام إلى ستة أشهر.

وكعادتها،كانت الإدارة الاستعمارية تدعي أن **هذا القانون مُؤقت**. لكن رغم ذلك؛ فقد تم تجديده تسع مرات[10].كما أن قانون 28جوان1881 أعطى للحكام الإداريين في البلديات المختلطة صلاحيات القمع و التعسف لمدة سبع سنوات. ثم مدّدت إلى سنتين؛ عام 1888 ثم مرة أخرى لمدة سبع سنوات عام 1890 وإلى ست سنوات؛ عام1897. رغم معارضة بعض النواب الأحرار في البرلمان الفرنسي بأنه يشوه سمعة فرنسا حين صرح النائب ماريوس موتي(MOUTET): «سلطة الإدارة في الجزائر واسعة جدا،لها الحق في الحجز والحكم والمحاكمة، وهذا غير معقول»[11].

لكن رغم كل ذلك فإن السلطة الاستعمارية كانت تجدد صلاحيات هذا القانون باستمرار، معتبرة إياها في صالح المصلحة العامة. حيث مدد قانون مرة أخرى عام 1914 لسنتين، ثم بقانون 4 أوت 1920، وكذلك بستة أشهر بقانون 11 جويلية 1922 ثم بخمسة أشهر في نهاية عام 1922... وهكذا كانت الإدارة دائمًا تجد الحجة المناسبة لتبرير استمرارها في تجديد هذا القانون، وتقول أن المسألة مؤقتة.

4 – المحاكمات والغرامات

طبقت الإدارة الفرنسية عقوبة الغرامة الجماعية منذ السنوات الأولى للاحتلال بعد أن أقره قرار بيجو الصادر في جانفي 1844م والذي وضع الأسس التنظيمية لهذا النوع من التغريم. وتذكر المصادر الرسمية للحكومة العامة بالجزائر[12] أن عدد المحاكمات الصادرة من قبل الحكام الإداريين للبلديات المختلطة في نهاية السداسي الثاني من عام 1906، وبداية السداسي الأول من سنة1907، وفقا لقانون 24 ديسمبر 1904 بلغت 28201 محاكمة أي بزيادة قدرها 4.852 وحدة مقارنة مع المحاكمات[13] الصادرة قبلها. ومن الواضح أن هذه الأرقام نشرت لتبرير استمرار قانون الأهالي. وهي موزعة على الشكل التالي:

جدول1 : مقارنة لمحاكمات قانون الأهالي في العمالات

العمالات الجزائرية	الفترة 1905 – 1906	الفترة 1906 –1907	الفرق
عمالة الجزائر	5456	6972	1516+
عمالة وهران	6128	6170	42+
عمالة قسنطينة	11765	15059	3294+

المصدر: أنجزت هذا الفرق من خلال الأرقام المنشورة:
Exposé de la situation générale de l'Algérie, Année 1908.

إن هذا الرادع العقابي لم يكن فقط موجها لإخماد الانتفاضات الشعبية، وإنما كان أسلوب انتهجته الإدارة الفرنسية وأعوانها في تعاملها اليومي مع الجزائريين[14]. فأي سلوك يبدر منهم تجاه الفرنسيين؛ تسارع السلطات الإدارية بفرض الغرامة و العقاب.

في موضوع المحاكمات الخاصة بقانون "الأهالي" يذكر الحاكم العام للجزائر أن المخالفات ليست كبيرة بالدرجة التي يصورها الجميع ويذكر الأرقام التالية: سنة 1926 مجموع المخالفات في ثلاث عملات بلغ 970 أم في سنة 1927 بلغ 967 [15] لاشك انه يُقزم الأرقام بهدف تمرير إصلاحاته. أما عن مجموع المحاكمات الخاصة لقانون الأهالي داخل البلديات المختلطة وفقا لقانون 15 جويلية 1914 فإن الحاكم العام للجزائر موريس فيولت[16] يذكر عام 1927 الأرقام التالية:

جدول2 : عقوبات ومخالفات قانون الأهالي
في مجموع البلديات المختلطة خلال الفترة 1914-1925

قانون الأهالي في مجموع البلديات المختلطة	1914-1925
مجموع المخالفات	39184
مجموع الغرامات	215884
مجموع عدد أيام السجن	141323

المصدر: من خلال الجداول التي ذكرها موريس فيولت،مرجع سابق، ص 406 –408

جدول3 : مخالفات قانون الأهالي للمحكمة الردعية للدائرة القضائية لعين الأربعاء
(لمنطقة سيدي بلعباس وعين تموشنت تضم 03 بلديات صلاحيات كاملة و02 دوار من بلديات مختلطة)

دواوير البلدية المختلطة	عدد السكان	نوع المخالفة	العدد
دوار وادي برقش	5559	تهمة سرقة متنوعة	08
دوار وادي الصباح	5698	تهمة الضرب والجرح	06
دوار عين قادة	6644	مخالفات متنوعة	17
المجموع	12772	المجموع	31

المصدر: – المحكمة الردعية للدائرة القضائية لعين الأربعاء – سيدي بلعباس
(03 بلديات صلاحيات كاملة و02 دوار من بلديات مختلطة)

شكاوى الجزائريين في التنديد بالسياسة الإدارية الاستعمارية الجشعة وحلفائها الأوروبيين، الذين سعوا إلى إصدار القوانين الخاصة لتجعل من الجزائريين عبيدا في وطنهم. غير أن صدور قانون التجنيد الإجباري بمرسوم 03 فبراير 1912، حرك في النفوس ردّ فعل لم تستطيع القوانين الجائرة أن تقف أمامه هذه المرة. إن الحركة المعارضة للتجنيد الإجباري حرضت النفوس وزادت من الغليان الاجتماعي والسياسي ضد قانون

الأهالي. بل هي التي كانت وراء سياسة التعديل والتخفيف من قانون الأهالي، وليس إرادة السلطة الاستعمارية كما يحاول البعض إيهامنا بها.وهذا ما يفسر تقلص المخالفات من 41 مخالفة سنة 1881 إلى 08 عام 1914، تخص صلاحيات الحكام الإداريين في ب/م و قضاة الصلح في ب–ص.ك[17] نذكرها فيما يلي:

1- رفض دفع التعويضات الفورية للغرامة المحددة بالتناوب من طرف رئيس الدائرة والقايد.
ورفض توفير وسائل النقل الضرورية للموظفين المكلفين رسميا بأمر خاص من الحاكم العام، ورفض دفع التعرفة الخاصة.
2- رفض إعطاء معلومات طلبها أعوان السلطة الإدارية أو القضائية لتنفيذ مهامهم.
3- عدم تنفيذ القرارات الإدارية الخاصة بتوزيع الأراضي الجماعية بعد صدور موقف مجلس الجماعة.
4- رفض تطبيق الدوريات والحراسة التي صدرت وفق لأوامر حاكم العمالة، أو إهمال مركز الحراسة أو التهاون في تنفيذ المهام.
5- أعمال شغب في الأسواق أو مناطق التجمعات وحول حنفيات المياه العمومية. (رغم أنها لا تشكل مظهرا خطيرا، فهي مع ذلك تصنف ضمن الجنح).
6- رفض القيام بأعمال أو خدمة تقديم مساعدات تنجز عليها حوادث أو مصاب (بالنسبة للتمردات، السرقة، أحداث الشغب، تكليف براح عمومي دون إذن.
7- غياب مستمر وبدون تبرير بعد صدور إنذار أولي في دفع الضرائب والغرامات وبصفة عامة كل المصاريف تخص الدولة أو البلدية إلى جانب تنفيذ الأعمال القانونية العادية.
8- رفض الإطلاع على الاستدعاءات المختلفة بمناسبة جمع الضرائب بدون مبرر مقبول أو استدعاء من قبل المراقبين وموزعي الضرائب المباشرة وقابضي الضرائب (الكوميس).

هكذا نلاحظ أن الإدارة الاستعمارية طبقت على الجزائريين سياسة الزجر والتعسف التي بلغت في قسوتها وتجاوزت كل حدود المعقول. وأغلب المحاكمات والعقوبات كانت تتعلق بمسألة التهاون في الحراسة، حين تصفحت سجل عقوبات قانون الأهالي لمقاطعة تلمسان عام1897. أغلب المحاكمات والعقوبات كانت تتعلق بمسالة التهاون في الحراسة. هذه القوانين لا صلة لها بالقانون العام، أي أنها لا تعتبر جنحا، إذا ارتكبها مواطنون فرنسيون! ولم يكتف هذا القانون بعقوبة السجن. لأن ذلك الجزائري المسكين الضعيف يمشي حافيا على الأقدام وسط الغبار والوحل؛**السجن** بالنسبة له **ملجأ** ضد البرد القارص في فصل الشتاء، والحرارة الشديدة في فصل الصيف، والحقيقة أن البلدية في حد ذاتها تعتبر سجنا إداريًا كبيرا.

حسب السلطة الإدارية،السجن لا يعتبر عقوبة بل العكس. وهذا ما يفسر أنها كانت تفرض على السجناء الأعمال الفلاحية في مزارع الكولون إلى جانب أعمال التشجير وصيانة الطرقات والسدود وأعمال أخرى منها التنقيب على الآثار! حين أجريت تنقيبات أركولوجية في منطقة شرشال بأمر من الحاكم العام جونار؛تم فيها استغلال اليد العاملة من سجن دويرة[18]. ويظهر هكذا أن قوانين "الأنديجينا" كما كان يصطلح عليها، قد تطورت مع تطور الإدارة الاستعمارية الظالمة،وبمقارنة المخالفات الأولى التي صدرت في قانون 1881 مع غيرها من المخالفات الصادرة في القوانين اللاحقة سنة 1890 و1897 و1904

وخاصة 1914: الإدارة الاستعمارية لم تدرك فشلها، بل استمرت في تعسفها معتبرة أنها تسير في بشر من الدرجة السفلى، لا يستحقون أي احترام.

الملاحظ أن الوثائق الرسمية لإدارة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى تبين تراجع كمية الغرامات المفروضة على الجزائريين في قانون الأهالي. لكن الأرقام وحدها لم تكن قادرة على الوقوف ضد إرادة الكولون. في سنة الأولى للحرب نسجل 3269 عقوبة[19]. ثم أخذت في الهبوط إلى غاية السنة الأخيرة للحرب أين سجلت 474 عقوبة[20]. فهل هذا يعني تحسن العلاقة بين الحكام والمحكومين؟ طبعًا لا يسعني إلا الحكم بالنفي والجزم. لأن الإدارة المحلية وعيًا منها بخطورة الأوضاع السياسية والأمنية فقد حاولت التخفيف من العقوبات المسلطة. لأنها كانت في موقف ضعف بل كانت في حاجة ماسة إلى الاستقرار.

يبدو واضحًا أن بعض المخالفات قد اختفت من القانون الأخير،منها على سبيل الذكر تلك المخالفة الخاصة بالامتناع عن إرسال الصبيان أو إهمال إرسالهم إلى المدرسة الابتدائية الفرنسية، حيث طبقت هذه المخالفة في بلاد القبائل فقط حينما كانت الأسطورة القبائلية سائدة بقوة في سياسة الإدارة الاستعمارية.

جدول4 : مخالفات قانون الأهالي أثناء الحرب العالمية الأولى

سنوات الحرب	مخالفات قانون الأهالي
1914	3269
1915	1386
1916	1173
1917	539
1918	474

المصدر : أرشيف ولاية وهران A.W.O, Ex- série B, pouvoir disciplinaire B8, P.V n° 2811,25

في المقابل علينا أن نشير أن الغرامات الجماعية[21] كانت تطبق أيضًا على المسؤولية الجماعية. وفي ذلك يذكر تقرير[22] المكتب العربي يوم 17 أكتوبر 1898، أن ضابط الشرطة القضائية النقيب لاقاري(Lagary) يسلط العقوبة الجماعية على بفرض غرامة مالية قدرها 800 فرنك[23] في شكل ديّة تدفعها قرية الهابل من قبيلة بوسليمان نتيجة وقوع جريمتين في ظرف قصير. الأولى في يوم 29جوان1894، حيث اغتيل السيد صالح بن محمد الصالح. وقبله قتل المدعو مبروك بن على دريدي يوم 13 أكتوبر 1894. ويبدو أن قايد الدوار شكيمي محمد وراء هتان الجريمتان، لكن أصر سكان القرية على الرفض بالإدلاء بأي شهادة خوفًا من تسلط هذا الأخير[24]. نذكر أيضًا أن عدد أيام السجن المفروضة على الجزائريين خلال ثلاث سنوات من 1919 – 1921 بلغت 18959 أي ما قيمته 51.94 سنة، بينما بلغ مجموع الغرامة خلال نفس الفترة 34800 فرنك.

انتشر ما كانت تسميه الإدارة الفرنسية بالإجرام ضد المصالح الفرنسية في شكل أعمال عنف ضد الأوروبيين وممتلكاتهم. وهذه الحركة عمّت كل أرياف العمالات قسنطينة، الجزائر ووهران ومناطق الجنوب ومسّت الأشخاص، والممتلكات على السواء والجدول أسفله يمثل ذلك حيث تُبين الأرقام الرسمية أن ظاهرة العنف ظلّت مرتفعة سواء أثناء أو بعد الحرب الكبرى، ذلك أن التعسف الإداري ظل هو الآخر مُستمر. وكانت سنة 1921، السنة التي ارتفع فيها الإجرام بشكل خطير حيث وصل 10152 ضدّ الممتلكات الأوروبيين الخاصة[25]، ووصلت في نفس السنة إلى24462 ضد الأشخاص الأوروبيين.[26]

الحقيقة إنني أشك في هذه الأرقام التي كانت رغم ذلك تنشرها الإدارة الاستعمارية، لأنها من وراء ذلك؛ كانت تريد أن تثبت لنا أن ظاهرة ارتفاع الأرقام في للعنف الريفي لا تزال مستمرة. وعليه فليس من الضروري إلغاء القوانين الاستثنائية، خاصة منها قانون الأهالي. ومن الواضح أنها كانت تحضر "الرأي العام" على ضرورة تجديد هذه القوانين الاستثنائية. وفعلا هذا ما حدث عام 1922 عندما جدّد قانون الأهالي للمرّة التاسعة.

الإدارة كانت أحد أهم أسلحة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر لأنها كانت الوسيلة المعتمدة في إخضاع الجزائريين. لكن هذه الإدارة وجدت نفسها في تناقض واضح مع سياستها اتجاه الجزائريين. بمساعدة حلفائها استغلت ضعف الجزائريين، وأصدرت مجموعة كبيرة من القوانين الاستثنائية التي ظلّت تطبق على السكان الجزائريين دون غيرهم. وهذا يعني أن مخالفات هذه القوانين إذا ارتكبها "الفرنسيون" أو بالأحرى "الأوروبيون" فلا تعتبر مخالفات!

جدول5 : تطور مخالفات الاعتداء على الممتلكات (عمالة وهران نموذجًا)[27]

السنوات	1918	1919	1920	1921	1922	1923	1924	1925	1927
الممتلكات الخاصة	8781	8684	8938	10152	3593	4538	5642	4214	5633
المجموع العام	18311	18214	19537	24462	18541	15023	11728	14766	15421

المصدر : أنجز هذا المجموع من خلال الأرقام المنشورة في/
Exposé Situation Générale de l'.Algérie, année 1924

جدول6 :تطور المخالفات ضدّ الأشخاص (عمالة وهران نموذجًا)

السنوات	1918	1919	1920	1921	1922	1923	1924	1925	1927
الأشخاص	7912	6949	5499	5499	6320	9238	8484	9131	7494
المجموع العام	19244	19214	19537	24462	18541	15023	11788	14020	12484

المصدر : أنجز هذا المجموع من خلال الأرقام المنشورة في/
Exposé Situation Générale de l'.Algérie, Année 1924

لم يتقبل الأوروبيون الأوضاع الأمنية المقلقة، وحاولوا تفسير ذلك بتهاون الإدارة الفرنسية وتراجعها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. بل أثنائها وقبلها، حين عزمت أن تُدخل بعض الإصلاحات كما سمتها لصالح الجزائريين وفي حقيقة الأمر هي مجرد تعديلات الشكلية.

وتُبّين لنا هذه الأرقام اتساع ظاهرة «**الاعتداءات**» كما كانت تسميها وثائق الإدارة الاستعمارية بشكل مخيف، وهو الأمر الذي كان يقلق السكان الأوروبيين. فقد تحركت الأجهزة القضائية الاستعمارية بسرعة لعقد جلسات قضائية مستمرة خاصة بالجزائريين. ولفد فمت بإحصاء تلك الأرقام الممتدة في الفترة 1918 إلى 1927، لعلي أصل إلى فهم أهداف الإدارة الاستعمارية من وراء نشرها لهذه الأرقام المخيفة، ولاحظت عندئذ أن العقوبات كانت تتكرر في شكل إنذارات أحصيت منها: بـــ 262.432 إنذارًا، وحوالي 54287 حكمًا بالسجن في الفترة نفسها[28].

أما الزوايا والطرق الصوفية التي كانت الخطر رقم واحد خلال فترة بداية الاحتلال. فيبدوا أن الإدارة الاستعمارية عرفت كيف تستميلها. لكن هذا لا يعني أن السلطة الفرنسية كانت مطمئنة من جانبها، لأن التقارير الإدارية الرسمية[29] ظلت تراقبها باستمرار.

نستنتج في إطار نظام إدارة المستعمرات وبدرجة خاصة الجزائر سنّت الإدارة الفرنسية مجموعة من القوانين الخاصة أو الاستثنائية على الجزائريين، وذلك لتحقيق عدة أهداف منها الإذلال والإفقار والانتقام وقد لعب المستوطنون الأوربيون دورا كبير في إثراء هذه المنظومة القانونية الزجرية والقمعية، وذلك من أجل الحيلولة دون أية محاولة لتطبيق القوانين الفرنسية نقصد القانون العام الفرنسي على الجزائريين. وسعوا من جهة أخرى إلى تطبيق القوانين الفرنسية على الأرض الجزائرية لتمكينهم من السيطرة عليها. وكانت النتيجة أن وضعت قوانين استثنائية مثل قوانين الأنديجينا وعقوبات خاصة على الجزائريين، هذه القوانين أقل ما يقال عنها أنها كانت قوانين عنصرية و قمعية.

في الختام يمكن استنتاج أن الأمن العام والسكينة العامة ظّلتا من أهم الوسائل المعتمدة من الإدارة المحلية الاستعمارية في البلديات حيث ظلت وظيفة "**البوليس**" تمثل رمز سيادتها وإرادتها لأن الشرطة معروفة بعناصرها الأربعة: الأمن العام، الصحة العامة، السكينة العامة والأخلاق العامة.

نستنتج أيضًا أن الاستعمار بالنسبة له: القانون هو إرادة الإدارة. ولذلك اعتبر القمع من واجبات الإدارة المحلية الذي هو حينئذ من واجبات الدولة الاستعمارية لحماية المستوطن! أي عليها أن تسهر على تحقيق أمن المحتلين وهذا هو المنطق الاستعماري فعلاً. ولذلك نجدها تسهر على حماية الأوروبيين وتجنبهم القلق والخوف. وكان هؤلاء يراهنون كثيرا على هذا المكسب. ثم إن المؤسسات الفرنسية بفضل ممثليها داخل البرلمان في باريس، كانت تصدر القوانين لخدم مصلحة الأوروبي أو على الأقل تحافظ عليها، مثل ما هو الشأن بالنسبة لقانون الأهالي أو ما يعرف اصطلاحيا بقوانين الأنديجينا. وعليه لا فائدة من المطالبة بإلغائه لأن ذلك يعني إلغاء الاستعمار.

بيبليوغرافيا

1- Archives Wilaya d'Oran -Sous/série 1B : B /7-pouvoirs disciplinaires.1881-1928.
2- AGERON (Ch .R), les Algériens Musulmans et la France 1871–1919, tome I, puf . Paris 1968 .
(Les instruments de la domination coloniale pp 129 – 256)
3- RAPPORT Durand (Bernard) dir - la justice et le droit : instruments d'une stratégie Coloniale, Rapport 2001; 1179 p.(voir site web-www.justice.fr)
4- YACONNO (Xavier) , Histoire de l'Algérie de la fin de la régence turc à l'insurrection de 1954. Edition l'AM, Versailles,1993 ;p 228.
5- KADDACHE, Histoire du Nationalisme Algérien, TI, 2° éd , ENAL .p 30
6- A.W.O/Série B/lettres et plaintes des indigènes 1919.
7- VIARD (Paul -EMILE .), les droits politiques des indigènes d'Algérie ,Volume 1 Paris , 1937 , p 42
8- Voir : VIARD ,Ibid. p 42,voir aussi Oppermann (Thomas)Le Problème Algérien,1961,Paris, p 33-38
LARCHER (Emile) : Les tribunaux répressifs indigènes et les administrateurs-juges de simple Police dans les communes mixtes. Alger, Adolphe Jourdan, 1902.p 25.
9- A.W.O/Série B/Circulaires /Surveillance des indigences.
10- COLLOT; Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1962), Ed, CNRS-PARIS, OPU-ALGER.1987., p 291
11- KADDACHE ,op.cit. , p 30
12- Exposé Situation Gle de l'.Algérie - E.S.GA,présenté par: Ch .JONNART G.G.A, Alger 1908,p 77.
13- إثر إنتفاضة المقراني عام 1871 فرضت السلطات المحتلة و من خلال اللجان التأديبية التي أقامتها أقصى الغرامات التي قدرت بـ 100 فرنك على كل بندقية متفجرة ، مما جعل القيمة التي أخذت من 928 مجموعة ريفية تصل إلى 36582298 فرنك ، اقتطع منها 900000 فرنك كتعويض عن الأضرار التي ألحقتها الانتفاضة بالمستوطنين،و أنفق منها 150000 فرنك على المجهود الحربي، وحول منها 7933820 فرنك للأنفاق على الأشغال العامة ،كما خصص منها مبلغ 6000000 فرنك كإعانة لمهاجري الألزاس و اللورين الذين قدموا للمنطقة للاستقرار فيها . و بإيجاز فإن الانتفاضة كلفت الجزائريين مبلغ 63212252 فرنك أي حوالي 70.4 من رأس مال الثائرين وذهب هذا المبلغ كله لصالح الاستيطان و إصلاح ما تخرب من الحرب كالمدارس و الثكنات.
14- Archives d'Outre Mer-Aix-Provence,(CAOM), Sous série 12H31(38) Responsabilité collective/dépt d'Oran 1895-1922.
15- VIOLLETTE, L'Algérie vivra- t- elle ? éd f/Alcan ,paris, 1931, p 406
16- Ibid, p 406.
17- KADDACHE,T/2 , 2° édition , voir , Annexe 2 , p 889
18- Revue africaine, N°45,1901, p 40.
19- Archives Wilaya d'Oran, (A.W.O,) Ex- série B, pouvoir disciplinaire B8, P.V n° 2811,25 nov 1919.
20- Ibid,-pouvoirs disciplinaires, Statistiques du GAA.

21- A. W.O,Ex série B, pouvoir disciplinaire 1919,B8, n° 3692, Lois sur l'indigénat, renouvellement de 1922.
22- C.A.O.M- AIX, 12H31(38)- responsabilité collective/dépt d'Oran 1895-1922.
23- Ibid,Rap/divers.
24- Id, Rap,17/10/1898.
25- A.W.O/ Sous/série 1B : B /7-pouvoirs disciplinaires.1881-1928.
26- Ibid.
27- Exposé Situation Générale de l'.Algérie - (E.S.G.A) / , année 1924.
28- Annuaire Statistique de l'Algérie, 1926, p 87-88.
29- A.W.O/Série B, Sous/série 1B : B /7-pouvoirs disciplinaires.1881-1928.

البعد المغاربي للثورة الجزائرية والاستعمار الفرنسي

أ / مختار هواري
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

كانت الثورة الجزائرية وليدة مخاض عسير عرفته الحركة التحررية في المغرب العربي، وكانت ثمرة نضال سياسي وعسكري ضحى الجزائريون فيه تضحيات جسام. لذلك فإنّ البعد المغاربي هو ضرورة أملتها الجغرافيا والمقومات الحضارية والتاريخ والمصير المشترك، ولذلك ركزت الثورة في فلسفتها وفي ممارستها على البعد المغاربي. وأمام ذلك، كانت سياسة تفكيك الوحدة المغاربية من طرف الاستعمار الفرنسي.

مقدمة

إن الثورة الجزائرية لم تنطلق من فراغ و لم تولد مع الانفجار العظيم في الفاتح من نوفمبر، بل كانت امتدادا لنضال طويل كان محصلة المقاومة المسلحة والسياسية، والحقيقة أن الثورة لم تهدف إلى هدم أركان الاستعمار فحسب، بل حملت أبعادا مغاربية وعربية وإسلامية وتعدتها إلى أبعاد إنسانية فسعت لتجسيدها. وسنحاول التركيز على البعد المغاربي للثورة الجزائرية والاستعمار الفرنسي لإعطائه الحق الذي يستحقه ن ولعل السؤال الذي نطرحه في هذا المقام هو التالي: ما مدى تأثير الثورة الجزائرية في الوحدة المغاربية؟ وما هو رد الفعل الاستعماري المضاد؟

1- الثورة الجزائرية والتضامن المغاربي

إن البعد المغاربي كان في نظر الثورة الجزائرية بعدا إستراتيجيا وضرورة فرضتها الجغرافيا والأبعاد الحضارية والتاريخ والمصير المشترك ، فالمغرب العربي لم يكن في يوم من الأيام فاعلا في التاريخ إلا بوحدته، فلم يغب عن أذهان الثوار عظمة تاريخ المغرب العربي إبان عهد الموحدين. فقد علقت المجاهد في شهر أفريل 1958حول الوحدة المغاربية: "إن فكرة الوحدة المغاربية تجد أصالتها في تاريخنا المجيد الذي جسدها في مجموعة محطات عظيمة مثلما قام به المرابطون وخاصة الموحدون..."[1]، وأن مصير المغرب العربي مصيرا مشتركا. فكما كان احتلال الجزائر سنة 1830 منعرجا حاسما عبد الطريق أمام الاستعمار الفرنسي لفرض هيمنته على تونس عام 1881 ثم المغرب الأقصى، فمن شأنه أن يتكرر مع كل قطر من أقطار المغرب العربي. وقد اعتبرت وثيقة الصومام: "استقلال المغرب وتونس بدون استقلال الجزائر لغوا لا قيمة له، فالتونسيون والمغاربة لم ينسوا أن احتلال فرنسا لبلديهما قد جاء عقب احتلال الجزائر، وأكدت وثيقة الصومام أنه لخطأ فاحش أن يعتقد أحد أن باستطاعة المغرب وتونس التمتع بالاستقلال الحقيقي إذا ما بقيت الجزائر محتلة من طرف فرنسا"[2].

لقد تبلور الوعي المغاربي لدى الشعب الجزائري والحركة الوطنية ، فلم يعتبر الجزائريون أنفسهم أغرابا عن الأقطار المغاربية وناضلوا متجاهلين القطرية . ولعل من الأمثلة عائلة السنوسي بليبيا، ودور الثعالبي في تونس،

ونجم شمال إفريقيا الذي تشكل من الجالية المغاربية في فرنسا. فقد ورد في رسالة موجهة بتاريخ 07 سبتمبر 1927 من الجيلالي شبيلا الذي كان يشغل في ذلك الحين منصب سكرتير عام للحزب الى مراسل مغربي يقول له فيها: "إن هذه الجمعية أسست منذ حوالي العام بفضل الجهود التي بذلها أبناء المغرب والجزائر وتونس، وقد تمكنت خلال مدة قصيرة من تحقيق منجزات هامة يسجلها التاريخ"[3].

لقد سعت الحركة الوطنية الجزائرية لتفعيل الكفاح المغاربي. ففي الأربعينات تم تأسيس مكتب المغرب العربي ثم لجنة تحرير المغرب العربي التي أقرت التمسك بالاستقلال التام لكافة أقطار المغرب، وأن حصول كل قطر على استقلاله لا يسقط عن القطرين الآخرين واجبه في مواصلة الكفاح لتحرير نفسه، كما رفض فكرة السيادة المزدوجة التي كانت فرنسا تلوح بها[4].

غير أن المستجدات التي حدثت بالحزب العتيد حركة انتصار الحريات الديمقراطية بين 1953-1954 وانقسامه وصراع أجنحته حال دون قيام الكفاح المسلح في بداية الخمسينات بالجزائر، في حين تمكنت كل من تونس والمغرب من الشروع في العمليات العسكرية، وتقدمت بذلك في النضال المسلح عن الجزائر رغم ضخامة تضحيات الشعب الجزائري إبان المقاومة المسلحة والسياسية، وتأثر الشباب الثوري فسارع الى إقامة جبهة التحرير الوطني للحاق بالركب بمعية الأشقاء في المغرب العربي. ولقد تجرعوا مرارة التأخر ويتجلى ذلك من خلال بيان أول نوفمبر الذي ورد فيه: "إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد. فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا، ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة كنا أول الداعين إلى الوحدة في العمل. هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاث"[5].

لذلك، لم تدخر الثورة وسعا في دفع عجلة التضامن المغاربي، فلم تكتف بالشعارات السياسية والبيانات بل تجسدت ميدانيا من خلال هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني التي تزامنت والعمليات الفدائية في المغرب الأقصى للتضامن مع السلطان محمد الخامس في الذكرى الثانية لنفيه إلى جزيرة مدغشقر بسبب موقفه المشرف مع الاستقلال والحركة الوطنية الاستقلالية المغربية بزعامة علال الفاسي وحزب الاستقلال المغربي. وقد كتب إدوارد باهر قائلا: "لقد كانت أحداث العشرين أوت تعبيرا عن الاحتفال بالذكرى الثانية لإلقاء القبض على سلطان المغرب الأقصى... وبينما شهدت مدينة وادي زم في البلد الأخير تقتيل حوالي تسعين أوروبيا، فإن العملية قد أخذت نفس الحجم تقريبا في ناحية سكيكدة والعالية"[6].

لقد سبق هذه العمليات دور طلائعي، فالمقاومة التونسية كانت تجد في الشرق الجزائري سندا. ويذكر في هذا الشأن العقيد مصطفى بن عودة بأن بعض الجزائريين تجندوا في صفوف المقاومة التونسية: "...في الوقت الذي كان فيه (الفلاقة) في تونس يواصلون الثورة، كانت منطقة سوق أهراس تعيش أحداث الثورة مع تونس حتى أن الثوار التونسيين الذين كانوا يسمونهم باسم الفلاقة كانوا يلجئون الى الجزائر وبالضبط الى ناحية سوق أهراس، وكانت لهم اتصالات بالسيد باجي المختار – رحمه الله –وكان يقدم لهم المساعدة والتموين بالسلاح والذخيرة والأفراد حتى أن بعض الجزائريين كانوا التحقوا بصفوف الفلاقة ومن بينهم لزهر شريط – رحمه الله –والسيد العقبي الذي كان مسؤلا عن الفداء داخل تونس والذي قتل العقيد تونسي بالقصبة بتونس..."[7]. إن هذا التضامن أكد على عمق الشعور المغاربي في صفوف الشعوب المغاربية التي تطلعت لإقامة جبهة تحرير موحدة وفعالة بين الأقطار المغاربية الثلاثة. ورغم وجود بعض العراقيل الواقعية بين الحركات التحررية في الأقطار الثلاث لاختلاف طبيعة الوجود الاستعماري (بين حماية واستعمار مباشر) والاختلافات الأيديولوجية، إلا أن الثورة الجزائرية كانت تدفع إلى العمل المغاربي إيمانا منها بتطلعات الشعوب. حيث استطاعت تجاوز القطرية وأثرت في مسار الأحداث في تونس. فقد انقسم الحزب الدستوري التونسي بسبب تأثر صالح بن يوسف الأمين العام

للحزب الدستوري الذي كان يدعو إلى تبني النموذج الجزائري الداعي إلى الاستقلال الكامل دون تنازلات مؤلمة لصالح فرنسا إذ صرح هذا الأخير قائلا: "إن التنازلات التي قدمت لتونس في الاتفاقية تمثل خطوة للوراء ومجرد مناورة استعمارية ترمي إلى تكريس نظام الحماية ، ومنح فرنسا التي أصبحت تلاقي مقاومة شديدة في كامل بلدان المغرب العربي متسعا من الوقت لاسترجاع أنفاسها وتسخير كل جهودها العسكرية لقمع كفاح الشعب الجزائري والمغربي..."[8]. لقد رفض أنصار صالح بن يوسف نداءات الحبيب بورقيبة لوضع السلاح وقد التحق منهم كثيرون بصفوف الثوار الجزائريين.

لقد أدركت الثورة الجزائرية أبعاد المشروع الفرنسي في تونس والمغرب العربي منذ بدء المفاوضات الفرنسية – التونسية التي انطلقت في 18 أوت 1954 والتي انتهت باستقلال تونس في 20 مارس 1956 وإطلاق سراح محمد الخامس سنة 1955 والذي حولته إلى مدينة نيس الفرنسية واتفقت معه على الخطوط الأساسية لاستقلال المغرب عن طريق التفاوض، وانتهى باستقلال مراكش في 02 مارس 1956. ففرنسا التي أنهكتها الثورة الجزائرية تنازلت عن تونس والمغرب الأقصى لتتمسك بالجزائر وألا تحارب في الجبهات الثلاث. وقد تفطن الثوار لذلك في مؤتمر الصومام إذ جاء في وثيقته تحليلا لهذه السياسة: "إن التغير المفاجئ في سلوك الحكومة الاستعمارية التي تخلت عن الجمود وأوغلت في طريق البحث عن حل عاجل إنما دعت إليه أسباب إستراتيجية هي:

- منع تكوين جبهة ثانية حقيقية بإنهاء الإتحاد بين الكفاح المسلح في الريف المغربي وفي الجزائر.
- إلغاء وحدة الكفاح في بلدان شمال إفريقيا الثلاث.
- عزل الثورة الجزائرية التي كانت صبغتها الشعبية تجعلها أشد خطرا"[9].

لكن جميع تقديرات المستعمرين قد خابت، فقد كان الغرض من المفاوضات التي أجريت على حدى هو مخادعة بعض زعماء البلدين الشقيقين وإغرائهم ودفعهم إلى التخلي عن علم أو عن جهل عن الميدان الحقيقي للكفاح الثوري المسلح.

إن الاستعمار الفرنسي يجهل أن القضية الجزائرية مندمجة في القضية المغربية وفي القضية التونسية بحيث أن القضايا الثلاث لا تكون إلا قضية واحدة. والواقع أن استقلال المغرب وتونس دون استقلال الجزائر لغو، فالثورة حللت مسار تاريخ الحركة الاستعمارية وأدركت أن احتلال بلادها في ظل صمت أو تجاهل الأشقاء عام 1830 أدى إلى احتلال المنطقة بأكملها. فالاستعمار الفرنسي ببقائه محتلا للجزائر سيشكل خطرا لا محالة على التونس والمغرب ويمكنه التراجع عما اعتبره تنازلات لصالح كل من تونس والمغرب. وقد نشطت دبلوماسية الثورة الجزائرية على الصعيد المغاربي إذ يذكر أحمد توفيق المدني أنه بناءا على طلب عبد الحفيظ بوصوف، انتقل مع الأمين دباغين يوم 18 فيفري 1956 للاتصال برجال المقاومة وحزب الاستقلال. وقد خاطب المهدي بن بركة ووضح بعد الثورة الجزائرية قائلا: "إننا لا نعمل إلا في دائرة الإسلام والعروبة ووحدة المغرب العربي، وفي سبيل حرية الأمم واستقلالها قاطبة..."[10]. ويذكر توفيق المدني أنه حينما التقى محمد الخامس تعهد له بتقديم الثمن المطلوب لشراء الأسلحة قائلا: "إنه اشتراك مني خاصا في الجهاد وقد بر بوعده"[11].

وقد عرض بورقيبة ومحمد الخامس إمكانية قيامهما بوساطة بين فرنسا والثوار الجزائريين، لذلك التقى الزعماء الخمس بالمغرب وهم: محمد بوضياف، وأحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد ومصطفى الأشرف للتشاور مع محمد الخامس ثم السفر إلى تونس حيث من المزمع أن يعقد لقاء ثلاثي بين وفد جبهة التحرير والحكومتين التونسية والمغربية لتوحيد مواقف الأطراف الثلاث، غير أن ذلك لم يكتب له النجاح بعد عملية القرصنة الجوية الفرنسية للزعماء الخمس بتاريخ 22 أكتوبر 1956. ورغم ذلك لم تتأثر الدبلوماسية الجزائرية

بل تعرت فرنسا وظهرت على حقيقتها الإجرامية باعتدائها على حرمة الطيران المدني والذي يحفظه القانون الدولي من أي مس، واحتجت تونس على ذلك وسحبت سفيرها من باريس، كما احتجت مراكش أيضا واعتبرت القرصنة الجوية الفرنسية مساسا بسيادتها وكرامتها، فازداد التضامن الشعبي المغاربي مع الثورة الجزائرية. وتفاعل أيضا الشعب الليبي وحكومته مع الثورة الجزائرية فيذكر توفيق المدني قائلا: "أن رئيس الحكومة الليبي مصطفى بن حليم اتفق معنا في قضية السلاح قائلا اعتبروا المطارات بين أيديكم الآن. فمتى أتم الأخصائيون المصريون إصلاحها فهي مطارات جزائرية، وما علينا إن علمت فرنسا بذلك، أما السلاح الجزائري فقد أصدرت أمري لقائد الجيش وهو أصدر أمره لقائد الحدود بأن يدخل حرا طليقا لا يعترضه معترضا..."[12]. فالثورة الجزائرية تمكنت من كسر الطوق الذي حاولت فرنسا فرضه على الجزائر وقد تعزز وضع الثورة الجزائرية وانتصارها الدبلوماسية والعسكرية بالموقف المشرف لحزب الاستقلال المغربي الذي أصدر توصية بتاريخ 2 مارس 1958 بضرورة السعي لتأسيس اتحاد حقيقي. وتنفيذا لذلك انعقدت اجتماعات بين قادة حزب الاستقلال المغربي وقادة الحزب الدستوري بتونس وقد توجه السيدان المحجوب بن الصديق وعبد الرحمان اليوسفي إلى القاهرة للقيام باتصال مع جبهة التحرير الوطني وقد انعقدت ندوة طنجة بقصر مارشال من 27 إلى 30 أفريل 1958 تحت رئاسة السيد علال الفاسي ومن الحاضرين:

عن تونس: الباهي الأدغم، الطيب مهيري، عبد الله فرحات، عبد المجيد شاكر، أحمد تليلي، وعلي بهلوان.

عن الجزائر: فرحات عباس، عبد الحميد مهري، عبد الحفيظ بوصوف، أحمد فرنسيس، أحمد بومنجل، ورشيد قايد.

عن المغرب: علال الفاسي، أحمد بلا فريج، عبد الرحمان بوعبيد، المهدي بن بركة، بوبكر القادري.

وقد كانت قرارات مؤتمر طنجة متماشية مع الروح المغاربية التي تضمنتها فلسفة ومواثيق الثورة الجزائرية وأعطت لذلك لها الثقة في مواصلة الانتصارات السياسية والعسكرية[13]. فقد أقر مؤتمر طنجة ما يلي[14]:

- إقرار مبدأ تقديم مساعدة مالية للجزائر في حربها.
- التأكيد على حق الشعب الجزائري الثابت في السيادة والاستقلال.
- قرار حول الإعانة التي تمنحها بعض الدول الغربية لفرنسا لمجابهة حرب الجزائر خاصة دعم الحلف الأطلسي.
- المطالبة بإلحاح على أن تكف القوات الاستعمارية في الجزائر عن استعمال التراب المغربي وتونس كقاعدة للعدوان ضد الشعب الجزائري.

لقد كان مؤتمر طنجة منعرجا في مسار الوحدة المغاربية لعبت الثورة الجزائرية من خلال بسالتها دبلوماسيا وعسكريا إلى إعطاء قدرا كبيرا من الشجاعة لتجسيد الوحدة المغاربية. ولقد قال رئيس المؤتمر علال الفاسي: "إن الفضل يعود للثوار الجزائريين. لقد كان ثباتهم في الكفاح خير باعث للحقيقة المغربية من مرقدها"[15]. فالثورة التحريرية هدت أركان الاستعمار الفرنسي وشوهت صورته، وبالمقابل كان الثوار أكثر وعيا بأهمية الوحدة المغاربية حيث ذهب عبد الحميد مهري إلى أن: "هذه الوحدة المغاربية تسعى للتخلص من الاستعمار في الجزائر وعلى ما تبقى من مظاهر السيطرة الاستعمارية في الأقطار الشقيقة... إن مؤتمر وحدة المغرب العربي ليعد حدا فاصلا بين المرحلة التي كان الاستعمار الفرنسي يواجه فيها كل قطر من أقطار المغرب العربي على حدا والمرحلة التي سيواجه فيها المغرب العربي الموحد الكتلة المتراصة التي تمثل ثلاثين مليونا من المكافحين الذين يريدون الحرية جمعاء... إن وحدة المغرب العربي ضرورة ملحة لاتخاذ الوسائل الناجعة للتخلص في الجزائر من الاستعمار الفرنسي، وهي أيضا ضرورة للقضاء على كل ما تبقى من مظاهر السيطرة الاستعمارية في الأقطار الشقيقة"[16].

إن مؤتمر طنجة تمكن من كسر المحاولات الفرنسية الرامية إلى عزل تونس والمغرب الأقصى عن النضال الجزائري. وأدركت الجزائر أن المساومة الفرنسية للأشقاء لم يكتب لها النجاح. فقد جاء في المجاهد عدد "30" بتاريخ 10 أكتوبر 1958: "إن الجزائر في هذا الكفاح لم تعد وحدها، وعلى المسؤولين الفرنسيين أن يفكروا. هناك خلفنا تونس والمغرب الذي ارتبط مصيرها بمصيرنا عبر العصور، ومن المنطقي أن تكون الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، وأن تبني مع هذين البلدين إتحاد إفريقيا. فندوة طنجة أصبحت تاريخية، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ستبقى وفية لروح هذه الندوة لأنها مقتنعة كل الاقتناع أنها الحل الوحيد لتقديم حلول ملائمة للقضايا المطروحة علينا، فهي تفتح أمامنا آفاقا على مستوى العالم العصري"[17].

تلك هي أقصى ما تمكنت الدول المغاربية من تحقيقه، لكنها ما لبثت أن اصطدمت بالمصالح القطرية والضغوطات والإغراءات الأجنبية. فبعد انعقاد مؤتمر المهدية بتونس من 17 إلى 20 جوان 1958 والذي بحث سبل تنفيذ مؤتمر طنجة، بدأ الفتور يتجلى بسبب الخلافات الحدودية أو بسبب مد أنبوب البترول من الجزائر عبر الأراضي التونسية بالإضافة إلى الضغوط الممارسة على الحكومات المغاربية.

2- رد الفعل الاستعماري لعرقلة مسار الوحدة والتضامن المغاربي

إن سياسة فرق تسد منهج استعماري اتبع من طرف الاستعمار الحديث. وقد سعت فرنسا إلى إحداث الشرخ في التضامن المغاربي لتتمكن من شعوبها. ولم تكن السياسة الفرنسية وليدة فترة الثورة التحريرية، بل الدارس للتاريخ يدرك كيف استطاعت فرنسا التمكن من المغرب العربي حيث عزلت الأقطار المغاربية بإثارة الشرخ بينها. فقد أغرت باي تونس ووعدته بمنحه مناطق من الشرق الجزائري حتى تستفيد من وقوفه على الحياد في قضية احتلال الجزائر عام 1830. كما استعملت سياسة الضغط والإكراه ضد مراكش لإجهاض مقاومة الأمير عبد القادر، لأنها كانت تخشى من قيام تحالف مغاربي متين ضد عدو مشترك مما أدى بها إلى الضغط والعدوان على سلطان المغرب في معركة إيزلي في 14 أوت 1844 وفرضت على مراكش معاهدة طنجة في 10 سبتمبر 1844، مما جعل المغرب يكف عن مساعدة الأمير. وقد كتب الأمير عبد القادر إلى السلطان المغربي يقول: "إن أصبحت بلاد المغرب الأوسط في يد دولة فرنسا، فكيف تأمن على بلادك؟ وما الذي يمنعها منها؟"[18]. وهو الذي حدث لاحقا وتحقق بذلك المثل العربي القائل: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض). لذلك كانت الشعوب المغاربية على الأقل متفطنة لخطورة التمزق والقطرية الضيقة مدركة أهمية التضامن المغاربي. فإن نجحت فرنسا في مشاريعها خلال القرن التاسع عشر إلا أن مشاريعها باءت في معظمها بالفشل أمام التلاحم الشعبي المغاربي. ومن أهم الأساليب التي انتهجتها:

- اختطاف طائرة الزعماء الخمس: إن الإنجازات التي حققتها الثورة في مؤتمر الصومام واندهاش فرنسا لوثيقة الصومام وقراراته الدقيقة من الطرح والتحليل جعلها تدرك مدى حنكة قادة الثورة، وخشيت من تحرك أولئك القادة في الفضاء المغاربي خوفا من نشر الفلسفة التحررية لجبهة التحرير الرافضة للتنازلات التي تخدم الم صالح الإمبريالية. وهو ما حققته فرنسا في اتفاقياتها مع تونس والمغرب بعد استقلالهما من خلال حصولها على القواعد العسكرية خاصة في تونس. فبورقيبة ذاته صرح إثر اندلاع الكفاح المسلح في تونس قائلا: "...أن المسألة ليست في الاختيار بين الاستقلال التونسي والتصرف الاستعماري بل الاختيار بين الاستقلال تشيده فرنسا وتشرف عليه وتكون دليله ورائده يزدهر معه تعاون حر وتحافظ به على المصالح الجوهرية التي تهم فرنسا والعالم الحر..."[19].

وأمام خطورة المواقف الراديكالية لقادة الثورة أقدمت فرنسا على قرصنة جوية منافية للأعراف الدولية وألقت القبض على الزعماء الخمس، فقد أذاع راديو مونتيكارلو لنبأ جاء فيه: "إن السلطات الفرنسية قد ألقت القبض

على الزعماء الجزائريين الخمسة الذين ذهبوا من المغرب إلى تونس من أجل المشاركة في مؤتمر سياسي وأنزلتهم في مدينة الجزائر حيث سارت بهم مقيدين إلى السجن..."[20].

إن هدف فرنسا من هذه القرصنة لا يهدف إلى ضرب رأس الثورة فحسب، بل يهدف إلى وقف خطر الأفكار الثورية لجبهة التحرير. فالزعماء الخمس نقلوا إلى تونس لحضور مؤتمر يهدف إلى تأسيس إتحاد فيدرالي بين تونس والجزائر والمغرب الأقصى، على أن يساعد هذا الإتحاد على حل المشكل الجزائري. وبعد الاتصالات التونسية رحبت فرنسا بالفكرة لكن جبهة التحرير قبلت بتحفظ مع عدم الالتزام بأي شيء من شأنه أن يلحق الضرر بالثورة ومستقبلها[21].

إن ذلك التحفظ وقوة الحجة والإقناع الذي امتازت به الدبلوماسية الجزائرية جعل فرنسا تخشى من إفساد جبهة التحرير لمخططاتها في المنطقة.

– الأسلاك الشائكة: لقد حاولت فرنسا خنق الثورة وعزلها عن الأشقاء لقطع التواصل الشعبي بين الأقطار المغاربية. فقد أقامت فرنسا خط موريس الذي ينسب لوزير الدفاع أندري ماجينو موريس ويمتد على مسافة 460كلم من عنابة إلى وادي سوف مع الحدود التونسية، ومن مرسى بن مهيدي إلى عين الصفراء بطول 750كلم على الحدود الغربية. وقد عزز بخط ثاني أنشأه شال سنة 1958 متوازيا مع خط موريس مجهز بالرادارات والأضواء الكاشفة والألغام المزروعة. إن الأسلاك الشائكة لا أحد ينكر من كونها موجهة ضد جيش التحرير حتى لا يتمكن من تسليح نفسه وغلق المنافذ عليه. ولكن ما هو خفي يكمن في خشية فرنسا من الزحف الثوري للثورة الجزائرية إلى الأقطار الشقيقة خاصة بعد انقسام الحزب الدستوري التونسي إلى أنصار بورقيبة المتعاون مع فرنسا وفق سياسة (خذ وطالب) وبين أنصار صالح بن يوسف الذي يؤمن بطرح جبهة التحرير الوطني القاضي برفض التنازلات لصالح فرنسا. لذلك نجد أن معظم أنصار صالح بن يوسف رفضوا تسليم أسلحتهم وخاصة في الجنوب التونسي والتحقوا بالثورة الجزائرية[22]. وهو ما جعل الاستعمار الفرنسي يخشى من المد الثوري لجيش التحرير خاصة بعد التزايد الملفت للانتباه لجيش التحرير في الحدود التونسية والمغربية.

– مجزرة ساقية سيدي يوسف: أمام الزحف الثوري والانتصارات التي حققها جيش التحرير رغم الأسلاك الشائكة المكهربة التي لم تحد في إرادة جيش التحرير والذي تمكن من وضع إستراتيجية محكمة مكن من تجاوز عقبة خط موريس وشال فقد اعترفت جريدة لوموند بتاريخ 9 جانفي 1958 بفشل الخطة العسكرية: "...ترى الأوساط العسكرية الفرنسية أن عدد جنود جيش التحرير الوطني قد تضاعف وكذلك أسلحته، ويستفاد أن قسما من هذه الأسلحة التي ظهرت في المعارك أخيرا قد اجتاز موريس بعد أن تم بناؤه"[23]. وبذلك فقدت فرنسا سياسة ضبط النفس وأقدمت على مجزرة ساقية سيدي يوسف التونسية. فقد قام الجيش الفرنسي يوم 08 فيفري 1958 بشن هجوم جوي على ساقية سيدي يوسف نتج عنه وفاة ما لا يقل عن 75 شخص وإصابة 100 شخص آخر بجروح[24]. وكان الهدف منه تخويف تونس وإنذارها بالدخول إلى أراضيها ومتابعة الثوار الجزائريين، وإرهاب الشعب التونسي لكي يتوقف عن تقديم المساعدات للثوار رغم إدراك فرنسا لمخاطر هذا العمل على الصعيد الدبلوماسي مما يجعلها في عزلة دبلوماسية ويعرض العلاقات التونسية ــ الفرنسية إلى انسداد، وهو ما يعزز فكرة إرهاب الشعب التونسي للحيلولة دون تقديم المساعدة لجبهة التحرير ولدفع الحكومة التونسية للتدخل لوقف العمليات العسكرية التي تنطلق من أراضيها كما تدعي ، وقد تأسفت فرنسا واعتبرتها غلطة مؤسفة جسدها الاعتذار الذي قدمه كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا يوم 11 فيفري 1958، غير أن هذا العمل الإجرامي عزز من التلاحم الشعبي وامترجت بذلك دماء الجزائريين بدماء التونسيين مما سيؤجج الرفض الشعبي التونسي للوجود الفرنسي خلال القواعد المقامة في الأراضي التونسية (مظاهرات بترت).

– الحكومات المغاربية بين الضغط والإغراء: لقد كانت حكومتا تونس والمغرب تتعرضان للضغوط. لذلك فرضت رقابة على جيش التحرير الذي أصبح يتحرك بصعوبة .فقد رابطت القوات المسلحة المراكشية في منطقة فجيج لتعترض عبور المقاومة الجزائرية. وقد شكا بوصوف في وثيقة أرسلها في 01 أكتوبر 1958 من عمل القوات المسلحة المراكشية. وقد تمت عدة اجتماعات لإيجاد الحل منها اجتماع 08 أفريل 1958 بالرباط بين محمد بن بركة وبصري ومن الجانب الجزائري معاشو وقادري حسين والشيخ خير الدين غير أنها باءت بالفشل[25].

كما أن الحكومة التونسية لم تسلم من الضغط الفرنسي، فمثلا بعد أن تمكن جيش التحرير من إسقاط طيار فرنسي وقد اعتقلته قوات جيش التحرير بعد أن سقطت طائرته فوق الأرض التونسية، فادعت فرنسا بأن العمليات العسكرية تتم من التراب التونسي. مما جعل الحكومة التونسية تتحرك في هذا الاتجاه وضغطت على الحكومة المؤقتة. هذه الأخيرة قبلت بتسليم الطيار للحكومة التونسية وهو ما أحدث أزمة بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان التي اعتبرت هذا التدبير فاض عما يتسع له الصدر، وقدموا استقالتهم إلى الرئيس فرحات عباس الذي رفضها"[26].

كما ضغطت الحكومة التونسية على حركة تسليح جيش التحرير بدعوى رفض وجود دولة في دولة، فأقدمت في شهر جوان 1958 من وضع يدها على 5070بندقية و2037 بندقية رشاشة و2037 مسدسا رشاشا و20 بازوكا و 750 رشاشا و 1030 مدفع هاون و10 ملايين خرتوشة.

كما لم تسلم الحكومة التونسية من الضغوطات الفرنسية بعد أن أوقفت فرنسا في 12 جوان 1962 لمفاوضات إيفيان الأولى أملا في تدخل الحكومة التونسية للضغط على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لتقديم تنازلات.

كما حاولت فرنسا استخدام أسلوب الإغراء فحاولت إبرام صفقة مع تونس يتم بموجبها مد أنابيب النفط الجزائري عبر الأراضي التونسية من حقل (إيجلي) الجزائري وهو ما سيجعل تونس تستفيد من مبالغ مالية هامة، وهو ما كاد يؤدي إلى أزمة بين جبهة التحرير والحكومة التونسية فكتبت المجاهد افتتاحية ملتهبة بعنوان (الخبز المسموم) وكان السبب في حجز العدد الموالي أي العدد 28 من المطبعة[27].

خـــاتمـــة

مما تقدم يمكن استخلاص بعض النتائج حول البعد التضامني المغاربي:

أن البعد المغاربي كان نتاج نضال شعبي تبلور مع الممارسات الاستعمارية الفرنسية منذ دخول الاستعمار إلى المنطقة عام 1830 و لم يكن وليد الخمسينات من القرن العشرين.

– أن العمل المسلح والتخلص من عقدة الخوف بعد الضربات الموجهة من طرف الثوار لفرنسا المثخنة بأذيال العار والهزيمة أثناء الحرب العالمية الثانية والواقع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، شجع الحركات الوطنية المغاربية والنخب السياسية على الخروج من دائرة الأماني والتصريحات إلى العمل الملموس.

– أن الشعوب المغاربية كانت أكثر وعيا وتشبثا بالتضامن المغاربي، فشكل ضغطا على القادة السياسيين جعلهم يسايرون التيار الشعبي إما تحقيقا لمكاسب سياسية باستثمار بورقيبة مثلا لأحداث ساقية سيدي يوسف لتأجيج الرفض الشعبي ضد القواعد العسكرية الفرنسية لاستكمال الاستقلال، أو خوفا من الضغط الشعبي والسعي لاستمالته حتى لا يخرج على خط السياسيين. فبورقيبة كان يسعى لكسب الجماهير التونسية لكي لا تساير الأفكار اليوسفية.

أن التضامن المغاربي رغم أنه لم يحقق الوحدة السياسية المغاربية رغم مؤتمر طنجة ومؤتمر المهدية بتونس إلا أنه مكن من تحرير الأقطار المغاربية. فبفضل تزامن العمل المسلح في فترة متقاربة في الأقطار المغاربية كان إضعاف الجيش الفرنسي. وبقيام الثورة التحريرية في 01 نوفمبر 1954 دفعت فرنسا إلى مفاوضة تونس والمغرب من أجل التفرغ للقضاء على الثورة ، ثم أن استكمال تونس والمغرب لاستقلالهما جاء ثمرة الاستغلال الأمثل للعمل الثوري الراديكالي للثورة الجزائرية. وهو ما هدد فرنسا التي سارعت إلى سحب قواتها من القواعد العسكرية في تونس والمغرب حفاظا على علاقاتها مع أنظمتها التي تراها أنظمة متعاونة معتدلة.

– أن التضامن المغاربي واجهته صعوبات جمة لاختلاف طبيعة الاستعمار (بين حماية واستعمار عسكري) والاختلاف الأيديولوجية وكذا الضغوطات والإغراءات الاستعمارية، لذلك مرت بفترة عسيرة في العلاقات المغاربية أثناء حرب التحرير الجزائرية.

– أن الإنجازات التاريخية التي تحققت أثناء العمل المسلح مثل قرارات مؤتمر طنجة جديرة بأن تكون لبنة أساسية لأي توجه وحدوي مغاربي.

– أن التضامن المغاربي كان مطمعا مشروعا ولا يزال. فبفضله تحررت البلاد المغاربية حينما تمكنت الشعوب من إبداء رأيها أثناء العمل المسلح، ومارست ضغطا على الزعامات السياسية وهذا قد يدفعنا إلى فهم واقعنا اليوم والذي لم نستطع فيه إقامة اتحاد مغاربي رغم مرور أربعة عقود على استعادة استقلالنا. فماذا لو استشيرت الشعوب المغاربية لتقرير مصيرها حول الوحدة المغاربية بكل حرية دون إكراه من الأنظمة القائمة. فهل سيتحقق الهدف المنشود كما تحقق أثناء العمل المسلح؟ أسئلة تحتاج إلى تأمل.

بيبليوغرافيا

1- عامر رخيلة ، الثورة الجزائرية والمغرب العربي، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، العدد الأول ، 1999 ، ص164.

2- وزارة الثقافة والإعلام ، ملفات وثائقية : نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962)، قسنطينة ، مطابع النصر ، 1976 ، ص ص (15_16).

3- أحمد الخطيب ، حزب الشعب الجزائري ، الجزء الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية ، 1986 ، ص97 .

4- عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون ، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر ، الجزء الثالث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص 56 .

5- وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 07.

6 - محمد العربي الزبيري ، الخطوات الأولى في التطبيق الميداني لأهداف الثورة ، المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، العدد الثاني ، 1999 ، ص 51.

7- عامر رخيلة ، ، مرجع سابق ، ص 139.

8- http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8

9- وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 15.

10- أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988.

11- عامر رخيلة ، ، مرجع سابق ، ص 153.

12 -المرجع نفسه ، ص 155.

13- المرجع نفسه ، ص51
14 -يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، دار البعث للطباعة والنشر ، الجزائر ، 1980 ، ص 357..
15- عامر رخيلة ، مرجع سابق ، ص 163.
16- المرجع نفسه ، ص163.
17- وزارة الثقافة والإعلام، مرجع سابق ، ص 70.
18الدبلوماسية الجزائرية من 1830الى 1962 ، مداخلات ومحاضرات انجاز المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954 ، الجزائر ، 1998 ، ص 72.
19- http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8
20 -أحمد توفيق المدني، مرجع سابق ، ص 214.
21- زغيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية1956-1962، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1989، ص 144.
22- http://www.albadil.org/article.php3?id_article=8
23- الأسلاك الشائكة المكهربة، بحوث و دراسات الملتقى الوطني الأول حول الأسلاك الشائكة والألغام ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954 ، الجزائر، ص40.
24- عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997 ، ص 427.
25-محمد حربي ، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع ، ترجمة كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1983 ، ص 17
26-سليمان الشيخ ، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين ، ترجمة محمد حافظ الجمالي ، الدار المصرية اللبنانية بيروت ، 2003، ص 121.
27-محمد حربي ، مرجع سابق ، ص 178.

الاحتلال الفرنسي لمنطقة ورقلة وضواحيها
قراءة في الدوافع والمراحل

أ / رضوان شافو
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

يتناول هذا المقال صورة من صور التوسع الاستعماري نحو عمق الصحراء الجزائرية في الخمسينات من القرن التاسع عشر، ويخص منطقة ورقلة وضواحيها كنموذج للدراسة، حيث تعرضت هذه المنطقة إلى الاحتلال الفرنسي سنة 1853 بعد المقاومة الشرسة التي أبداها أهالي المنطقة، ويسعى هذا المقال إلى إبراز أهم الدوافع الحقيقة لاحتلال ورقلة، واهم وسائل الاحتلال، ومجريات التوسع وبسط النفوذ.

Abstract

This article contains one of the pictures of widen colonialism towards the Algerian desert in 1850 from the 19th century. it concerns the region of Ouargla and its surroundings, where it becomes under the French colonialism in 1853, after a strong resistance that has been shown from the citizens, through this article we want to show the main persons of colonialism to this region and the main methods and ways of colonialism , and how it has been widen.

مقدمـــة

إن احتلال فرنسا للجزائر قام أساسا على اختراع حادثة المروحة، لتكون المبرر الرسمي لاحتلال الجزائر في 5 جويلية 1830، وكان الهدف تحقيق طموحات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية، واعتبر القادة الفرنسيون – بعد سقوط مدينة الجزائر – أنهم سوف يخضعون بقية المناطق الأخرى في ظرف خمسة عشر يوما، إذ كتب قائد الحملة الجنرال دي بورمون *De Bourmont* لحكومته قائلا: «إن العرب ينظرون إلينا كمحررين، وإن الجزائر سوف تخضع لسلطاننا قبل خمسة عشر يوما». [1] لكن الحكومة الاستعمارية تفاجئت بوجود مقـاومة عنيفة مستبسلة من طرف الشعب الجزائري في كل منطقة تتوسع فيها،بما فيها المناطق الصحراوية والتي منها ورقلة.

فاحتلال ورقلة وضواحيها ما هي إلا حلقة من حلقات التوسع الاستعماري، خاصة وأنها كانت تحتل مكانة هامة، لكونها نقطة وصل ذات أهمية بين بلاد السودان[2] وبلدان المغرب الإسلامي، وبالتالي فقد كانت محط رحال لكثير من القوافل التجارية الوافدة من كل جهة، وكانت سوقا للتواصل الاجتماعي بين مختلف البلدان، ويندرج اهتمام الفرنسيين بهذه المنطقة ضمن اهتمامهم العام بالجنوب الجزائري والصحراء، وهو قد بدأ منذ احتلالهم لمدينة الجزائر من جهة، وتحول الجنوب إلى معاقل للثوار والمجاهدين الذين فشلوا في مقاومة قوات الاحتلال بمناطق الشمال بغية الاستعداد مرة ثانية للمقاومة خاصة بعد أحداث الشريف محمد بن عبد الله بواحات الاغواط وورقلة من جهة أخرى، ويعتبر سقوط واحة الزعاطشة في يد السلطة الفرنسية إثر الحملة العسكرية يوم 24 سبتمبر 1849 بداية الدخول الفرنسي القوي في الصحراء بعد احتلال بسكرة عام 1844، وبعد إخضاع منطقة الزيبان بوابة

الصحراء سارعت السلطات الفرنسية إلى استكمال مشروعها للتوسع نحو الصحراء الجزائرية قبل أن يظهر فيها زعيم ديني وقومي مثل الأمير عبد القادر يهدد وجودها،ويمنع توسعها نحو الجنوب، فكانت الوجهة الأولى احتلال منطقة الاغواط سنة 1852، ثم ورقلة سنة 1853، وسنحاول في هذه الدراسة معرفة دوافع الحملة الفرنسية على منطقة ورقلة وضواحيها، وتتبع أهم مراحلها التوسعية.

أولا– دوافع الغزو الفرنسي

لا شك أن سقوط واحة الزعاطشة بمنطقة الزيبان سنة 1849 في يد القوات الفرنسية زاد من طمع السلطة الاستعمارية للتوسع نحو مناطق الجنوب الجزائري التي لازالت لم تخضع للفرنسيين، ومن المتعارف عليه تاريخيا أن دوافع التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية متعددة،غير أننا سنحاول جمع وحصر أهم الدوافع الخاصة باحتلال منطقة ورقلة وضواحيها في النقاط التالية:

* سوء العلاقة بين الشريف محمد بن عبد الله[3] والسلطة الفرنسية في أوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر بمنطقة الغرب الجزائري جعل السلطة الاستعمارية تعجل في عملية احتلال الجنوب الشرقي، خشية من أن يجدد الشريف محمد بن عبدالله المقاومة ضدها، مع العلم أن فرنسا أصبحت لديها قناعة راسخة أن أية مقاومة شعبية تفشل في مناطق الشمال،فمناطق الجنوب الجزائري تتحول إلى معاقل للثوار وملجأ للمقاومين بغية جمع أنصار جدد، وتنظيم المقاومة الشعبية من جديد، مع الإدراك أن حلفاء الأمير عبد القادر كانوا قد وضعوا قواعد للمقاومة، وبالتالي فقد وجدت فرنسا عند توغلها في مناطق الجنوب صعوبة كبيرة لبسط نفوذها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها السكان، وعلى الخصوص منطقة ورقلة وضواحيها، فالاحتلال العسكري كان قد تم سنة 1854، ولم يتم الإخضاع الكلي لها إلا في سنة 1883، بعدما تم تنصيب أول مركز عسكري فرنسي بمنطقة الرويسات.[4]

* عدم الاستقرار السياسي واستحكام الصراعات القبلية بين مختلف التشكيلات الاجتماعية[5] لمنطقة ورقلة وضواحيها دفع بالسلطة الاستعمارية إلى استغلال هذه الصراعات وتطبيق سياسة فرق تسد، وتحريضهم عليها، وانتصارهم لقبيلة دون الأخرى، لأنهم وجدوا في الإبقاء على هذه النزاعات خير وسيلة لاحتلال ورقلة وبسط نفوذهم عليها، فعلى سبيل المثال فقد تعاقب على سلطنة ورقلة في ظرف إحدى عشرة سنة (1840–1851) ستة سلاطين وهم: مولاي الطيب، ومولاي الذهبي، ومولاي عبد القادر، ومولاي علي الذي اغتيل بعد سنتين من حكمه،ثم حكم مولاي مسعود الذي حكم ثلاثة أيام فقط، وكان آخرهم مولاي احمد الذي حكم لمدة شهرين فقط،ناهيك عن مشيخة نقوسة التي تعاقب على حكمها في هذه الفترة شيخين وهما: الشيخ الحاج احمد بن بابية، وابنه الشيخ أبو حفص بن بابية.[6]

زيادة على ذلك العلاقات المصلحية بين أعداء سلطنة ورقلة والفرنسيين دفعت بالإدارة الاستعمارية إلى تكوين عملاء وموالين لها في المنطقة، وذلك لتسهيل عملية الاحتلال العسكري،وأهم مظاهر هذا الاستغلال حثّ بعض القبائل الموالية للفرنسيين على محاصرة القبائل المعادية للتواجد الفرنسي، واستخدام الشيخ سي حمزة ولد بوبكر[7] قائد أولاد سيدي الشيخ على التدخل في شؤون المنطقة سنة 1847، واحتلال ورقلة عام 1853 باسم السلطات الفرنسية بعد معركة انتصر فيها على الشريف محمد بن عبد الله في عرق بوسروال جنوب ورقلة.

هذا بالإضافة إلى تدعيم احمد بن بابية شيخ نقوسة سنة 1849 لإخضاع ورقلة مقابل تأدية ضريبة اللزمة[8]، وفي 20 نوفمبر من نفس السنة منحت السلطة الفرنسية لقب الخليفة للحاج احمد بن بابية، وأرسلت إليه 200 فارس لإقرار سلطته على ورقلة، بل تواصلت الإمدادات العسكرية إلى غاية 1850.

* في نظر بعض الساسة الفرنسيين أن احتلال ورقلة سيمكن الجيش الفرنسي من استكمال عملية التوغل العسكري إلى عمق الصحراء الجزائرية، وذلك باعتبارها منطقة عبور بين الشمال والجنوب من جهة، وباعتبارها بوابة أساسية نحو بلا السودان من جهة أخرى، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير السؤال المطروح: لماذا فضّلت فرنسا احتلال الاغواط سنة 1852، وعقد اتفاقية مع وادي ميزاب سنة 1853، ثم احتلال ورقلة سنة 1854، على احتلال وادي ريغ ووادي سوف على الرغم أنهما اقرب نقطة إلى منطقة الزيبان، والتي كانت الانطلاقة الأولى للتوسع الفرنسي نحو الصحراء الجزائرية؟ الأكيد هو أن هذا التفضيل يدخل ضمن نطاق الاستراتيجية العسكرية الفرنسية، حيث صرح الجنرال الكسندر راندون Alexander Randon [9] لوزير الحربية بعد احتلال الاغواط سنة 1852: "عن طريق الاغواط سنتمكن من التوغل داخل الجنوب في إطار السيطرة على كامل الجزائر".[10]

* الموقع الاستراتيجي لورقلة جعل هذه الأخيرة تحضى بأهمية كبيرة عند المستكشفين الفرنسيين، وذلك بكونها همزة وصل بين الجزائر وبلاد السودان، وبالتالي كان لابد من السيطرة على هذه المنطقة، وإخضاعها للنفوذ الفرنسي حتى تصبح محطة أساسية لانطلاق البعثات الاستكشافية العلمية والحملات العسكرية نحو عمق الجنوب الجزائري ونحو إفريقيا الوسطى والغربية. هذا بالإضافة إلى أن ورقلة كانت تمثل مخزنا "لدلال الطرق الصحراوية" وخاصة من القبائل البدوية وفي مقدمتهم قبائل سعيد عتبة والشعانبة، وهذا ما لاحظناه من خلال البعثات التي وصلت إلى ورقلة، فلا تكاد أية بعثة استكشافية تخلوا من أهالي ورقلة العارفين بمسالك الطرق الصحراوية الرابطة بين ورقلة والجريد التونسي، وورقلة وغدامس، وورقلة وبلاد السودان الغربي.

كما أن الموقع دفع بالسلطة الاستعمارية إلى حد التفكير بمد خط سكة حديدية بغية ربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض،ولتسهيل مهمة تنقل الوحدات العسكرية بالصحراء من جهة، ولضمان الأمن والاستقرار للمستكشفين الذين كانوا يتعرضون للهجوم من حين إلى آخر من جهة ثانية، وقد أشار الرحالة فكتور لارجو *V.Largeau* إلى أهمية هذا الخط حين اقتنع بان مخطط السكة الحديدية العابرة للصحراء إلى حد النيجر يجب أن ينطلق من بسكرة مارا بتقرت وورقلة.[11]

* التوسع الاستعماري البريطاني بإفريقيا في إطار التنافس الدولي حول مناطق النفوذ دفع بفرنسا إلى التعجيل بإخضاع الجنوب الجزائري بما فيها منطقة ورقلة، لأنها منطقة حدودية مع تونس وليبيا، ومنطقة عبور للقوافل التجارية.

* محاولة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجنب تكرار الخطأ العسكري الذي وقعت فيه السلطة الاستعمارية حين سمحت بتحول الجنوب الجزائري إلى معاقل للمقاومين الجزائريين الذين فشلت مقاومتهم في الشمال، وبالتالي فان السيطرة على مناطق الجنوب الشرقي الجزائري سيكون صمام أمان وقبضة حديدية للجيش الفرنسي ضد المقاومين التونسيين الفارين من الشمال في حالة ما إذا احتلت تونس عن طريق البحر المتوسط.

ثانيا– مراحل الغزو الفرنسي

1/ البعثات الاستكشافية والحملات الاستطلاعية

كانت أولى البعثات الاستكشافية إلى ورقلة بعثة الرحالة الجنرال دوماس *Daumas* الذي زار المنطقة سنة 1842، حيث حدد موقعها الجغرافي، ووصف مدينة ورقلة والقصبة، وحدد أبواب المدينة، كما وصف بيوتها وعدد الديار، والمواد البناء المستعملة من البن وجذع النخل وسعفه، وأشار إلى مختلف قبائل المجتمع الورقلي ونشاطهم، والى مختلف العملات المتداولة في الأسواق، فضلا عن ذكر عمليات التبادل التجاري الداخلي والخارجي، واهم المنتجات الصادرة والواردة، كما تطرق إلى قصر نقوسة بوصف نمطه العمراني، وحدد عناصر سكانه، وعدد دياره، وتعداده السكاني الذي حدده من 150 إلى 200 شخص.[12]

كما استعرض ترومبلي *Trumelet* من خلال زيارته لورقلة سنة 1853 قصبة ورقلة، واصفا نمطها العمراني، وأعراشها الثلاثة بني سيسين، وبني وقين، وبني إبراهيم، وحدد أبواب المدينة،وأشار إلى عدد السكان ونشاطاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، ومختلف قرى وقبائل ورقلة، وتكلم بتفصيل عن أسرة أولاد بابية شيوخ نقوسة من خلال أصولهم، وسياستهم، وعلاقتهم بالفرنسيين، وصراعهم مع سلطنة ورقلة، كما تطرق إلى مقاومة الشريف محمد بن عبد الله ضد الفرنسيين.[13]

وقام كوسون *Cosson* برحلات في الجنوب الجزائري عام 1859 بدعم من وزارة الحرب التي كان يرأسها المارشال فايان *fayane*، وقد استطاع أن يستكشف الصحراء الجزائرية من الشرق إلى الغرب، وحتى أقصى الحدود الجنوبية، وجمع وثائق كثيرة وجدها بالمنطقة، كما درس السطح والمناخ السائد والمياه الجوفية، والحيوانات المتوفرة والنباتات البرية، والمزروعات من خضر وفواكه ومركزا على شجر النخيل، واستخلص أنواع التمور، وشملت دراسته كل الصحراء الجزائرية ومناطقها بما فيها ورقلة معتمدا على أعمال ما كتبه الرحالة السابقون ومنهم الجنرال دوماس*Daumas* .[14]

كما حضيت ورقلة بزيارة أدريان بربروجر *A.Berbrugger* عام 1850 في إطار استكشاف الخط الصحراوي الممتد ما بين الجنوب الغربي وحدود المغرب وكانت انطلاقته من قابس، وشملت رحلته واحات وادي سوف ووادي ريغ وورقلة والمنيعة وتوات، ثم عاد إلى مدينة الجزائر عن طريق بلاد الشعانبة متليلي ووادي ميزاب.[15]

كما تحدث النقيب باجول *Capitaine Bajolle* عن التكوين الجغرافي والطبوغرافي والآبار المائية لصحراء ورقلة ومن وادي مية إلى وادي ايغرغر.[16]

كما قام اوغيست شوازي *Auguste.Choisy* برحلة خاصة إلى الأغواط والقليعة وورقلة ووادي ريغ وبسكرة لدراسة إمكانية مد طريق حديدي بين الجزائر والنيجر.[17]

وفي إطار المشاريع الفرنسية الهادفة إلى ربط المستعمرات الفرنسية الإفريقية بالصحراء الجزائرية،مشروع كابايي الذي طرح سنة 1853 والذي سيمتد من الجزائر إلى بوسعادة وورقلة على أن يتفرع ذلك إلى فرعين: واحد إلى تونس وطرابلس، والآخر إلى عين صالح والهقار.[18]

ولم تتوقف الحملات الاستطلاعية والبعثات الاستكشافية مع سقوط مدينة ورقلة في يد القوات الفرنسية بل ازدادت أكثر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهذا على خلفية القرار الذي اتخذته السلطة الفرنسية الداعي إلى اتخاذ إجراءات والقيام بعمليات توسعية للسيطرة على الجنوب.

ومع بداية السبعينات من القرن التاسع عشر وصل الرحالة شارل فيرو *Charles Féraud* إلى ورقلة سنة 1871، حيث قام بدراسة طبيعية وانتربولوجية وإحصائية لمنطقة ورقلة، واستعرض العلاقات الاجتماعية بين مختلف القبائل البدوية، ونشاطها الفلاحي، وعادتها وتقاليدها، كما تعرض إلى أسرة أولاد علاهم سلاطين ورقلة وصراعهم مع أسرة بن بابية شيوخ نقوسة، بل وحتى الصراع الداخلي الذي قام بين أسرة بن بابية، زيادة على ذلك تطرق إلى الحركة الجهادية التي قادها الشريف محمد بن عبد الله ضد الفرنسين ولقبائل الموالية لهم.[19]

كما وصلت القافلة العسكرية للجنرال قاليفي *Galliffet* يوم 8 جانفي 1873 إلى ورقلة قادمة من بسكرة مع 700 رجل و3000 جمل، والتي كانت ممونة بالماء لسد حاجياتها لمدة تزيد عن عشرة أيام، بعدما فشل في احتلال مدينة القليعة، وفي نفس السنة تصل بعثة دورنوا دوبيري، إلا انه قتل بمنطقة وادي وهانت في طريق عودته من غدامس[20]، كما نظم أيضا في نفس السنة المستكشف بول سوليه *Paul Solellit* رحلة غالى

الجنوب ليصل إلى مدينة ورقلة صباح يوم 5 فيفري على الساعة السابعة، وأقام فيها لمدة ثلاثة أيام تعرف فيها على عادات وتقاليد سكان ورقلة واهم لهجاتهم اللغوية.[21]

وقدم الطبيب فكتور لارجو *V. Largeau* وصفا دقيقا عن مدينة ورقلة وقصرها من خلال زيارته لها، حيث وصلها يوم 12 ماي 1877، حيث استعرض نمطها العمراني، وشوارعها وبيوتها، وذكر مختلف عناصر أعراشها، وأحوالها الاقتصادية والتجارية، كما تحدث أيضا عن قصر نقوسة، واصفا نمطه العمراني، وعدد بيوته، وعلى النشاط الفلاحي للسكان واهم المحاصيل الزراعية التي تنتج، وعن بعض الصناعات التقليدية، وتعرض أيضا إلى أهم شيوخ قصر نقوسة من بينهم الشيخ السايح وأخاه سي عبد القادر، وفي نفس السنة زار الرحالة لويس ساي *Louis say* ورقلة التي وصلها يوم 2 ماي في إطار التبادل التجاري بين ورقلة والجنوب الغربي، وقد حاول هذا الرحالة أن يجعل ورقلة نقطة انطلاق استكشافية نحو عمق الجنوب الجزائري باتجاه الهقار، وتقدم إلى غاية تماسنين إلا انه فشل في ذلك.[22]

وكان من ابرز البعثات الاستكشافية في هذه الفترة بالمنطقة، بعثة العقيد فلاترس *Flatters* الذي وصل إلى ورقلة سنة1879 رفقة 100 رجل وصحفي أمريكي، ولقد حاول فلاترس هو الآخر أن يجعل منطقة ورقلة محطة انطلاق لاستكشاف بقية مناطق الصحراء، حيث نظم رحلتين، فالأولى كانت نحو الاغواط، والتي انطلقت من ورقلة يوم 21 ماي 1880 رفقة عشرة رجال ومئة جمل،أما الرحلة الثانية فكانت باتجاه منطقة التوراق، التي انطلقت في ديسمبر من نفس السنة، وهذا بمعية 11 رجل فرنسي و47 جندي من الأهالي و32 سائقوا الجمال، و8 رجال شعانبة لاستخدامهم كدليل في الطريق، و4 رجال من الطوارق.[23]

غير أن الرحلة الثانية كانت شاقة حيث أرهقت أعضاء البعثة وشتت شملهم، ونقص زادهم، وكثرت تحرشات الطوراق بهم، فكانت النتيجة مقتل العقيد فلاترس *Flatters* من طرف مقاومي قبائل الطوارق يوم 16 فيفري 1881 في منطقة "ان اوهاوان"، و لم ينجوا من هذا الهجوم سوى 63 فردا وقد مات منهم الكثير في طريق العودة إلى ورقلة، باستثناء أربعة شعانبة الذين تأكدت نجاتهم ووصلوا إلى ورقلة يوم 28 مارس 1881.[24]

هذا ونشير أيضا إلى بعثة الرحالة اوغيست شوازي*A.Choisy* إلى الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1879 و1880 ليتفقد مشروع سكة الحديد الذي سيربط بين الجزائر والنيجر،ماراً ببسكرة ووادي ريغ وورقلة والاغواط والمنيعة، وقد اعتبر شوازي*A.Choisy* أن هذا المشروع أحسن من مخطط الذي اتخذه في الجنوب الوهراني.[25]

كما برزت بعد ذلك حملة استطلاعية جديدة بورقلة لكل من فيرديناند فورو *F.Foureau* والضابط لامي *Lamy* منذ 1898، واتخذت مدينة ورقلة قاعدة لتوجيه حملاتها العسكرية نحو الهقار، والسينغال إلى غاية بحيرة تشاد،ولقد انطلقت هذه الحملة في 23 أكتوبر رفقة 306 عسكري ومدعمة بـــ 1000 بعير ومدفعين، ومجموعة من الأهالي للاستدلال بهم في المسالك. وعلى الرغم من تعرضها لهجمات قبائل الطوارق إلا أن الرحلة التي دامت سنة كاملة وعشرة أيام تمكنت من الوصول إلى بحيرة تشاد في جانفي 1900.[26]

لا شك أن هذه البعثات والحملات الاستطلاعية كانت إحدى عوامل نجاح الفرنسيين في الاستقرار النهائي بورقلة وضواحيها والسيطرة عليها، فبفضلها استطاعوا الوقوف على نقاط القوة والضعف،ودرسوا جغرافيتها ومناخها وعرفوا تاريخها وثقافتها، واطلعوا على ظروفها الاجتماعية والاقتصادية، ووقفوا على علاقاتها التجارية، وتمكنوا من معرفة حركة القبائل ومسالكها وأوقاتها، ووقفوا على الخلافات القبلية وذكرها خدمة لمصلحتهم، واخترقوا صفوف القبائل المعاونة لهم عن طريق فرق تسد، وتكسير الصفوف والتحكم في طرق القوافل التجارية وتحويلها إلى الأسواق الواقعة تحت سيطرتهم. وبالتالي فقد جاءت مهمة الاحتلال العسكري بسهولة رغم المقاومة التي أبداها سكان ورقلة.

2/الاحتلال العسكري

من خلال الدوافع السالفة الذكر وقع الاحتلال الفرنسي على ورقلة، وهذا بعد ما تم تعيين محمد بن عبدالله سلطانا على ورقلة منذ سنة 1851، إذ عمل على استتباب الأمن، والقضاء على الصراعات المحلية بين التي كانت قائمة بين القبائل البدوية والأسرة الحاكمة، وتحقيق الاستقرار السياسي، ومحاولة توجيه الأنظار من المجال الضيق إلى المجال الواسع، وبالاستعداد لمواجهة خطر الاحتلال الفرنسي، وعليه فقد أخذ يعد العدة والعتاد، ويجمع الأتباع والأنصار، واستمالة القبائل الموالية للفرنسيين، وبات يهدد التواجد الفرنسي بالمنطقة خاصة وانه دخل معهم في أول معركة يوم 22 ماي 1852 بمنطقة متليلي.

وأمام هذه التهديدات ما كان على السلطة الاستعمارية إلا الإسراع في إخضاع منطقة ورقلة والسيطرة عليها قبل أن تتحول إلى قاعدة ثورية للمقاومة الشعبية، وعلى اثر الإجراءات التي اتخذها الحاكم العام راندون *Alexander Randon*، قام بتجهيز ثلاث فرق عسكرية الأولى قادمة من وهران بقيادة الجنرال يوسف والتي تمركزت بالجلفة، والثانية قادمة من معسكر بقيادة بلييسي *Bellissier* [27] والتي تمركزت بالبيض، والثالثة قادمة من المدية بقيادة ماكماهون *Mc Mahon* والتي تمركزت بالجنوب القسنطيني. وفي المقابل لم يكترث الشريف محمد بن عبد الله بهذه الإمدادات العسكرية، بل واصل هجوماته على الفرنسيين والموالين لهم وكبدهم خسائر كبيرة. الأمر الذي دفع بالسلطة الاستعمارية إلى الاستنجاد بعملائها في المنطقة وفي مقدمتهم سي حمزة ولد بوبكر الذي عينوه خليفة على المنطقة الممتدة ما بين الجلفة والحدود المغربية كمكافأة له على اشتراكه في إخضاع منطقة الاغواط سنة 1852.

فانطلق مدعما من الفرنسيين بقوات قدرها 2000 فارس و200 من المشاة[28]، وسار نحو مدينة نقوسة، حيث اخضع في طريقة قصر متليلي ووادي ميزاب إلى أن وصل نقوسة فأخضعها له في 5 ديسمبر 1853، رفقة الفرق العسكرية الفرنسية التي لحقت به بقيادة ديريو *Durieu*، وبارال *Du Barail*، ونيقو *Niqueux*، وبعد مرابطة دامت حوالي اثنان وخمسون يوما بنقوسة سار سي حمزة ولد بوبكر نحو ورقلة لاحتلالها، ودخل في معارك طاحنة ضد الشريف محمد بن عبدالله خاصة في منطقة الرويسات، إذ انهزم محمد بن عبد الله في يوم 27 جانفي 1854 وتم إخضاع كل قرى ورقلة، وانسحب على إثرها نحو تونس لاسترجاع أنفاسه من جديد.

بعدها دخل الكولونيل ديريو *Durieu* [29] ليعلن باسم فرنسا احتلال ورقلة، مع إلزام سكانها بتقديم ضريبة سنوية تقدر بألفي فرنك للسلطة الفرنسية[30]، إلا أن الجيش الفرنسي لم يستقر بالمنطقة ونصب عملاؤه بالنيابة عنه، فيما واصلت القوت الفرنسية زحفها نحو منطقة وادي ريغ ووادي سوف.

كل الكتابات الفرنسية تؤكد على أن سكان ورقلة قابلوا الاحتلال الفرنسي بمقاومة شرسة، ولولا استعانة فرنسا بعملائها في المنطقة لا تأخرت عملية احتلالها، غير أن صاحب "**غصن البان**" نفى ذلك وكتب عكس ذلك، وبيَّن أن سكان ورقلة هم الذين طلبوا الحماية الفرنسية، إذ يقول في ذلك نقلا عن رواية الشيخ الحاج احمد بن محمد بن الشيخ الحاج احمد: «.. لم تمّ احتلال الدولة الفرنسية لبلاد الجزائر بعد حربها مع الأمير عبد القادر بن محي الدين سنة1264هـ/1846م بعد دوام ذلك الحرب الضروس مدة ستة عشر سنة اجتمع زعماء ورجلان (ورقلة) وبعثوا وفدا إلى بلدة الجزائر وطلبوا عميد الدولة الفرنسية الدخول تحت حماتها، وذلك لما سئموا من ولاية الأشراف (أسرة أولاد علاهم) فقبل منهم ذلك، وعين لهم علي باي[31] الذاودي من بسكرة قايدا وسماه باي الصحراء، وأوجّب عليهم ضريبة سنوية قدرها سبعة آلاف وخمس مئة فرنك توزع على البلاد

الورجلانية (الورقلانية)، فقبلوا بذلك ورجعوا من عنده مسرورين، فمكث المذكور في الولاية أعواما عديدة إلى أن بدلته بسيدي حمزة...»[32]

لكن المتعارف عليه تاريخيا أن بنوا ميزاب هم الذين عقدوا اتفاق الحماية مع الفرنسيين سنة 1853، وقبلوا بدفع ضريبة سنوية قدرها خمسة وأربعين ألف فرنك (45000ف)، وقد نص هذا الاتفاق على عدم تدخل فرنسا في الشؤون الداخلية لسكان بني ميزاب، وحماية تجارتهم بمناطق الشمال، وحرية تجارتهم مع ليبيا وتونس دون رقابة جمركية، مقابل اعتراف بنو ميزاب بالحماية الفرنسية، وعدم التعامل مع أعداء فرنسا وبالخصوص الشريف محمد بن عبد الله.

وكما هو معروف أيضا أن العدو الفرنسي لا يكشف نواياه الحقيقية المسطرة لتحقيق أهدافه التوسعية، فهذا الاتفاق ما هو إلا در للرّماد في عيون الميزابيين بغية إيقائهم على الحياد، والتفرغ للقضاء على الشريف محمد بن عبد الله واحتلال ورقلة، وقد تأكد هذا فعلا عندما تم خرق آفاق الهدنة من طرف واحد عن طريق الحاكم العام لويس تيرمان *Louis Tirman* [33] سنة 1882.

أضف إلى ذلك أن التقارير العسكرية بينت أن أعيان ورقلة وهم: عبد القادر بن كرميا شيخ بني سيسين، والحاج بن الحاج معيزة شيخ بني وقين، والحاج محمد كبير بني إبراهيم، والحاج بوقلة كبير العرش لبني إبراهيم قد استسلموا بعد مقاومة منهم للسلطة الفرنسية رافضين احتلال ورقلة، وذهبوا إلى البيض يوم 11 سبتمبر 1854 لدفع ما عليهم من ضرائب إلى سي حمزة ولد بوبكر.[34]

وفيما يخص تنصيب علي باي آغا على ورقلة وتكليفه بجمع الضرائب السنوية، فقد أكدت المصادر التاريخية أن علي باي نصبته السلطة الفرنسية بقيادة العقيد ديفوا *Desveaux* بعد احتلال تقرت يوم 26 ديسمبر 1854 آغا على وادي ريغ ووادي سوف بحضور كل أعيان البلاد، وضل بها إلى أن خلعته الإدارة الاستعمارية سنة 1871 وعينت مكانه الملازم بن دريس[35]، وليس سي حمزة ولد بوبكر كما جاء في الرواية. لان سي حمزة عينته السلطة الاستعمارية منذ 1852 بلقب خليفة على المنطقة الممتدة من البيض إلى الحدود المغربية. وعليه فقد يكون صاحب "غصن البان" في روايته قد اختلط عليه الأمر والتبس، فوقع في هذه التناقضات التاريخية.

3/ الاستقرار النهائي للفرنسيين

بعد سقوط مدينة ورقلة في يد القوات الفرنسية سنة 1854، غادرت هذه الأخيرة باتجاه منطقتي وادي ريغ ووادي سوف لاستكمال عملية الغزو الاستعماري،تاركة عملائها يحكمون البلاد، و لم تذكر المصادر التاريخية من الذي نصبته بان يحكم المنطقة باسمها؟ ولكن في نظرنا قد يكون سي حمزة ولد بوبكر على أساس أن منطقة ورقلة تدخل ضمن نطاق حكمه من البيض بحوض الساورة إلى ورقلة.[36]

غيران الوضع الأمني لم يستقر في ورقلة مما دفع بالقوات الفرنسية العودة إلى ورقلة في ذكري عيد المسيح سنة 1857 لاستتباب الأمن وفرض السيطرة من جديد لمدة ثلاث سنوات ثم عينت سنة 1860 السي زبير ولد بوبكر سيدي الشيخ خليفة على ورقلة، إلا أن هذه الأخيرة تحررت مرة أخرى سنة 1871 من طرف الشريف بوشوشة[37]، ونصب فيها السي الزبير مرة أخرى آغا على ورقلة، وغادر بوشوشة متجها نحو منطقة وادي سوف. لكن القوات الفرنسية عادت مرة أخرى مجهزة بإمدادات عسكرية بقيادة الجنرال دولا كروا *DeLacroix*[38]، وأعاد احتلال ورقلة من جديد في 5 جانفي 1872، وعلى اثر هذا الاحتلال نصبت السلطة الاستعمارية الملازم بن دريس آغا على ورقلة وتقرت، وطلبت منه ملاحقة الشريف بوشوشة وإلقاء القبض عليه، إلا انه في سنة 1877 تم عزل بن دريس بسب ارتكابه العديد من التصرفات التي لا ترضي الفرنسيين، وعينت مكانه الآغا عبد القادر بن عمر،وعلى ما يبدوا أن هذا الآغا الجديد لم يستقر في آغاويته، فبعد ثلاث سنوات قدم

استقالته بسبب الغزو الفرنسي لتونس سنة 1881، والذي انعكس على سكان ورقلة بحكم العلاقة الأخوية والتاريخية الموجودة بين الجالية الورقلية بتونس والتونسيين، والتي هاجرت إليها عقب احتلال ورقلة من جديد سنة 1871. لتستقر هذه المرة القوات الفرنسية نهائيا عام 1883 بعدما تم تنصيب أول مركز عسكري فرنسي بمنطقة الرويسات بقيادة الفريد لوشاتولييه *A.Le chatelier*.[39]

وللإشارة أيضا أن الإدارة الاستعمارية اتخذت مجموعة من الإجراءات التحصينية لتحقيق ضربات استباقية ضد المقاومين، عقب حادثة مصرع (فلاتيرس*FLATERS*) سنة 1881 عبر الطرق والمواقع الصحراوية، وذلك بإقامة عدة أبراج عسكرية أهمها: برج فلاتيرس *FORT FLATERS* والمعروف حاليا باسم برج عمر ادريس، وبرج لا لمان *FORT LALEMAND* الذي يقع على بعد 140 كلم شرق ورقلة في مدخل العرق الشرقي الكبير. هذا بالإضافة إلى برج الأحمر بورقلة، وبرج ملالة القريب من ورقلة.

وخلاصة ما سبق ذكره يتضح أن فكرة احتلال منطقة ورقلة وضواحيها قد اختمرت طويلا في أذهان الحكام الفرنسيين، وعلى رأسهم الحاكم العام الكسندر راندون *Alexander Randon* الذي طالب بتعجيل احتلال الواحات الصحراوية، باستخدام وسائل عسكرية وعلمية وتجارية، فقاموا بمحاولات مكثفة وطويلة للسيطرة عليها خدمة لمصالح فرنسا، ودعما لاستعمار إفـــريقيا، لكن رغم العزلة الخانقة وقساوة الطبيعة الصحراوية، والفاقه والحرمان،وانعدام الإمكانيات والوسائل، إلا أن سكان ورقلة واجهوا التوسع الاستعماري بمقاومة شديدة مستبسلة خلدت أسماءهم على صفحات التاريخ.

بيبليوغرافيا

1 إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص39.

2 تقع بلاد السودان في غرب إفريقيا وتنحصر بين الصحراء في الشمال، والغابات الاستوائية في الجنوب، وتمتد شرقا إلى حدود مرتفعات الحبشة، وغربا إلى المحيط الأطلسي، وقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة مناطق؛ أولا: السودان الغربي ويشمل حوض نهر السنغال، ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر،وثانيا :السودان الأوسط ويشمل حوض بحيرة تشاد، وثالثا: السودان الشرقي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل جنوب بلاد النوبة.

3 الشريف محمد بن عبد الله هو إبراهيم بن أبي فارس من مواليد أواخر القرن 18م، وقد اختلفت المصادر التاريخية في تحديد مكان ميلاده ، لكنه ظهر على الساحة السياسية مند سنة 1841م عندما عينته السلطات الاستعمارية الفرنسية عبر المرسوم الملكي خليفة على الغرب الجزائري، وهو ينتمي إلى أولاد سيدي احمد بن يوسف فرع قبيلة أهل رو سل قرب عين تيموشنت، ولقد حاول الجنرال(بيجو) استمالته بهدف التفرغ لعدوانه على دولة الأمير ، إلا انه أحجم عن ذلك ، وبعدها أصبح محمد بن عبد الله يعاني من مضايقات لم يكن يتوقعها من الفرنسيين مما دفع به إلى حمل لواء الثورة ضدهم لمدة تقرب عن ثلاثين عاما ، وبدأ حياته الجهادية بالاستيلاء على ورقلة سنة 1857م ، ثم واصل جهاده عبر مختلف المناطق الصحراوية إلى أن توفي عام 1895م بعد كفاح مستمر ضد الاستعمار دام نصف قرن كامل. وللمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى : يحي بوعزيز، «كفاح الشريف محمد بن عبد الله»، مجلة الثقافة، ع33، س6، 1976م، ص.ص 11- 24 .

4 Denys Pillet,Repéres pour l'histoire de Ouargla1872-1992.Traduction Ali ldder ;Edition definitive 1995, p22

5 التشكيلات الاجتماعية شملت آنذاك الشعانبة بوسعيد والشعانبة القبالة ، والمخادمة ، وسعيد عتبة، وبني ثور.

6 Gouvernement Général de L'Agérie , « Notes pour servir a l'historique d'ouargla 1885 » , R.A, n° 64,1923,pp 388

7 هو سي حمزة بن سيدي بوبكر من قبيلة أولاد سيدي الشيخ ، ولد في أواخر 1818 في قرية البيض سيدي الشيخ ، نشا في زاوية أجداده ، وتعلم القرءان واللغة العربية ، وشب على ركوب الخيل والتدرب على السلاح ، استطاع أن يكسب ود الفرنسيين وثقتهم فعينوه كخليفة على مناطق واسعة من الصحراء امتدت من البيض إلى ورقلة ، وقد لعب دورا كبيرا في تقويض مقاومة الشريف محمد بن عبد الله وناصر بن شهرة في الأغواط و ورقلة ، وفي سنة 1860 نشب خلاف بينه وبين السلطات الفرنسية بسبب انتشار نفوذه لدى القبائل الصحراوية ، فتم نقله إلى الجزائر إلى أن توفي فيها عام 1861م ، فخلفه ابنه بوبكر الذي تمكن من إلقاء القبض على الشريف محمد بن عبد الله

8 ضريبة اللزمة :فرضتها السلطة الاستعمارية على الأهالي، وتُحدد حسب أصناف النخيل ومدى جودتها، وتعدادها، وهي ضريبة مستحدثة بموجب المرسوم الصادرفي 17 جانفي 1845م.

9 راندون: هو الحاكم العام للجزائر بين سنتي(1857- 1858) ، واسمه الكامل هو الكونت جون لويس سيزار ألكسندر راندون Jean Louis César Alexander Randon .Comte

10 Azzan Paul,Conquete et Pacification de L'Algérie, paris, p 341

11 . Denys Pillet, Op.Cit, p18

12 Daumas,Le Sahara Algérien ,paris, 1845.pp 72-88.

13 C.Trumelet, Les Français dans le désert ,paris ,1887 , pp 32 -498

14 E.Cosson , Considération Général sur le Sahara Algérien et ses Cultures, Paris, 1859, pp02-23

15 A.Berbrugger , Projet D'exploration des Oasis Algérienne ,par Gabès Souf , Ouargla ,Touat, et Retour par Metlil et les Ouad Mzab ,Alger , s.d ,p 8

16 Le Capitaine Bajolle, le Sahara d'Ouargla,de Oued Mia, à l'Oued Igharghar, Alger,1887,p55

17 Auguste.Choisy, Le Shara. Souvenir d'une mission à Goléa.paris.1881.p290

18 F.Cabanis, Grand chemin de fer d'Afrique, paris ,1853 p 32

19 Charles Féraud , Notes Historiques sur La Province de Constantine, Les Ben djallab deTouggourt ,in R.A , n°23, 1880 , pp 456 – 493

20 Denys Pillet, Op.Cit, p11

21 Paul Solellit , L'Afrique Occidental, Algérie, Mzab, Tlldikelt, paris,Challamel,1877, p 170

22 V. Largeau , Le Sahara Algérien, Le désert de l'Erg, paris,1881, pp 94- 229

23 Flatters , Les deux Mission du Colonel Flatters, paris,1884, pp 168 - 182

24 Flatters,Op.Cit, pp 247-251

25 Auguste.Choisy, Op.cit.p290

26 Louis Moulleseaux. Piérre Boyer; Histoire de L'Algérie, paris,1962, p359. Denys Pillet, Op.Cit, p34

27 بيليسييه دي رينو: ضابط عسكري شارك في عدة حملات عسكرية في الصحراء الجزائرية، بالإضافة إلى عضويته في لجنة الاكتشاف العلمي بالجزائر، باعتباره متخصص التاريخ الحديث والنظم والعادات. واستطاع أن يترجم تاريخ

القيرواني عن المغرب الإسلامي من القديم إلى عهد الموحدين، وكتب مذكرات تاريخية عن الحملات الأوروبية ضد سواحل شمال إفريقيا، وغيرها من الأعمال العلمية

28 E.Mangin, Notes sur l'Histoire de Laghout, in R.A.n37 ,1893, p32

29 جنرال فرنسي من مواليد 18 جانفي 1812م، انخرط في مدرسة هيئة الأركان العسكرية وتخرج منها برتبة نقيب سنة 1836م، وفي سنة 1854م ترقى إلى رتبة عقيد،كما تحصل على وسام الشرف في 10 أكتوبر 1851م، إضافة إلى عمله العسكري اهتم بالجانب العلمي حيث انخرط في جمعية الأعمال الطبوغرافية بالجزائر، وقد توفي في 27 ديسمبر 1877م

30 C.Trumelet, Op.Cit , p 476

31 هو علي باي بن فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز الذوادية ، عينه الفرنسيون اغا على تقرت خلفا لسلطة بني جلاب بعد سقوط إمارتهم، وأيضا وادي سوف بعد احتلالها، وقد ادعى هذا القائد أنه من نسل بني جلاب ، ولعله أراد بذلك أن يجعل لنفسه هيبة لدى سكان تقرت ، فاعتماده على هذا النسب يجعل له قيمة كبيرة في مدينة كان الحكم فيها مقتصرا على بني جلاب مند سنوات طويلة ، أما من الجانب الوصفي لشخصيته ، فهو رجل في حوالي الأربعين من عمره اسود اللحية، اسمر الوجه ، ذو عينيين صغيرتين براقتين ، يتسم بالوقار عموما . انظر : هاينريش فون مالتسان ، ثلاثة سنوات في شمال غربي إفريقيا ،تر: أبو العيد دودو ، ج3 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ،ص152.

32 أعزام الحاج إبراهيم بن صالح ، غصن البان في تاريخ وارجلان ، مخطوط في إطار التحقيق، ص68.

33 لويس تيرمان Louis Tirmanمن مواليد 29جويلية 1837م بميزيارMéziéres (فرنسا)، متحصل على شهادة دكتوراه في الحقوق، تقلد عدة مناصب سياسية وعسكرية، منها عضو مجلس محافظة ميزيار سنة 1863،عضو في وزارة الدفاع الوطنية الفرنسية عام1870م، عين حاكما عاما على الجزائر في الثمانيات من القرن 19م

34 Ch. Féraud , Op.Cit , p115

35 الملازم بن إدريس جزائري الأصل ، من مواليد الوطاية بمنطقة بسكرة سنة 1835، عمل بالجيش الفرنسي كقائد للصبايحية ، ثم عينته السلطة الفرنسية آغا على تقرت سنة 1871 كما عينت أخاه السعيد آغا على ورقلة ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الامتيازات التي تحصلت عليها هذه العائلة كانت بفضل الخدمات الكبيرة التي قدمتها للفرنسيين ومساعدتهم في عملية استكمال احتلال الصحراء ، ومن ذلك إلقاء القبض على اخطر ثائر بالصحراء بعد مقاومة الأمير عبد القادر وهو الشريف بوشوشة بمنطقة عين صالح سنة 1873 ، انظر : أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، مرجع سابق ، ص145.

36 صاحب غصن البان ذكر بان الفرنسيين بعد احتلال ورقلة نصبوا علي باي، على خلاف يحي بوعزير الذي ذكر أن السي الزوبير ولد بوبكر هو من نصبته فرنسا على ورقلة عقب الاحتلال

37 هو محمد بن التومي بن إبراهيم الغيشاوي المعروف باسم " بوشوشة " أي الفارس من مواليد الغيشة بجبال عمور في مطلع القرن التاسع عشر" ، كان في بداية حياته راعيا مثل أجداده الدين ورث عنهم الشجاعة والفروسية ، رفع لواء المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي مند عام 1862 ، وبسرعة تجند تحت لوائه كثير من الأنصار من أهل توات وشعانبة متليلي وشعانبة المواضي بالمنيعة وشعانبة ورقلة ، فأخدت حركته تمتد وتنتشر خصوصا بعد انضمام بن ناصر بن شهرة إلى صفوفه في مارس 1869 ، ونتيجة لهذا العدد الكبير من الأنصار قام بحث سكان الجنوب على مقاومة النفوذ الفرنسي ، ومهاجمة المتعاونين مع العدو ، إذ قام بمطاردة الشيوخ والمسؤولين الذين عينتهم فرنسا ، للمزيد من المعلومات أنظر : محمد الأخضر عبد القادر السائحي : مدونة أشغال ملتقى مقاومة الشريف محمد بن عبد الله بورقلة ، جمعية الانتفاضة الشعبية 27 فبراير التاريخية بورقلة ، 25-27 فبراير 1998 ، ص 14 . وانظر أيضا : بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج1 ، ص ص 216- 227

38 دولا لا كروا DeLacroix: القائد العام لقطاع قسنطينة خلال السبعينات وأحد الضباط الفرنسيين الذين احتلوا بعض الواحات في جنوب شرق الجزائر ، وكان له دور كبير في مطاردة أولاد مقران إلى الصحراء

39 Denys Pillet, Op.Cit, p22

جبهة جيش التحرير الجزائري بالحدود الليبية ومعركة ايسين في أكتوبر 1957

د / عبد الله مقلاتي
جامعة محمد بوضياف / المسيلة

ملخص

بالرغم من أن الأراضي الليبية بعيدة عن مواقع المجابهة التي كانت محتدمة على في الشمال إلا أن الجبهة قامت مبكرا في سنة 1957 بفتح جبهة لجيش التحرير بالحدود الليبية الجزائرية، وذلك لتحقيق جملة أهداف، لتليها معركة ضد الفرنسيين بمنطقة ايسين، فكيف تسنى للجبهة فتح هذه الجبهة الصحراوية في تلك المنطقة النائية؟ وما هي ملابسات معركة ايسين وما هو الدور الذي لعبته ليبيا حكومة وشعبا في مؤازرة نشاط هذه الجبهة؟

Abstract

Although the Libyan territory far from the sites of confrontation that was raging on in the North, but that the front has early in the year 1957 to open a front for the Liberation Army borders Libya Algeria, in order to achieve among other objectives, to be followed by a battle against the French region of Essien, How could the front opening that front the desert in the remote area? What are the circumstances of the battle and Essien is the role played by the Libyan government and people in supporting the activity of this front?

مقدمـــة

يبدوا للباحثين أن النشاط العسكري للثورة الجزائرية في ليبيا اقتصر على إنجاح مهمة تمرير الأسلحة وتأمين وصولها للجزائر، خاصة وأن جبهة التحرير الوطني لم تعتمد بليبيا قواعد عسكرية أو مراكز للتدريب نظرا لأن الأراضي الليبية بعيدة عن مواقع المجابهة العسكرية التي كانت محتدمة على الجبهة الشمالية بالحدود الجزائرية التونسية، أما مناطق الحدود الصحراوية التي تربط الجزائر بليبيا فإن ظروفها الطبيعية والمناخية الصعبة لم تكن تشجع على استقرار وحدات جيش التحرير الجزائري بها وكانت الحركية النشطة للجزائريين بليبيا تتكفل أساسا بتمرير الأسلحة وتسيير المصالح المرتبطة، والحقيقة ان جبهة التحرير الوطني قامت مبكرا في سنة 1957 بفتح جبهة لجيش التحرير الوطني بالحدود الليبية- الجزائرية، وذلك بغية تحقيق جملة أهداف إستراتيجية، وبعد أشهر من النشاط خاضت معركة ضد الفرنسيين في الثالث اكتوبر1957 بمنطقة ايسين، وتظل إلى اليوم ملابسات هذه المعركة غير مدروسة على الرغم من أنها تمثل درسا مهما في التضامن والتآزر بين القطرين الشقيقين طالما استشهد به القادة السياسيون في مناسبات عدة، فكيف تسنى لجبهة التحرير الوطني إنشاء هذه الجبهة الصحراوية في هذا الوقت المبكر وفي تلك المنطقة النائية؟ وما هي ملابسات معركة ايسين وما هو الدور الذي لعبته ليبيا حكومة وشعبا في مؤازرة نشاط هذه الجبهة؟

1- القواعد الخلفية للثورة الجزائرية بليبيا

من أجل إبراز دور ليبيا في تسهيل النشاط العسكري للثورة الجزائرية سوف نبين نشاط هذه القواعد الخلفية المتعلقة بالتسليح ونتعرض للموقف الليبي بخصوص نشاط جيش التحرير الوطني بالحدود الليبية الغربية.

إن مهمة تهريب الأسلحة التي بدأت تنتظم في ليبيا بشكل سري ثم تدعمت بتعاون السلطات الليبية، وكانت تستلزم وجود عناصر جزائرية تشرف على هذه العملية لذا عين ابن بلة في بداية سنة 1955 مجموعة من الجزائريين يتكفلون باستقبال الأسلحة وإدخالها إلى تونس واختيرت منطقة زوارة مكانا مناسبا لإنزال شحنة السفن المصرية في نوفمبر 1955، وتم اقتناء عدد من المزارع خصصت لتخزين الأسلحة، وقد يسرت السلطات الليبية نشاط هذا المركز الذي أحيط بكامل السرية[1] ونظرا لتزايد كميات الأسلحة القادمة إلى ليبيا اعتمد المسؤولون الجزائريون على منطقة طرابلس لتخزين الأسلحة وتم شراء مزرعة بالقرب من المدينة اعتمدت كمركز للتخزين تتجمع بها الأسلحة والمؤونة، ولم تقتصر مهام المركز على التخزين فحسب إذ أنشئت به مصالح أخرى خاصة الاستعلامات والاستراحة والنقل[2]، وأنشأت مديرية التسليح والاتصالات التابعة للجنة التنسيق والتنفيذ مصلحة خاصة بالتسليح في بنغازي، وذلك من اجل الإشراف على مرور الأسلحة القادمة من مصر[3]. وفي عهد وزارة الاتصالات والتسليح انشأ بوالصوف عدة مصالح مرتبطة بالتسليح لقيت كل التسهيلات اللازمة من السلطات الليبية، وأهم هذه المصالح نذكر:

- مصلحة التموين والتسليح تتكفل بمهمة نقل الأسلحة والمؤونة باختلاف أنواعها وإيصالها إلى جيش التحرير الوطني وأشرف على هذه المصلحة محمد الهادي عرعار.
- مصلحة المواصلات العامة: تهتم بربط الاتصالات ونقل البريد بين تونس وليبيا والقاهرة خاصة.
- مصلحة الاتصالات والمخابرات اللاسلكية: أنشأها بوالصوف بطرابلس نظرا لأهمية ليبيا في ربط الاتصالات وتزايد نشاط شبكات تهريب الأسلحة أشرف عليها ابن عودة وضمت الاتصالات بالشفرة والاتصالات بالراديو وقد عمل بها مجموعة من المخابرين الجزائريين في مركز خاص عرف بقاعدة ديدوش مراد[4]، وقد واصلت هذه المصالح مهامها الحيوية إلى غاية الاستقلال وكان لها دور هام في الاستعلام والاتصالات.

2 - فتح جبهة لجيش التحرير الجزائري بمنطقة غاط

إن الاستعدادات التي كانت تبديها السلطات الليبية لدعم الكفاح الجزائري دعت جبهة التحرير الوطني للتفكير في فتح جبهة لجيش التحرير الوطني بالتراب الليبي، وذلك على الرغم من الظروف الطبيعية الصعبة بليبيا وبعد المسافة، لكن الجبهة تعرضت لصعوبات أعاقت نشاطها فكيف تم التخطيط لهذا المشروع وما هي أسباب إخفاقه؟

في صيف 1957 ارتأت قيادة جيش التحرير الوطني أن ترسل فرقة من الجيش إلى أقصى الجنوب الليبي لترابط بمنطقة غاط على الحدود الليبية ـــ الجزائرية وتقوم بعمليات حربية في صحراء الجزائر لتحقيق جملة أهداف منها :

ـــ تعميم الثورة في منطقة الصحراء الجنوبية وخلق مشاكل للقوات الفرنسية في هذه المناطق النائية.

ـــ كسب سكان المنطقة الصحراوية التوارق من اجل مواجهة المخططات الفرنسية والمشاركة في ثورة بلادهم.

ـــ إيجاد منافذ لإمداد الداخل بالأسلحة والمؤونة شبيهة بالمنافذ الإستراتيجية على الحدود التونسية والمغربية[5].

ويبدوا أن العامل الأخير كان حاسما في التشجيع على فتح هذه الجبهة، خاصة أمام تضخم مخازن الأسلحة بليبيا وظهور بعض الصعوبات في إدخال الأسلحة عبر الحدود التونسية، وكان مخطط المشروع يقوم على إنشاء

الجبهة الليبية وتثبيت أقدامها أولا ثم الانتقال إلى مرحلة شن العمليات العسكرية على المراكز الفرنسية بمنطقة جانت ونواحيها، ولكن اكتشاف أمر الفرقة العسكرية من قبل الفرنسيين وخوضها لمعركة ايسين افسد نوعا ما مخططها بشكل غير متوقع، كما أن هناك ملابسات أخرى تحف بدوافع فتح هذه الجبهة نذكر منها خصوصا:

ـــ الارتجال في فتح هذه الجبهة: إذ تشير كثير من الشهادات أن فتح هذه الجبهة لم يكن مدروسا من حيث الجهل التام بالمنطقة وعدم تحديد الأهداف بوضوح وانتقاء عناصر الفرقة، فأغلب عناصرها كانوا قد تلقوا تكوينا حديثا في الخوص بمصر تحت اسم "الضفادع" للقيام بأهداف بحرية وصدموا بالأمر عندما وجدوا أنفسهم في صحراء قاحلة، كما أن عناصر أخرى كانت حديثة التخرج من جامع الزيتونة والبعض الأخر عناصر مغضوب عليها ومنهم مصطفى لكحل ومنور مروش وعلي سواعي...الخ،[6] وقد ذكر عميمور محي الدين احد عناصر الفرقة أن المجندين استخلصوا أن الهدف من الحملة كان التخلص من بعض العناصر واختبار بعضهم الآخر "تولد لدينا جميعا انطباع بأن هدف الحملة أساسا كان التخلص من عناصر معينة كان وجودها في الشمال مزعجا لقيادات معينة و لم أتمكن فيما بعد من تأكيد هذا الانطباع كما أنني لم أتمكن من نفيه"[7].

ـــ التنافس على السلطة: اندرج سياق فتح هذه الجبهة في إطار التنافس على قيادة جبهات الحدود، فبعد خروج قادة لجنة التنسيق والتنفيذ الى تونس بدئوا في التنافس على قيادة جيش الحدود في تونس خاصة، وقد تمكن كريم المتحالف مع اوعمران ومحمود الشريف من فرض نفسه قائدا للقوات المسلحة، ورأى أن يبحث عن نفوذ له كذلك على جبهة الحدود الليبية، ولهذا اختار لقيادة هذه الجبهة احد المخلصين له وهو الضابط ايدير مولود وكان متشجعا لفتح هذه الجبهة في اقرب وقت ممكن .

ولا نعرف ما إذا جرى نقاش موسع لجدوى ومخاطر فتح هذه الجبهة أم أن القرار كان مرتجلا؟ ويبدوا أن كريم بلقاسم وبحكم صلاحياته كقائد للقوات المسلحة هو الذي أمر بإنشاء هذه الجبهة واختار الرائد ايدير قائدا عليها، وكلف اوعمران المتردد كثيرا على ليبيا للنهوض بمهمة التسليح بإجراء مفاوضات مع السلطات الليبية للحصول على موافقتها وطلب المساعدات اللازمة.

وقد طرح ممثل جبهة التحرير بليبيا بشير القاضي واعمران الفكرة على رئيس الحكومة الليبية، فأشار عليهما بإجراء مباحثات مع رئيس الحكومة الفدرالية بإقليم فزان عبد الجليل سيف النصر باعتبار أن الجيش سيرابط فوق تراب إقليمه، وكان إقليم فزان حديث الاستقلال لم تجلوا منه القوات الفرنسية إلا في أواخر سنة 1956، تولى إدارته سيف النصر، وكان جزءا كبيرا من سكانه توارق يرتبطون بعلاقات وطيدة مع توارق ازجر بالجزائر بحكم الجوار الجغرافي والصلات العائلية، وقد كانت المفاوضات مع سيف النصر شاقة لخشيته من ردود فعل الفرنسيين، وتدخل فيها كثير من الوسطاء وان كنا لا نعرف ما إذا وصل الأمر إلى تدخل الملك شخصيا في الموضوع، وتشير الشهادات أن الوفد الجزائري تحايل عليه لكسب موقفه فأقنعه أن فرقة جيش التحرير الوطني لن تتسبب في مشاكل للإقليم ولن تحارب الفرنسيين فوق التراب الليبي وان نشاطها يتركز على تمرير الأسلحة بشكل سري، وبعد موافقة سيف النصر شرعت قيادة الثورة في تنفيذ مشروعها مستفيدة من المساعدات المقدمة لها من قبل المسؤولين الليبيين في فزان وغاط.

وقد اشرف اوعمران على إعداد مجموعة جنود هذه الفرقة وتوجيههم في سرية تامة إلى فزان وكلف بقيادتهم الضابط إيدير[8]، ويذكر محمد الصالح الصديق أن الإعداد لإنجاح هذه المهمة ميدانيا أسند إلى أحد الجزائريين المقيمين بفزان واسمه محمد وكيد وضابطين ليبيين هما عبد الرحمان المصراتي ومحمد السويني، وكان لهؤلاء الثلاثة دور هام في كسب موقف سيف النصر وفي تهيئة الظروف لاستقبال المجاهدين الجزائريين وإرشادهم[9].

انتقلت الفرقة الجزائرية من تونس إلى طرابلس، ومنها إلى مركز أم العبيد الذي يبعد عن سبها بثمانين كيلومترا، وكان مركزا للشرطة الليبية فأخلي ليستريح به المجاهدون الجزائريون وبعد فترة من التدريبات العسكرية انتقلت إلى مكان استقرارها بواحة فوات بغاط الذي قضيت به نحو أربعة أشهر، وقد نقل لنا محمد الصالح الصديق ومحي الدين عميمور ـــ وهما من المجندين ضمن الفرقة ـــ صورا عما لاقته الفرقة من مشاق السفر ومغامراته وقسوة العيش بتلك الصحراء القاحلة[10].

وقد شرع ايدير في تنظيم مراكز الجيش وتدريب بعض المجندين الجدد ، فجعل مركزا رئيسيا في فوات على بعد 12 لكم من غاط، وآخر في أم العبيد يمثل قاعدة خلفية، وشيئا فشيئا بدأت الفرقة تضاعف أعدادها عن طريق التجنيد، وان كنا لا نعرف بالضبط عدد جنود هذه الجبهة وان كانت المصادر الفرنسية تقدر أعدادها ما بين الأربع مائة والخمس مائة جندي[11]، وقد وجدت الفرقة كل المساعدة من قبل المسؤولين الليبيين وسكان المنطقة، وخاصة منهم حاكم مدينة غاط المدعو القسيني وقائد الجيش بها نوري الصديق، وقد أمرت السلطات الليبية بإنشاء مركز للجيش الليبي قرب غاط لحماية المركز الجزائري وتأمينه، وزيادة في الاحتياط وجهت الأوامر بضرورة أن يكون نشاط الجزائريين سريا وتحت صبغة أنهم عمال تونسيون يعملون في البترول وفقا لتوجيهات أوعمران حتى يتحقق النجاح لمهمتهم.

وقامت فرقة جيش التحرير الوطني بالتنسيق مع قيادة الجيش الليبي على كسب السكان الجزائريين التوارق المستقرين في غاط وتجنيدهم لخدمة الثورة، وكان لهذا العمل التعبوي أثره في انتشار الوعي الثوري بين أوساط سكان المناطق المجاورة كجانت وايليزي...الخ، كما قامت وجدات جيش التحرير الوطني بتمشيط المنطقة والتنسيق مع مناطق الداخل وإدخال بعض كميات الأسلحة، وخططت لتشجيع فرقة المهاريين المجندين في الجيش الفرنسي للالتحاق بصفوفها، كما واجهت المناورات والمخططات الفرنسية الرامية إلى فصل الصحراء والى حماية الشركات البترولية الأجنبية.

وكانت القوات الفرنسية في جانت تدرك مدى الأهمية الإستراتيجية لواحة غاط في حماية الوجود الفرنسي في المنطقة الصحراوية الشرقية للجزائر، ولم تكن تتوقع أن يصلها الخطر لهذه المنطقة ولكن بعض الشكوك بدأت تنتابها على ضوء بعض التحركات المشبوهة والأخبار التي تلتقطها عيونها، وقد كلفت فرقة المهاريين التوارق القيام بالاستخبارات اللازمة ومحاولة اختراق الجبهة، ولكن قائد الجيش الليبي بغاط نوري الصديق تفطن لهذه العيون، وتبين له أن قافلة المهاريين التي تظاهرت أنها تحمل السلاح للجزائريين كانت خديعة دبرها قائد الحامية الفرنسية بتين الكوم قرب ايسين، وأمر كذلك باعتقال بعض المهاريين الذين اجتمعوا سرا مع قائد الحامية الفرنسية بمنطقة إيسين[12].

وبات مؤكدا لدى القيادة الفرنسية أن قوات جيش التحرير الوطني ترابط بغاط وتهدد قواتها بشكل جدي في جانت، وثبت لديها أن حاكم غاط المدعو القيسيني يقدم الدعم للثوار الجزائريين، وأنه ساعد في جوان 1957 على فرار عدد من التوارق المجندين في الجيش الفرنسي، وأن هذا الحاكم الذي يكن كرها للفرنسيين ما يفتأ يمارس سلطته للتأثير على أعيان التوارق لصالح دعم الثورة الجزائرية، وأمام خطورة الأمر بدأ تحرك الفرنسيين سريعا للوقوف في وجه محاولات تثوير التوارق الذين لا يؤمن جانبهم[13]، وذلك بالعمل على عدة جبهات: تجنيد جماعي للتوارق، الضغط على السلطات الليبية، ورسم خطط للمجابهة، وبخصوص المسألة الأخيرة يذكر المؤرخ باتريك شارل رينو أن القيادة الفرنسية فكرت في نصب مدفعية من نوع (105) في برج تين الكوم المشرف على واحة إيسين لضرب أهدافها، وبعد الدراسة الميدانية ألغيت الفكرة وعوضتها بإقامة مكتب لاصاص (S.A.S) بتين الكوم يساعد الفرنسيين على جمع المعلومات عن نشاط الثوار، كما عول في كسب

التوارق على الحرب النفسية، إذ استضاف الملازم الأول "قودار" في يوم 17 سبتمبر 1957 اجتماعا لأعيان التوارق في جانت دعاهم فيه لحماية منطقتهم من التشويش الذي يتسبب فيه حاكم غاط[14].

وفي إطار مراقبتها للمناطق الليبية الحدودية كانت القوات الفرنسية تقوم باستطلاعات دورية تحضيرا لعمليات هجومية، واستعانت في دلك بنشاط الشركات الوهمية التي حاولت الإيهام أنها تنشط في البحث عن البترول وإمداد شركاته بالمؤونة، فكانت مثلا شركة تمول مراكز الجيش الفرنسي وفرق المهاريين على طول الحدود الليبية الجزائرية وتنتقل عبر المناطق الليبية: طارات، تنكته، تمنتا، العوينات، كما كلفت السلطات الفرنسية شركة خاصة للاستعلام بمنطقة غاط تسمى "سياتي" ادعت أنها شركة بترولية تقوم بالتموين بين مناطق شمال تشاد وجانت، وأصبحت قافلة هذه الشركة تمر عبر مسالك ومراكز جيش التحرير الوطني بغاط[15]، الأمر الذي حمل إيدير على مهاجمتها يوم 17 سبتمبر 1957، فكان هذا الاعتداء سببا كافيا للقوات الفرنسية في الهجوم على واحة إيسين والتهديد بملاحقة الثوار الجزائريين في الأراضي الليبية، فما هي ملابسات هذا الاعتداء الفرنسي وكيف تجلت انعكاساته على التضامن الجزائري ـــ الليبي.

3 – معركة ايسين: وقائعها وانعكاساتها

لقد شعرت قيادة الجبهة الجنوبية مع دخول موسم خريف سنة 1957 بضرورة الانتقال إلى مرحلة شن العمليات العسكرية، فدخلت في عدة اشتباكات مع فرقة المهاريين وخططت لضرب عدة أهداف عسكرية، ومنها اعتراض سبيل قافلة شركة "سياتي" المشبوهة القادمة بالتموين من شمال تشاد باتجاه جانت.

وقد قرر إيدير الهجوم على القافلة بالتنسيق مع قائد الجيش الليبي نوري الصديق الذي قدم له التفاصيل الكاملة عن موعد قدوم القافلة وزوده ببعض الجنود الليبيين[16]، وجاء القرار على خلفية نشاطها المريب في ترصد تحركات الجزائريين، وكان الهجوم يهدف إلى قطع المدد عن القوات الفرنسية بجانت، وبث الرعب في صفوف الفرنسيين وإظهار قوة جيش التحرير الوطني أمام القوات الفرنسية وفرق المهاريين حتى لا تتابع تحركات الجيش الجزائري بالمنطقة، ويبدوا أن العملية التي كانت تهدف إلى توفير حماية أكبر لعمليات نقل الأسلحة وتحرك الجزائريين لفتت انتباه الفرنسيين ودفعتهم لمواجهة الموقف وهدا أمر لم يؤخذ في الحسبان[17].

وقع اعتراض القافلة يوم 16 سبتمبر 1957 وكانت مكونة من ثمانية عشرة سيارة يقودها جزائريون ويشرف عليهم شخص فرنسي، فتم قتل الفرنسي واقتياد الجزائريين إلى مركز جيش التحرير الوطني وأحرقت السيارات، وقد كان إحراق السيارات بمؤونتها مقصودا حتى لا يتهم جيش التحرير الوطني بأنه يقوم بأعمال القرصنة وقطع الطريق ومن أجل أن يوصل رسالة للفرنسيين بأنهم مهددون في كل مكان، كما تقرر أن تحرق هده السيارات فوق التراب الجزائري على الرغم من أن اعتراض القافلة تم في الأراضي الليبية، وذلك بهدف عدم المساس باتفاقية التعاون الفرنسية ـــ الليبية وجعل ليبيا في موقف محايد بعيد عن أية مسؤولية، وكذا التأكيد للسلطات الليبية أن الجزائريين يحاربون الفرنسيين في عمق التراب الجزائري على الرغم من اطلاع المسؤولين المحليين على خفايا الأمور ومنهم نوري الصديق[18].

وتشير كثير من المصادر إلى أن القوات الفرنسية كانت تتأهب لتوجيه ضربة لقاعدة الثوار بغاط، وأنها وجدت في هذا الاعتداء مبررا كافيا لشن حملة واسعة على الجنوب الليبي بهدف تطهير المنطقة من الثوار الذين يهددون منطقة جانت ـــ ايليزي، ويسجل شارل رينو أن قائد فيلق المهاري في الطاسيلي الملازم قودار بادر باصطحاب زعيم توارق المنطقة إلى مطار إيليزي لمشاهدة القوات التي نزلت يوم 17 سبتمبر بالمطار لتدعيم الترسانة العسكرية، وهي عشر طائرات حربية من نوع (NORD 2501) تحمل الجنود المظليين التابعين

للفيف السادس بقيادة الملازم الأول ديفادي ومجموعة من سيارات الدفع الرباعية، كما وصل بعدها الفيلق الصحراوي الأول المحمول للفيف الأجنبي[19]، وتشير هذه المعلومات إلى استعجال القيادة الفرنسية تحضيراتها لشن العمليات العسكرية وإلى تركيزها على عامل استقطاب التوارق والتأثير عليهم من خلال استعراض القوة، خاصة وأنها كانت تخشى ردة فعل السكان وتسعى جاهدة لمنع انتشار الثورة بالطاسيلي.

وفي يوم 22 سبتمبر 1957 انعقد اجتماع للقيادة الفرنسية بإيليزي حضره الجنرال "جوهو" القادم من العاصمة ممثلا للجنرال "سالان"، والجنرال "دارسيمولاس" قائد المنطقة العسكرية للواحات، والمقدم "مادلان" قائد مركز قيادة الجو، والملازمين "روسي" و"قودار"، والملازم الأول "فلدان" المختص في الإشارة، والمقدم "توريت" المكلف بمتابعة عمليات الاستكشاف الجوية ميدانيا وعددا من ضباط هيئة الأركان[20]، وقد استمعوا إلى تقرير المقدم "توريت" والذي يصف الوضع بمنطقة الحدود الجزائرية الليبية بالخطير جدا، ويقترح تطهير المنطقة من الثوار باحتلال مناطق من الحدود الليبية، ومنها سردلاس وغاط، ورسم خطة عسكرية سماها عملية (176) ترمي إلى تنفيذ هجوم عسكري بري وجوي على منطقة غاط، وخلال المداولة تحفظ البعض على مشروع إعادة الاحتلال وعلى توجيه عملية عسكرية كبرى تلفت الأنظار بحكم أن فرنسا تمر بظروف صعبة في شمال إفريقيا وتواجه انتقادات الرأي العام الدولي، وفي الختام خاطب "جوهو" "توريت" بالقول: "أطلق يدك للقيام بأي عملية بشرط عدم إثارة زوبعة تكون نتائجها وخيمة"، ولم يحدد طبيعة هذه العملية وامتطى طائرته راجعا إلى العاصمة تاركا حرية التصرف للعسكريين في الميدان، ويعد تصرف "جوهو" هذا موافقة مبدئية على شن العمليات العسكرية، حيث تعودت القيادة العسكرية في العاصمة عدم تبني الاعتداءات العسكرية على دول الجوار، ونسبتها دائما للقيادات الميدانية التي تتصرف وفق ما تراه مناسبا في إدارة المعركة، وأما الموقف السياسي فقد عبرت عنه الحكومة الفرنسية في باريس عندما شجبت الاعتداء الذي تم على الأراضي الليبية وطلبت من سفيرها في ليبيا رفع احتجاج لدى الحكومة الليبية[21].

وميدانيا تشير مختلف المصادر أن القوات الفرنسية كانت تحضر لعمل عسكري كبير في الجنوب الليبي، تؤشر عليه تلك الاستطلاعات المتكررة لطيران الجو الفرنسي والاعتداءات التي طالت قرية إيسين، ففي يوم 23 سبتمبر 1957 قصفت طائرة فرنسية القرية وقتلت أحد الليبيين، وبعد يومين أغارت عدة طائرات على القرية من جديد وقتلت مواطنا آخر، كما سجل اعتداء ثالث في آخر الشهر طال مواشي أحد الليبيين بوادي الركين قرب إيسين[22].

وبعد تجنيد عدة كتائب وفرق خاصة بالطيران شرعت القوات الفرنسية في تنفيذ هجومها على قرية إيسين يوم 3 أكتوبر 1957، حيث يذكر شارل رينو أن الطابور المكون من 16سيارة و80 جنديا شق طريقه من تين الكوم إلى إيسين، وعلى الساعة التاسعة والنصف وعلى مقربة من ايسين خرجت وحدة من الثوار الجزائريين والليبيين لاعتراض الهجوم على مشارف الوادي، وكان الأمر مفاجئا للفرنسيين فأرسلت السيارات المصفحة للرد على الهجوم باستعمال المدفعية، وبعد مقاومة شرسة سقط احد الجنود الليبيين قتيلا، وفي منتصف النهار تدخلت طائرة مطاردة وأصيبت بوابل الرصاص الذي جرح قائدها وثقب خزانها فتم الاستنجاد بطائرة ثانية، وفي حدود الساعة الواحدة والنصف التحق أربعون جنديا على متن شاحنتين بميدان المعركة، وأمام عدم تكافئ القوى اضطرت القوات الجزائرية والليبية للانسحاب من المعركة، وقد حاولت القوات الفرنسية ملاحقتهم ولكنها تراجعت وعادت من حيث أتت دون أن تكمل مهمتها[23]. ويبدوا واضحا أن جيش التحرير الوطني حقق في هذه المواجهة انتصارا معنويا كبيرا، وان كانت الشهادات لا تقف على وصف مجريات المعركة وتركز على نتائجها، ويذكر قائد الجيش الليبي نوري الصديق في شهادته انه وبمجرد إعلامه بدخول القوات الفرنسية استنفر قواته ووجها لتأخذ مواقعها في مواجهة المعتدين، وانه اتصل بحكومته لإبلاغها بمهاجمة القوات الفرنسية

لمراكز الجزائريين في ايسين فجاءه أمر بعدم التدخل، ويضيف أن هذا الأمر حز في نفسه وقرر أن يقاتل إلى جانب إخوانه الجزائريين، وانه استشار جنوده وخيرهم بين أن ينصاعوا لأمر الحكومة آو يذهبوا معه للمشاركة في المعركة فوقفوا إلى جانبه دون تردد تضامنا مع إخوانهم الجزائريين. ويضيف ان المعركة خاضها الجنود الجزائريون والليبيين جنبا إلى جنب، دون أن يوضح ما إذا كان الجنود الليبيون هم الذين بادروا إلى إطلاق النار أو التحقوا متأخرين لنجدة الجزائريين، ونرجح ان يكونوا هم المبادرون، ويضيف ان المعركة امتدت إلى غاية الساعة الخامسة مساء، وان الجنود الليبيون اسقطوا الطائرة الفرنسية و لم يعطبوها كما تذهب رواية شارل رينو. وانه استشهد جنديان ليبيان، وهذا ما يؤكده بيان الحكومة الليبية[24].

وقد أزمت هذه الحادثة العلاقات الليبية – الفرنسية، واستنكرت الحكومة الليبية هذا الاعتداء في البيان الذي أصدرته، وجاء فيه:" انه في يوم 3 أكتوبر 1957 قامت القوات الفرنسية المرابطة بجنوب الجزائر، متكونة من بعض الدبابات والمصفحات والجنود تدعمها طائرات بمهاجمة قرية ايسين..."[25]، وتضمن تصريح القيادة العسكرية العامة في الجزائر الصادر يوم 3 أكتوبر 1957 تبريرا للقيام بمطاردة الثوار الجزائريين ودعوة لمنع تواجدهم على التراب الليبي[26]، وبعد ذلك جنح الطرفان للجنة تحقيق مشتركة للنظر في أسباب الخلاف، ضمت ممثل فرنسا في ليبيا، ونوري الصديق ممثلا عن الجانب الليبي ومنصور الكخية وعمر مالك ممثلين لحكومة فزان، ويبدوا ان فرض ترأس نوري الصديق المتعاطف مع الثورة الجزائرية كان أمرا مقصودا ومدبرا، وفعلا سار التحقيق في الاتجاه المأمول، فأكد أن الاعتداء على القافلة الفرنسية حدث في الأراضي الجزائرية، وانه كان من حق الجيش الليبي الرد على هجوم القوات الفرنسية، وانه ليس من حق فرنسا الاعتداء على سيادة ليبيا[27].

وهكذا يبدوا أن فرنسا تأثرت بردود الفعل التي أثارها الاعتداء على ايسين، خاصة وان ليبيا هددت بعرض المسألة على مجلس الأمن، وان القضية الجزائرية بدأت تلقى تأييدا لتدويلها في دورة الأمم المتحدة. كما ان عدم القدرة على تحقيق الأهداف المرسومة عسكريا دعا القيادة العسكرية للتخلي عن عملية الهجوم التي كانت في بدايتها، وانتهت عملية (176) دون أن تحقق نتائج تذكر بشهادة القادة الفرنسيين[28].

وقد أكدت معركة ايسين تضامن الجزائريين والليبيين في معركة الكفاح، وسجلت استشهاد الليبيين في سبيل نصرة الثورة الجزائرية، وتحملهم لويلات القمع والحصار، ذلك ان القوات الفرنسية واصلت اعتداءاتها على المناطق الحدودية وشنت هجوما آخر على قرية ايسين يوم 25سبتمبر 1958 أدى إلى مقتل شخص وتدمير عدة مساكن، وهذه التهديدات المتواصلة حثت الشعب الليبي المتضامن مع الجزائر الى عقد مظاهرات وتجمعات دعت إلى التضامن مع الكفاح الجزائري ودعمه بكل السبل الممكنة[29]، وبدورها أشادت قيادة الثورة بتضامن الشعب الليبي العملي، وحيت قيادة منطقة الحدود الصحراوية في رسالة بعثتها إلى نوري الصديق شجاعة وتضامن أفراد وضباط الجيش الليبي الذين أعانوا التحموا مع الجيش الجزائري لمواجهة قوات المستعمر[30].

وإن قضية مرابطة جيش التحرير الوطني في فزان انجرت عنها عدة أحداث متسارعة، وملابسات يكتنفها شيء من الغموض أدت في نهاية الأمر إلى انسحابه منها في نهاية 1957، ويرجع هذا الغموض في الأساس للسرية التامة التي نشطت فيها الفرقة ولاختلاف بعض الشهادات[31]، والمؤكد أن حادثة اعتداء جيش التحرير الوطني بغاط على القافلة الفرنسية والاعتداء الفرنسي على ايسين أزمت العلاقات الليبية – الجزائرية، حيث أثارت خلافا بين السلطات الليبية والقائد إيدير؛ فإثر اعتداء القوات الفرنسية وتهديدها لليبيا أحست السلطات الليبية في فزان بخطورة الموقف ورأت أن توقف نشاط الجزائريين مؤقتا فوق ترابها، واعتبر القائد ايدير أنها أصبحت تعرقل نشاط جيش التحرير الوطني خاصة عندما أوقفت فرقة جزائرية كانت في طريقها إلى غاط

ومنعتها من الالتحاق، وعلى الرغم من الاحتجاجات التي قدمها هذا الأخير فإن السلطات الليبية أصرت على موقفها واتهمته بعدم احترام الاتفاق المبرم سابقا وبارتكاب غلطات كانت وراء الاعتداء الفرنسي[32]، وأصرت السلطات الليبية على منع التحاق الفرقة بفزان رغم الجهود الواسعة التي بذلها بشير القاضي في إقناع الملك بأهمية تواجد الفرقة إلى جانب الوحدات الأخرى بفزان، ويظهر لنا أن التهديدات الفرنسية الجادة وإصرار حاكم فزان على هذا الموقف كان وراء رفض الملك الذي عرف عنه التفاني في الاستجابة لمطالب الجزائريين[33]، وقد استدعى أوعمران توفيق المدني إلى ليبيا لمقابلة المسؤولين الليبيين وإيجاد حل للخلاف الذي استفحل بين إيدير وحاكم فزان، والتقى المدني برئيس الحكومة الليبية وعبد الجليل سيف النصر الذي اشتكى إليه سلسلة الغلطات التي ارتكبها إيدير ليكشف مراكز تواجد الجزائريين بفزان، وأوضح له أن الفرنسيين يهددونه بإخضاع إقليمه لسيطرتهم من جديد ومن المصلحة العامة توقيف نشاط الجزائريين لمدة شهر حتى تستتب الأمور[34]، ويذكر المدني أنه نقل وجهة نظر المسؤولين الليبيين إلى لجنة التنسيق والتنفيذ بشأن القضية، وأن هذه الأخيرة أكدت على ضرورة السعي "بحكمة ومرونة لدى السلطة المحلية من أجل فض الخلافات المتعلقة بفزان"[35]، وإثر جهود حثيثة اتفق المدني وبشير القاضي مع سيف النصر على تجميد الموقف على حالته لمدة شهر والاستمرار في إمداد الجيش بالمؤونة والسلاح إلى غاية صدور قرارات القيادة الجزائرية بشأن المسألة، ولم يمض كثير من الوقت حتى قررت لجنة التنسيق والتنفيذ استرجاع الفرقة الجزائرية من فزان لأنه لم يعد لها هناك فائدة بعد افتضاح أمرها واستعداد القوات الفرنسية لضربها، ومن اجل الحفاظ على ودية العلاقات مع السلطات الليبية[36].

إن قرار الانسحاب من فزان كان مبادرة جزائرية محضة وإن كان الخلاف السابق خلق أزمة حقيقية فإن السلطات الليبية لم تطالب بهذا الجلاء وعبرت عن رغبتها في انتهاج الأسلوب السري للنشاط العسكري، وقد أكدت السلطات المحلية لفزان فيما بعد تعاونها مع الجزائريين لتأمين مرور الأسلحة عبر الإقليم الذي ضل يشهد تحركا نشطا لمرور الأسلحة، وسمحت بإقامة عدة مراكز لجيش التحرير الوطني بالقرب من غدامس مهمتها تخزين الأسلحة وإدخالها إلى الصحراء الجزائرية، ونذكر منها مركز "أوهانت" بقيادة سليمان بوحوص الذي كان يدخل الأسلحة إلى الدبداب وورقلة[37]، وهكذا يبدوا لنا ان مناطق الحدود الليبية ازدادت أهميتها في الاتصال بالداخل اثر إتمام غلق الحدود الشمالية بالأسلاك الشائكة، وكذا في دعم قدرات الولاية السادسة التي كانت تواجه صعوبات جمة ورأت قيادة الثورة ان ترسم قيادته منذ فيفري 1958 وان تقدم لها الرجال والأسلحة والتموين عبر الحدود الليبية.

4 – إعادة إحياء جبهة الحدود الليبية

إن الحاجة كانت ماسة لإنشاء جبهات حدودية تدعم الولاية السادسة، ولهذا قررت قيادة الثورة إقامة جبهتين صحراويتين مهمتين الأولى في الجنوب التونسي على الحدود التونسية–الجزائرية–الليبية، والثانية في الجنوب الليبي تمتد من غدامس إلى غاط، وقد مهد لذلك بارسال فرقة لاكتشاف الجنوب التونسي عقب توقيع اتفاقية ايجلي لتمرير البترول بين تونس وفرنسا في ماي 1958، وقامت بإرساء نظام الجبهة بين السكان الرحل في هذه المنطقة الصحراوية وربط الاتصال بالولاية السادسة عبر وادي سوف، ويذكر مسؤول الفرقة الحبيب جراية انه خاض منذ عام 1959 عدة معارك واشتباكات على هذه الجبهة، ومنها معركة الزنيقرة وبير العتروس وسيار وكريم الشعانبة، واهم هذه المعارك معركة رمان التي دامت ثلاث أيام وجندت لها فرنسا أسرابا من الطائرات وقوات المشاة والمدعية، وأكدت هذه المعارك تواجد جيش التحرير الوطني في هذه المنطقة

الصحراوية القاحلة، وقد كانت لتونس إطماع في هذه المنطقة عبرت عنها عشية معركة بنزرت في جويلية 1961، إذ أرسلت مسيرة من الجيش والسكان للاستعلاء على هذه المنطقة، فصادفت ان فرقة جيش التحرير الوطني رفعت العلم عليها، وكانت دهشة الفرنسيين والتونسيين كبيرة بوصول الجزائريين الى النقطة الحدودية المعروفة بالحد 233[38].

وقد عرفت مناطق الحدود الليبية الجزائرية منذ عام 1959 تمركزا واسعا لوحدات جيش التحرير الوطني، إذ كان الاهتمام آنذاك منصبا على دعم قدرات مجاهدي الصحراء وتزويدهم بالأسلحة والمؤونة ومواجهة مخطط فصل الصحراء[39]، وقد قررت قيادة هيئة الأركان العامة في مطلع سنة 1960 فتح جبهة لجيش التحرير الوطني بالجنوب التونسي بقيادة محمود قتر تنشط بمناطق الحدود الجزائرية– الليبية– التونسية، وتدعم قواعد جبهة وجيش التحرير الوطني في المنطقة الشمالية التي تمتد من عين امناس الى وادي سوف[40]، وقررت فتح جبهة أخرى على الحدود الليبية الجزائرية تتمركز في المنطقة الممتدة من غدامس إلى غاط، وكان مقررا لها أن تحي من جديد جبهة الثورة بمناطق التاسيلي انطلاقا من جانت، وان تدعم بالموازاة مع جبهة مالي والنيجر إستراتيجية حضور الثورة بمنطقة الصحراء، ولا شك أن تواجد هذه الفرقة العسكرية في التراب الليبي تم بموافقة السلطات الليبية بعد تغير الظروف، وإن كان نشاط هذه الجبهة العسكرية ما يزال طي الكتمان.

لقد أوكلت هيئة الأركان العامة مهمة التحضير لإنشاء هذه الجبهة إلى الرائد الطيب فرحات، وتفيد شهادة هذا الأخير انه قام بتفقد المنطقة وحصل من مصالح بوالصوف على خرائط مصورة ودقيقة عن المنطقة، واختار أن يكون مقر الجبهة قرب الحمادة الحمراء التي تتواجد بها الصخور التي تسمح بالتستر والدفاع، ويضيف ان مهمة الجبهة حددت في النقاط الآتية :

ـــ تمركز وحدات الجيش بالقرب من حقول البترول ومنها حقل ايجلي لتهديد الشركات البترولية .

ـــ إمداد مناطق الصحراء الجزائرية بالوحدات العسكرية والمؤونة الحربية، والاستعداد للدخول بقوة في معركة الصحراء.

ـــ نشر خلايا الثورة وتجنيد الشبان وتوزيع وحدات الجيش على مناطق الحدود الإستراتيجية.

وقد استغرقت التحضيرات ما يقارب السنة لتنطلق الجبهة في شن عملياتها العسكرية وفرض نفوذها على الشريط الحدود، ونظمت نفسها في قسمين رئيسيين هما: القسم الشمالي (عين امناس ـــ الوادي)، والقسم الجنوبي (جانت)[41]، وبعده استكمال تحضيراتها نفذت الجبهة بدء من جانفي 1961 عدة عمليات عسكرية أقلقت هاجس المستعمر الذي لم يكن يصدق بوصول قوات جيش التحرير الى هذه المنطقة[42]، وقد أجرت قيادة الجبهة مباحثات مع السلطات الليبية أفضت بالسماح بإنشاء مراكز للجيش بناحية غدامس وغاط وذلك شريطة أن تعتمد الأراضي الليبية كمنطلق للتعبئة والتجنيد وألا تنطلق منها العمليات العسكرية[43]، كما نظمت هذه الجبهة طريق الاتصالات لتمرير الرجال والأسلحة إلى الولاية السادسة، وأوصلت بنجاح عدة شحنات تشيد بها بعض مراسلات قادة الولاية السادسة مع قيادة الحدود الليبية لجيش التحرير الوطني[44]، ويبدوا أن هذه المهمة أعطيت لها كل الأولوية بحكم أهمية الحدود الليبية الجزائرية كمنفذ أساسي لدعم قدرات الولاية السادسة، إذ يوضح محمد شعباني في رسالة موجهة إلى قيادة الحدود الليبية أن طرق الإمداد ووسائله المنتهجة نجحت في إيصال كميات الأسلحة والذخيرة إلى الصحراء، واقترح عليها إنشاء طرق أخرى للإمداد لتزويد الصحراء بكميات أكبر من الذخيرة الحربية "لأنه في إمكاننا أن نتصل بما يرد علينا ونؤكد لكم على ضرورة الاستمرار والإسراع في إرسال ما نحن في حاجة إليه ألا وهو العدة الحربية بمختلف أشكالها وأنواعها وبالأخص الذخيرة"[45]، وهكذا تأكدت أهمية تواجد جبهة الحدود الليبية في إمداد الصحراء الجزائرية

بالأسلحة والفرق العسكرية، وفي إنشاء النظام الثوري داخل التجمعات السكانية الحدودية وخاصة البدو الرحل وتوارق التاسيلي، حيث عاد النظام من جديد إلى جانت عبر غاط، والتحق كثير من الشبان التوارق بالثورة، وبمجرد شعورها بمخاطر فرار التوارق المهاريين بأسلحتهم لصالح الثورة تحايلت لترع أسلحتهم(46)، ولا شك ان الدعم الذي قدمته هذه الجبهة جاء في حينه حيث اشتدت معركة الصحراء وكانت جبهة التحرير الوطني بحاجة إلى تأكيد نفوذها وقوتها، وقد تضافرت جهود جبهات الحدود الليبية والمالية لمؤازرة جهود الولاية السادسة التي تضاعف نشاطها العسكري وأصبحت تهدد التواجد الفرنسي في المناطق الصحراوية.

خـــاتمـــة

وعلى ضوء ما سبق ذكره تتجلى لنا أهمية الإستراتيجية للمناطق الليبية في نقل الأسلحة وإدخالها إلى الجزائر والاتصال بالداخل، الأمر الذي جعل الثورة التحريرية توطد نشاطها على مناطق الحدود الليبية الجزائرية، فأنشأت العديد من المراكز ومحطات تخزين الأسلحة وأقامت عدة فرق عسكرية على طول الحدود الليبية– الجزائرية، وقد خاضت في اكتوبر 1957 معركة ايسين التي اشترك فيها الليبيون والجزائريون جنبا الى جنب في مواجهة المحتل الفرنسي، وكان للجبهة الليبية أهمية بالغة في إمداد الولاية السادسة بالأسلحة والذخيرة ودعم قواعد الثورة في وادي سوف والتاسيلي، وفي خوض معركة الصحراء واثبات الذات من خلال نشر الثورة في تلك المناطق النائية، وقد قدمت السلطات الليبية التسهيلات اللازمة لمواصلة هذا النشاط العسكري الحيوي، وكانت تستجيب باستمرار لتلبية مطالب الجزائريين وتوفر الظروف المساعدة لتأمين نشاطهم وتفعيله.

بيبليوغرافيا

(1) ينظر فتحي الديب: عبد الناصر وثورة الجزائر، ط1، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1984، ص 129.
(2) ينظر شهادة مسعود الشيخ بمجلة الجيش، مجلة يصدرها الجيش الشعبي الجزائري، عدد خاص بالتسليح ،1987، ص 164.وانظر بالتفصيل حول مسالك ومراكز التسليح في ليبيا ما كتبناه في اطروحتنا للدكتراه ، مقلاتي عبد الله : العلاقات الجزائرية ـ المغاربية ابان الثورة التحريرية 1954-1962، اطروحة دكتراه ، قسم التاريخ، جامعة منتوري ـ قسنطينة ، 2008، صى ـ ص،238 ـ .250.
(3) A.N.A: Carton N°4, Dossier N°4 - 3.
تقرير كتبه أوعمران حول إعادة تنظيم قاعدة ليبيا مؤرخ في 1958/08/14 مرسل إلى لجنة التنسيق والتنفيذ. ومحفوظ بالأرشيف الوطني الجزائري، وانظر كذلك مجلة الجيش : المرجع نفسه ، ص 30 .
(4) ينظر محمد الصالح الصديق، الشعب الليبي الشقيق في جهاد الجزائر، ط 1، شركة دار الأمة، الجزائر، 2000، ص- ص 132-133. وحساني عبد الكريم: أمواج الخفاء، منشورات متحف المجاهد ،الجزائر ، 1995، ص 187.
(5) انظر محمد الصالح الصديق ، المصدر السابق ، ص 70 وما بعدها
(6) المصدر نفسه ، ص 78-81
(7) محي الدين عميمور: التجربة والجذور، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر، 1993، ص 80.
(8) ينظر احمد توفيق المدني: حياة كفاح، مذكرات الجزء الثالث، ط2، م. و. ك، الجزائر، 1988، ص 312 وما بعدها، ومحمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل داغر، ط1 مؤسسة الأبحاث العربية ـ دار الكلمة للنشر، بيروت، 1983، ص 349.

(9) ينظر محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ص 72 .
(10) يراجع محمد الصالح الصديق، المرجع السابق، ص 79 وما بعدها، ومحي الدين عميمور: المرجع السابق ، ص 82.
(11) يشير شارل رينوا الى عدد خمس مائة جندي في حين تذكر جريدة الصحراء التي غطت اعداث الهجوم ان عدد الثوار يقدر باربع مائة جندي .انظر Le Sahara .n 12 du 25 -10- 1957
(12) انظر شهادة نوري الصديق، اوردها ودوع محمد: مواقف ليبيا من الثورة الجزائرية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،2001، ص-ص.234-235.
(13) كان ثورات توارق التاسيلي ضد الاحتلال الفرنسي ما تزال ماثلة للعيان، وقد عرف عنهم مقتهم للاحتلال وانصياعهم لمن يأخذ بيدهم للتحرر ، وقد خاض الشيخ امون مقاومة طويلة في جانت امتدت من سنة 1881 الى سنة 1923، وبعد احتلال جانت عام 1909 لجأ الشيخ امون إلى فزان واستعان بالسنوسيين في مقاومته للفرنسيين والايطاليين في فزان، والحق هزيمة نكراء بالقوات الفرنسية في معركة ايسين عام 1913، كما قاوم احمد سلطان الجانيتي ومعه ابراهيم اق ابدكة الفرنسيين في غاط وحاصر حصن جانت وطرد منه الحامية الفرنسية عام 1918 . وقد تأكد الفرنسيون بعد ذلك ان التوارق لا يؤمن جانبهم وان تحالفاتهم الخارجية خاصة مع الليبيين تشكل خطرا كبيرا على مركز جانت. انظر عبد السلام بوشارب : الهقار امجاد وانجاد ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1995، ص ـ ص، 103-108
(14) Charles renaud Patrick .Les combats sahariens 1955-1962 .Grancher. paris. 1993.. PP166-167
(15) يذكر الهادي إبراهيم المشيرفي وهو واحد من الذين خدموا الثورة بإخلاص في ليبيا أن شكوكا راودته من تقدم هذه الشركة بطلب إلى الحكومة الليبية للنشاط في الجنوب الليبي، وانه كتب إلى ناضر الشؤون الملكية يبلغه بذلك ويطلب منه منع الشركة من النشاط حتى لا يترتب عنها كوارث للثوار وإمداداتهم ، انظر نص الرسالة المؤرخة في 27 اوت 1957 كتابه القيم . الهادي ابراهيم المشيرفي: قصتي مع ثورة المليون ...شهيد ، دار الأمة ، الجزائر ، 2000ء ص ـ ص، 223-224 .
(16) انظر شهادة نوري الصديق ، محمد ودوع :المرجع السابق. ص ـ ص 238-239
(17) انظر محمد الصالح الصديق ، المصدر السابق ،ص91
(18) انظر شهادة نوري الصديق ، محمد ودوع :المرجع السابق ، ص239 ، ومحمد الصالح الصديق ، المصدر السابق ، ص ـ ص، 85 ـ 89،
(19) Charles renaud Patrick .OP. CIT . PP169-170.
(20) Charles renaud Patrick .OP. CIT . PP.170-173
(21) LE MONDE du 21 -9-1957
(22) Charles renaud Patrick. ibid .PP 173-175.
(23) Charles renaud Patrick .OP. CIT . PP . 175-178.
(24) انظر شهادة نوري الصديق ، محمد ودوع :المرجع السابق ، ص ـ ص،243- 244 ، وبجريدة طرابلس الغرب، عدد يوم 5 اكتوبر 1957
(25) صدر البيان في جريدة طرابلس الغرب، عدد يوم 5 اكتوبر 1957 ، واورد مقتطفا منه الباحث حبيب وداعة الحسناوي، في بحثه المعنون دور الشعب في منطقة طرابلس في مساندة الثورة الجزائرية"
(26) Charles renaud Patrick..OP CIT .P 178
(27) انظر شهادة نوري الصديق ، محمد ودوع : المرجع السابق ، ص ـ ص 245-247
(28) Charles renaud Patrick. .OP CIT .P178.
(29) انظر البحث الذي اعده حبيب وداعة الحسناوي بعنوان "دور الشعب بمنطقة طرابلس في مساندة الثورة الجزائرية، بحث مرقون نتمنى نشره
(30) انظر نص الرسالة الذي أورده الباحث ودوع محمد : المرجع السابق ، ص ـ ص 281-282

(31) بالإضافة إلى الشهادات التي ساهم بها بعض الجزائريون حول القضية وخاصة المدني ومحمد الصالح الصديق فقد نقل لنا هذا الأخير شهادة الهادي إبراهيم المشيرفي وبشير القاضي، ينظر محمد الصالح الصديق: المصدر السابق، ص 85 وما بعدها.

(32) انظر محمد الصالح الصديق ، المصدر السابق ، ص ـ ص، 90-91

(33) المصدر نفسه، ص ص 91 -92. وقد اعتمد محمد الصالح الصديق على شهادة المرحوم بشير القاضي حول الموضوع.

(34) ينظر بخصوص اللقاء وتوضيحات عبد الجليل سيف النصر إزاء تطور خلافه مع ادير. احمد توفيق المدني: حياة كفاح، مذكرات الجزء الثالث، ط2، م. و. ك، الجزائر، 1988، ص ـ ص 313-314.

(35) المصدر نفسه، ص 316.

(36) المصدر نفسه، ص 317.

(37) ينظر شهادة مسعود الشيخ ، مجلة الجيش، مرجع سابق، ص 164.

(38) انظر شهادة الحبيب جراية: فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة التحرير ، الجزائر 1998، ص ـ ص، 364-366 ، وتقرير حول دور منطقة وادي سوف في الثورة التحريرية أعدته منظمة المجاهدين لولاية وادي سوف عام 1986، ص5، وشهادة الرائد الطيب فرحات ، مقابلة مع الباحث ،الجزائر 1 نوفمبر 2001

(39) ينظر برقية مرسلة من الضابط أحمد طالبي قائد المنطقة 3 – الولاية 6 إلى قيادة الحدود الليبية لجيش التحرير الوطني سنة 1959 يثني فيها على نجاح مهمة ربط الاتصال بمنطقته ويطلب تزويده بالاحتياجات من الأسلحة والذخيرة، محفوظات شخصية.

(40) محمد حربي: المرجع نفسه، ص 218 .

(41) تقرير حول دور منطقة وادي سوف في الثورة التحريرية أعدته منظمة المجاهدين لولاية وادي سوف عام 1986، ص6

(42) GUENTARI (Mohammed) : organisation politico administrative et militaire de la révolution Algérienne de 1954 à 1962, OPU, Alger, 1994,T2 .P 815

(43) انظر شهادة الطيب فرحات ، مقابلة مع الباحث .

(44) مراسلتين من قائد الولاية السادسة محمد شعباني إلى قيادة الحدود الليبية؛ الأولى مؤرخة في 1961/01/29 والثانية بتاريخ 1961/11/05، محفوظات شخصية.

(45) المصدر نفسه

(46) Charles Renaud Patrick...OP CIT .PP.179-180.

نظرة حول مشروع المجتمع الجزائري في فكر بن باديس ومالك بن نبي

أ.د / صـــالـــح لـــمـــيـــش
جامعة محمد بوضياف / المسيلة

ملخص

ترصد هذه المحاولة مشروع المجتمع في فكر الرجلين ابن باديس ومالك بن نبي خلال مرحلة النـــضال الـــوطني إبـــان الحقبة الاستعمارية، كما ترمي إلى الوقوف على الخطوط والملامح العامة لفكريهما وتصوراتهما للمجتمع الجزائـــري وخصوصيات مقوماته الاجتماعية والحضارية والتاريخية.

Abstract

This work is based on the study of the society project at the through of two men Ibn Badis, and Malek Bin Nabi during the national struggle during the colonial era. It stand on the general features of their thoughts and their perceptions of the Algerians society and the specifies of its social and cultural, historical elements.

مقدمـــة

إن موضوع الفكر الإيدولوجي والسياسي للحركة الوطنية الجزائرية في العصر الحديث إذا أردنا بحثهما يفرض علينا الواقع التاريخي والموضوعي العودة إلى بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر وتحديدا إلى فترة الأمير عبد القادر الذي طرح المشروع كعمل جهادي وسياسي حاول تنفيذه عبر آليتين:

- الأولى: عسكرية بقيادة مقاومة وطنية شاملة ضد الاحتلال الفرنسي،
- الثانية: تنظيمية فكرية، سياسية، بمحاولته بناء الدولة الوطنية الجزائرية تحت قيادته وإمرته.

كما يمكن إرجاع تناول الموضوع إلى الإمام عبد الحميد بن باديس الذي طرح مشروع نظرية إسلامية مستقلة بذاتها عن التيارات السياسية الوطنية الأخرى، ويعتبر مشروع المجتمع بمكوناته الفكرية والسياسية وببعده الفلسفي واحدا من المواضيع الحديثة والبكرة في فكرنا الوطني، والبحث فيهما يكاد ينعدم باستثناء المحاولات الغير مباشرة لجمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي سعى لبلورة وتحديد مفاهيمه الأولية من خلال البرنامج العام للإصلاح الثقافي والاجتماعي الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لكنها لم تتمكن من التعمق وإبرازه في شكل نظرية مجتمع متكاملة الجوانب والأبعاد، نظرا للظروف التي كانت سائدة في تلك الفترة والمناخ العام الذي عملت فيه الجمعية، لكن يبدو أن هناك محاولات أشارت إلى الموضوع عبر آلية فكرية ومنهجية، اتخذت من المبدأ العقلي أو العقلانية والعلمية، والواقع

الموضوعي سندات في التشخيص والتحليل ومحاولة رسم نظرية في التغيير الاجتماعي تستجيب للواقع التاريخي والحضاري للفرد الجزائري وتطرح مشروع المجتمع الجزائري في الآتي والمستقبلي.

ويعد مالك بن نبي رائد هذه المحاولة من خلال كتاباته وأنشطته المتنوعة، ندوات ومحاضرات...الخ والتي أعتمد فيها على تشخيص واقع العالم الإسلامي والتنظير إلى مستقبل بناء وفق رؤية علمية في محاولة للنهوض بالعالم الإسلامي ومواكبة التطور مشيرا إلى خصوصيات هذا العالم ومقوماته الأساسية التي تعتبر القاعدة اللاحقة في تطوره ونموه. ويؤكد هذا الرأي الدكتور أبو القاسم سعد الله حين كتب قائلا: أن الحركة الوطنية لم تنتج منظرين كما أنتجت بعض الحركات الوطنية الأخرى، فلم يكن لدينا عشية الثورة مازيني ولا غاندى ونحن هنا لا نعنى الأسماء لكن المسميات، غير أن هناك مفكرا كان يحاول أن يعطى محتوى فلسفيا للحركة الوطنية مستقلا عن كل التيارات والمنظمات المعاصرة. كان ذكيا عميق النظر واسع التجربة والثقافة وكان على الخصوص عميق الإيمان بالإسلام السلفي، ونعنى به المرحوم مالك بن نبي، لقد كان كما يقال يحمل فى فكره مشروعا متكاملا أعطى بعدا فلسفيا وتنظيريا لمسار الحركة الوطنية الجزائرية[1].

وفى هذه القراءة المتواضعة لرصد نظرية أو مشروع المجتمع في فكر الرجلين (ابن باديس، ومالك بن نبي) خلال مرحلة النضال الوطني إبان الحقبة الاستعمارية والوقوف على الخطوط والملامح العامة لفكريهما وآرائهما فيما يتعلق بهذا الموضوع.

1- مشروع المجتمع في فكر الشيخ ابن باديس

إعتاد الكثير من الباحثين والدارسين عند تناولهم لشخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس الاعتماد على السرد التاريخي لمسار هذه الشخصية والأعمال التي قام بها دون الولوج في فكر هذا الرجل ورؤيته لبعض القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية التي تتعلق بالمجتمع الجزائر بمحاولة التنظير لبناء مشروع مجتمع جزائري متكامل الجوانب، فجهود الرجل في هذا الاتجاه ارتكزت على مجموعة من الخصائص منها :

أولا: المكان والزمان والإنسان، ذلك المصدر الأساسي لتكوين الرؤية الفلسفية الشاملة لعبد الحميد ابن باديس هي الجزائر بخصائصها وخصوصياتها، ففي جزائر تعانى من استعمار إستيطانى وتهديم لكل القيم ومقومات المجتمع يصبح البحث عن فكر سياسي تنظيرى ذا دلالة خاصة، لذلك اعتمد فكر الرجل كما أشار إليه بنفسه على دعامتين أساسيتين :

– أولهما الدعامة الإسلامية التي يستوحي منها المكونات الأساسية كمفهوم السلطة وما يتبعها من مفاهيم الشورى والسيادة الوطنية في إطار المنظور الإسلامي العام.

– أما الدعامة الثانية، هي الدعامة المحلية الجزائرية بكلياتها وجزئياتها وتتلخص حول تخليص الجزائر من الاستعمار الفرنسي[2]، فالفراغ الاجتماعي الذي أوجدته الإدارة الاستعمارية، وتهميش مكونات المجتمع الجزائري، فردا وجماعة وقيما، دفعت بالشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الشعب إعادة بعث الإنسان الجزائري من جديد وفق رؤية تاريخية حضارية، تتطلع إلى أفق مستقبلي واعد في كنف الحرية والاستقلال تؤطر من خلال مشروع المجتمع التنموية والحضارية. وأعتمد في ذلك على مبدأ الجماعة أو الشورى، أو الديمقراطية بمصطلح العصر، كمبدأ أخلاقي، لكن في ظل غياب مؤسسات دستورية وتشريعية حقيقية تعبر عن الرأي العام الوطنى بكل فئاته وأطيافه الفكرية والسياسية. ويبدو ذلك بارزا من خلال ظروف تشكيل وتأسيس الجمعية

وآليات العمل المتبعة داخل هيئاتها وأجهزتها الإدارية، وطريقة توزيع المهام والوظائف التربوية والثقافية والاجتماعية.. الخ بين أعضائها ومجموع أفرادها، ويترع بعض الكتاب خاصة الفرنسيين منهم إلى اعتبار الحركة الوطنية في الجزائر كانت تتغذى من البعد أو العنصر الديني خاصة، عكس مثيلاتها في كل من تونس والمغرب حيث كانت وطنية سياسيّة على اعتبار أن الحركة الوطنية في تونس والمغرب يقودها رجال من ذوى الثقافة الفرنسية في الأساس بينما في الجزائر يقودها مصلحون دينيون ذوى تكوين عربي إسلامي، إلى جانب عمال ومهاجرين وفى هذا الصدد يؤكد الدكتور أبو القاسم سعدا لله أن تأسيس الجمعية كان سيبقى حلما بعيد المنال لولا قيادة ابن باديس الحيوية لها ، الذي اعتمد في مقاومته للمستعمر على التنظيم الحديث من الدين نفسه ومن روح العصر ومتطلباته[3] وقد قام برنامج ابن باديس وفكر جمعية العلماء السياسي على تكوين الإنسان المسلم وإخراجه من التخلف، وأعتمد على ثلاث زوايا: دينية واجتماعية وسياسية[4] وقد اهتدى بن باديس إلى إرساء مدرسة التغيير في الجزائر وجعل قاعدتها ومنطلقاتها مخاطبة العقل الجزائري بكل ما يحمله العقل من وجدان وعاطفة وطنية، لذلك وجد نفسه في العديد من المخاطر والتي تمثلت في السياسة الفرنسية الهادفة للقضاء على مقومات الأمة الجزائرية من لغة ودين وحضارة وتقاليد ..الخ لذلك رأى أن فكرة بناء المشروع الوطني الجزائري لابد أن يرتكز أساسا على محاربة التجنيس التي كانت تدعو إليه الإدارة الفرنسية، لان ذلك معناه ذوبان الشخصية الجزائرية بكل أبعادها العقائدية والفكرية والحضارية وللحفاظ على هذه الشخصية لابد من الدفاع على مقوماتها ومرتكزاتها الأساسية من لغة ودين حتى لا يؤول المحتوى الفكري والاجتماعي للجزائريين إلى مرحلة قابلة للتفكك والضياع وفق النموذج الذي كانت تهدف إليه فرنسا والذي يتماشى مع نظرتها الإستعمارية[5] وقد أعتمد بن باديس في طرح رؤيته للحفاظ على المجتمع الجزائري ولاستمراريته على دعوته التجديدية المستمدة أساسا من مقومات المجتمع الجزائري ذاته القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والسلف الصالح وقد أوضح مبادئ دعوته منذ البدايات الأولى لنشاطه الإصلاحي، فهو كان يتصور المؤمن الصالح هو ذلك الذي سلمت نظرته وصح إدراكه وجعل من القرآن منهجه[6]. وقد اعتمد ابن باديس على العقل والفطرة كمعيارين من معايير الحياة الإنسانية في الاعتقاد والسلوك بجانب القرآن، بل يؤكد أن منهج القرآن نفسه في توجهه إلى الإنسان إنما يعتمد أساسا على الفطرة وعلى العقل البريئين من الهوى والأوهام والانحراف ويؤكد بن باديس أن الإسلام يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير ويمتاز الانسان فيما يذهب إليه بقوة التحليل والتركيب لما يصل إليه من مدركات حسية أو عقلية، هذه الميزة هي ميزة التحليل والتركيب والتطبيق[7] وقرر ابن باديس أن يحرر العقل الجزائري ويجنبه تضليل الإدارة الاستعمارية الفرنسية بكل ما تهدف إليه هذه الإدارة من أساليب استعمارية وأوهام خرافية لتفكيك المجتمع وإضعافه وذلك بهدف الهيمنة والسيطرة عليه. لذلك لم تكن نظرة بن باديس إلى بناء مجتمع جزائري تعتمد على النظرة السطحية للأحداث والجزئية في معالجتها، بل كانت ذات بعد شمولي وفق برنامج إصلاحي شامل لأنه كان يدرك وطأة الاستعمار وسياسته بكل أبعادها المختلفة ومن هنا جاءت رؤيته وفق منهاج واقعي وأفرزت أفكار جديدة كان لها الأثر الإيجابي والواضح على جيل الإصلاح الجديد الذي رفض فكرة الاستكانة والولاء للاستعمار الفرنسي وتجسد هذا الأثر بصورة واضحة في نمو الشعور الوطني الذي ارتبط بمقومات الأمة الجزائرية وأبعادها.

ولذلك نجد بن باديس يعتمد أساسا في إعطاء تصوره لبناء مشروع مجتمع جزائري يربط بين مقومات الأمة الجزائرية ويعتبرها كقاعدة أساسية لاستمرارية المجتمع الجزائري ومجابهة الخطر الفرنسي، فهو يربط بين العناصر المكونة للشخصية الجزائرية من لغة ودين وتاريخ ويرى في هذا الربط هو أساس الوطنية الجزائرية لذلك عمل بن باديس على إنماء هذه القواسم المشتركة في الشخصية الجزائرية[8]. بل حضر الجزائريين إلى الاستماتة والمقاومة السلمية والتحدي في نفوس الجزائريين ولعل هذا ما يجعلنا ندرك أن جمعية العلماء قد طرحت مشروعا اجتماعيا متكاملا في إصلاح واقع وحال الشعب الجزائري العربي، من الوجهة الدنية والوطنية، والحضارية، في ظل شعار إيديولوجي كان عنوانا لبرنامجها وهدفا لعملها، مثل الإطار الفكري إزاء باقي التيارات والإيديولوجيات الهجينة أو المستوردة وهذا العنوان هوّ الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، العربية لغتنا ويورد الدكتور أبو القاسم سعد الله توصيفا دقيقا لطبيعة مشروع المجتمع الذي يتبناه العلماء بقوله"إنهم بدعوتهم إلى التفسير الديني التقدمي للمصادر الإسلامية قد مهدوا الطريق أمام الوطنيين الآخرين من أجل الملائمة بين الوطنية في مفهومها الحديث وبين الأفكار الدينية والاجتماعية التي كانت غالبا ما اعتبرت في أماكن أخرى عقبات في طريق نجاح الوطنية[9] ومن جانب آخر يؤكد الدكتور سليمان الشيخ أن مذهب العلماء كان يقوم عل إحياء العنصر الحركي في الدين، وكان شعارهم البسيط في الحقيقة برنامج عمل يمتد إلى الميدان الديني والثقافي والسياسي.. وبفضل حركتهم الإسلامية استمد الشعب الجزائري وحدته الوطنية لكفاح الاستعمار الفرنسي[10] ودعوة ابن باديس إلى الوطنية الإسلامية وتصديه لمشروع فرنسة وتغريب المجتمع الجزائري بدأ واضحا وجليا من خلال رده الشهير في مجلة الشهاب على مقال فرحات عباس فرنسا هي أنا، وتأكيده على أن الجزائر ليست فرنسا ولا تريد أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا، وبذلك أكد ابن باديس أن الجزائر عمليا وواقعيا دينها الإسلام ولغتها العربية وحضارتها إسلامية عربية.

والإسلام الذي يطرحه ابن باديس كمرجعية لمشروع المجتمع وعملية التغيير المنشودة ليس هو الإسلام الوراثي كما ـــ يسميه ابن باديس ـــ المبني على الجمود والتقاليد الخالية من الفكر والوعي، بل هو الإسلام الذاتي أو العقلي، القائم على مبدأ الفكر والنظر والمشيد للعمل على العلم، ونظرية الإسلام الذاتي التي يطرحها ابن باديس كمشروع يمثل في حقيقتها ـــ كما يقول الدكتور عبد الله شريط ـــ ثورة على المسلمين بواسطة الإسلام أي مع ثورة لتهديمها للإسلام الوراثي المظهري وبنائها للإسلام الذاتي الداخلي.. وهذا الإسلام العقلي..هو الذي يخلق في الأمة الإسلامية القدرة على التفاعل مع الحضارات والثقافات العلمية وهو الذي يخلق الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي الذي يكون مصدر الدولة الإسلامية الحديثة[11]، وليس العكس.

ويبدو مما سبق أن ابن باديس قد سعى إلى المزج بين: الوطنية الدينية، والوطنية السياسية والبيئة الشعبية في تكامل وانسجام، ومن ثمة فبناء المجتمع وفق رؤية ابن باديس تقوم بالأساس على ثلاثية متكاملة هي: الوطن، الدين، القاعدة الجماهيرية الواسعة، والوطنية دون دين وعقيدة منظمة هي وطنية زائفة فاقدة للأبعاد الحضارية والإنسانية، والدين الذي لا يخدم الجماهير ويرفع عنها الغبن ويحررها من الظلم والطغيان، هو دين محكوم عليه بالانعزال والكهنوتية، ومصيره بطون الأسفار ورفوف التاريخ والآثار، ويذكر ابن باديس في هذا الصدد أن الدين قوة عظيمة، والحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسئ في سياسته، وتجلب عليها وعليه الأضرار

والأتعاب، إننا تقول هذا ونعني باعتبار الدين قواما لنا.. ونظاما نعمل عليه في حياتنا وقوة نلجأ إليها لقتل روح الفساد منا وإماتة الجرائم بيننا[12].

ويعتبر بن باديس رائد فكرة الدمج بين الوطن والدين، وقد كتب عنها الكثير في مقالاته ومحاضراته، كما حاول تصنيف مميزات ومقومات الشخصية الجزائرية في عنصرين:

ا – الجنسية القومية: ممثلة في العقيدة واللغة والتاريخ والثقافة المشتركة...

ب – الجنسية السياسية: وهي مجموع القوانين والنظم المدنية والاجتماعية.

وتعتبر الأمة الجزائرية قد فقدت جنسيتها السياسية لوقوعها تحت قبضة المستعمر الفرنسي غير أنها ظلت متمسكة بجنسيتها القومية ومحن الاستعمار لم تزدها إلا قوة وإصرار على التمسك والتشبث بهذه القومية وعناصرها الوطنية.. ولعل هذه النظرة هي نفسها التي أصبحت تطرح اليوم من خلال المنتديات والمؤتمرات المعنية في ساحتنا العربية بالتقارب القومي الإسلامي.

يضيف بن باديس نظرته لمشروع بناء المجتمع الجزائري عنصرا حيويا يجب توفره وتجذيره في ذوات الأفراد ألا وهو: الحرية فهي عنده تمثل قضية حياة أو موت يقول في هذا: فحق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من الحرية، والمعتدى عليه في شيء من حريته كالمعتدى عليه في شيء من حياته [13].

خلاصة ما يمكن استنتاجه بشأن مشروع المجتمع في نظر ابن باديس أنه يقوم على أساسين كبيرين:

الأول: تحرير الإنسان من كوابحه الذاتية وغرائزه النفسية والجسمية، وإبراز الجانب الايجابي والفاعل في كيانه، بتحريك وظيفته الرسالية في تطهير الذات، وتقويم السلوك وتفعيل الدور الاجتماعي و الإنساني.

الثاني: ربط الفرد بالجماعة عبر العقيدة الوحيدة، والوطن الواحد، والمصير المشترك، ضمن ثلاثية أسس عليها ابن باديس نظريته في التغيير الاجتماعي وهي: الدين، والوطن والتضامن الشعبي الروح الجماعية مع التمسك الشديد بالحرية كعنصر تفاعل وتفعيل للعناصر الثلاثة السابقة باعتبارها تمثل كينونة الإنسان وجوهر حياته.. ولاحياه دونها[14]. وبهذا تكتمل رؤيته لمشروع المجتمع الجزائري كما حلم به.. فهل يقع تفعيله وتجسيده في حياة الناس.

2- مشروع المجتمع في فكر مالك بن نبي

يعتبر مالك بن نبي وجه من الوجوه الفكرية البارزة في تاريخ الجزائر المعاصر وأحد الشخصيات الوطنية والإنسانية الأكثر التزاما بقضايا الوطن والمجتمع، اشتغل بالإصلاح والفكر منذ نهاية عقد عشرينات القرن الماضي وسخر كل طاقاته وقدراته لخدمة قضايا الفكر والثقافة، والوطن والثورة.. ضمن منهجية خاصة رسمها لنفسه بعيدا عن المعترك السياسي، قصد بها بناء الفرد الجزائري في إطار ذاتيته الوطنية وامتداداتها التاريخية والحضارية، مستلهما قيم الماضي الإنساني المشرق، ومتخذا من الحضارة الإسلامية مرجعا وفلسفة، مستفيدا في الوقت ذاته من واقع التطور المادي والعلمي والتكنولوجي المعاصر، في تناسق وتناغم كاملين، تحفظ بهما

هوية وشخصية الفرد والمجتمع الجزائري كما يضمن في الوقت ذاته حلبة التاريخ من جديد، واستئناف دوره وحيويته لتسجيل شهوده الحضاري مع أهم عصر ومواكبة تحول الألفية الثالثة.

وفى هذه محاولة لقراءة جانب من فكر مالك بن نبي رحمه الله يتعلق بنظرته لمشروع المجتمع الجزائري، وآفاقه المستقبلي،كما تصورها وطمح إلى تفعيلها واقعا ملموسا. لقد انصبت كتابات ابن نبي حول القضايا الوطنية والحضارية، وتضمنت أفكاره العديد من مؤلفاته منها على الخصوص:

1- الظاهرة القرآنية، الذي صدر عام 1946
2- شروط النهضة 1948
3- وجهة العالم الإسلامى 1954
4- أنقذوا الجزائر 1957
5- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .. 1957
6- البناء الاجتماعى الجديد 1958
7- ميلاد مجتمع 1960
8- في مهب المعركة 1961
9- آفاق جزائرية 1964

ويمكن أن نوجز نظرة بن نبي في تصوره لبناء مشروع المجتمع في الآتي:

1 ــ بناء الفرد الجزائري وبعث المجتمع من جديد يجب أن يتوجه بالأساس إلى إعداد الإنسان الجزائري وتنمية كفاءته، وبنائه ثقافيا بما يعبر عن عقيدة الأمة الجزائرية وتاريخها وتستجيب لرسالتها الدينية والحضارية[15]. مستلهما تراثها التاريخي ومستفيدا من واقع التطور.

2 ــ ضرورة العمل لأجل تخليص الإنسان الجزائري والمسلم عامة من ظاهرة القابلية للاستعمار أي تحريره من كوابحه النفسية والخلقية، والاجتماعية.. واستعادة ثقته بكيانه الذاتي الوطني والقومي والحضاري بما يجعله عنصرا فاعلا وفعالا في آن واحدا ،ويعزز ثقته بذاته وتراثه الفكري والأدبي ويجعله يتصدى لقضاياه بفعالية.

3 ــ التأسيس للبناء الحضاري، عبر تفعيل الثلاثية الشهيرة الإنسان والتراب والوقت مع إضافة المركب العضوي وهو الفكرة الدينية عامة، والإسلامية خاصة بالنسبة للفرد الجزائري[16]. لتهيئة ظروف وعوامل نشأة حضارته من جديد دون التخلي أو تطليق مكاسب ماضية أو التعامي عن حقائق الواقع.

4 ــ القيام بمهمة التغيير الاجتماعي ضمن القانون القرآني الأبدي إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وحتى يتحقق هذا القانون في واقع الناس وجب تحقيق ثلاثة مؤثرات:

ا – بفكره: أي ضرورة توجيه الثقافة والوعي.

ب – بعلمه: أي ضرورة توجيه العمل لتجنب الإسراف في الجهد والوقت.

ج – بماله: أى ضرورة توجيه رأس المال[17] بما يحقق التنمية الفعلية المطلوبة عبر البناء لا التكديس والخلق والإبداع لا التقليد والهزيمة الحضارية.

5- تعزيز العلاقة بين الأخلاق والتنمية الاقتصادية للمجتمع، وضرورة إجراء موازنة بين الواجبات والحقوق، وبين الاستهلاك والإنتاج.. وتغليب كفة الإنتاج والواجبات على الكفة الأخرى.. وتحويل التركيز من الحق إلى الواجب لضمان تفريغ الطاقات وتجسيد التضحية والخلود.

6 – تناول الثورة الجزائرية لمشروع وطني وحضاري لتحرير الفرد والمجتمع وطرحه سوسيولوجي للثورة أو مشروع المجتمع، تقوم على:

ا – تحليل أخلاقيات الثورة، وإفشاء قيمها الروحية والأدبية بين عموم الناس.

ب – تحليل النموذج الأسمى للثورة وربطها بالثورة الإسلامية بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، تأصيلا وتأسيسا.

ج – مفهوم الثورة والنقد الثوري، وممارسة القراءة الشجاعة الموضوعية للفعل الثوري.

د – الثورة المضادة أو روح ما ضد الثورة ،والتصدي لسلبياتها وأعدائها معا.

هـ– تحليل النقد والنقد الذاتى الصحيح لمسارنا الثورى، وفق المنهج العلمي الرصين.

و – الدعوة إلى إنشاء علم اجتماع خاص بمرحلة الاستقلال لتقويم مرحلة ما بعد الثورة[18].

ويقول مالك بن نبي: إن الشعب الجزائر ي هو صانع الثورة.. والثورة ثورة فلاحين، لا يعدد شهداؤها، فحسب ولكن بروحها كذلك.. وقد جعل من الثورة معركة مقدسة كما منحها محتوى مفهوما بسيطا، وضحى لأجلها بكل غال، وهو على وعى تام بأنه شخص عربى وإنسان مسلم[19].

وهنا تأكيد وتوصيف لمرجعية الثورة.. ووقودها ومالكها الحقيقي، ويقول في موضع اخر من الضروري ضبط مفهوميه نظرية المجتمع لتكون حلفا بين الشعب وفنا للداء المادي والتقني ومنهجا على مستوى الأفكار.. إن كل سياسة لتكون جزائرية، يجب أن تظل وفية لينابيعها الروحية ولرسالة الشهداء وموثق الأحياء[20].

تلك هي باختصار النظرة الإجمالية لرؤية كل من ابن باديس ومالك بن نبي لمشروع المجتمع الجزائري، والبرنامج العلمي الذي تبناه الأول ضمن الجمعية

والثاني في إطار العمل الفكري الإصلاحي المستقل، ويبدو من خلال هذا العرض التوافق الكبير في مرجعية الرجلين ونظرتهما لأصول مشروع المجتمع، مع الاختلاف حول آليات ومنهج التفكير وشكل المشروع وطريقة الإعداد له والتنفيذ لهذا المشروع.

بيبليوغرافيا

1 - د/ ابوالقاسم سعدالله ، أفكار جامحة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ط1 ،الجزائر 1988 ص45

2 - أمين شريط الدولة والتنظيم الدستورى للسلطة السياسية فى فكر ابن باديس مجلة الامير عبد القادر الإسلامية، اللعدد4 ،1993 ص210

3 - عبد الله شريط ،مع الفكر السياسى الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 ،ط1 ، الجزائر 1986 ص 108،109

4 - نفس المرجع ص109

5- محمد بن العابد الجيلالى، تقويم الأخلاق ط1 ،المطبعة الجزائرية، 1927 ص68

6 - عمار طالبى النزعة العقلانية والأخلاقية عند بن باديس ، محاضرة ألقيت فى الملتقى الأول حول ثقافة السلم ، جامعة الأمير عبد القادر 6 ،17،18 أفريل 2000

7 ـ نفس المرجع ، ص105
8- MAHFOUD KADACHE HISTOIRE NATIONALISME ALGERIEN ENAL ALGERIE 1993 P75
9 ـ ابو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ص83 ،84
10 ـ عبد الله شريط ـ المرجع السابق، 113
11 ـ نفس المرجع، ص113
12 ـ عمار طالبى، إبن باديس حياته وآثاره ج3 ،المؤسسة الوطنية للكتاب، ص109
13 ـ نفس المرجع، ص109
14 ـ عمار طالبى، المرجع السابق ص79
15 ـ لخضر شايب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى فكر الأستاذ مالك بن نبي، مجلة الإحياء، عدد 2 ،3 ، جامعة باتنة ،2001 .
16- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرفة من فكر مالك بن بني، دار الشهاب ط1، الجزائر 1989، ص44
17 ـ نفس المرجع.
18- يوسف قاسمى، المثقفون الجزائريون المعربون وثورة التحرير1954-1962 رسالة ماجستير فى التاريخ المعاصر، جامعة باتنة 2002، ص106
19 ـ مالك بن نبي، القضايا الكبرى ، ط2 دار الفكر ، دمشق 2000 ص 122
20 ـ بن نبي، نفس المرجع ،ص118 ،119

وادي ريـــغ من خـــلال تاريـــخ محمد العـــدواني

د / علي غنابزية
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

يعتبر تاريخ العدواني من أهم الوثائق النادرة التي أرخ بها للصحراء الجزائرية ولاسيما إقليم ووادي ريـــغ، وحالـــة الـــسكان وصفاتهم، والقبائل التي أثرت في تطوره العمراني. وتعرض الكتاب لبعض القرى القديمة، والدول التي حكمت، وخـــصوصا نشأة الحكم المريني الذي عرف بسلطنة بني جلاب. واحتوى على إشارات عابرة عن الناحيـــة الاقتـــصادية، ودور المـــرأة وتأثيرها في الحياة السياسية، كما أشار إلى أتباع الطريقة الشابية وتنقلهم إلى وادي ريغ، ومـــساهمتهم في عمـــارة المـــساجد مثلما فعلوا في مجتمع وادي سوف سابقا، وخصوصا خلال القرن 16م. فالكتاب، ما يزال مادة خاما، في حاجة لمزيد مـــن الدراسات المعمقة.

Résumé

L'histoire de l'Adouani est l'un des rares documents qui ont traités le sujet du Sahara Algérien, et surtout d'Oued-R'hir, et de la situation de sa population, de leurs meurs, et des tribus qui ont influées sur son évolution urbaine. Ce livre a évoqué quelques unes des plus vieilles localités, et les Etats qui ont gouvernés la région, et surtout l'émergence de la gouvernance Mérinide connu par le Sultanat des Beni-Djellab. Et il a retracé la vie économique, le rôle de la femme et son influence dans la vie politique. Il a aussi, notifié l'arrivée des adeptes de la confrérie Chabiah, et leur contribution à l'édification des mosquées comme ils l'ont fait au Souf durant le 16ème siècle. Le livre est toujours une matière brute qui a besoin d'études plus approfondies.

مقدمـــة

تزخر الأقاليم الصحراوية بتاريخ عريق، غيبته ذاكرة النسيان، وضاعت أحداثه ووقائعه على مر الزمان، بتفريط الأهل والخلان؛ وحينئذ فُسحَ المجال للثقافة الشعبية أن تنسج حول العمران البشري القصص والأساطير التي تختلط مع الخرافات، ويوجهها الفكر الساذج البسيط، ويعلل أسبابها، وتصير تلك الأخبار الوحيدة في الميدان، لقلة الوثائق وندرتها، أو ضياعها، والسبب هو إحجام سكان الأقاليم عن التدوين والكتابة، نظرا لتفشي ظاهرة الأمية، وانتشار الجهل، واستخفاف المجتمع بالتدوين والتوثيق.

ويعتبر كتاب العدواني من أهم الوثائق التاريخية النادرة التي أرخ بها للصحراء الجزائرية ولاسيما إقليمي وادي سوف، ووادي ريغ، وتعرض لتعمير المنطقة الصحراوية، وذكر بعض الأسباب والملابسات عن السكان وصفاتهم، والقبائل التي أثرت في التطور العمراني، والدول التي حكمت، وخصوصا نشأة الحكم المريني الذي عرف بسلطنة بني جلاب. وكان للعدواني رأي يخالف به روايات أخرى، فضلا عن إشارات عابرة عن الناحية الاقتصادية، وتعامل السكان مع وادي سوف من خلال المراعي، وبيع بعض المواد كالصوف. ودور المرأة في صناعته في تلك الأثناء في المجتمعات المتجاورة، كما أبرز هذا التاريخ دور المرأة في مجتمع وادي ريغ،

وتأثيرها في الحياة السياسية، وإدارة الصراع بحكمة حين تدخلت زينب بنت تندلة الريغية، ورأبت الصدع بين قبيلتي عدوان وطرود بوادي سوف، مما يدل على المكانة التي تبوأتها المرأة رغم بساطة المجتمع، وانتشار الجهل، ولكن الدين كان حاضرا، ومن خلال قيمه تمت تلك المصالحة التاريخية. كما أشار العدواني إلى دور دعاة الطريقة الشابية وتنقلهم إلى وادي ريغ، ولا شك أنهم ساهموا في توسيع حركة بناء المساجد مثلما فعلوا في مجتمع وادي سوف سابقا، وخصوصا خلال القرن السادس عشر الميلادي.

ويبقى تاريخ العدواني ثريا بمعلوماته حول مناطق الجنوب الشرقي الجزائري، وتحتاج أخباره إلى البحث المستفيض، لأن رواياته بمثابة المادة الخام، التي تحفز الباحث إلى النظر فيها مليا، وتمحيص الوقائع وربطها بالوثائق الأخرى، ويمكن الاستفادة منها جميعا للمساهمة في كتابة تاريخ وادي ريغ.

1 – التعريف بتاريخ العدواني

تاريخ العدواني، كتاب في التاريخ العام، ينسب إلى الشيخ محمد العدواني، أحد علماء وادي سوف، وعاش ما بين 1133–1207هـ الموافق 1720–1792م، وهو من أهل القرن 18م، وينسب إليه مسجد الزقم بوادي سوف، وحمل اسمه تبركا من أهل بلدته؛ والشيخ محمد العدواني مؤرخ سوف الأول، ورحالة تعدت شهرته بلاد المغرب قاطبة، وله كتابه المشهور في التاريخ والذي حقق من طرف الدكتور أبو القاسم سعد الله تحت عنوان " **تاريخ العدواني**" وطبع من طرف دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1996، ونظرا للعدد الكبير من نسخ المخطوط، تنازع النساخ في نسب العدواني، فكل جهة وصلها الشيخ العدواني الرحالة إلا ونسبته إلى أرضها، تريد بذلك الشرف، لمكانة العدواني التاريخية، وقد صَدَّرَ المحقق الكتاب في غلافه بالعبارات التالية:

"**كتاب في أخبار هجرة واستقرار بعض القبائل العربية مع ذكر الأحوال والتقلبات السياسية والاجتماعية لمنطقة المغرب العربي وأصول بعض المدن والقرى، والعلاقات الروحية بين المشرق والمغرب منذ الفتح الإسلامي**"

وقيل في نسبه: هو محمد بن محمد بن عمر القسنطيني، وقيل هو محمد بن محمد بن عمر القسطيلي نسبة إلى قسطيلة ببلاد الجريد التونسية،[1] ولكن النسخة الهامة التي يمتلكها السيد أحمد خراز رفعت نسبته إلى بلدة الزقم، فهو محمد بن محمد بن عمر العدواني الرحماني السوفي اللجي دفين الزقم.[2] وقد قيل إن العدواني في هذه المسألة يشبه العلامة ابن خلدون، فتاريخه المشهور، وتنقله بين الدول، وإقامته في العديد من المدن، جعل تلك الشعوب تتشرف بنسبته إليها.

وقد قيم الدكتور أبو القاسم سعد الله ثقافة العدواني من خلال كتابه فقال: (تُظهر كتابات العدواني ثقافة واسعة بالنسبة لعصره، فهو يحفظ القرآن الكريم ويستدل بآياته في عدة مناسبات، وهو يحفظ الأخبار ويروي الطرائف، وله رصيد لغوي قوي، وأمثال شعبية كثيرة، أما ثقافته الصوفية فتظهر من حديثه عن الشابية وشيوخ القادرية ورحلاته الخيالية التي نسميها اليوم خرافات وكرامات).[3]

وتاريخ محمد العدواني له قيمته لمن درسه بتريث، لأنه يحتوي على مادة خام، وإشارات كتبت بلغة القرن 17 الميلادي، فلا يمكن تجاهل عصر العدواني الذي تداولت الصحراء نسخ تاريخه في وقت غابت الأخبار، ولا شك أن النساخ تصرفوا في معلوماته حذفا وإضافة وتحويرا بما يخدمهم، أو حسب فهمهم للكلمات المنسوخة بالأيدي المتعددة.

2 – عمران وسكان وادي ريغ عند العدواني

وادي ريـــغ إقليم يقع في الجنوب الشرقي الصحراوي الجزائري، عاصمته مدينة تقرت، وتمتد أراضيه في منخفض مستطيل الشكل، طوله حوالي 160 كلم، يبتدئ من الشمال من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا عند قرية قوق المحاذية لبلدة عمر، ويتراوح عرضه ما بين 30–40 كلم، وهو يجاور إقليم وادي سوف التاريخي في الناحية الشرقية.[4] وما ورد من أخبار عن هذا الإقليم في كتاب العدواني:

أ) ـــ تسمية وادي ريغ:

ورد في حوار راوي العدواني، ويدعى صفوان، أخبارا وحديثا عن تسمية وادي ريغ، بقوله:

(ثم قلت له: أخبرني عن واد ريغ، لما سمي ريغ؟ وعن مسكنه؟ قال لي: يا سيدي ريغ اسم رجل يقال له باهوت بن شملخ بن كعب بن غاوية، من ولد أندلس بن يافث بن نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام)[5] وما ذكره ابن خلدون، أن الاقليم نسبة إلى بني ريغة، وهي قبيلة من بطون مغراوة البربرية.[6]

ب) ـــ عمران وادي ريغ:

ذكر العدواني في تاريخه بعض المواضع في إقليم وادي ريغ، وتعرض إلى سبب تسميتها، أو قصة تأسيسها، وقد ارتبط بعضها بالجانب الأسطوري، ولا يمكن قبولها في أكثر الأحيان إلا بقرائن تاريخية تؤيدها، ولكن الدارس لهذا التاريخ يجعلها منطلقا، لعلها تفتح له نوافذ جديدة، وتلفت انتباهه على خفايا، تساعده على الوصول إلى الحقيقة التي يبحث عنها. ومن تلك الأخبار يمكن معرفة قدم وعراقة تلك المواقع، ويكفي أن العدواني من أهل القرن 18م:

ـــ بلدة المغير:

ذكر العدواني أن الذي سماها هو عقبة بن نافع أثناء فتحه للمنطقة، فلما مر بها ونام ليلا مع جنده في ترابها، وجدوا في الصباح أن سيوفهم قد أصابها الصدأ بسبب الماء أو الرطوبة، فقال سموها المغير لأنه رأى الأحوال فيها تتغير، قال العدواني في حديثه عن مسيرة عقبة:

(ثم ارتحلوا قاصدين المغير، حتى نزلوا عليه ثم باتوا به، فلما أصبح الله بخير الصباح وجدوا سيوفهم قد لصقها الصداد،قال عقبة: سموا هذا الموضع بالمغير)[7] وإذا صحت الرواية ، تكون المغير من أقدم المواقع بهذا الإقليم، وترجع تسميتها إلى القرن الأول الهجري في حدود 63هـــ الموافق 682م.

ـــ بلدة وغـــلانة:

ذكر العدواني أنها كانت بلدا للرهبان النصارى، ومنها هاجر ثلاثة رهبان إلى شمال سوف، وبنوا قصورا يتعبدون فيها.[8] كما ربطها العدواني بقصة فرعون، وهو الذي بناها بالصخر، فقال العدواني:

"... وصاحب مدينة **وغلان**، وبناها فرعون بالصخر، وجعل أعمدتها من النحاس، وساق لها نهرا من مجردة[9] أحلى من العسل، وغرس فيها النخيل، وجمع لها الجموع من النواحي، فكان فيها ثلاثمائة زقاق، وفي كل زقاق أربعون حومة، وفي كل حومة أربعة آلاف فارس، وجعل لها قوت ستة سنين، ما يفارقها. واحتاجت الناس إليها من جميع الآفاق، وصرف السوق إليها، وبقت على ذلك مدينة قاهرة،[10] حتى تجار مصر يأتونها، وبنى لنفسه قصرا من الزجاج الأخضر، وبنى لفرعون الصغير قصرا له أربعون بيتا، عشرة من الرخام الغالي، وعشرة من الزجاج الأحمر، وعشرة من الزجاج الأبيض، وعشرة من الزجاج الأخضر، وبقي على ذلك مدة مائتين سنة".[11]

وتدخل الأسطورة إبليس، الذي قتل فرعون الأكبر، وشجع تلمسان[12] فغزا وغلانة، ودمرها، وحمل صخرها وأعمدتها، على ظهور الإبل وتركها خالية، وقتل من أهلها ثلاثة وأربعون ألف ثم رجع إلى بلدته تلمسان، ولكن زوجة فرعون ولدت فرعون الأصغر، الذي أخبره إبليس بحال والده، بعد الاحتلام، وبدأ يتنقل، فأتى سوف، ثم استقر مدة عشرين سنة في نفزاوة التونسية، وأخيرا أتى مصر واستوطنها، وحكم القبط وبني إسرائيل من سكانها.[13]

ـــ تمرنة:

تحدث عنها العدواني، (وهي عنده واد ريغ) ، وزمنها، عندما توفي شيخ طرود بالنازية شمال وادي سوف، ويومها كانت العلاقة وطيدة بين سكان سوف ووادي ريغ، فكانوا يلتقون في المراعي، ويومها مات لأهل تمرن رئيسهم، وتسبب ذلك في أزمة قيادة، ثم تمكنوا من تولية رجل يدعى إبراهيم بن عبد القادر، بقي يحكم البلدة إلى آخر حياته. يقول العدواني:

"قال الراوي: فمات صاحب تمرنا، وأشكل على أهل واد ريغ من يولوا، فاخترنا رجلا اسمه إبراهيم بن عبد القادر وولياه، فبقيت الولاية لنا إلى أن مات هذا"[14]

ويشير العدواني إلى أن عاصمة الإقليم هي تمرنة، قال العدواني:

"قال: قلت: أخبرونا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس."[15]

والجدير بالذكر أن تمرنة تأسست في القرن الرابع الهجري قبل حي القصبة بـــ 40 سنة، وأصل سكانها برابرة عربهم الإسلام وتم اختلاطهم ببعض الوافدين العرب المشارقة قبل أن تنشأ تمرنة الحالية، وشهدت ميلاد عدة قرى اضمحلت وتلخصت في الأخير تحت اسم تمرنة القديمة. بداية من أوتيكا وهي كلمة بربرية بمعنى البلاد القديمة وهي بلاد تقع بين قريتي تمرنه الجديدة وتمرنة القديمة، اضمحلت بعد أن دفنتها الرمال، وهجرها السكان. وعموما تقع تمرنة في الجنوب الشرقي الجزائري، وهي حاليا تابعة لبلدية سيدي عمران ولاية الوادي. بنيت البلدة على هضبة غمرتها في القديم مياه وادي الرتم وجزأتها إلى قسمين، وبنيت وسط واحة من النخيل، وهذا ما ترك أمر ترميمها أو توسيعها مستحيلا حفاظا على الثروة النباتية التي تعتبر مصدر عيش للسكان الفلاحين.[16]

ج) ـــ سكان وادي ريغ وحكامها:

ذكر العدواني أنهم من اللمامشة، هرب أحد عبيدهم حين هاجموهم العدايسة.

قال العدواني:

"قلت له: أخبرني عن أهل واد ريغ، ممن هم؟ قال لي: عبدا للمامشة، هرب حين أخذوهم العدايسي"[17].

ذكر العدواني جزء منها، وهو بلدة تمرنة، وكان حاكم المنطقة من تونس، وتولاها بعدهم العدايسية،[18] ثم الأتراك. وأضاف العدواني:

"قال: قلت: أَخبرُونَا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس. قال لي: نعم يا سيدي، وذلك قبل ولاية الترك في قصر طينة[19]، قلت له: أكان قبل الترك ولاية غيرهم؟ قال: نعم، كان أعداس قد ترك فيها أربعين ولدا وأربعين أميرا، وهم الذين يسمون بالعدايسية، ثم خلفت الترك ولايتهم ففكوها إلى صاحب تونس، وبقت تحت صاحب اقسنطينة."[20]

وبنو أداسة من هوارة، ذكر المؤرخ الفرنسي E.Mercier أن بني أداسة أو الأدايسية، أو بنو عداس أو العدايسية، المشهورون، والمعروفون في كمل التراب التونسي وشرق الجزائر، بأنهم قوم دهاة ماكرون مخادعون فاسدون غشاشون، مهربون بحيث أن رجلا واحدا منهم يمكنه خلق قرية خيالية.

وللرد على مرسي، أن أداسة غير عدايسية، وبنو عداس هم الذين كانوا يأتون من تونس إلى قبائل عمالة قسنطينة، ويحترفون مهنة الوشم، وهم يشبهون إلى حد ما الغجر البوهيميين في تشيكوسلوفاكيا.[21]

3 – دولة بني جلاب في وادي ريغ (تقرت وتماسين)

ينتسبون إلى بني مرين، ومؤسس السلطنة هو الشيخ الحاج سليمان بن رجب المريني الجلابي، الذي قدم من فاس المغربية، وكان ثريا، ولما أصابت الناس ذائقة مالية، وخاف الشيخ محمد بن يحي على استغلال السكان من طرف اليهود، فتشاور مع الصالحين والعلماء، ثم عرض على سليمان بن رجب أن يتنازل عن الديون المترتبة على السكان، مقابل توليته على حكم الإقليم، خلفا لبني يوسف الدواودة، فقبل العرض، وحينئذ نشأت إمارة (سلطنه) بني جلاب التي دامت ما بين 1414–1854، وهذه الرواية القريبة إلى الحقيقة، ورويت أسطورة أخرى، ذكرت التنازع بين سكان تقرت، فاتفقوا على تولية أول داخل للبلدة، فدخلها أعرابي من الصحراء يقود قطيعه، فولوه أمرهم، وعرف بالجلابي نسبة للقطيع الذي يعرف بالجلب. ويرى الطاهر بن دومة أن تأسيس السلطنة تم في 837هـ/1531م من طرف احمد الجلابي الذي سلمه المدينة الرجل الصالح سيدي محمد بن يحي، وحينئذ قسم السلطة بين ولديه، فجعل محمد في تقرت، وإبراهيم في تماسين.[22]

وذكر العدواني أن سليمان الجلابي أقرض السكان ولما عجزوا استعبدهم، ثم أعتقهم شفقة ورحمة.

قال العدواني: "قلت له: ما معنى تقرت وتماسين؟ قال لي: يا سيدي، أتى رجل من واد مرين، قد كان مسكنه بفاس... قد كان كل عام يحج إلى بيت الله الحرام، فكان يأتي إلى واد ريغ ليبيع ما فضل من حجه، وهكذا حتى أتوه أهل الواد، [23] فقالوا له: يا سيدنا لو سكنت بقربنا كان خيرا لنا ولك، قال لهم نعم. قال الراوي: فانطلق إلى فاس، وأتى بأهله وماله حتى نزل بالواد. قال الراوي: وكان له امرأتان فجعل إحداهما في تقرت، لأنها موضع خربة، كان فيها على عهد خيار، ووضع الأخرى في اتماسين موضع قرية خربت على عهد ورقل الأكبر، وبنى لهما قصران، وكان له ثمانون عبدا، فجعل مع كل امرأة أربعين عبدا، وكل عبد لا يصل موضع الأخرى، وكان اسم واحدة منهن اسمها بدرة، والأخرى بدرية، وكانت واحدة منهن بنت مولاي سعيد الشريف الذي ضربه بن العافية على أم رأسه وعلم انه لا يعيش، والأخرى بنت فلياش صاحب مكناس، الولي. قلت له: وأي حاجة يصنعونها؟ قال لي: يا سيدي، كل عام يعين أربعين عبدا إلى هذه وعشرون إلى الأخرى كذلك. قال، قلت له: لما سميت تقرت واتماسين بهذا الأسماء؟ قال لي: سيدي، هذا اسم عجمي، ولا أدري، وبقيا على ذلك"[24].

ـــ استعباد سكان واد ريغ وتحريرهم:

"ثم داين أهل الواد، أي واد ريغ، حتى أتاهم عام خمسة وثلاثون وسبعمائة قحط،[25] أي شر كبير، فصار الرجل يأخذ ابنه أو بنته ويبيعاه له، فاشترى منهما ألفا وخمسمائة نفسا، ثم صار الرجل يأتي بزوجته ويبيعها ويخرجها من رقبته ويشريها منه، حتى تم أبناءهم وبناتهم وأزواجهم، ثم اشترى منهم جميع ما عندهم من النخيل والأثاث والسواني، ولم يكن عندهم يومئذ إلا رقابهم، فصار الرجل يبيع نفسه فاشترى منهم أنفسهم. فلما تم شراؤهم، فقال لهم يوما: يا معشر القوم ما عليكم، غدوة ـــ إن شاء الله ـــ عولت على السفر بكم لكي أبيعكم بحقكم قماش من قماش بحر اسويس.[26] قالوا: أهلا وسهلا، ولا يفك المملوك نفسه من مالكه. فلما كان من الغد، رجوا أن يسافر بهم، فلم يسافر، ثم أتاهم وقال: لا نسافر حتى تبنوا لي مسجدا، فبنوا له مسجدا. وأقام به غاية، ثم جعل له إماما راتبا وصاحب قراية فيه، فلما تم بناؤه قال لهم: إني أريد منكم ـــ يا معشر ممالكي ـــ ما نراعيه عندكم

أن أعتقكم لوجه الله تعالى، قالوا: سمعنا وأطعنا. ثم قال: نشهد الله والملائكة ورسله، فاني أعتقكم لوجه الله خالصا، فقبلوا العتقة. ثم قالوا: نحن نولوك على رقابنا أبد الآبدين، قال: قبلت. وتم أمره وعمله على ذلك"[27].

4 – أهمية وادي ريغ الاقتصادية

كان سكان وادي سوف يتخذونها مرعى لأنعامهم في فصل الربيع، قال العدواني: (قال الراوي: وبقينا في البلاد: الشتاء بأرض النازية، والربيع بواد ريغ، والصيف بالزاب، والخريف بأرض الجريد، وهكذا)[28] وكان سكان سوف يستوردون فسائل النخيل، والصوف الذي تنسج منه نساؤهم الملابس الصوفية، ومما ذكره العدواني: "ونحن نزلنا أرضا خالية ما بين ثلاثة أوطان: الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف، قلت له: أتصنع نساؤكم الصوف؟ قال لي: نعم."[29].

5 – دور المرأة في مجتمع وادي ريغ

تمتعت المرأة الريغية بمكانتها، وكان لها دورها الاجتماعي والديني، ولعبت أدوارا سياسية قلما بلغها الرجال في عصرها، ومنهن:

زينب بنت تندلة:

وهي امرأة صالحة، وولية لله عابدة، ذات رأي وحكمة ومشورة، تحسن استقبال ضيوفها، وتكرمهم أحسن إكرام، وتدعو لهم بالرزق الحسن، ومن يعتدي على حرمة دارها، فله الخزي والوبال، ونلمس ذلك في قصة من قصد دارها من سكان وادي سوف، عند لجوئهم إلى بلدتها، والمعتدي منهم يدعى " **غنام**". كما ورد في خبر العدواني، على لسان الراوي من بني قومه. قال العدواني: (وبتنا عند الولية الصالحة زينب بت تندلة، ودخلنا بيتها، كلما وجدنا فيها من الطعام والتمر أكلناه. فلما شعرت بنا أتت إلينا مغضبة وقالت: يا قوم! من أخذ لنا شيئا من غير الطعام والتمر فليرده إلي. فردوا لها ما أخذوه منها إلا غنام بقيت عنده سقاء ماء،[30] فلحوا عليه فلم يردها لها. ثم قالت: أما من أخذ مالي ورده إليَّ يجعل الله له رزقا في هذا الواد بحرمتي، ومن أخذ مالي و لم يرده إلي فيجعله خدما لي ولأهل هذا الواد)[31].

وقدمت لهم المرأة الصالحة خطة طريق في الصلح، وتقوم على الأخلاق التالية:

أولا: العفو عن خصومهم من طرود: والنظر إلى المستقبل، فإن حسن التدبير يجعل أبناءهم منهم، وينتمون إلى قبيلتهم بالتزاوج والمصاهرة، ومما ذكره صفوان في روايته: "قال صفوان: ثم أتينا راجعين بعدما أمرتنا الولية [يعني زينب بنت تندلة] بالرجوع والعفو عمن بقي، فأجبناهم لذلك، ثم قالت لنا: لو تقبلوا كلامي ونصيحتي أن تحملوا بقية الذراري والنساء والشيوخ إلى وطنهم، ويكونوا لكم عونا على عدوكم، لأنهم إذا كبروا لم يعرفوا أحدا غيركم، وإذا لم يعرفوا احد غيركم صاروا منكم، وتزوجوا بناتهم. قالوا هذا هو الرأي. ثم أثنوا راجعين إلى القصور، بعد أن جمعوا الإبل والأسلاب..."[32].

ثانيا: الإحسان في أعمالهم: و لم تودعهم زينب بنت تندلة، إلا بعد نصيحتهم بالتمسك بحبل الإحسان، وربطته بإحسان الله للعبد، وكيف رتبت عملا عن آخر، ففي السياق مثل قول الله تعالى عن أدب المجالس: **(فافسحوا يفسح الله لكم)**[33] وفي المعنى مثل قوله تعالى، واعدا المحسنين بالإحسان، في قوله تعالى: **(وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا)**[34] ومما ورد في كلامها على لسان الراوي في تاريخ العدواني: "قال الراوي: ثم ودعتهم وقالت لهم: **يا قوم أحسنوا يحسن الله لكم** فاليوم صاروا في حماكم،

وانأ المراقبة عليهم، فان قبلتم قولي ونصيحتي فنطلب الله أن يجعل ولاية واد ريغ على يديكم وتكون لكم الحرمة والاحترام ولا يولي عليكم ظالما تخاف منه وتكونوا أرزاقكم ومعيشتكم أكثرها من هذه الدار. قالوا ننكروا الولاية التي تضيق علينا فقالت لهم: اشهدوا علي، لا يجعل واليا ولا أميرا عليكم ولا منكم إلى يوم القيامة. ثم حملوا النساء والصبيان ورجعوا إلى قصور عدوان"[35].

ويتضح من هذا النص قدرة المرأة الصالحة في تقديم النصح، وإدارة الصلح، وهي من أفضل الأعمال واجلها في الشريعة الإسلامية.

6 – دور دعـــاة الشابية في وادي ريغ

ورد الحديث بإسهاب عن دور أتباع الشابية، وعلماء الطريقة الصوفية ذات الأصل التونسي ولاسيما سيدي عرفة الشابي، وسيدي المسعود، ودورهما في تصحيح العقائد في وادي سوف، والدعوة إلى التوسع في تشييد المساجد، ومازالت تحمل أسماءهم ولاسيما سيدي المسعود الشابي،[36] ودور ابنه علي بن مسعود، الذي ذكر العدواني كيف سار على نهج والده في وادي سوف، ويرجع له الفضل في تشييد بعض مساجد سوف،[37] ورحل لنفس المهمة في وادي ريغ. ومما ورد صراحة في تاريخ العدواني قوله:

"قال الراوي: ثم انتقل قاصدا إلى واد ريغ، تأتي قصته ـــ إن شاء الله." [38] وهنا توقف تاريخ العدواني و لم يَحْكِ قصة الشابية، وضاع معها تاريخهم ودورهم في الجانب الديني، ولكن النبذة التاريخية التي بسطها حقي محمد السايح التجاني التماسيني في ورقاته، قال: "كان بناء مسجد سيدي عبد الله المغرواي بتماسين سنة 817 هجرية،[39] وذلك على يد محمد بن الحاج الفاسي".[40]

ومما ذكره عن الأعراب الذين قدموا لوادي ريغ:

"لقد تداولت على هذه الواحة دول حسب وقتها وظرفها: أولا، أعراب من ناحية الجريد بالمملكة التونسية أتوا من صحراء قابس ومن طرابلس يقصدون المصيف في الرمال وبصحبتهم الشيخ خليفة وابنه الشيخ مسعود والشيخ بوناب ونشروا الدين نشرا جميلا وإلى الآن يقال للمسجد الجامع لاجتماع الناس به، وتأسس جامع سيدي المسعود بوادي سوف والذين أسسوه من الشابية وهم من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل."[41]

وبما أن التحقيق السابق يجعل الحكم الجلابي في حدود 1530، فإن الجلابي الأول أمرهم ببناء المسجد، وربما يكون الجامع الكبير بحي مستاوة بتقرت،[42] وهو الزمن الذي شهد حركة الشابيين حسب رواية العدواني.

خـــاتمـــة

لقد تناول تاريخ العدواني شذرات متفرقة من تاريخ وادي ريغ، ولكن التركيب التاريخي، والترتيب والملاءمة بين العناصر المتشابهة، يجعل تاريخ وادي ريغ في كتاب العدواني واضحا، وما يمكن ذكره من نتائج، يستأنس بها الباحث، ويستند إليها الدارس، ويبدأ التحقيق التاريخ منطلقه، مما وصل إليه هذا الرصد الأولي:

ـــ يحدد تاريخ العدواني بشكل تقريبي زمن بعض الحوادث التاريخية، وتعمير القرى القديمة، ومن خلاله يمكن مقارنتها مع غيرها من الشواهد التاريخية.

ـــ يعلمنا تاريخ العدواني كيف نهتم بالتسميات، وأصول السكان والقبائل التي مرت بوادي ريغ، ومنها ريغة، واللمامشة، والعدايسة، وبنو جلاب، وغيرهم من العناصر السكانية القديمة التي تركت أثرها في المنطقة.

ـــ يلفت الانتباه إلى المناطق القديمة، ويبرز عراقتها في التاريخ؛ مثل بلدة المغير التي أظهر أن لها صلة بتاريخ عقبة بن نافع في القرن الأول الهجري. وأخبار زينب بنت تندلة ، وفيها دلالة على قدم بلدة تندلة، وقدم وادي ريغ، ووجود السكان بها في حدود 790-800 هجرية.

ـــ أن وادي ريغ شهدت تأسيس إمارة بني جلاب، وفيه دليل عن حضارة عريقة، في الوقت الذي فضل فيه سكان وادي سوف الحرية خارج سلطة المخزن، ولم يوافقوا على طلب الولية الصالحة بالدعاء لهم بالسلطان الحاكم، لأنهم روا فيه تكبيل لسلطتهم، ورصدا لحركتهم.

ـــ كانت وادي ريغ مزدهرة اقتصاديا بوجود المراعي، وتصدير الصوف، والقحط الذي ذكرته الروايات كان عارضا فقط.

ـــ تبوأت المرأة مكانتها الدينية والسياسية، وهذا من أهم الملامح الحضارية للمنطقة، وكذلك مدى اهتمامهم بالدين، ولو من قبل المرأة، فضلا عن تشييد المساجد، ولا يمكن مقارنة ذلك التدين بما هو الآن، فلكل عصر قيمته العلمية التربوية.

وعموما يبقى كتاب العدواني مصدرا تاريخيا في حاجة إلى تقليب معلوماته، واستخراج فوائده التاريخية، ورصد القرائن المتعددة التي تساعد على نفض الغبار عن تاريخ الجنوب الشرقي الجزائري بأكمله.

ببيليوغرافيا

(1) أنظر: مقدمة المحقق، أبو القاسم سعد الله، في تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 17.
(2) أنظر: مخطوط العدواني، نسخة احمد خراز، غلاف المخطوط، لدي نسخة منه.
(3) نفسه، ص 21.
(4) أنظر: عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص 1.
(5) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 138.
(6) ابن خلدون،العبر، دار الفكر، 200، ج7، ص 33.
(7) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 299.
(8) نفسه ص 91.
(9) نهر مجردة: نهر في تونس طوله 415 كلم، ينبع من الجزائر، ويروي منطقة جندوبة في الشمال الغربي التونسي، ويصب في خليج تونس.
(10) مدينة قاهرة: حصينة، ومستعصية على الغزاة. ولعل النساخ نسجوا هذا، حتى يكون ملائما لقاهرة المعز الفاطمية في مصر، ولكنها لا تمت بصلة لتاريخ الفراعنة.
(11) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 275.
(12) تلمسان: يوردها العدواني اسم حاكم، واسم مدينته هي تلمسان.
(13) محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 277- 278.
(14) نفسه، ص 108.
(15) نفسه، ص 138.
(16) وكيبيديا الموسوعة الحرة. يوم 2001/10/1.
(17) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 303.

(18) العدايسة: ذكرالعدواني نسبهم، وهم أبناء العديس بن نون ، بن ماردس، بن مساعد بن نصر، بن أبي بكر؛ ويسرد نسبهم حتى ينتهي به إلى سيدنا عثمان بن عفان، فهم من الأشراف. أنظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 303-304 .

(19) يعني بلدة قسنطينة.

(20) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 138.

(21) أنظر: هوارة وبطونها العربية والأمازيغية، منتدى الجلفة، يوم 2001/10/1.

(22) المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 139-141.الشيخ محمد الطاهر بن دومة: المرجع السابق, ص 9. عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص14- 15. عبد القادر بوباية: " قيام حكم بني جلاب بوادي ريغ" ، ضمن مدونة الملتقى التاريخي الثالث المنعقد بمقر متحف المجاهد بتقرت من طرف الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، أفريل 1998، ص ص 32-36. معاذ عمراني: أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين، رسالة ماجستير، مرقونة وغير منشورة، تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، نوقشت في 9 أفريل 2003، ص ص 26-27.

(23) المقصود به وادي ريغ.

(24) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 139-140.

(25) ذكر العدواني أن القحط وقع سنة 735هـ وهو تاريخ يوافق 1334، وهو تاريخ بعيد عن نشأة الحكم الجلابي، وما ذكره الطاهر بن دومة هو الأرجح، 1531م، الموافق938هـ، وهو يتماشى مع ما ذكره الحسن الوزان في وصف إفريقيا، وقد زار تقرت في القرن 16م، ولم يجد حكامها من الجلالبة بل ذكر أنهم من تونس. أنظر: الحسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2، ص 136. معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص 29-33.

(26) يعني بذلك انتقاله إلى مصر، وكانت طريق مسيره نحو الحج كمحطة تجارية.

(27) محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 140-141.

(28) نفسه، ص 108.

(29) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 147.

(30) سقاء الماء: هي القربة، وهي الآنية الأساسية في البيت، وتعتبر ثروة هامة في وقتها، وترتبط بضمان العيش، فالشراب يكون منها وحدها، وضرورتها في البيت مثل الهواء للإنسان.

(31) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 101.

(32) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 102.

(33) المجادلة الآية 11.

(34) الكهف الآية 18.

(35) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 102.

(36) سيدي المسعود: هو المسعود بن محمد بن الشابي بن عبد اللطيف، ويرتفع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، كان رجل علم وتقوى، وقد خرج يدعوا إلى الله في الصحراء، ووصل إلى سوف والتقى بالفضلاء، وتعاون معهم في بناء المساجد، ونشر الخير، وظل يتردد على الصحراء منذ اواخر القرن العاشر الهجري، السابع عشر الميلادي، ولا يستبعد رحيله إلى وادي ريغ لنفس المهمة الدعوية، ونشر آداب الطريقة الشابية. المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص110-128. إبراهيم العوامر، الصروف، 192-194.

(37) المساجد التي ساهم في تشييدها علي بن مسعود الشابي، هي مسجد سيدي المسعود الشابي في الوادي، وهو مسجد الوادي العتيق، وآخر في مدينة قمار وهو مسجد سيدي المسعود العتيق، وكلاهما شيدت فيما بين سنتي 1530-1600.

(38) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 132.
(39) وهو يوافق سنة 1414م .
(40) المعمار الصحراوي: نظرا للعلاقة الروحية، والتواصل الاجتماعي للمهاجرين من بلاد المغرب، فقد نقلوا معهم الطابع المغربي في البناء، ويشيد بذلك الرحالة المغربي العياشي عند زيارته لتماسين، في القرن السابع عشر الميلادي،(1663م) فيذكر في رحلته "ماء الموائد " قائلا: (ورحلنا إلى تماسين وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل، وأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل في بلده وأجزل ضيافة الحجاج، وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة" أنظر: مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981،ص 89. الشيخ محمد الطاهر بن دومة: المرجع السابق، ص14 .
(41) أنظر: سالمي مصطفى: الدر المصفى، جمع وتحقيق، علي غنابزية، مخطوط، ص 33.
(42) أنظر: معاذ عمراني المرجع السابق، ص 21. عبد الحميد قادري، المرجع السابق، ص 48.

ملامح المنظومة القيمية للمجتمع القلعي الحمادي
– منطلقات الفكر وأنماط السلوك –

أ / لخضر بولطيف
جامعة محمد بوضياف / المسيلة

مقدمـــة

إن البحث في المنظومة القيمية للمجتمعات الوسيطة، يعد من الأبحاث المستجدة في مجال التاريخ الإسلامي في عصرنا الحاضر، ويأتي نظيرا –ولا ندعيه بديلا– للأبحاث القائمة على المنهج المادي، والتي طالما اختزلت النشاط البشري في زاوية ضيقة، لا تكاد تخرج عن تحصيل لقمة العيش، وهذا بحد ذاته تحد كبير، فضلا عما يكتنف البحث في القيم الاجتماعية من محاذير، أقلها الانزلاق إلى إطلاق أحكام معيارية أخلاقية على الأحداث والوقائع التاريخية، إذ تكاد الحدود تتداخل بين التقويم التاريخي والمحاكمة التاريخية.

ويحاول الموضوع المقترح تجسيد هذا التناول، وتحصيل بواكير نتائجه، من خلال التصدي لدراسة المجتمع القلعي– الحمادي، كنموذج للمجتمعات القروسطوية، التي نتطلع إلى معرفة المرجعيات الدينية والخلفيات الفكرية التي أطّرت رؤاها، وأسهمت في توجيه حياتها؛ فضلا عما سادها من مفاهيم، وتصورات، وأنماط سلوك.

أما عن أهم الروايات التي جرى استثمارها في هذه المقاربة، فهي تلك العائدة إلى: ابن شرف، وابن رشيق، وابن شدّاد، وابن حمّاد، والرقيق، والورّاق، والتي نقف عليها –غالبا– من خلال ابن القطّان، وابن عذاري، وابن خلدون، وابن الخطيب، وابن عبد الملك، وغيرهم. فضلا عما أمدتنا به كتب التراجم والطبقات، والمناقب والأنساب، والجغرافيا والبلدان، من إشارات غير هيّنة.

يرافع ابن خلدون[1] عن المجتمعات البربرية –والمجتمع الحمادي من ضمنها– فينسب إليها التخلق بكثير من الفضائل الإنسانية، والتنافس في الخلال الحميدة، من عز الجوار، وحماية النزيل، وقِرَى الضيف، والوفاء بالعهد، وعلو الهمة، وإباية الضيم، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام.

كما يمتدح إقامتهم لمراسم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، استنادا إلى ما نُقل عنهم من إقامتهم للصلوات في بواديهم، وتدارسهم القرآن في أحيائهم، وتحكيمهم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم[2].

ويذهب إلى حد القول بوقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين من النوع الإنساني من أشخاصهم؛ فقد "كان فيهم من الأولياء والمحدّثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة، والكهّان المفطورين على المطّلع للأسرار المغيبة..."[3].

فهل هذا الصنيع من ابن خلدون لون من تقرير الحقائق وفلسفة الوقائع التي كان ينبغي أن تجد طريقها إلى مقدمته، لا أن يجري إدراجها في تاريخه؟ أم أن الأمر لا ينفك عن خطاب تاريخي، صيغت مفرداته في ظل دول تنحدر من أرومة بربرية لا شيّة فيها؟

يتعين علينا أن نختبر التقريض الخلدوني من خلال الفحص عن جملة من المعطيات، والوقوف على عدد من الشواهد والإفادات ذات الصلة بالتاريخ العياني للمجتمع القلعي- الحمادي.

1- الاستعلاء بالنسب العربي:

الاختلاف حول نسب صنهاجة؛ فيما إذا كانت تمتّ إلى الأرومة العربية بصلة، أم أنها تنحدر من الأرومة البربرية، من أكثر النقاشات إثارة للجدل بين المؤرخين والنسّابة.

ففيما يسوق ابن خلكان[4] والنويري[5] نسب بني زيري الصنهاجيين -الأول نقلا عن العماد الأصفهاني، والثاني عن ابن شداد الصنهاجي- عبر ما ينيف عن خمسين جدّا، فيصلان به إلى يَعْرب بن قحطان من ذرية سام بن نوح عليه السلام.

فإن ابن خلدون يذهب -بعد استعراضه لمختلف الروايات المأثورة بشأن أوّلية البربر وأنسابهم- إلى التشكيك في صحة النسب العربي المزعوم، في قوله: "أما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب... أنهم من حِمْيَر... والحق الذي شهد به المَواطن والعُجمة أنهم بمعزل عن العرب، إلا ما تزعمه نسّابة العرب في صنهاجة وكتامة، وعندي أنهم من إخوانهم"[6].

كذا ابن حزم -من قبله- لم يتردد في نفي أي نسب عربي دعيّ عن البربر، إذ يقول: "وادّعت طوائف منهم إلى اليمن، إلى حِمْيَر، وبعضهم إلى بُرّ بن قيس عَيلان. وهذا باطل، لا شك فيه. وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بُرّ أصلا. ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن "[7].

وبصرف النظر عن مسألة اصطناع الأنساب التي لا شك أنها تسترعي الانتباه في التاريخ البربري بشكل عام، لما ظل يعنيه الدخول في نسب عربي صميم من اكتساب مشروعية سياسية تاريخية، فلقد لفت انتباهنا -بهذا الصدد- استنادا إلى عدد من الشواهد والإفادات أن قبيل صنهاجة طالما اعتبروا عربا في سياق التشريف والتنويه والتفاخر، أو قد عُدّوا بربرا على سبيل النكاية والإغضاء والتواضع.

فلما بنى زيري بن منّاد (334-360هـ/945-970م) مدينة "أشير"[8]، وكان الهدف من بنائها التصدي لقبائل زناتة التي كانت دائمة الثورة ضد الفاطميين، وبلغ ذلك القائم بأمر الله الفاطمي، قال: "مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر"[9].

وكان من وصيّة المعز لدين الله الفاطمي لبلكين بن زيري (361-373هـ/971-983م)، وقد أستخلفه على المغرب حين عزْمه على المضي إلى مقر سلطانه الجديد بمصر، أن "لا ترفع السيف عن البربر"[10].

وأمام الملأ أعلن المنصور بن بلكين (373-385هـ/983-995م) في حفل تنصيبه على العرش: "وهذا الملك ما زال في يد آبائي وأجدادي، ورثناه عن حمير"[11].

عدا أن بلكين كان خاطب مولاه المعز كالمعتذر عن جسامة المسؤولية المسندة إليه: "يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح"[12].

ولما ظهرت بوادر الشقاق بين الزيريين والفاطميين، وكان المعز بن باديس بن المنصور (406-454هـ/1015-1062م) يكاتب وزير المستنصر بالله الفاطمي، يستميله، ويعرّض له بالانحراف عن ولايتهم، يصنع ذلك تلميحا لا تصريحا، ومن ذلك تمثله ببيت من الشعر، وهو:

وَفِيكَ صَاحَبْتُ قَوْمًا لاَ خَلاَقَ لَهُمْ لَوْلاَكَ مَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا

فقال الوزير لبعض أصحابه: "ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخا عربيا عراقيا"[13].

ومهما يكن، فإن صنهاجة اعتدّت بهذا النسب وأعملته في الاستعلاء على غيرها من قبائل البربر، وبخاصة زناتة، حتى كان مما نُعت به مناد بن زيري أنه كان "شديدا على البربر"[14].

2- بين أعراف القبيلة وتقاليد الدولة:

لما كانت صنهاجة عريقة في الملك مقارنة بغيرها كزناتة مثلا، فإن المتوقع أن يكون أخذها بتقاليد الدولة أظهر من خضوعها لأعراف القبيلة.

وعلى ذلك يسعنا فهم ما أثر عن ملوك بني حماد من عناية بالبناء والعمران، فقد اختط حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1028م) القلعة أواخر القرن 04هـ/10م، واعتنى ببنائها وتمصيرها بما اتخذه فيها من "القصور العالية، والقِصاب المنيعة، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة"[15]، وما زال بها حتى "استبحرت في العمارة، واتسعت بالتمدن"[16].

وعلى هدْيه درج الناصر بن عَلَنّاس (454-481هـ/1062-1088م) الذي يمثل واسطة عقد ملوكهم، ففضلا عن تأسيسه لحاضرة جديدة سماها النّاصرية وشهرت ببجاية[17]، فإنه زاد في عمارة القلعة قصورا فخمة، أتى ابن الخطيب[18] على ذكر أسماء عدد منها؛ كقصر العروسين، وقصر بلاّرة، وقصر الخلافة، وقصر الكوكب، وقصر حمّاد، وقصر الملك، وقصر المنار، ... ويَنقُل عن المؤرخ ابن حمّاد الصنهاجي القلعي (ت 628هـ/1231م) قولَه: "وقد محا اليوم محاسنها الزمان، وغيّر حالها الحدثان"[19].

ولن يتأخر المنصور بن الناصر (481-498هـ/1088-1104م) عن شأو سلفه في هذا المضمار فقد شُهد له أنه كان مولعا بالبناء، وأنه "هو الذي حضّر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع، واتخاذ القصور، وإجراء المياه في الرياض والبساتين"[20]. كما اقترن عهد خلفه العزيز بن المنصور (498-515هـ/1104-1121م) أيضا بـــ"آثار عظيمة، ومبان رفيعة"[21].

ويحدثنا صاحب الاستبصار عن بعض تلك القصور في قوله: "ولبني حماد بالقلعة مبان عظيمة، وقصور منيعة، متقنة البناء، عالية السناء، منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد. وهذا القصر مشرف على نهر كبير، وفيه الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف"[22].

وكان من الطبيعي أن يرافق هذا الاتساع في العمران تفنن في المعاش وأطايب الحياة، من ذلك ما شهدته القلعة من ازدهار صناعات الترف التي تتطلبها حياة القصور وعِلْية القوم، فكان يضرب المثل بجودة الثياب القلعية التي لا تضاهى رقة ورونقا، وجاء في وصفها: "وبها [القلعة] الأكسية القلعية، الصفيقة النسج، الحسنة المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث يُنزّل مع الذهب بمنزلة الإبريسم"[23].

وإذا كانت العناية بالعمران ومتعلقاته مما يؤيد رسوخ النزعة الملوكية لدى حكام بني حماد، غير أن انخراطهم بالموازاة مع ذلك في حروب متصلة مع جيرانهم أو في نزاعات دامية فيما بينهم، أبدوا فيها من ضروب القسوة والغدر والخيانة والانتقام، لمّا يعكّر على خلوص تلك النزعة التي شابتها -دون ريب- الكثير من عوائد القبلية وطباع البداوة.

تتضافر الروايات على تأكيد غلبة الروح القتالية لدى حكام بني حماد وجرأتهم على سفك الدماء، من خلال عبارات من قبيل كان "جبارا"[24]، "عظيم السطوة"[25]، "شديد البأس"[26]، "سريع البطش"[27]، "سفاكا للدماء"[28]، وخُص بلكين بن محمد بن حماد (447-454هـ/1055-1062م) بالنصيب الأوفر

من هذه النعوت، حتى كان مما نعت به أنه "أحد جبابرة الإسلام... قد تجاوز في شذوذ أمنيته، وقهر رعيته، والإخافة لأقرانه، والاستبداد على زمانه، غاية من سلف من جبابرة الأرض"[29].

وتمدنا المصادر –مع كل ما يمكن إبداؤه حيالها من تحرّزات مشروعة– بوقائع غاية في الفظاعة من شمول القتل للأطفال والنساء والشيوخ، فحين احتدم النزاع بين حماد وأخيه إبراهيم من جهة وابن أخيهما باديس ابن المنصور (385–406هـ/995–1015م) من جهة ثانية، وحدث وأن انحاز بعض أهل القلعة إلى صف باديس، وخلّفوا وراءهم أزواجهم وأبناءهم، فعمد إليهم إبراهيم "يذبح الأولاد على صدور أمهاتهم، ويشق بطونهم، ويشوه بهم، وفعل أفعالا شنيعة!"[30].

ولما انهزم حماد أمام ابن أخيه باديس إلى القلعة، مكث بها مليّا ثم سعى في طلب المؤونة، فهاجم مدينة "دَكْمَة"[31]، وأعمل السيف في أهلها، فخرج إليه أحد فقهائها، ووعظه قائلا: "يا حمّاد! إذا لاقيت الجموع هربت منها، وإذا قاومتك الجيوش فررت عنها! وإنما قدرتك وسلطانك على أسير يكون في يديك، لا ناصر له عليك!"، فلما سمع كلامه أمر بضرب عنقه.

وبرز إليه أحد صلحاء المدينة، وخاطبه بقوله: "يا حمّاد! اتّق الله! فإني حججت حجّتين!"، فرد عليه متهكما: "وأنا أزيدك عليها الشهادة!"، وأمر به؛ فضربت عنقه. وأقبل إليه جماعة من التجار المسافرين، فقالوا له: "نحن قوم غرباء، ولا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك!"، فقال لهم: "اجتمعوا وأنا أعرّفكم!"، وخالطهم بعض أهل المدينة ممن طمع في الخلاص معهم، فلما وصلوا إليه، أمر بهم جميعا فقتلوا، ثم سطا على ما بتلك المدينة من مؤونة، وعاد إلى قلعته[32].

ونطالع مثل هذه المشاهد المستغربة في سيرة والده بلكين بن زيري، فإنه على إثر هزيمته لزناتة في موقعة مشهودة، أقام بموضع المعركة ثلاثة أيام، فلما شكا إليه جنوده رائحة الجثث المتعفنة، نادى في المعسكر "أن لا تطبخ قدر إلا على ثلاثة رؤوس من رؤوس القتلى، وجعل الجثث أكواما وصعد المؤذنون، فأذّنوا عليها!"[33].

ومن تلك المشاهد –أيضا– ما نطالعه في أخبار أخي حماد المنصور بن بلكين، حيث لما ظفر بأحد خصومه، أمر به فلطم لطما شديدا حتى أشرف على الموت، ثم أمر بإخراجه وقد بقيت فيه حشاشة من الروح، فأخذه بعض رجاله؛ "فنحره، وشقّ بطنه، وأُخرجت كبده، فشُويت وأُكلت!، وشرّح عبيد المنصور لحمه وأكلوه، حتى لم يبق إلا عظامه!"[34].

ولم يسلم من سطوة بني حماد وفتكاتهم حتى أقرب المقربين منهم، ومن ذلك أن القائد ابن حماد (419–446هـ/1028–1054م) حين شعر بدنو أجله كان مما أوصى به ابنه ولي عهده أن يحسن إلى بني عمومته من بني حماد[35]، لكن محسن بن القائد (446–447هـ/1054–1055م) وقد صار الأمر إليه رام إقصاء جميعهم، فخالفوا عليه، وكان ممن بادر إلى الخلاف عمه يوسف بن حماد، فلم يتردد محسن في "قتل سائر أولاد حماد"[36].

ولم يلبث محسن أن دفع حياته ثمنا لذلك على يد ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد[37]، هذا الأخير بعد أن انتصب مكانه، صادف أن مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته وهي ناميرت بنت عمه علناس بن حماد "فقتلها"[38]، وهو ما أحفظ عليه أخاها الناصر بن علناس فتربص به إلى أن تمكن من قتله[39].

والواقع أن غدر الإخوة وبني العمومة بعضهم ببعض كان من السلوكات التي استشرت بشكل واسع في نطاق البيت الحمادي، إلى الحد الذي أضحت معه مضرب الأمثال، فحين عزم الناصر بن علناس على الزحف إلى حصار تميم بن المعز بن باديس (455–501هـ/1063–1107م) بالمهدية، وكان قد حالف بعض أعراب بني هلال ليعينوه على حصارها، فأوعز تميم إلى من كان معه من العرب أن يخذّلوا إخوانهم الذين

مع الناصر، فكان مما خاطبوهم به: "كيف وقعتم في هذا الأمر، وأردتم إتلاف مُلككم، هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضا"[40]، فكانت تلك المخاطبات من أقوى أسباب الهزيمة التي حاقت به.

وإذا كنا لا نعدم حالات من الوفاء نادرة، كما في قصة يسوقها لنا البكري عن حماد لما أوقع بأهل "باغاية"[41]، ومفادها أن حمادا فوجئ من بين أهل المدينة برجل يستغيث به عن فقدان ابنته فيمن فقد من النساء، فإذا هو صديق له من أيام الصبا، فأقبل عليه متوددا ملاطفا، وخاطبه بقوله: "والله لو خرجت إليّ بالأمس لحقنت دماء أهل بلدك لحرمتك عندي"[42]. فإن مثل هذه المواقف التي تنم عن الشهامة والنبل، والتي قد تجد لها تفسيرا في أخلاق الفرسان، لا تخفي من جهة أخرى حقيقة الحادثة التي سيقت بشأنها وهي الإيقاع بالأهالي العزل وإلحاق الأذى بالنساء والذراري.

وعلى أن الحروب والمآسي المصاحبة لها، مما لا تنفرد به حقبة دون أخرى، ولا تتحمل وزره دولة دون أخرى، إلا أن الملفت للانتباه فيما يتصل بدولة بني حماد أنها بدت في كثير من الأحيان وكأنما تفتقد لمبررات الوجود والاستمرار، فهي لم تبن مشروعا سياسيا يقوم على مبدأ معين أو فكرة واضحة، وما اعتماد حكامها أسلوب القسوة والعنف في إدارة شؤونها سوى نوع من التعويض لافتقاد هذا الجانب الذي كان بارز الحضور لدى جارتها الصنهاجية دولة المرابطين.

ونكاد نلمس فداحة الشعور بهذا المأزق في قول المنصور بن بلكين حين توليته: "إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان"[43].

لكن حماد بن بلكين لا يبدو أنه استوعب أبعاد مقولة أخيه المنصور إلا حينما عاين عن كثب من قلعته مراسيم تشييع جنازة ابن أخيه باديس بن المنصور، ورأى من أمارات وفاء وإخلاص جنوده له ميتا ما لم يحظ به حماد حيا، فقال لبعض خاصته: "مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك، وتبذل فيهم النّعم، وصلت إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا أحسنت إليه، وأنعمت عليه، فعدت إلى القلعة، وما بقي معي منهم إلا أقل من ستمائة، وأنا بينهم حيّ أُرجّى، وهذا ميت قد أطاعه هؤلاء ميتا كطاعتهم له حيا"[44].

3- المرأة.. رافد القبيلة وشرف العشيرة:

ظلت المرأة تمثل المعادلة الأصعب في سياق منظومة القيم، التي كانت تدين بها المجتمعات الإسلامية الوسيطية، فمن ناحية كانت المرأة تتطلع إلى نيل الحظوة التي أهّلتها لها الأحكام والشرائع المتزّلة، ومن ناحية أخرى ما فتئت تجد نفسها رهن كثير من العادات والتقاليد التي تحدّ من فاعليتها، بل وتمتهن كرامتها أو تصادر على خياراتها في رسم مسار حياتها.

وعلى ما بين المجتمعات الصنهاجية من تماثل في عدد من جوانب الحياة، وطبيعة المبادئ والقيم السائدة، لكن يسعنا أن نلاحظ في يسر أن ما تمتعت به المرأة المرابطية من هامش حرية وحجم حضور قد لا يقارن بما أتيح لنظيرتها الحمادية.

ويكفي أن نستشهد بهذا الصدد بالدور الذي لعبته السيدة حواء زوجة الأمير تاشفين بن يغمر المسوفي، وذلك لما انبعث التراع بين الحماديين والمرابطين على تلمسان، فإنها انبرت أمام الأمير الحمادي المنصور ابن الناصر الذي اقتحم جيشه المدينة "متذمة، راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر قصدها إليه، وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه، وانكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة"[45].

كما لم يكن الانتساب إلى الأمهات عند الحماديين شائعا مثلما كان لدى المرابطين، ولم تطالعنا كتب التراجم إلا بحالة واحدة، ولم يقع الاتفاق بشأنها، ويتعلق الأمر بالفقيه أبي عبد الله بن الرّمامة[46] (479-567هـ/1086-1171م) فقد قيل "أن الرمامة امرأة نسب إليها"[47]، وقيل "هو لقب جرى على أحمد جد أبيه"[48].

وإذا كانت ظاهرة تعدد الزوجات أمرا مألوفا في العصر الوسيط، وخاصة في الأوساط الحاكمة، حيث يتخذ الملوك والأمراء العديد من الزوجات والسراري، إما على سبيل الاستكثار من الأبناء والأصهار، أو سعيا وراء تحقيق أقصى درجات الإشباع والالتذاذ، إلا أن هذه الظاهرة تجاوزت حدود المألوف بالنسبة لبني حماد.

فمما يروى عن جدهم زيري بن منّاد أنه "ترك أولادا لا يحصيهم العدد"[49]، أو يزيدون عن المائة -بحسب رواية أخرى- "كلهم أنجاد فرسان كرماء، كاد أن يكتفي بهم في بعض حروبه"[50]. كما يروى أن بلكين بن زيري كانت له "أربعمائة حظية"[51]، حتى قيل إن البشائر تواترت عليه في يوم واحد "بولادة سبعة عشر مولودا"[52].

وهذا التوسع في التسري والإنجاب نشأت عنه وضعية معقدة ربما عدّت من غرائب الدهر، فقد قدّر البعض اجتماع أزيد من ألف امرأة في زمن واحد لا تحل أي منهن لزاوي بن زيري، لا لشيء سوى لأنهن جميعا من نسل إخوته[53].

ويبدو أن الأميرات الزيريات لم يكن -دوما- يحظين بأكفائهن، رغم شيوع زواج بني العمومة، عدا أن بعضهن ربما تمتعن بوضع أفضل من خلال مصاهرات سياسية اقتضتها مصلحة الدولة، ففي سنة 470هـ/1077م أبرم الصلح بين الناصر بن علناس الحمادي (454-481هـ/1062-1088م) وتميم ابن المعز الزيري (455-501هـ/1063-1107م)، فزوّجه الأخير ابنته السيدة بلاّرة، وجهزها إليه من المهدية برّا "في عساكر عظيمة، ومال وأسباب وذخائر"[54].

كما صنع من بعده الأمير يحي بن تميم الزيري مع الأمير العزيز بالله الحمادي، إذ زوّجه ابنته السيدة "بدر الدّجى" وجهزها إليه[55].

غير أن هذا النوع من المصاهرات لم يكن -أحيانا- بمنأى عن عواقب وخيمة، فإن المنصور وعلى غرار أبيه الناصر، كان قد أصهر في زناتة، ثم لما تجدّد النزاع بينه وبينهم، وحلت به الهزيمة أمام زعيمهم "ماخوخ"، عمد إلى أخته "التي كانت تحته فقتلها"[56].

على أن القتل كان المصير المؤسف الذي يطال المرأة الحمادية أميرة كانت أو من عامة الناس، لأسباب أخرى لم تنفك -غالبا- عن تأصّل شعور الغيرة على الشرف، فلطالما اختزل شرف العشيرة في صيانة عرض نسائها.

وتؤثر بهذا الشأن أخبار مشهورة عن حماد وبنيه[57]، من ذلك أنه لما انهزم أمام ابن أخيه باديس، وولى أمامه هاربا في ثلة من جنده، خشي على نسائه أن يقعن في الأسر فتخلص منهن ومضى إلى معقله، وقد "وقف باديس عليهن وهن قتيلات"[58].

كما تستوقفنا -هنا- قصة بالغة الدلالة كان قد مر بنا شطر منها لما عرضنا لإيقاع حماد بأهل "باغاية"، وما اتفق له مع صديق صباه الذي جاءه يناشده استرداد ابنته من السبي، وتكملة القصة حسبما يُروى على لسان حماد -نفسه- أنه أصدر أوامره إلى قواده بإحضار جميع من كان في أخبيتهم من النساء، فتعرّف الرجل فيهن على ابنته، فأمر حماد بسترها وصرفها مع أبيها على أحسن حال، لكن المرأة رفعت صوتها مخاطبة حمادا، ودار بينهما هذا الحوار:

- قالت: لا والله يا حماد، لا رجعت مع أبي، ولا رجعت مع الذي غصبني!
- قال: وما الذي تريدين ويلك؟

– قالت: إني لا أصلح إلا للملوك، فلا حاجة لي بسواهم!
– قال: ومن أين تقولين إنك لا تصلحين إلا للملوك؟
– قالت: لأن عندي علما لا أُشارك فيه ولا يدعيه غيري!
– قال: ألا أريتنا شيئا من ذلك؟
– قالت: نعم، تأمر بقتل إنسان، وتحضر أمضى سيف عندك، أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره في أحد، ويعود في كف حامله أكَلّ من قائمه!
– قال: إن الذي يجرّب هذا فيه لمغرور!
– قالت: أَوَيُتّهم أحد أن يريد قتل نفسه؟
– قال: لا.
– قالت: فإني أريد أن تجرب ذلك في حتى تروا عجبا!

فجيء لها بسيف قاطع، فتكلمت عليه كلمات، وأشارت إلى السماء مرارا، ثم مدت عنقها، فضربها السيّاف ضربة أطاحت برأسها عن جسدها.

يقول حماد: "فاستيقظت من غفلتي، وعلمتُ أنها تداهت علي، وكرهتْ العيش بعد الذي جرى لها وعليها". ويضيف قائلا: "واستبان لأبيها مثل الذي بان لي [بعد أن كان قد سبق إلى ظنه أنها قد فتنت وفسدت]، فجعل يلقي بنفسه عليها، ويتمرغ في دمها أسفا لما حل به فيها، واغتباطا بها لما رأى من عظم أنفتها، واختيارها الموت على ما نزل بها"[59].

ولن يشذ عن هذه القاعدة سوى آخر أمراء بني حماد وهو يحيى بن العزيز (515–547هـ/ 1121–1152م)، فإنه قيل فيه "كان مستضعفا، مغلّبا للنساء"[60]، قد انصرف إلى اللهو والمجون، يقضي وقته بين الملهين والمضحكين؛ "يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة، من شيوخ، وعجائز، وحمقى،..." [61]، ولم يقتصر على ذلك بل "كان يُجلس –أبدا– بين يديه أخواته: تقسوط، وأم ملاّل، وشبلة، في زي العرائس من الحلي والملابس"[62].

ولا نشك –حينئذ– أن من تداعيات ما كان يصنعه الأمير الحمادي المستهتر مع خاصته، ما عاينه داعية الموحدين المهدي بن تومرت حين مروره ببجاية من مظاهر الإقبال على الملاهي، وتعاطي المسكرات، وتبرج النساء واختلاطهن بالرجال[63]، وكان من الطبيعي أن تستغل الدعاية الموحدية استشراء مثل هذه المظاهر لتبرير حركتها الإصلاحية التي ما لبثت أن أطاحت بالدول الصنهاجية الثلاث: المرابطية، والحمادية، والزيرية.

لّما كان التاريخ يمثل الاستجابة الصحيحة، أو المغلوطة، لمنظومة القيم وعالم الأفكار، فإنه من الحري بنا إخضاع تاريخنا إلى دراسات معيارية؛ الهدف منها استبطان حياة المجتمعات التي عاشت ذلك التاريخ، وتفاعلت مع أحداثه ووقائعه، وصنعت تحولاته ومنعطفاته.

ونعتقد أن محاولتنا المتواضعة في مقاربة منظومة القيم في المجتمع القلعي– الحمادي قد أتاحت لنا إضاءة عدد من الزوايا المعتمة، وسبر أغوار بعض المحطات الخفية، التي تجتمع في المحصلة تحت عنوان منطلقات الفكر وبواعث السلوك.

ببيليوغرافيا

(1) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 122/6.
(2) المصدر السابق، 122/6-123.
(3) المصدر السابق، 123/6.
(4) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، 77-1978، 304/1.
(5) نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 22، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد؛ نشره بعنوان: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، الدّار البيضاء: دار النّشر المغربيّة، 1985، ص300.
(6) العبر، 114/6.
(7) جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط05، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص495.
(8) مدينة حصينة من بلاد الزّاب، قائمة بين جبال شامخة محيطة بها، حسنة المرافق، عميمة المنافع. يراجع الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط02، بيروت: مكتبة لبنان، 1984، ص60.
(9) النويري: نهاية الأرب، ص304-305.
(10) المصدر السابق، ص311.
(11) المصدر السابق، ص317.
(12) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ط01، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998، 36/2.
(13) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط03، بيروت: دار المسيرة، 1993، ص105.
(14) النويري: نهاية الأرب، ص309.
(15) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط01، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 329/2.
(16) ابن خلدون: العبر، 202/6.
(17) المصدر السابق، 206/6.
(18) أعمال الأعلام، 332/2.
(19) المصدر السابق، 332/2.
(20) ابن خلدون: العبر، 206/6-207.
(21) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 334/2.
(22) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، ط02، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة - الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1986، ص168.
(23) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1977، 390/4.
(24) ابن خلدون: العبر، 203/6.
(25) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 334/2.
(26) ابن خلدون: العبر، 208/6.
(27) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 334/2.
(28) ابن خلدون: العبر، 204/6.
(29) ابن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1997، 189/1.
(30) النويري: نهاية الأرب، ص331.
(31) بلدة بالمغرب الأوسط، تقع على نهر كبير، ذات مزارع ومسارح. يراجع البكري: المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، ط01، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 232/2.
(32) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، ط03، بيروت: دار الثقافة، 1983، 264/1-265.
(33) النويري: نهاية الأرب، ص309.

(34) المصدر السابق، ص322.
(35) المصدر السابق، ص343-344.
(36) ابن خلدون: العبر، 203/6.
(37) النويري: نهاية الأرب، ص344.
(38) ابن خلدون: العبر، 204/6.
(39) ابن بسّام: الذخيرة، 191/1.
(40) النويري: نهاية الأرب، ص350.
(41) مدينة كبيرة حصينة، لها أرباض وأسواق عامرة، ولها واد يدخل إليها من جهة القبلة منه شرب أهلها، وهي قريبة من جبل أوراس. يراجع الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس؛ من كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص177-178.
(42) البكري: المسالك والممالك، 376/2.
(43) النويري: نهاية الأرب، ص317.
(44) ابن عذاري: البيان المغرب، 268/1؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، 323/2-324.
(45) ابن خلدون: العبر، 208/6.
(46) هو محمد بن علي بن جعفر القيسي القلعي، كان فقيها حافظا أصوليا نظارا، متقدما في الفضل والورع والنزاهة. يراجع ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت العطار الحسيني، القاهرة: مكتبة الخانجي- بغداد: مكتبة المثنى، 1956، 676/2-677؛ وابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1993، 21/3-22.
(47) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، 325/8.
(48) المصدر السابق، 325/8.
(49) الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: عصام هزايمة وآخران، ط01، الأردن: دار الكندي، 1999، 33/1.
(50) النويري: نهاية الأرب، ص309.
(51) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 287/1
(52) الأزدي: أخبار الدول، 34/1.
(53) ابن حزم: رسالة نقط العروس في تاريخ الخلفاء؛ ضمن مجموعة من رسائله، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، 96/2.
(54) ابن عذاري: البيان المغرب، 300/1.
(55) المصدر السابق، 306/1.
(56) ابن خلدون: العبر، 207/6.
(57) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 333/2.
(58) النويري: نهاية الأرب، ص332.
(59) البكري: المسالك والممالك، 376/2-377؛ ومجهول: الاستبصار، ص169-170.
(60) ابن خلدون: العبر، 209/6.
(61) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 334/2.
(62) المصدر السابق، 334/2.
(63) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ط02، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص31-32.

المؤرخ أحمد ابن قنفذ ابن الخطيب القسنطيني
(710-810هـ / 1340-1407م)

أ / محمد قويسم
جامعة محمد بوضياف / المسيلة

ملخص

يندرج هذا الموضوع ضمن تاريخ الكتابة التاريخية في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط، وهو يتضمن محاولة الإجابة عن إشكالية مفادها: من هو أحمد بن قنفذ القسنطيني؟ ما هي مؤلفاته في التاريخ؟ وما هي أهم مميزات منهج التاريخي؟ وينطلق في الإجابة عن هذه الإشكالية من مؤلفاته السبعة في التاريخ والتي مازالت موجودة في معظمها.

مقدمة

يمثل موضوع دراسة المناهج التأريخية عند المؤرخين العرب والمسلمين من الطبري إلى ابن خلدون أهمية بالغة، وقد برز في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي ابن قنفذ ابن الخطيب القسنطيني و عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي، كان لهم إسهام بارز في دراسة التاريخ والسير والتراجم، وهذه الدراسة تحاول التعريف بابن قنفذ وبمنهجه التاريخي، وذلك على ضوء مصادره الأساسية، وقد رأينا أن نتناول أولا التعريف بشخصيته العلمية، ثم نتطرق لمنهجه التأريخي من خلال مؤلفاته في هذا الميدان.

1- شخصية ابن قنفذ العلمية

أبو العباس احمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ القسنطيني: توفي سنة (810هـ/1407م) نسبه من آل قنفذ من قبيلة أسجع العدنانية اسجع بن حلاوة بن سبيع ابن أشجع، ولد أبو العباس احمد الخطيب بمدينة قسنطينة سنة 741هـ/1371م، أبوه حسن ابن علي بن قنفذ (ت664هـ/1265م) الفقيه والمحدث والخطيب المالكي، وجده أيضاعلي بن حسن (ت733هـ1333م) كان خطيبا بمسجد القصبة بالمدينة لمدة ستين سنة وتولى خطة القضاء حتى استقال منها، وكان جده والد أمه يوسف بن يعقوب الملاري (ت764هـ/1363م) صاحب زاوية ملارة الغوتية بفرجيوة وخطيب مسجد القصبة أيضا بأمر من السلطان الحفصي.[1]

بدأ دراسته في مدينة قسنطينة على يد والده ،لكنه توفي وعمره عشر سنوات، فكفله جده يوسف الملاري خريج مدرسة أبي مدين الغوثي وصاحب زاوية الملارة بتسدان فرجيوة قرب ميلة، فتأثر بجده كثيرا وبعض الشيوخ مثل العالم الفقيه حسن بن خلف بن باديس (ت784هـ/1382م) والفقيه الحافظ حسن بن أبي القاسم ابن باديس (ت787هـ/1385م)، ثم رحل في طلب العلم إلى المغرب الأقصى وعمرة ثمانية عشر عاما سنة759هـ فقصد في طريقه مدينة تلمسان الزيانية والتقى بعلمائها ووقف عند زاوية شيخها أبي مدين بالعباد وتبرك بضريحه ثم غرب نحو مدينة فاس عاصمة بني مرين حيث وجد ابن قنفذ ضالته المنشودة في جامع القرويين، فأخذ يتعمق في دراسة العلوم التجريبية والتجريدية ويتوسع فيها لمدة زادت عن ثماني عشر سنة.[2]

وفي المغرب التقى بعلماء ذلك العهد وبأقطاب التصوف وشيوخه في مناطق عديدة من المغرب الأقصى آسفي وسلا مدينة أبا العباس احمد بن عاشر ومدينة دكالة التي كان يعقد فيها سنويا مؤتمر للصوفية في شهر ربيع الأول حيث التقى بأخيار العلماء والصلحاء ما شردت به عينه حسب وصفه في انس الفقير، وزار مراكش، حتى صار من المالكية البارزين، فقلد خطة قضاء دكالة سنة(769هـ/1367م) وعمره تسعة وعشرين عاما، أي بعد عشر سنوات من إقامته بالمغرب الأقصى، وظل ابن قنفذ بالمغرب إلى غاية سنة(776هـ/1375م) التي كانت سنة مسغبة في معظم المدن المغربية.[3]

حيث قرر العودة في هذه السنة إلى أهله وبلدته المفضلة مدينة قسنطينة،وعند عودته إلى مدينته وجد مجالا طيبا عند عائلته، وحظوة مميزة عند البلاط الحفصي، فسرعان ما أستدعي لتولي عدة وظائف وخطط سامية بقسنطينة، فتقلد الخطابة بالمسجد الجامع بالقصبة وخطة القضاء فضلا عن التدريس ونشر العلم والتأليف، وهي والوظائف التي ظل ابن قنفذ يشغلها إلى أن أدركته الوفاة(810هـ/1408م)، ومن مدينة قسنطينة زار مدينة تونس وجامع الزيتونة واخذ عن علمائه عدة مرات منها سنة777هـ أي بعد سنة فقط من رجوعه من المغرب حيث أجازه العلامة ابن عرفة بجامع الزيتونة، وكان قد أجازه أيضا أبو القاسم محمد ابن احمد الحسني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي.[4]

2- منهج ابن قنفذ التاريخي

ألف ابن قنفذ ما يزيد عن ثلاثين كتابا في شتى العلوم في التاريخ والفقه والأدب واللغة والمنطق والفلك والحساب والتصوف والتراجم والعروض والأنساب دونها صاحبها في آخر كتاب شرف الطالب في أسنى المطالب، مما يدل على سعة الاطلاع وموسوعيته وعمق تفكيره وتعدد معارفه وتنوعها فزاحم بذلك الدارسين المختصين في علومهم، وفي التاريخ ألف ستة كتب في مواضيع متعددة في علم التاريخ من السيرة النبوية والتراجم والتاريخ البلدي حول قسنطينة والدولة الحفصية هي:

1ـ **الفارسية في مباديء الدولة الحفصية**: ألفه سنة 806هـ للسلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز المسمى عزوز القسنطيني المولد والنشأة مثل ابن قنفذ وكان هذا السلطان درة الدولة الحفصية ارجع لها هيبتها وازدهارها في كل الميادين، وبالتالي أستحق هذا الكتاب الذي يعتبر مصدر هام لا مثيل له لدراسة تاريخ مدينة قسنطينة في العهد الحفصي.[5]

2ـ **الوفيات**: ألفه عام 803هـ/1406م، مع عنوان فرعي معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة 11ـ807هـ، جمع فيه أسماء أشهر الوفيات من عصر النبوة حتى انتهى إلى ذكر شيوخه وغيرهم من علماء المغرب منهم عشرون عالما من الجزائر، وجعله ذيلا لكتابه شرف الطالب في أسنى المطالب.[6]

وقام عادل نويهض باقتطاعه من شرح القصيدة، ثم حققه منفردا واعتبره كتابا مستقلا متأسيا بفعل مولوي محمد هدايت حسين الذي طبعه بالهند سنة 1911م وفصله عن شرح القصيدة،لكن الواقع انه ليس كتابا مستقلا لان المؤلف ابن قنفذ لم يفصل بينهما واعتبر الكل كتابا واحدا فقال عند الحديث عن مؤلفه ومنها هذا المختصر الذي سميته الطالب في أسنى المطالب وفي كل المخطوطات يوجد الشرح والوفيات معا.[7]

3ـ **أنس الفقير وعز الحقير**: عنوانه الكامل أنس الفقير وعز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم، ألفه تلبية لطلب إخوانه وأصدقائه في مدينة قسنطينة من أتباع الطريقة المدينية

(طريقة أبي مدين) سنة 787هـ بالكتابة لهم عن حياة أبي مدين وسماه تقييدا لأنه مختصر و لم يقصد به كتابا موسها في التاريخ أو التراجم[8].

4ـ **شرف الطالب في أسنى المطالب**: ينقسم إلى قسمين القسم الأول شرح لقصيدة غرامي صحيح لابن فرح الاشبيلي (ت699هـ/1300م) وهي قصيدة في ألقاب الحديث، وهي عشرون بيتا شرح منها بن قنفذ سبعة عشر بيتا فقط، والقسم الثاني فيه وفيات أعلام الإسلام من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة11هـ إلى 807هـ أي قبل وفاة ابن قنفذ بسنتين، وعلاقة هذه الوفيات أيضا بمصطلح الحديث هو معرفة تاريخ ميلاد ووفاة الرواة وتبيان الصحيح والزائف في رواية الحديث النبوي الشريف، وحسب مخطوط الخزانة العامة بالرباط انتهي من تأليفه عام أربعة وثمانون وسابعمائة ضحوة يوم الجمعة من ربيع الأول السادس والعشرين[9].

5ـ **وسيلة الإسلام بالنبي صلى الله عليه وسلم**: قال عنه مؤلفه هو من اجل الموضوعات في السير النبوية الشريفة لاختصاره، والاختصار غرضه تربوي تسهيل الفهم للموضوع[10].

6 ـ **تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد**: تناول فيه قضية فقهية سياسية تاريخية وهي الشرف يكون من جهة الأم أم من جهة الأب[11]، عالج هذا الكتاب قضية النسب الشريف في بلاد المغرب بعد سقوط الدولة الموحدية سنة668هـ، لكثرة المنتحلين والمدعين لهذا اللقب وذلك طمعا في الوصول إلى مكانة اجتماعية متقدمة في بلاط الزيانيين و الحفصيين والمرينيين، وقد استغرقت هذه النقاشات والمجادلات عشرات السنين شارك فيها علماء وفقهاء المدن الكبرى تونس وبجاية وتلمسان وفاس وقسنطينة حيث ورد السؤال على ابن قنفذ أبو العباس احمد بن علي بن حسن بن الخطيب سنة 803هـ وهو قاضي وخطيب ومفتي مسجد قصبة قسنطينة، فكان السؤال عن ثبوت الشرف من الأم وهل يسوغ التسوية بينه وبين الشرف من الأب[12].

وجاءت إجابته رافضة للشرف من الأم لهذا سمى كتابه بـ: تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد وعلل موقفه هذا بان الشرف بالأب دون إلام الشريفة كما كان في الزمن الأول، وأيده في ذلك قاضي الجماعة في تونس أبو إسحاق ابراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي، رغم أن فتوى ابن قنفذ كانت عكس فتوى محمد بن عبد الله المراكشي الضرير أو الأكمه القسنطيني بعنوان إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، وفتوى عبد الرحمن التونسي (801هـ/1399م) بعنوان طراز الكم وتحرير الحكم بإثبات الشرف من قبل الأم، كما أن علماء فاس وتلمسان (محمد ابن مرزوق الحفيد) وبجاية عارضوا كل فتوى من قسنطينة وتونس ترفض إثبات الشرف من ناحية الأم[13].

7ـ **طبقات علماء قسنطينة**: في التراجم لم يذكره في ثبته في كتابه شرف الطالب الذي ألفه سنة 684هـ، رغم أن محمد ابن أبي شنب في مقال له بمجلة إسبريس (hesperis) قال أن هذا الكتاب قد يوجد في إحدى خزانات قسنطينة الخاصة، وقال عادل نويهض رحمه الله محقق الوفيات انه اطلع على مخطوطة من هذا الكتاب في مدينة الجزائر ويعمل على تحقيقها، لكن بعد وفاته لا نعلم شيء عن هذا الكتاب[14].

ومن خلال فحص أفكار هذه المؤلفات يمكن استنتاج نقاط مهمة حول منهج ابن قنفذ التاريخي، وهي:

1ـ **تلاحم المثقف مع السياسي العادل**: افتخار ابن قنفذ بسلاطين بني حفص لأنه كان يرى فيهم كل الخير خاصة السلطان أبو فارس الذي ألف فيه كتاب الفارسية ووصفه بالمجاهد والمقدس، ومنه الافتخار بالوطن الكبير والمدينة والأسرة، بالنسبة لابن قنفذ مدينة قسنطينة وآل ابن قنفذ ولا يعتبر هذا تبعية

ولا عمالة أو مدح للسلاطين، رغم التحيز للسلطة المركزية بوصف خصومها بكل الصفات البشعة مثل وصفه لأحمد بن مرزوق الفاجر والمدعي وهي حقيقة وصفه بها جل المؤرخين.[15]

فهو في هذا مثل محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي الذي قدم كتابه نظم الدرر والعقيان في شر بني زيان إلى السلطان الزياني أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين، ورغم تصنيف أبو القاسم سعد الله لابن قنفذ مع المداحين للأمراء، فإنه يذكر لم يؤلف كتابه طمعا في المال أو الحظوة وإنما لان السلطان عبد العزيز الحفصي المكنى أبو فارس ووالده احمد المكنى أبو العباس من قسنطينة، وأسرة ابن قنفذ كانت في خدمة الدولة الحفصية هو ووالده وجده وهذا من باب الاعتراف بالجميل، والهدف الآخر هو إظهار مكانة مدينة قسنطينة وتبرئة سكانه من الثورة على السلطان أبي فارس[16].

ويظهر ابن قنفذ في كتبه اعتزازه ببلاده ورجالها، فكثرا ما يذكر عبارة بلادنا أ وبلدنا في الحديث عن عالم أو مسجد أو نحو ذلك، وحتى في الحديث عن مدن المغرب الأوسط الأخرى، فعند ذكر آخر شخصية ترجم لها في كتاب الوفيات هو محمد بن عبد الرحمن المراكشي بقوله من أهل بلدنا بونة المتوفى سنة 807هـ، وهذا بعد وطني هام في تلك الفترة وعن مدينة قسنطينة يقول بلدنا ،هل هذا افتقار للنظرة الشمولية للتاريخ الوطني وأيضا للتاريخ الإسلامي كما قال أبو القاسم سعد الله، لكن من خلال التراجم في كتاب الوفيات مند عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، و من خلال كتاب شرف الطالب وكتاب أنس الفقير يتضح لابن قنفذ القسنطيني بعد آخر في كتابة التاريخ الإسلامي[17].

2ـ **التأريخ حسب السلاطين والأمراء وترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا عاما بعد عام:** وهي طريقة الحوليات المعتمدة على توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام، وهي ضوابط ومنهجية انفرد بها المؤرخون المسلمون بشكل عام عن نظرائهم من الإغريق والرومان، وهذا المنهجية من ابتكار شيخ المؤرخين والمحدثين جرير الطبري المتوفى سنة310هـ/922م وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف كتب ابن قنفذ في مجال التاريخ ضمن كتب تاريخ السير أو حوليات السير، ومع ذلك لم يرق ابن قنفذ إلى طريقة المحدثين الذين كانوا يكثرون من الأسانيد ويقابلون بين الروايات ويرجحون رأيا على آخر،فلم يحاول ابن قنفذ عند سرده للأحداث أو الروايات أن ينقد بعضها أو يقابلها بروايات أخرى و لم يكلف نفسه مشقة إبداء الرأي في كثير من المسائل إلا في الحالات النادرة عندما كان يرد على خصوم سلاطين بني حفص، واعتمد في كتابه الوفيات ترتيب الوفيات على المئين من السنين قائلا أن أحدا لم يسبقه إلى هذه الطريقة.[18]

3ـ **تنوع المصادر التاريخية المعتمدة:** أعتمد ابن قنفذ على مصادر متنوعة في كتابته للتاريخ أرشيف الدولة الحفصية في تونس وقسنطينة،أسانيد شفوية سمعها من بعض الرواة خاصة من جده الملاري، وبعض فضلاء قسنطينة وعدولها، كما أرخ للأحداث التي عاشها وصار مصدرا لها في النصف الثاني من القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الهجري، ومن هنا تعد كتبه مصدرا أساسيا للدولة الحفصية امتازت بغزارة المادة وعمق الدراسة، وان لم ترق إلى معلومات عبد الرحمن ابن خلدون الذي يعد تاريخه عاما مند الخليقة وكتاب الفارسية تاريخ بلدي أو قطري يخص قسنطينة والدولة الحفصية فقط.[19]

4ـ **الإحالة على المصادر التاريخية المعتمدة:** عندما تكون المعلومات مقتضبة يحيلك على المصادر للاستزادة منه نحو والشرح يطول في هذه الوقيعة وبيانه في الكتاب الكبير، وكان يحرص على ذكر مصادره وأسانيده المكتوبة منها والشفوية، مثل قوله وفي ذلك يقول جمال الدين مطروح ـــ أطلعت على تقييدات ـــ وبيانه في الكتاب الكبير، وقوله وكتب لي وعن الأسانيد الشفوية يقول اخبرني من رآه، اخبرني بعض الفضلاء،

يحكي بعض عدول بلدنا، ـــ خبرني جدي لامي، وعنه كشاهد عيان يقول قلت ـــ رأيت أيام حضوري ـــ حضرت مجلسه.[20]

5ـــ **التقليل من النصوص الشعرية و المحاورات والخطب والرسائل:** هي نصوص أدبية لم يكثر من استخدامها ابن قنفذ، وهو بذلك يشد على قاعدة الكثير من المؤرخين والإخباريين المسلمين الذين يكثرون من النصوص الأدبية والمحاورات والرسائل في مناسباتها التاريخية، فهي تكاد تكون منعدمة في كتابيه الفارسية وأنس الفقير.[21]

6ـــ **ربط أحداث السنة الواحدة ببعضها البعض:** كان يذكر أحداث السنة ثم يضيف الأحداث الأخرى في مناطق شتى بلاد المغرب الأندلس المشرق أو أوروبا، ويضيف السنة التي توفي فيها السلطان ومن توفي فيها من الملوك والعلماء والفقهاء، وفي نهاية حديثه عن السلطان يذكر خصاله ومآثره وأخلاقه وتاريخ ولادته ووفاته وشيوخه ووزرائه وكتابه وقضاته ويختم حديثه بالأخبار الهامة التي لا ترتبط بزمن معين، مثل قوله وفي سنة ست وأربعين وستماية توفي ولد السلطان وولي عهده، وفي هذه السنة أخد النصارى إشبيلية، وقوله أيضا وفي السنة المذكورة توفي صاحب اليمين وفيها توفي عظيم النصارى.[22]

7ـــ **عاصر مؤرخين وعلماء كبار:** عاصر ابن قنفذ مؤرخين كبار في القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي هم عبد الرحمن ابن خلدون وشيخيه الآبلي وأبي عبد الله الشريف، يحي ابن خلدون، لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي، ابن مرزوق التلمساني، ابن العباس ابن البناء المراكشي وابن عرفه التونسي، المقري الكبير وسعيد العقباني.[23]

8ـــ **الأسلوب السهل الواضح:** رغم أن عصر ابن قنفذ القسنطيني عصر الضعف نهاية العصر الوسيط الذي تميز بالمحسنات البديعية وبالسجع في الكتابة والخطابة، نجد ابن قنفذ ابتعد عن هذا التنميق اللغوي في كتاب الفارسية وانس الحقير والوفيات وأسنى المطالب واعتمد أسلوبا حيا سهلا ولغة بسيطة واضحة، لا تخلو من بعض المفردات العامية.

وقد علق محمد ابن شنب الباحث الجزائري عن أسلوب كتاب الفارسية بان ابن قنفذ وظف في كتابه هذا بعض الكلمات عليها مسحة من لهجة أهل قسنطينة، مثل قوله المخاذ بدلا من الوسادات، والصابة بدلا من المحصول الزراعي، أعطيني سرجك نركب بها، الصلاة بالليل والناس نيام، كما ستخدم كثير من المفردات العامية عند حديثه عن الصوفية في أنس الفقير، كما تحدث في الفارسية عن بعض الكرامات الصوفية بشيء من البساطة والسذاجة مما يدل على تأثره بفكرة التصوف السلبي والخرافي قد انتشرت في عهده،وهذا بطبيعة الحال من جهة والده أو من جهة جده لامه صاحبة الزاوية الملارية[24].

9ـــ تراجم مرتبة زمنيا: تراجم علماء الحديث والمؤلفين حسب القرون وتاريخ الوفيات، قال عنها ابن قنفذ أنها طريقة لم يسبق إليها[25].

وأخيرا تميز ابن قنفذ القسنطيني بنظرة سليمة في تركيب الأحداث بصورة واضحة ودقيقة عن الدولة الحفصية ومجتمع ذلك العصر، ونقل بأمانة من المصادر التي وقف عندها وسرد الأحدث التي عاشها وما روى له عن طريق المشافهة دون أن يزيد فيها أو يدعي انه قام بترتيب جديد لها، وكتبه تعد من المصادر الأساسية في جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية لتاريخ المجتمع المغاربي والدولة الحفصية على العموم والمجتمع القسنطيني على وجه الخصوص[26].

خـــاتمـــة

وفي نهاية القول يمكن الوصول إلى جملة من النتائج أولها أن ابن قنفذ القسنطيني يعتبر من المؤرخين الكبار لتاريخ المغربين الأوسط والأدنى في نهاية العصر الوسيط (العصر الحفصي)، ثانيا برز بعلومه الموسوعية وبنبوغه في علم التاريخ، حيث تعد كتاباته التاريخية مصادر أساسية لكتابة تاريخ المغرب خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

وثالثا تميز منهجه التاريخي بخصوصيات هامة، فهو مؤرخ للسلطان وللعامة، ويتناول أحداث التاريخ حسب ترتيبها الزمني فترة بفترة على حسب حكم السلاطين، وهو يعتمد في تناول أحداث التاريخ على المصادر الأساسية، وعلى تنويع هذه المادة من مصادر مختلفة كتب أرشيف وشفوي.

ببيليوغرافيا

1 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مباديء الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر تونس 1968،ص41-42، التمبكتي احمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية بيروت (د ت)،ص75
عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة ،تاريخ معالم ،حضارة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة أم البواقي الجزائر 2007،ص142-149.
عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، السنة السابعة- العدد 11- محرم1418هـ/ماي1998م ، جامعة منتوري قسنطينة،ص110،عمار هلال:العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3هـ/14هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1995،ص159، علي علواش: ابن قنفذ ،معجم مشاهير المغاربة، تنسيق أبو عمران الشيخ، تقرير ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر 1995،ص396، محمد حجي: موسوعة أعلام المغرب،ج2، دار الغرب الإسلامي بيروت1980، ص833، محمد المهدي بن علي شغيب:أم الحواضر في الماضي والحاضر،تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث ،قسنطينة الجزائر1980،ص75،زهير حميدان:أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية في الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبية، من عام 38هـ -755م -1317هـ -1899م،مج5، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1990،ص47.
أنظر الملحق رقم1
2 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية...ص41-42 ، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام، تقديم علي جمعة دار المقطم للنشر والتوزيع القاهرة 2002، ص63-64، التمبكتي أحمد بابا:نيل الابتهاج...ص 75،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص145 ،عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد11،ص110. علي علواش: ابن قنفذ،معجم مشاهير المغاربة..ص396، محمد حجي: المرجع السابق،ص833، محمد حجي: المرجع السابق،ص833،محمد المهدي بن علي شغيب:المرجع السابق،ص75.
3 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية...ص41-42، أنس الفقير...ص 63-64، التمبكتي أحمد بابا:نيل الابتهاج...ص 75،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص 145،عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد11...،ص110، نجاة المريني: ابن قنفذ من خلال رحلته أنس الفقير وعز الحقير، السنة السابعة- العدد 11- محرم1418هـ/ماي1998م ، جامعة منتوري قسنطينة،ص115-119، علي علواش: ابن قنفذ،معجم مشاهير المغاربة،ص396، محمد حجي: المرجع السابق،ص833.
4 ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير...ص71، الوفيات...ص 63، 361، التمبكتي احمد بابا:كفاية المحتاج،ج1، تحقيق محمد مطيع،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط المغرب 2000،ص103-104،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص 144،عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، السنة السابعة- العدد 11- محرم1418هـ/ماي1998م ،

جامعة منتوري قسنطينة،ص110،عمار هلال:المرجع السابق،ص159، علي علواش: ابن قنفذ،معجم مشاهير المغاربة،ص396، محمد حجي: المرجع السابق،ص833. ، لكن الزركشي ذكر وفاته ليلة الجمعة الثانية عشرة لربيع الأول سنة 809هـ والموافق ل28 أوث 1406 وأيده في ذلك الصفاقسي ينظر الزركشي:المصدر السابق،ص123، الصفاقسي محمود بن سعيد مقيدش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تونس 1321هـ ص239، علي علواش: ابن قنفذ،معجم مشاهير المغاربة،ص451، محمد حجي: المرجع السابق،ص833.

5 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية...ص100 وما بعدها،189 حول أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس احمد،شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي ،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976،ص238 ، ابن مريم:البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،نشره محمد بن أبي شنب، وقدم له عبد الرحمن طالب ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1986،ص309، عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق،ص143، عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2008،ص169، نللي سلامة العامري:الولاية والمجتمع ، مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لافريقية في العهد الحفصي ، تقديم الدكتور هشام جعيط، جامعة منوبة ، منشورات كلية الآداب السلسلة :تاريخ-المجلد12،تونس 2001،ص177،عادل نويهض:معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر بيروت 1983،ص268-269،محمد علي مهدي شغيب:المرجع السابق،ص79، الحفناوي:المرجع السابق،ج1،ص37، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1500،1-1830،ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1998،ص 41-42،خير الدين الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،المجلد الأول،ط15،دار العلم للملايين بيروت لبنان 2002، ،ص117، Dominique Valérien,Bougie port maghrébin 1067-1510,école française de Rome,Rome 2006,p87,Atallah,Dhina,Les Etats de l'occident musulman, aux 13-14 et 15 siècles, Institutions Gouvernementales et Administratives,office des publications Universitaires,Alger 1984,Pp234,note 652,406,438-439 ،قام محمد بن شنب(ت1929م) بتصحيح ومقابلة كتاب الفارسية لان قنفذ لكن لم يطبع حتى الآن وترجم للمؤلف ترجمة مسهبة هي التي ألقاها في مؤتمر معهد المباحث العليا برباط الفتح سنة 1928 نشرت بالفرنسية في كراسة مستقلة وطبع في نفس السنة، وقد نشرت المجلة الآسيوية الفرنسية مقتطفات من الفارسية، وقد طبع بباريس طبعة حجرية سنة 1846، ونشره بورو شفيق بتونس 1932، وأخيرا حققه محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي في تونس1968، ينظر محمد بن شنب: منتخبات في التأليف والترجمة والتحقيق ، دار القصبة للنشر الجزائر 2007 ص 72-77،عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته وآثاره ، م ، و،ك الجزائر1983،ص32،زهير حميدان:المرجع السابق،المجلد الخامس،ص50.

6 ابن قنفذ القسنطيني: الوفيات ، تحقيق عادل نويهض، الطبعة الأول مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر1982،ص21،شرف الطالب...،ص238 ،ابن مريم:المصدر السابق،ص309، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، ص 63، 65-66،عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269، أبو عمران الشيخ: شخصيات من الجزائر في كتاب الوفيات لابن قنفذ القسنطيني(803هـ/1406م)، مجلة سيرتا، العدد11.، ص147-149، خير الدين الزركلي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص117، الحفناوي:المرجع السابق،ج1،ص34. زهير حميدان:المرجع السابق،المجلد الخامس،ص50.

7 ابن قنفذ القسنطيني: شرف الطالب...ص238،عبد العزيز صغير دخان:مقدمة أسنى المطالب،ص44-45، بعد طبعه في الهند طبعه المستشرق الفرنسي هنري بيرس في مصر دون تاريخ ثم حققه عادل نويهض وطبعه في بيروت 1971 ثم طبعه محمد حجي في المغرب مع لقط الفرائد لابن القاضي (ت1025هـ) والوفيات للونشريسي سنة 1976، ولقط الفرائد هو ذيل لوفيات ابن قنفذ ابتدأه من أول المائة التاسعة إلى تمام المائة العاشرة، كما قام بنظم وفيات ابن قنفذ الوزير الأديب محمد بن علي الفشتالي(ت1021هـ) في لامية مشهورة،وقام الأديب المكلاتي بوضع ذيل نظم الوفيات ينظر عبد الله كنون: كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي،ص258،الشاذلي النيفر:وفيات ابن قنفذ، مجلة آفاق الثقافة والتراث،عدد 19 ، مركز الماجد دبي الامارات العربية المتحدة رجب 1418 نوفمبر 1997،ص69-70.

8 ابن قنفذ القسنطيني:أنس الفقير...ص30 وما بعدها،شرف الطالب ...،ص238 ،ابن مريم:المصدر السابق،ص309، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 63-64،عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269، نجاة المريني: ابن قنفذ من خلال رحلته أنس الفقير وعز الحقير، العدد 11..،ص115-119،خير الدين الزركلي: المرجع السابق،المجلد الأول ،ص117. زهير حميدان:المرجع السابق،المجلد الخامس،ص50.

9 ابن قنفذ القسنطيني:مخطوط الخزانة العامة الرباط رقم 896 د، ورقة 168،شرف الطالب ...،ص238 حيث حقق محمد حجي بالرباط بالمغرب القسم الثاني الخاص بأعلام الإسلام من 11-807هـ فقط أما تحقيق عبد العزيز صغير دخان،ط1 ، مكتبة الرشيد،الرياض ، المملكة العربية السعودية سنة 2003 ،فقد حقق الجزء الأول الخاص بشرح قصيدة غرامي صحيح لابن فرج الاشبيلي،ابن مريم:المصدر السابق،ص309،عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269، بشير ضيف بن أبي بكر الجزائري:فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث،ج2ن مراجعة وتقديم عثمان بدري منشورات ثالة الجزائر 2002،ص70، وينظر أبي العباس احد بن فرح الاشبيلي: منظومة غرامي صحيح في ألقاب الحديث،متون مصطلح الحديث ،سلسلة المتون العلمية،دار المستقبل القاهرة ،دار الإمام مالك الجزائر 2005. أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 63، 65-66. زهير حميدان:المرجع السابق،المجلد الخامس،ص50.

10 ابن قنفذ القسنطيني: وسيلة الإسلام بالنبي صلى الله عليه وسلم، تقديم سليمان الصيد،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان1984،ص31 -32، شرف الطالب ...،ص238 ،ابن مريم:المصدر السابق،ص309،التمبكتي احمد بابا:كفاية المحتاج،ج1،ص103-104،أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 63عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269، بشير ضيف بن أبي بكر الجزائري:المرجع السابق،ج2،ص100،خير الدين الزركلي:المرجع السابق،المجلد الأول ،ص117،حققه سليمان الصيد من نسخة واحدة وقد وجد عبد العزيز صغير دخان نسخة أخرى في تمنطيط بولاية أدرار وينوي تحقيقه مرة ثانية ينظر عبد العزيز صغير دخان: مقدمة شرف الطالب...ص43 هامش رقم2.

11 ابن قنفذ القسنطيني: تحفة الوارد في النسب من قبل الوالد ، مخ ، الخزانة العامة بالرباط نسخة مصورة، ومكتبة المخطوطات المصورة بالجامعة العربية، ولعل نسخة كاملة منه توجد في مكتبة الشيخ عباس بن ابراهيم بمراكش مؤلف كتاب الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ،شرف الطالب ،ص238 ،ابن مريم:المصدر السابق،ص309، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 63، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 63،عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269،، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق،ص75-79، بشير ضيف بن أبي بكر الجزائري:المرجع السابق،ج2،ص125،خير الدين الزركلي:المرجع السابق،المجلد الأول، ص117.

12 ابن قنفذ القسنطيني:شرف الطالب ،ص93 ،ابن مريم:المصدر السابق،ص309، التمبكتي احمد بابا:كفاية المحتاج،ج1،ص103-104،عادل نويهض: المرجع السابق،ص268-269. بوبة مجاني: تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد لأبي العباس احمد بن علي بن حسن بن الخطيب المعروف بابن القنفذ القسنطيني(ت810هـ/1407) مقاربة أولية، مجلة سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية فلسفية معهد العلوم الاجتماعية، السنة السابعة ـالعدد 11- محرم 1418هـ/ ماي 1998،جامعة منتوري قسنطينة،ص151. ، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق،ص75-79. الحفناوي:المرجع السابق،ج1،ص33، خير الدين الزركلي:المرجع السابق،مجلد1،ص117. زهير حميدان:المرجع السابق،المجلد الخامس،ص50.

13 بوبة مجاني: تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد مجلة سيرتا...ص151، ذكرت الدكتورة الباحثة بوبة مجاني أن نسخة منه عند الشيخ محمد الشاذلي النيفر ونسختين بدار الكتب المصرية ضمن مجموع واحد رقمه 2135 تاريخ أو 2130 تاريخ وذكرت أنها تعمل على تحقيقه ونشره مع دراسة وافية عن الأشراف في بلاد المغرب من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين /الثالث عشر السادس عشر الميلاديين.

14 عادل نويهض:المرجع السابق،ص268-269. أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص 6،أما إدريسية النسب في الأمصار والقرى والعرب: لم يذكرها ابن قنفذ القسنطيني في كتابه شرف الطالب ذكرها سليمان الصيد محقق وسيلة الإسلام ص 14، حيث وقع في التباس مع ابن قنفذ آخر هو عبد الله محمد بن قنفذ القسنطيني ألف إدريسية النسب بدمشق سنة 1001هـ

ينظر مقدمة شرف الطالب لعبد العزيز صغير دخان، عادل نويهض:المرج السابق،ص270، ينظر محمد بن شنب:المرجع السابق،ص75.

15ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...،ص144-145 ،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص148 ،عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد 11- ،ص110. أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص64،

Mahfoud kaddache ,l'Algérie médiévale ,2 édition, entreprise nationale du livre, Alger 1992,p168

16 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...ص26، 93، التنسي محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، تحقيق محمود عياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985،ص9 ومابعدها ،أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص44، 57، 59، 63-64

17 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية ...ص 104، 174، 194، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص66،ج2، ص324

18 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...،ص8 ،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص148. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد11 ...،ص110. أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص64، 66

19 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية،ص100 وما بعدها ،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص148. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد11 ...،ص110.

20 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...،ص198 ،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص149. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا،العدد11 ...،ص110،الطاهر بونابي:الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين14-15 الميلاديين، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط،إشراف الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي،قسم التاريخ جامعة بوزريعة الجزائر 2010،ص170-172.

21 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...،ص110-133، 150، 162-163 ،أنس الفقير،ص77، 96 ، 99،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص149. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا،العدد11... ،ص110.

22 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...ص132 ، 198،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص149. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا،العدد11 ...،ص110، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص64.

23 ابن قنفذ القسنطيني:الفارسية...،ص144- 145،عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص149،عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا، العدد11 ...،ص110.

24 ابن قنفذ القسنطيني:انس الفقير...،ص44، عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته ،مجلة سيرتا،العدد11 ..،ص110 عبد العزيز فيلالي:مدينة قسنطينة...ص146، أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص64 .

25 ابن قنفذ القسنطيني:الوفيات...ص63، علي علواش: ابن قنفذ، معجم مشاهير المغاربة...ص396-398

26 عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة...ص149. عبد العزيز فيلالي: ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته، مجلة سيرتا، العدد11...،ص110.

دور علماء زواوة في تأطير الحياة الفكرية في مصر والأندلس

د / خلفات مفتاح
جامعة محمد بوضياف / المسيلة

ملخص

إن وجود علماء زواوة كان له تأثير كبير على الثقافة في مصر والأندلس، سواء عن طريق التعليم أو عن طريق المصنفات العلمية وخاصة في المجال الديني.

Résume

La présence des savants Zouaoua a eu une grande influence dans la culture en Egypte et en Andalousie soit a travers l'enseignement ou bien par leurs ouvrages scientifiques précisément dans le domaine religieux.

مقدمـــة

أعطى الحضور القوي للجالية المغربية في المشرق الإسلامي اهتمام عدد كبير من الباحثين والأكاديميين سواء كان ذلك في دراسات مستقلة وضمن أعمال تناولت جهود نخبة فكرية تميزت بأعمالها الجليلة في شتى مناحي الحياة (السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الثقافية).

لكن و إن كنا نقر بأهمية و جدية مثل هذه الدراسات التي تشيد بالتفاعل الضاري بين ضفتي العالم الإسلامي – إلا أن ما يعاب عليها – هو التقصير الحاصل في الحديث عن جهود علماء المغرب الأوسط وبخاصة من قبيلة زواوة واكتفت بإشارات محتشمة وخجولة لا تعكس عطاءاتهم الفكرية و دورهم الفعال في النقلة النوعية التي عرفتها مصر خاصة على الصعيد المذهبي أو ملئ الفراغ الذي ترتب عن هجرة علماء الأندلس نحو المشرق ومن هذا المنظور كان اهتمامنا بدور النخبة العلمية في مصر والأندلس ردا على تلك النعوت التي وصف بها المغاربة المتهمين بمحدودية تفكيرهم وتعليمهم إنضاف إلى هذا قناعتنا بضرورة الحفر التاريخي في مآثر علماء قبيلة زواوة بكشف النقاب عن إسهاماتهم في الحضارة العربية الإسلامية من خلال نفض الغبار عن علمائها الذين لا تزال جهودهم العلمية والفكرية رهينة كتب الطبقات والتراجم.

I- إسهامات علماء زواوة في مصر والأندلس:

أولا– إسهاماتهم في مصر:

أ– حقل العلوم الدينية:

كان لسياسة الأيوبيين (567–648هـ/1171– 1250م) في استقطاب رجالات العلم والفكر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي أثرا واضحا في تشجيع هؤلاء العلماء على القدوم إلى هذه البلاد، لما وفروه من مستلزمات تعليمية من مدارس وخوانق وربط ومساكن وحمامات ومستشفيات، وجد فيها الطلبة العلم كل الرعاية والاهتمام، وبجهود هؤلاء الوافدين تحولت مصر إلى قطب سياسي وحضاري ليس باعتبارها عاصمة الدولة فحسب، بل إلى ما وصلت إليه من تطور وازدهار على جميع الأصعدة[1].

وغير خاف أن مظاهر الرقي العلمي الذي وصلت إليه، مدينة فيه لجهود العديد من العلماء الذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب وبخاصة علماء زواوة، الذين شاركوا في بناء هذا الصرح الحضاري كل حسب تخصصه، ويأتي في مقدمة هؤلاء.

شرف الدين الزواوي (ت 743هـ/1342م):

هو أبو الروح عيسى بن مسعود بن منصور بن يحي شرف الدين الزواوي، ولد في بنى منقلات إحدى فروع قبيلة زواوة سنة 664هـ/1265م وفيها تلقى علومه على يد أبي محمد عبد الصمد ثم انتقل إلى بجاية وجلس إلى فقيهها أبي يوسف بن يعقوب الزواوي (ت690هـ/1291م) وحفظ عنه مختصرا بن الحاجب الفرعي خلال ثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر ونصف، وزاد عليه موطأ مالك،[2] وبقي يتردد على مجالس العلم وحلقات الدرس لمدة عشرين سنة، ثم كانت رحلته إلى المشرق من أجل تغذية طموحه العلمي فزار عددا من الحواضر العلمية منها مصر والإسكندرية ودمشق والخليل،[3] التقى فيها بخيرة علماء المذهب المالكي فسمع من شرف الدين الدمياطي بمصر، وعن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي (ت 717هـ/1319م) بدمشق التي مكث بها سبع سنوات يشتغل ما بين نيابة القضاء والإقراء في المسجد الأموي،[4] لكنه في الأخير آثر الرجوع إلى مصر حيث تقيم أسرته، ولعل نبوغه الفكري وتضلعه في الدراسات الفقهية مع قوة حفظه للمذهب المالكي وبراعته في فهم مسائله وقضاياه أهلته بأن يكون مفتيا ونائبا للقاضي تقي الدين الأخنائي.[5]

وتقوم شهادة ابن فرحون (ت 799هـ/1301م) دليلا قاطعا على ما وصل إليه شرف الدين من قوة الحفظ وعمق التحصيل، وعبر عن ذلك بقوله "كان إماما في الفقه، وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية معا".[6]

وغني عن القول أنه رغم أهمية المنصب والمكانة الاجتماعية التي حضي بها شرف الدين الزواوي، إلا أنه لم يلبث أن تنازل عن وظيفته واتجه إلى التدريس والتصنيف، وأسهم بجهود كبيرة في تنشيط حلقات الدرس في الفقه والقراءات بجامع الأزهر،[7] وتولى مشيخة الزاوية المالكية[8] ودرس بالمنكوتمرية[9] بالقاهرة وأعاد بالناصرية والصالحية[10] فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، وبعد أن تقدم به السن تنازل لولده علي عن التدريس بالزاوية، واستقر عنده كمعيد، و لم يزل كذلك إلى أن توفي في رجب سنة 743هـ/1342م[11].

أما عن مصنفاته العلمية فقد كتب شرح مسلم في اثني عشر مجلدا سماه "إكمال الإكمال"، جمع فيه أقوال المازري والقاضي عياض (ت 544 هـ/1145م) والنووي (ت 676 هـ/1276م)، وأتى بفوائد جليلة من ابن عبد البر النمري (ت 460 هـ/1067م)[12] والباجي (474 هـ/1081م)[13] وغيرهما، وشرح مختصر أبي عمر بن الحاجب في الفقه فتوصل فيه إلى كتاب الصيد في سبعة مجلدات[14]، واختصر جامع ابن يونس الفقهي (ت 451هـ/1051م)،[15] وشرح المدونة، وصنف في الوثائق والمناسك وفي علم المساحة لمعرفته بعلم الحساب،[16] كما صنف في الكتب المنقبية منها مناقب الإمام مالك[17] والشافعي، ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وله في التاريخ كتاب حافل في نحو عشر مجلدات، ذكر فيه عن أول بدء الدنيا وقصص الأنبياء وأخبار الأمم من سيدنا آدم إلى زمانه[18].

وله أيضا شرح على الرسالة العضدية في علم الوضع،[19] هذا إلى جانب معرفته بجغرافيا الأقاليم، فقد اعتمد عليه ابن فضل العمري في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، ودون معلومات جغرافية هامة عن بحيرة فكتوريا التي تشكل موردا لنهر النيل ونقرأ ذلك في قوله "حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي عن الأمير أبي دبوس بن أبي دبوس ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المؤمن حدثه أنه وصل إلى هذه البحيرة في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن"[20]، وقوله أيضا "ومن عجائب إفريقية ما حدثني به القاضي أبو الروح أن بين توز قاعدة بلاد الجريد وبين بشرى من بلاد نفزاوة سبخة عظيمة أخذت في الجنوب إلى الصحراء المجهولة المسالك"[21]، كما وصف موكب السلطان الحفصي وعن بعض عاداته عند خروجه إلى صلاة العيدين، وكيفية ترتيب الجنود من حوله مع رؤساء القبائل والقضاة.[22]

وقد سجل العلامة شرف الدين رأيه وفتواه في مؤلفات الصوفي محي الدين بن عربي (ت638هـ/1241م) التي أثارت سجالا بين الفقهاء وبخاصة كتاب "الفصوص" وعبر على ذلك قوله "وأما ما تضمنه هذا التصنيف عن الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وظلال وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك أو اعتقد صحته كان كافرا صادا عن سبيل الله مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحدا في آياته مبدلا لكلماته فإن ظهر ذلك وناظر عليه كان كافرا يستتاب فإن تاب وإلا قتل وإن أخفى ذلك وأسره كان زنديقا فيقتل متى ظهر عليه، ولا تقبل توبته إذا تاب لأن توبته لا تعرف فقد كان قبل أن يظهر عليه يقول بخلاف ما يبطن فعلم بالظهور عليه خبث باطنه، وهؤلاء قوم يسمون الباطنية لم يزالوا من قديم الزمان ظلالا في الأمة معروفين بالخروج عن الملة يقتلون من ظهر عليهم وينفون من الأرض، وعاداتهم التمصلح والتدين وادعاء التحقيق وهم أسوأ طريق، فالحذر كل الحذر منهم فإنهم أعداء الله وشر من اليهود والنصارى لأنهم قوم لا دين لهم يتبعونه، ولا رب يعبدونه وواجب على كل من ظهر أحد منهم أن ينهى أمره إلى ولاة المسلمين، يحكموا فيه حكم الله تعالى، ويجب على من ولي الأمر إذا سمع بهذا التصنيف البحث عنه وجميع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدب من أتهم بهذا المذهب أو ينسب إليه أو عرف به على قدر قوة التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه".[23]

قصارى القول فإن مصنفاته لاقت كل احترام وتقدير، وحظيت بعناية فائقة من قبل أهل العلم، وهي تعبر بحق عن مكانته العلمية، وتضلعه في ألوان متعددة من المعرفة، إذ لم يكن فقيها فحسب بل أديبا وشاعرا ومؤرخا، فأثرى بعلمه الواسع الحياة الفكرية بإسهامات معتبرة في حقل التدريس والتأليف، واستحق بذلك أن يلقب بمالك الصغير على حد تعبير أحد الفقهاء.[24]

واستمر إسهام أسرة شرف الدين الزواوي بتولي ابنه علي مشيخة الزاوية المالكية، وكان قد تلقى علومه الأولى على يد والده ثم على برهان الدين الصفاقسي والشيخ برهان الدين الرشيدي علوم عدة، وسمع من تقي الدين الدلاصي وابن القماح وابن حيان وغيرهم.[25]

ودخل دمشق ولقي بها خيرة العلماء والفقهاء كالإمام المزي والعلامة البرزالي والحافظ الذهبي، وسمع بالقدس من الحجار وزينب بنت كمال المقديسية.[26]

ولما استوى عوده وبلغ درجة كبيرة من النضج العلمي، تصدر للتدريس بالزاوية المالكية فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، ثم غلب عليه التصوف وظهرت فضائله فمال إلى الزهد والتقشف، وحج غير مرة وجاور بالمدينة مدة ثماني سنوات، ومع ذلك استمر نفعه فجلس يعلم الناس في الروضة الشريفة وقد ازدحم على حلقات دروسه عدد من العلماء والصلحاء[27]، لكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر أين واصل في أداء رسالته التربوية في تعليم النشء إلى أن توفي سنة 769هـ/1370م.[28]

ومع أنه لم يجار أبيه في حقل التأليف إلا أن ولده شمس الدين الزواوي الذي شغل منصب ناظر لأوقاف المالكية بمصر كان خير خلفا لوالده،[29] و لم يكن الفقيه سراج الدين بن القاضي شرف الدين الزواوي أقل شأنا من أخيه علي في مجال الدراسات الدينية، إذ يصفه أحد المؤرخين بالفقيه المالكي رغم قصر حياته العلمية إذ توفي في ريعان شبابه سنة 738هـ/1339م وعمره لم يتجاوز الثلاثين.[30]

ونستنتج من حصاد ما سبق الجهود الرائدة التي قدمتها أسرة أحد الزواويين في مجال الدراسات الفقهية، نافسوا بها فقهاء الشافعية واسترجعوا للمذهب المالكي هيبته ومكانته في المجتمع المصري.

والملفت ونحن نتحدث في هذا الموضوع أن بعض العلماء الزواويين كما هو الشأن لبعض المغاربة والأندلسيين، تحولوا عن المذهب المالكي إلى الشافعي أو الحنفي بشكل خاص، وهذه الظاهرة تبدوا غريبة ومثيرة للتساؤل، وذلك من منطلق تمسك المغاربة بمذهب مالك.[31]

وقد غزا أحد الباحثين حالة العوز والفقر التي كان يمر بها هؤلاء وخاصة فئة العلماء لاسيما وأن الأوقاف العلمية من (مدارس وزوايا وخوانق) كانت تختص كل واحدة منها بمذهب معين يشترط فيها على كل واحد

من هؤلاء أن يكون على دراية واسعة بمذهبه في الأصول والفروع معا، وبعملية حسابية واستنادا لما ذكرته المصادر التاريخية فإن الأوقاف المالكية لم يكن بمقدورها استيعاب كل الأطر الدينية للمذهب المالكي، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى اختيار أحد الأمرين:

– إما البقاء على المذهب الأصلي ويعني ذلك الاستمرار في معاناتهم، أو التحول إلى أحد المذاهب الثلاث (الشافعي، الحنبلي، الحنفي) تماشيا مع الوضع، فكان الاختيار الأخير موفقا إلى أبعد الحدود وتمكن بعضهم من الوصول إلى أعلى المراتب وعلى مستوى خط واحد مع علماء البلد الأصليين، ومنه نستنتج أن حالة العوز المادي كانت دافعا قويا لتبرير التحول عن المذهب المالكي، وبعبارة أخرى فإن هؤلاء العلماء أجادوا "التكتيك والمناورة" وحققوا ما كانوا يطمحون إليه دون أن يتعرضوا للدين بضرر أو نقصان[32].

ومن القرائن الذي تزكي هذا التخريج أن الفقيه محمد بن إبراهيم بن يحي بن منصور بن يحي ابن عيسى الزواوي (ت 683 هـ/1284م) تحول عن المذهب المالكي إلى الحنفي وشغل إماما للمدرسة اليازكوجية بمصر يدرس الفقه الحنفي، [33] ومثله أيضا العلامة محمد بن حسن صارم ابن سعيد بن سالم أبي عبد الله ويعرف بالقبائلي الذي تحول إلى الشافعية وكان مالكيا.[34]

والملاحظ أن تحول هذين العالمين عن مذهبهما ربما كان تأسيا بالنحوي ابن معطي الزواوي (ت628 هـ/1231م) الذي سبقهما إلى المذهب الحنفي كما سيأتي ذلك في باب الدراسات اللغوية، ومع ذلك لم يؤثر هذا التحول في بقية الفقهاء الزواويين الذين بقوا أوفياء لمذهبهم الأصلي كما هو الشأن بالنسبة للعلامة الحسن بن عبد الله المليكشي الذي شغل معيدا بالمدرسة الناصرية، يقرأ الناس الفقه المالكي إلى أن توفي سنة 778هـ/1380م.[35]

ومثله أيضا تقي الدين الزواوي (ت ق 8 هـ/14م) الذي نذر نفسه للتعليم، فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم،[36] وأسهم سليمان بن أحمد بن سليمان بن راشد السالمي الزواوي (ت810هـ/1411م) بجهود رائدة في هذا الحقل الديني وكان معدودا من كبار الفقهاء المالكية.[37]

واستفاد طلبة القاهرة من التجربة العلمية ليحي بن موسى الزواوي التي حصلها في شتى فروع المعرفة بمجالسة العلماء أمثال الجمال الأسنوي والأكمل محمد بن محمود بن أحمد، فأجاز عدد كبير ممن أخذ عنه بشهادة ابن حجر العسقلاني الذي أكد أنه وقف على إجازة بخط يديه في حدود سنة771هـ/1337م.[38]

وتساوى معه في الفضل العلامة يحي بن يحي الزواوي من أعلام القرن الثامن الهجري/الرابع ميلادي الذي ذاع صيته في الديار المصرية من خلال نشاطه التعليمي[39]، وهو نفس الدور الذي لعبه كل من مجد الدين الزواوي الذي فاق أقرانه من العلماء وبخاصة في علوم القرآن،[40] والعلامة جمال الدين محمد بن مسعود ابن صالح الزواوي الذي كان أحد شيوخ البلوي[41].

ولعل أبرز هؤلاء جميعا العلامة أبو الفضل المشذالي الذي أسهم بجهود رائدة على غرار ما قام به في تلمسان وقسنطينة وعنابة من مدن المغرب الأوسط، لما أظهره من نبوغ وتفوق حتى قيل أنه لم يكن مثله من المغاربة والأندلسيين في المشرق خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر ميلادي من حيث ثقافته الموسوعية.[42]

فقد قضى معظم حياته متنقلا بين مختلف الحواضر المشرقية، كدمشق والحجاز وأقام بالقدس مدة يقرأ الناس الفقه والحديث والعربية، ثم استوطن مصر وجلس للتدريس بالجامع الأزهر فبهر العقول وأدهش الألباب،[43] ويؤيد هذا ما أشار إليه الشهاب الأبدي في الرسالة التي بعث بها إلى والده جاء فيها: «إن الله خول سيدنا وملاذ أنفسنا أبا الفضل ولدكم الأسعد من الفتوح الإلهية والمنن الربانية مما امتحنه صالح دعائكم وحسن طويتكم واعتقادكم أن جعله الله بحر العلوم زاخرة، وعنصرا لفضائل فاخرة، ومحاسن متوالية متضافرة... أبكت ذوي العقول، وحج أصحاب المعقول والمنقول، فدانت له المملكة المصرية والأقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية»، وظهر للناس على أنه مدرس قد يصعب على الطلبة الضعاف فهم ما يقول حتى قالوا له يوما: تنزل لنا في العبارة فإننا لا نفهم جميع ما تقول، فرد عليهم: لا تنزلوني إليكم بل دعوني أرقيكم إلي.[44]

وقد علق أحد العلماء ممن كان يحضر دروسه بالمنصورية والأزهر قوله: «ظهر لي أنني ما رأيت مثله ولا أرى هو مثل نفسه فمن لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأي الناس بل ولا خرج إلى الوجود مثله»،[45] وقد أكد ذلك الإمام السخاوي قوله: «سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعا من سماع مائة من غيره وهو آية أبرزه الله في هذا العصر للعباد لا يشبه كلامه في جزالته إلا كلام العرب العرباء».[46]

والجدير بالذكر أنه لم يكن الطلبة المبتدئين وحدهم ممن صعب عليهم فهمه بل حتى ممن كان يعد في مراتب العلماء وجد نفسه عاجزا على تحقيق ذلك، وهو يشير إلى ذلك بقوله: «هذا الرجل لا ينتفع بكلامه ولا ينبغي أن يحضر درسه إلا حذاق العلماء»،[47] وحسبنا أيضا أن برهان الدين البقاعي (ت 885هـ/1483م) ورغم تضلعه في علوم التفسير إلا أنه وجد نفسه مضطرا للأخذ عنه وقد أكد على ذلك بقوله:« كنت ممن أرشده إلى ما وضعت في التفسير من المناسبات بين الآيات والسور حيث أشار علي بضرورة أن أنظر الغرض الذي سيقت إليه السور وما يحتاج إلى الغرض من المقدمات ومراتبها في القرب والبعد من المطلوب»،[48] وهي شهادة تقيم الدليل عن مكانته العلمية وإلمامه الواسع بعلوم عصره من جهة، وبروزه كمدرس بارع وأستاذ لا يجارى في طريقته التعليمية وأساليبه المبتكرة في ميدان التدريس، هذا إلى جانب عدد ممن تخرج على يده من الطلبة أمثال عالم الحجاز البرهان بن ظهيرة وابن قاضي عجلون الدمشقي والكمال ابن أبي شريف المقديسي والشريف البيجوري المصري.[49]

ولم يكن علم الدين بن سليمان الزواوي أقل شأنا من سميه أبو الفضل في مجال التعليم، فعلى الرغم من حياة اليتم الذي ذاق مرارتها منذ طفولته الأولى بعد وفاة والده قبل مولده بشهر إلا أن ذلك لم يمنعه من طلب العلم وتحصيله، فجلس أول الأمر لعلماء مصر ثم زار بلاد الحجاز والشام، فأخذ الفقه والأصول عن العبادي والمناوي، ودرس الفرائض والحساب والفقه والأصول على يد العلاء الحصني والسيف الحنفي، ولازم الشهاب الحجازي وأخذ عنه الكثير من علومه وأجازه عدد كبير من العلماء منهم الإمام السخاوي، وبعد أن استكمل تحصيله العلمي عاد إلى مصر وانتصب للتدريس فانهال عليه طلبة العلم من كل ناحية مشيدين بغزارة علمه ونبل أخلاقه، قال عنه السخاوي: «كان قوي الذكاء سريع الحركة طارح التكلف».[50]

ونستنتج من حصاد ما سبق بأن فقهاء زواوة كان لهم نشاطا مميزا في ازدهار الدراسات الفقهية، وبخاصة الفقه المالكي الذي تدعم وجوده أكثر في وسط المجتمع المصري، الذي كان غالبية أفراده إما أحناف أو شافعية،[51] ولعل الفضل في ذلك يعود لما بذله هؤلاء العلماء الذين أشادت المصادر بكفاءتهم العلمية والمهنية بعد أن نجحوا في تأطير لفيف من طلبة العلم.

ب – في علوم الحديث:

أما عن إسهاماتهم في علم الحديث، وإن أحجمت كتب التراجم والطبقات عن ذكر العديد من أسماء المحدثين الزواويين، إلا أنها حفظت لنا اسمين ممن صنفوا من كبار الحفاظ لما تميزوا به من نبوغ فكري وعمق تحصيلهم في هذا الشق من الدراسات الدينية، وإن كنا نسلم بأن معظم الفقهاء الذين سبق ذكرهم كانوا على درجة كبيرة من الحفظ للحديث النبوي.

وأولهم محمد بن علي بن إسماعيل الزواوي بدر الدين (ت 775هـ/1376م) الذي تلقى علومه أول الأمر ببجاية، ثم رحل إلى المشرق ودخل القاهرة فسمع من ابن الشحنة (ت 762هـ/1364م) وست الوزراء (ت 716هـ/1318م)[52] صحيح البخاري ولما علا علمه تصدر للتدريس بالجامع الأزهر يقرأ الناس الحديث وقد تخرج على يديه عدد كبير من طلبة القاهرة.[53]

أما الثاني فهو أحمد بن صالح خلاصة شهاب الدين الزواوي (ت 855هـ/1457م) فإلى جانب تضلعه في علم الحديث، كانت له مشاركة واسعة في الدراسات الفقهية فجلس للتدريس بالجامع الأزهر وأجاز عددا من طلابه منهم الإمام السخاوي.[54]

ج– الدراسات الأدبية واللغوية:

تؤكد المصادر التاريخية لاسيما – المشرقية منها– في الفترة موضوع البحث أن مصر كانت تعج بكبار الأدباء واللغويين، لكن رغم كثرة أهل الاختصاص في هذا المجال ممن ازدانت بهم مجالس العلم في مصر والقاهرة إلا أن ذلك لم يمنع من بروز أسماء من علماء زواوة، الذين شاركوا بدورهم في ازدهار الحياة الفكرية، إذ لم يقتصر نشاطهم العلمي على التدريس فحسب بل تعداها إلى حركة التأليف والتصنيف الأمر الذي جعل منهم فئة أكثر نفعا وإيجابية.

ولعل أبرز هؤلاء العلماء على الإطلاق أبي الحسين زين الدين أبو زكريا يحي بن عبد المعطي ابن عبد النور (ت 628هـ/1231م) أصله من آيتفراوسن إحدى فروع قبيلة زواوة، أخذ العلم عن مشائخ بلده وتفقه بالمذهب المالكي على يد أبي موسى الجزولي،[55] ثم انتقل إلى مصر فتشفع لكنه لم يلبث أن تحول عنه إلى مذهب الحنفية كما فعل غيره من الأعلام،[56] وسكن دمشق أين حظي طلبة العلم برعاية، خاصة من قبل الولاة والأمراء بما رصدوه من جوائز معتبرة لكل من يحفظ كتابا علميا،[57] فأخذ عن أعلامها وسمع من الحافظ بن عساكر وحصل معارف شتى من فقه وحديث وأدب ونحو وشعر،[58] ثم جلس لإقراء النحو فانتفع به خلق كثير وأطبقت شهرته الآفاق فلا يكاد يخلو مجلس من مجالس العلم إلا وذكر فيها اسمه، لأجل ذلك ولاه الملك الأعظم (ت624هـ/1203م) مصالح الجامع الأموي والمشيخة العلمية فيه،[59] ثم أن الملك الكامل رغب إليه في الانتقال إلى القاهرة، وكان قد حضر إحدى جلساته العلمية فأعجب بنبوغه الفكري وتضلعه الفائق في علوم اللغة،[60] فأجابه الشيخ لذلك وهناك تصدر لإملاء الأدب وتدريسه بالجامع العتيق،[61] فالتف حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه وأقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وأدبه فأخذوا عنه علما كثيرا وأدبا جما، ولعل أبرزهم كان الحافظ المحقق زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت 656هـ/1258م) صاحب كتاب "الترغيب والترهيب في الحديث النبوي"،[62] وقد أجمعت المصادر التاريخية أن شهرة ابن معطي لا تعود فقط لقدرته على إدارة مجالس العلم، بل إلى مصنفاته المبدعة والمبتكرة في مجال النحو وعلوم اللغة منها: الدرة الألفية التي كانت فاتحة مؤلفاته العلمية في هذا المجال، وجاءت في ألف وواحد وعشرين بيتا وبدايتها:(السريع)

يقول راجي ربه الغفور ... يحي بن معط بن عبد النور
الحمد لله الذي هدانا ... بأحمد دينا له ارتضانا
فلم يزل ينمى به الإسلام ... حتى استبانت للهدى أعلام
مؤيدا منه بخير الكتب ... وحيا إليه بلسان عربي
لكونه أشرف ما به نطق ... كما الرسول خير مخلوق خُلِقَ[63]

وقال في ختامها: (المتقارب)

تحويه أشعارهم المروية ... هذا إتمام الدرة الألفية
نظمها يحي بن معطي المغ ... ربي تذكرة وجيزة للغرب[64]

وقد اتسم هذا النظم بشكل فريد من نوعه لم يسبقه إليه أحد من شعراء العرب، بحيث نظمت من بحرين أحدهما الرجز والثاني السريع:

الأول: مستفعلنمتفعلنمستفعلن

الثاني:مستفعلنمستفعلنفعولات[65]

وتقع في حوالي تسعين بابا.[66]

ولعل أهمية هذا المصنف ليس بكونها من المؤلفات المبتكرة في الأدب العربي فحسب، بل لما كان لها من عظيم الأثر في ازدهار الدراسات اللغوية وظهور المصنفات النحوية الرائدة، إذ لا يستبعد أن يكون ابن مالك

قد استوحى منظومته النحوية من ألفية ابن معطي، لأنها جاءت على النحو الذي اتبعه ابن معطي من حيث المنهج واستخدام القافية والألفاظ، ومما يزكي هذا التخريج أن ابن مالك نفسه اعترف بفضلها بقوله:«فائقة ألفية ابن معطي»،[67] وحسبنا دليلا ما قال به بعض ممن نظر في الألفيتين معا وقارن بينهما وأكد أنه من باب الإنصاف القول: «أن نظم ابن مالك أجمع وأوعب ونظم ابن معطي أسلس وأعذب».[68]

هذا إلى جانب مظاهر القبول والاستحسان الذي لقيته من لدن أهل العلم، فقد قرؤوهاوأقرءوها ونظموا في مدحها، من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي في قوله: (الرجز)

يـا طالـب للنحـو ذا اجتـهاد ... سمـوا بـه فـي الـورى وتحيـا
إذا شئـت نيـل المـراد فأقصد ... أرجـوزة الإمـام يحـي[69]

وقد ازدادت أهميتها لكثرة المنتفعين بها من العلماء والنحاة أمثال شعبان بن محمد بن داوود ابن علي المصري (ت 828هـ/1430م)، وعبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني (ت880هـ/1482م) والإمام السيوطي (ت 911هـ/1512م)، حيث جمع ألفية ابن مالك وابن معطي في ألفيته.[70]

وقد لا نجافي الحقيقة إذا قلنا بأن ألفية ابن معطي صارت في نظر العديد من اللغويين النموذج الأمثل التي يستأنس بها في الدراسات النحوية لما احتوته من معارف علمية، ساعدت في تطور هذا الفن، وليس غريبا أن يكون إقبال الكثيرين من الطلبة على شرحها انطلاقا من هذا الواقع،[71] باعتبارها من المؤلفات المبتكرة في هذا الميدان،[72] بالإضافة إلى جملة من المؤلفات التي أغنى بها المكتبة العربية بعضها لا يزال مخطوطا منها: كتاب الفصول، وكتاب العقود، والقوانين في النحو، وحواشي على أصول ابن سراج في النحو، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو، وشرح لأبيات سبويه نظما وله نظم على كتاب الجمهرة لابن دريد في اللغة وآخر في العروض، وله قصيدة في القراءات السبع، وديوان خطب، وكتاب المثلث، وأرجوزة في النحو بلغت عشرة آلاف بيت.[73]

ومن مقتطفات شعره قصيدة طويلة مدح فيها الملك الأمجد صاحب مدينة بعلبك منها قوله: (الكامل)

ذهب الشبـاب ورونق العمر الشهي ... وأتى المشيـب ورونق النور البهي
وجـلا بـه ليـل الذؤابة فجـره ... وأتـى بنـاه مـن نهـاه ممـتوه
وأطار نسـر الشيب غربـان الصبا ... فنعـين فـي إثـر الشباب المنتهى
ووهبت قوى الآمـال منه وما وهت ... همم أبين على الحـوادث أن تهي
ما أنس لا أسـى اللوي وتنعمي ... فيه بجرده الحسـان الأوجـه[74]

ومجمل القول أن ابن معطي الزواوي كان له إسهام كبير في ازدهار الدراسات النحوية واللغوية، سواء من خلال نشاطه التعليمي أو مصنفاته الأدبية التي لاقت رواجا كبيرا في مختلف الحواضر المشرقية.

د- في مجال التصوف:

قدر لمصر حاضرة الدولة الأيوبية والمملوكية، أن تحتضن أعدادا كبيرة من صوفية المغرب في ظل التسابق المحموم بين رجال الدين والسياسة في وقف الربط والزوايا والخانقاهات على هؤلاء الزهاد.

والواقع أن تيار التصوف بدأ يشق طريقه نحو الانتشار والازدهار على يد صلاح الدين الأيوبي الذي كان هو نفسه صوفيا،[75] إذ بادر أول الأمر تهيئة عمائر الزهاد المتصوفة وحول سنة 569هـ/1173م دار سعيد السعداء[76] بالقاهرة لتكون مركزا لتجميع الطرق الصوفية الواردة من المشرق والمغرب[77] ورتب لهم كل يوم طعاما ولحما وخبزا وكانت أول خانقاه عملت بالديار المصرية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ.[78]

وفيما يبدو أن وصول عدد من أقطاب التصوف إلى مصر في عهد المماليك أسهم بدوره في إذكاء النزعة القديمة في روح الحضارة المصرية باعتبارها فرعا للنزعة العميقة التي تقود إلى التصوف والتدين، وظهرت على إثرها طرق محلية منها البدوية[79] والدسوقية[80] ناهيك عن بعض الأسماء التي أثرت في اتجاه الحركة الصوفية كابن فارض (ت632هـ/1234م) وأبو القاسم القباري (ت662هـ/1264م) وعبد الرحيم القنائي (ت592هـ/1195م) وأبي الحسن الصباغ (ت613هـ/1216م).

وبناء على ما تقدم يمكن أن نجمل الأسباب التي ساعدت على انتشار التصوف بمصر إلى جانب ما ذكرناه فيما يلي:

أولا: التهميش والإقصاء للعنصر العربي من إدارة الجيش.

ثانيا: مظاهر التفسخ الأخلاقي والتساهل من لدن بعض العلماء والفقهاء في مجال الفتيا لصالح رجالات الدولة وأصحاب النفوذ، وهو ما عبر عنه تاج الدين السبكي قوله: «فمنهم من يسهل أمر الشرع ويتنامى إلى أن يفتي ببعض ما لا يعتقده من مذاهب لبعض الأمراء ما لا يرخص فيه لعموم الخلق».[81]

ثالثا: الحروب المتكررة مع الفرنجة.

رابعا: رواج بيوت المزارات والخانات واستشراء ظاهرة الفساد وانتشار الحشيشة.

خامسا: توالي الكوارث الطبيعية من جفاف وأوبئة والتي مست شريحة عريضة من المجتمع وأفرزت واقعا اقتصاديا، ساعد كثيرا في رواج الفكر الصوفي، إذ التمس عند رجالاته عزاء التخفيف من وطأة الضغوط المعيشية والتحولات السياسية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع المصري.[82]

ومهما تعدد الطرق والأسباب التي ساعدت في تغذية الحركة الصوفية بمصر إلا أنها سارت على النهج السني الذي انتشر على يد المتكلم الأشعري أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ/1105م)، فقد رفضوا الفلسفة طريقا لليقين، وآثروا عليها التصوف الذي يقوم على عقيدة أهل السنة والجماعة،[83] وهو نفس التقليد الذي كان عليه صوفية زواوة الذين دخلوا مصر، ويأتي في مقدمة هؤلاء محمد بن يحي بن فائد أبي عبد الله الزواوي (ت 631 هـ/1231م) وكان من الصلحاء المشهورين الذين انقطعوا لتدريس العلم، وانتفع به عدد ممن كانوا يترددون على مجالسه منهم تقي الدين المنذري، ولما تقدم به السن آثر الخلوة واعتزل الناس وسكن القرافة[84] إلى أن توفي بها.[85]

ومن الزواويين أيضا علي بن عيسى بن مسعود الزواوي (ت 769هـ/1370م) الذي كان قد تلقى علومه أول الأمر عن أعلام بجاية، ثم رحل إلى مصر طلبا للاستزادة فجلس لخيرة علمائها ثم انساق في تيار التصوف، فكان من جلة العلماء زهدا وورعا مجاب الدعوة كثير الكرامات.[86]

وأسهم سَمِيُهُ الصوفي عيسى الزواوي (ت 778هـ/1378م) نزيل خانقاه سعيد السعداء في تعليم المبتدئين الفرائض والحساب وأوقف كل ما كان يملكه من كتب على طلبة العلم.[87]

واقتفى الشيخ الصالح أحمد الزواوي أثر أقرانه في تعليم النشء، قال فيه المناوي في طبقاته "كان عابدا زاهدا، جزل الألفاظ، لطيف المعاني، يفعل بقوله في النفوس ما لا تفعله المثالث والمثاني"،[88] و لم تتوقف همته العلمية عن حلقات الذكر والدرس، بل نذر نفسه للإصلاح الاجتماعي لما كان يتمتع به من مكانة وتقدير بين أفراد المجتمع، وحسبنا دليلا على ذلك أنه أوقف فتيل الحرب التي كادت أن تقع بين أحد أمراء المماليك وحاكم دمنهور.[89]

وأسهم خليفة بن عبد الرحمن الزواوي (من أعلام القرن 9هـ/15م) في ازدهار الحركة العلمية من خلال تعدد مجالس الوعظ والذكر التي كان يعقدها لطلبة العلم بعدد من الزوايا والخوانق الصوفية،[90] وهو نفس الدور الذي اضطلع به حمزة بن عبد الرحمن بن حسن الزواوي (ت 902هـ/1502م) الذي رحل إلى الحجاز حاجا، ثم مال إلى التصوف وجاور الحرم المكي مدة، ثم نزل مصر وسكن بخانقاهالشيخونية يقرأ بالمدرسة القمحية العربية والتصوف.[91]

والجدير بالذكر في هذا الباب أن دور صوفية زواوة تجلى أكثر فيما بذلوه من جهود ليس فقط في ازدهار الحركة الصوفية، وإنما في نشر تعاليم ومبادئ الطريقة الشاذلية بالديار المصرية، ونلمس ذلك في الدور الذي قام به

شرف الدين قاسم بن عمر الزواوي وسَمِيُّهُ محمد من خلال خدمتهما لضريح تاج الدين بن عطا الله الأسكندري الشاذلي، فعملا على استقطاب عدد كبير من الزوار المريدين،[92] وآزروا في ذلك العمل الذي قام به أبو العباس الزواوي مع أهل أشموم بالترويج لمبادئ وأفكار الطريقة.[93]

ونستنتج من خلال هذا العرض أن معظم الشيوخ الصوفية من الزواويين كانوا أكثر نفعا لما قدموه في مجال الحركة العلمية، وإن كانت إسهاماتهم على أشكال وطرق مختلفة عكس ما ذهب إليه أحد الباحثين الذي وصفهم بالسلبية والخمول، وأنهم شكلوا عبئا على الدولة وتأثيرهم الضار على أفراد المجتمع من خلال تقديس الناس لأصحاب هذه الطرق.[94]

ومجمل القول فإن المتتبع لما جاء في هذا الفصل يدرك بوضوح مدى إسهامات هذه الفئة من علماء زواوة في ميدان الثقافة والفكر بالديار المصرية كل حسب تخصصه، وهي صورة تعكس بحق التعاون الجاد في ظل الرعاية التامة التي أحاطها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك برجالات العلم والفكر الوافدين إليهم من مختلف حواضر العالم الإسلامي، وقد شارك الزاوويين غيرهم من العلماء المغاربة والأندلسيين في تنشيط حلقات الدرس والتأليف، وقد بلغ اهتمامهم بالحركة الفكرية إلى أعلى درجات الحرص، يؤيد هذا ما ذكره أحد العلماء أن هناك قبورا بمدينة القاهرة في محلة القرافة كانت تسمى ب"قبور المغاربة اللواحين" وقد أخذوا هذه التسمية من خلال تقديمهم الألواح التي كانوا يصنعونها بأيديهم للطلاب في أماكن تعليمهم ودراستهم دون مقابل تشجيعا منهم للثقافة والعلم.[95]

ثانيا– إسهاماتهم في الأندلس:

قبل أن نستعرض إسهامات علماء زواوة ونشاطهم العلمي في الأندلس، يجب أن نشير في بادئ الأمر أن كل المعطيات السياسية والاقتصادية التي كان يعيشها هذا الركن الغربي من العالم الإسلامي، في الفترة موضوع البحث لم تكن تشجّع طلبة العلم أو تستهوي الراغبين في الوظيفة، بل على العكس تماما ذلك أن المصادر التاريخية تتحدث عن هجرة عكسية من الأندلس باتجاه مختلف الحواضر المغربية والمشرقية[96]، لاسيما وأنها تزامنت مع خصوصية المرحلة التي كانت تمر بها شبه الجزيرة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1080م، إذ لم يعد المناخ السياسي والفكري يساعد على الاستقرار، وحسبنا أن موقف الشاعر ابن رشيق (ت456هـ/1056م) قد عكس حالة من اليأس والتذمر نتيجة لما آل إليه الوضع عصرئذٍ وعبر على ذلك بقوله: (الكامل)

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاضا صولة الأسد[97]

لا جدال أن الصرح السياسي الذي بناه بنو أمية (138– 422هـ/786– 1030م) قد أصيب بنكسة قاصمة بظهور دول الطوائف، وأدى بشكل سلبي ومأساوي إلى شيوع الفتن والاضطرابات وانتشار الفساد الذي كان مؤشرا قويا عجل بانهيار الحضارة والعمران حسب تفسير ابن خلدون.[98]

وتقوم شهادة ابن بسام الشنتريني (ت542هـ/1145م) دليلا إضافيا عن حالة التردي الاقتصادي الذي كانت تعاني منه بعض المدن الأندلسية جراء عمليات النهب والاستغلال، فجميع ما كان يمتلكه المسلمون من الثروات والغلات والاعتمالات، وما يكتنزونه من المؤن والذخائر صادرتها جيوش النصارى المتغلبة على تلك البلاد[99]، هذا دون احتساب الأثر الديموغرافي الذي تخلفه مثل هذه الاعتداءات.

ولعل ما زاد من تأزم الوضع الاقتصادي – التناحر الدامي – بين ملوكها، الذي أغرق البلاد في أتون حرب لم تجلب لصانعيها إلا الدمار كما عبر عن ذلك أحد الباحثين،[100] مما أضعف كيانها وقدرتها في مواجهة حركة المد المسيحي، لذا لم يتردد أحد المؤرخين في تشبيه أمرائها بالضرائر المترفات أو بالعشائر المتغايرات لما كانوا عليه من التحاسد والتنافس والغيرة،[101] حتى تغلب بعضهم على بعض وضعف أمرهم وأعطوا الإتاوة إلى ملوك الفرنجة.[102]

ولم تفلح جهود يوسف بن تاشفين (453– 300هـ/1061– 1107م) الذي عبر بقواته إلى شبه الجزيرة بعد الانتصار الذي حققه في معركة الزلاقة (479هـ/1086م) من إعادة اللحمة بين أمرائها[103] لعمق الخلافات

السياسية بين دولها، وللغاية نفسها تطلع خلفاء الدولة الموحدية لإنجاح هذا المشروع، غير أن طموحهم هذا وإن نجح لبعض الوقت إلا أنه لاقى نفس المصير بسبب الظروف التي أحاطت بالدولة – فيما بعد– وأجهضت فكرة تحقيق الوحدة بين العُدْوتين[104]، فكانت موقعة الأراك سنة (590هـ/1190م) [105] آخر معركة ينتصر فيها الموحدون على النصارى الأسبان إذ توالت عليهم الهزائم استنزفت مواردهم الاقتصادية وإمكاناتهم العسكرية، كانت آخرها معركة العقاب[106] سنة 609هـ/1212م Las navas de tolosa التي شكلت بدورها محطة مفصلية بين عهدي القوة والضعف،[107] وكشفت النقاب عن عمق الوهن السياسي الذي أصاب ملوكها الذين عجزوا في التصدي "لحروب الاستيراد" "Reconquista"لأسبانيا الإسلامية، إذ بدأ سقوط دول الطوائف تباعا منذ أوائل القرن 7هـ/13م منها بلطليوس (622هـ/1225م) ميورقة (627هـ/1230م) قرطبة (633هـ/1236م) شاطبة (635هـ/1238م) مرسينة (640هـ/1243م) قرطاجة (643هـ/1245م) أشبيلية (646هـ/1248م). [108]

ومع ذلك لا يجب أن يفهم من أن كل المدن الأندلسية قد خضعت دفعة واحدة لحملات النصارى الأسبان، بل أن منها – وإن قل عددها– كان لها من الإمكانات العسكرية والمادية ما عطلت به مشروع الاستلاب المسيحي، كمدينة المنكب، المرية، غرناطة وما جاورها من القرى.

وقصارى القول ودون أن نعاود التعمق فيما سبقنا إليه بعض الباحثين، فإن ما قدمته من شواهد وقرائن تاريخية ما هي في الحقيقة إلا ترجمة أمينة لمختلف المظاهر السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في بعض جوانبها.

والسؤال المطروح وأمام كل ما قدمناه من معطيات: هل يمكن القول أن هجرة علماء زواوة إلى الأندلس كان من منطلق توسيع مداركهم العلمية بلقاء كبار الشيوخ؟ أم بحثا عن الوظيفة للاسترزاقنظرا للتوافق المذهبي بين العدوتين؟ لاسيما وأن بجاية كانت تعج بأمثالهم من الفقهاء وشيوخ الفتيا، أم نتيجة لضغوط تعرض لها هؤلاء اضطرتهم إلى مغادرة بجاية؟

والواقع أن ما توفره المصادر من مادة خبرية لا تقدم إجابة مفصلية لكل هذه الأسئلة، غير أن بعض الإشارات الواردة في ثنايا بعض النصوص فيها من الإيحاء ما قد يساعدنا على فهم الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هجرة هؤلاء الأعلام، دون أن نسقط من اعتبارنا ما كن يقدمه ملوك بني الأحمر في غرناطة من اهتمام بالأطر العلمية المغربية من بذل للأرزاق والجرايات.[109]

فباستثناء ما ذكره المراكشي (ت703هـ/1303م) في ترجمته لعمر بن محمد بن مخلوف التدلسي (ت628هـ/1228م) الذي دخل بلنسية طالبا للعلم،[110] فإن معظم المترجم لهم من الزواويين – على قلتهم – وفدوا إليها لظروف خاصة أو استثنائية، فأبي محمد الزواوي من أعلام القرن 8هـ/14م الذي عانى من الرقابة التي كان يفرضها الولاة الحفصيون على نشاطه العلمي، غادر بجاية مكرها إلى الأندلس فدخل المرية وحلق بجامعها للتدريس، فانتفع به عدد كبير من طلبة العلم[111] منهم ابن جابر الأندلسي.[112]

ومثله أيضا محمد بن يعقوب بن يوسف المنقلاتي (ت730هـ/1331م) الذي كان واحدا من ضحايا النظام الحفصي، نتيجة لما لحق به من إهانات بعد عزله من منصبه في القضاء، فآثر الانتقال إلى المرية سنة 715هـ/1315م – ليتجاوز المحنة التي ألمت به– وجلس بإحدى مساجدها يقرئ الناس الفرائض من مختصر ابن الحاجب[113]، وقد أشاد علماء الأندلس بأدبه وفضله وعمق تحصيله وتبحره في كثير من الفنون لاسيما منها علم الفروع.[114]

وعلى غرار ما عاناه بعض رجالات العلم من تعسف وإقصاء من قبل السلطة الحفصية إلا أن ما تعرض له عمر بن علي المليكشي (740هـ/1340م) في معتقله ببجاية يعد مأساة حقيقية – حسب رواية ابن الخطيب (ت776هـ/1376م) – بعد أن اتهم في بعض القضايا لم تفصح المصادر عن طبيعتها، فاضطر بعد خروجه من المعتقل إلى التوجه إلى غرناطة سنة 718هـ/1318م حيث أكرم السلطان إسماعيل الأول (713– 725هـ/1315– 1325م) وفادته وانتدبه للعمل تحت جراية واسعة.[115]

أما أبي علي منصور الزواوي (ت770هـ/1370م) الذي دخل الأندلس سنة 753هـ/1353م وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد أسباب هجرته، إلا أن المصادر التي ترجمت لسيرته العلمية أشادت بدوره في تنشيط حلقات الدرس،[116] وحسبنا أن الفقيه ابن الفخار (ت760هـ/1360م) اضطر أن يتنازل له عن موضع درسه، ويحلق مع بقية الطلبة للأخذ عنه، وأن الوزير ابن الخطيب – مع ما كان ما يتمتع به من مكانة سياسية وأدبية– إلا أن فضوله العلمي لم يمنعه من طلب الإجازة له ولأولاده، وقد حفظ لنا في إحاطته نص الإجازة التي منحه إياها شيخه جاء فيها: «وكتب الشيخ الأستاذ أبي علي يقول: أبو منصور بن علي الزواوي في رابطة العقاب[117] " كذا أجزت صاحبنا الفقيه المعظم أبا عبد الله الخطيب وأولاده الثلاثة عبد الله ومحمد وعليا أسعدهم الله جميعا ما يجوز لي وعني روايته".[118]

ومن تلامذته أيضا الفقيهين محمد بن يوسف أبي عبد الله المعروف بابن زمرك كان حيا سنة792هـ/1394م[119] وسميه أبي إسحاق الشاطبي (ت790هـ/1388م)[120] اللذان كانا من خواص مجالسه العلمية.

وتأتي أهمية مما ذكرنا من أمثلة للطلبة الذين أخذوا عن منصور الزواوي من باب التأكيد على الدور الذي بذله في تأطير الحركة الفكرية بمملكة غرناطة، لاسيما وأن المدينة كانت تشكوا حالة العوز للكوادر العلمية من ذوي المستوى العالي بعد عملية الإفراغ الديموغرافي لمعظم المدن الأندلسية نتيجة حروب الاسترداد.[121]

ومن الأعلام المهاجرين أيضا العلامة أبو سرحان الزواوي (803هـ/1405م) الذي قضى معظم حياته متنقلا بين الحواضر المغربية، زار منها مدينة سبتة، فاس، تازة، وتلمسان، ثم عبر إلى الأندلس واستوطن مدينة المنكب،[122] حيث أسندت إليه الإمامة والخطابة بمسجدها إلى جانب ما كان يعقده من مجالس لإقراء الفقه والفرائض.[123]

وقصارى القول أنه مهما تعددت الأسباب والظروف المحيطة بعلماء زواوة الذين هاجروا إلى الأندلس، إلا أن الرغبة في التواصل وتوثيق السند العلمي، تبقى من أقوى الدوافع التي أسست لهذا العمل الثقافي، الذي صار من التقاليد المتجذرة في الأوساط العلمية، ومن القرائن التي نسوقها للبرهنة على هذا الطرح أن العلامة ابن رشد الجد (ت520هـ/1120م) كانت تصله طلبات الإفتاء وبعض القضايا التي يثار حولها الجدل من بجاية، والقيروان، وسبتة، ومراكش،[124] وفي نفس السياق دلت مضامين كتب النوازل الفقهية عمق هذا الاتصال الوحدوي، فعادة ما نقرأ في الإجابات والتعقيبات العبارات الدالة على ذلك منها: وقد أفتى شيخنا... من الأندلس... ووردت فتوى... وقد أجاب عنها فقيه الأندلس، وبعث أهل المغرب،[125] وغيرها من الألفاظ التي تعكس حجم هذا التواصل الذي تخطى حدود الجغرافيا السياسية التي رسمها الحكام، ومن المفيد أن نذكر في هذا المجال أن إسهامات علماء زواوة في تكوين الأطر الأندلسية لم يتوقف على من هاجر إليها من الزواويين فحسب، فقد كشفت بعض كتب التراجم والرحلة عن أسماء لشريحة عريضة من طلاب العلم الأندلسيين الذين درسوا على علماء زواوة ببجاية، تلمسان، القيروان، وفاس.[126]

خـــاتمـــة

ونستنتج من حصاد ما سبق أن كل ما قدمناه من شواهد وقرائن تاريخية تفند في مجملها كل المقاربات الأنتربولوجية و الأثنولوجية التي روج لها رواد الطرح الكولنيالي الذي حاولوا جاهدين إبراز خصوصية سكان زواوة وانتمائهم العرقي للجنس الأوربي، هذا إلى جانب الرد على الطرح الذي تبنا رائد المدرسة الأنجلوسكسونسة أرنست غيلنر الذي صنف سكان قبيلة زواوة ضمن القبائل "الهامشية" التي لم تندمج في المنظومة العربية الإسلامية.

كما أن مظاهر التقدم الحضاري الذي عرفته مصر خاصة مدينة فيه لجهود علماء زواوة الذين كان لهم شرف الأستاذية لعدد كبير من الأطر الفكرية المصرية.

ببليوغرافيا

([1]) علي أحمد: الدور الفكري للأندلسيين و المغاربة في المشرق العربي، دار شمأل، دمشق، سوريا، 1995، ص ص106، 107.
([2]) الصفدي: عيان العصر و أعوان النصر تح علي أبو زيد و آخرون ،تقديم مازن عبد القادر مبارك ط1 دار الفكر دمشق سوريا ، مج3، ص 727؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط1، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد على ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ج3، ص 125؛ ابن فرحون: الديباج المذهبي معرفة أعيان علماء المذهب: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ، ص ص 183،182.
([3]) ابن حجر: المصدر السابق، ص 125؛ عبد الرحمن الجيلالي: : تاريخ الجزائر، د.و.م.ج ، الجزائر، 1982. تاريخ الجزائر، ص 172.
([4]) الصفدي: المصدر السابق، مج3، ص 727؛ الديباج، ص 183.
([5]) هو إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأخنائي، كان شافعيا ثم رجع مالكيا، ولي الحسبة ونظر الخزانة والقضاء سنة 763هـ /1365م، فاشتهر بعدله وسداد رأيه، لا يقبل وسيلة ولا شفاعة لأحد (ت 777 هـ/1377م)؛ انظر التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تح أبو يحيى عبد الله الكندري ط1 ، دار ابن حزم بيروت لبنان 2002 ص 60 ([6]) الديباج: ص183.
([7]) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج3، ص 125.
([8]) الصفدي: المصدر السابق، مج3، ص 728؛ ([9]) المدرسة المنكوتمرية، تقع بحارة بهاء الدين بالقاهرة، بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمرالحسامي نائب السلطان بمصر، فأكمل بنائها في صفر 698هـ/1298م، وعمل بها درسا للمالكية؛ انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مج4، تح: أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2003، ص 522.
([10]) الصفدي: المصدر السابق، مج3، ص 728.
([11]) نفسه، ص 728.
([12]) رغم كونه على المذهب الشافعي كانت روائع إنتاجه ودراساته الفقهية في الفقه المالكي منها كتابه الموسوم "بالتمهيد لما في موطأ من المعاني والأسانيد" في سبعين جزءا.
([13]) من مؤلفاته: كتابان في شرح الموطأ، الأول الاستيفاء، انتخب منه فوائد سماها "المنتقى" في سبع مجلدات، وله أيضا أحكام الفصول في أحكام الأصول، و"الإيماء"، ومختصر المختصر في مسائل المدونة، والإشارة في أصول الفقه، والحدود، والسراج في الخلاف.
([14]) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع: ج1، تح: خليل منصور، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص 353؛ لسان الدين ابن الخطيب: نفاضة الجراب في= =علالة الاغتراب: تح: مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.، ج1، ص 80.
([15]) ابن يونس: هو محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي التميمي، له جامع في الفقه اقتفى فيه أثر أبي زيد القيرواني في معظم تخريجاته، وهو كما قال القاضي عياض شرح كبير عن المدونة، انظر: محمد حسن شرحبيلي: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000، ص ص 436،435؛ وهو غير الفقيه ابن يونس أحمد بن موسى الموصلي (ت 622هـ 1227م)، انظر: الصفدي: المصدر السابق، مج3، ص 727.
([16]) الصفدي: المصدر السابق، مج3، ص 728.
([17]) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج3،ص 125.
([18]) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 183.
([19]) توجد منها نسخة في المكتبة السليمانية بإسطنبول؛ انظر عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ص 172.
([20]) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر13: تصدير فؤاد سيزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشاليكهارد نوبيارو: معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية ، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، 1982، ص 68؛ علي أحمد: الدور الفكري، ص 195.
([21]) حسن حسني عبد الوهاب: وصف إفريقية والمغرب والأندلس: مقتطف من مسالك الأمصار للعمري: نشر البدر تونس، بدون تاريخ، ص ص28، 29.
([22]) نفسه ص 10؛ القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص 144.
([23]) البقاعي (برهان الدين): مصرع التصوف أو تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي وتحذير العباد من أهل العناد: تح: عبد الرحمن الوكيل، ط1، مطبعة السنة المحمدية، 1953، ص ص 157، 158.
([24]) القرافي: : توشيح الديباج و حلية الابتهاج: تح: أحمد الشتيوي ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص 167.
([25]) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج3، ص 55.
([26]) هي زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بنت أحمد المقديسية المعروفة ببنت الكمال، ولدت سنة 646هـ/1250م، سمعت من محمد بن عبد الهادي وإبراهيم بن خليل، وخطيب مردا وأبي الفهم البلداني وغيرهم وكانت دينة خيرة، روت الكثير

وتزاحم عليها الطلبة وقرؤوا عليها الكتب الكبار، توفيت عن عمر ناهز التسعين سنة 740ه/1390م، انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج2، ص ص 69، 70.

([27]) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج3، ص 55.

([28]) نفسه، ج3، ص 55؛ ولعل من بين الكرمات التي رويت عنه والدالة على صلاحه وتقواه ما رواه ابن حجر في درره أن الشيخ عبد السلام بن سعيد بن علوان المالكي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبره بأن يقول لإبن الزواوي يتكلم غدا في موضع درسه بالروضة الشريفة.

([29]) نفسه، ج3، ص 55.

([30]) الجزري (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر): تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه مج3: تح عبد السلام التدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1981، ص 917؛ المقريزي: المقفى الكبير، مج 5، ط1، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص 543.

([31]) أجمعت النصوص الفقهية والتاريخية على شدة تعصب المغاربة للمذهب المالكي ربما وصل عند بعضهم إلى حد رفض المذاهب الأخرى وعدم التعايش معها، وهو ما أشار إليه المقديسي في تقاسيمه قوله: "وسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي... وكنت يوما أذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي فقال: أسكت من هو الشافعي إنما كنا بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب، أفتركهما ونشتغل بالساقية، ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي قالوا: أخذ العلم عن مالك ثم خالفه، وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم"، المقديسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: محمد محزوم، دار إحياء التراث بيروت، لبنان، 1987، ص 195؛ الونشريسي: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس و المغرب ، ج2، أخرجه جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص169.

([32]) علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص 130.

([33]) المقريزي: المصدر السابق، مج5، ص ص 62،63.

([34]) نفسه، مج 5، ص 543.

([35]) ابن حجر العسقلاني: إنباء العمر بأنباء العمر، ج1، ص73.

([36]) ابن حجر العسقلاني: إنباء العمر بأنباء العمر، ج3، ص 367.

([37]) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة بيروت، لبنان، بدون تاريخ ، ج3، ص 260.

([38]) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج4، ص 265.

([39]) الذهبي: معجم الشيوخ، ج1، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1997، ص 528.

([40]) الوادي آشي (أبي جعفر أحمد بن علي)، الثبت، ط1، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص383.

([41]) نفسه ص 192.

([42]) أحصى الإمام الشوكاني حفظه وإتقانه لاثنان وعشرون علما منا، الفقه، الحديث، القراءات، التفسير، الأصول، النحو، العربية، العروض والصرف، المنطق، المواقيت، الحساب، الفرائض، المقابلة، والهيئة والمرايا، والمناظرة والطب.

([43]) الشوكاني: المصدر السابق، ج2، ص 127.

([44]) نفسه، ج2، ص127.

([45]) نفسه، مج2، ص128.

([46]) السخاوي، المصدر السابق، مج10، ص231.

([47]) الشوكاني: المصدر السابق، ج2، ص128.

([48]) نفسه، ج2، ص128.

([49]) علي أحمد: الدور الفكري: ص ص300.

([50]) الضوء اللامع: ج3، ص260.

([51]) ابن خلدون: المقدمة،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص ص355، 356؛ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية، ج2، أطروحة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1995، ص433.

([52]) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج4، ص37؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بدون تاريخ ، ص166؛ وتعتبر ست الوزراء بنت= =عمر بن أسعد بن المنجا التنوخية الدمشقية، من أشهر المحدثات سمعت من أبي عبد الله عن الزبيدي مسند الشافعي وصحيح البخاري وحدثت بدمشق ومصر، وهي آخر من حدث بالمسند، توفيت سنة 716ه/1318م، انظر: ابن حجر: الدرر، ج2، ص78.

([53]) نفسه، ص58؛ القاضي شهبة: تقي الدين أبي بكر بن أحمد: تاريخ ابن القاضي شهبة، مج3،ج2 من المخطوط تح: عدنان دروس، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، سوريا، 1994، ص112؛ محمد بن أحمد كنعان: وفيات الأعيان والمشاهير (خلاصة تاريخ بن كثير)، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1998، ص457.

([54]) عادل نويهض: المرجع السابق، ص170.

([55]) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان: مج6، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977، ص197؛ عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج2، ص88.

([56]) تذكر المصادر التاريخية أن جملة من الأعلام تحولوا عن مذاهبهم الأصلية إلى مذاهب أخرى أمثال ابن مالك وابن حيان ومحمد بن الدهان النحوي والخطيب البغدادي الذي تحول عن المذهب الحنبلي وصار شافعيا، ومثله ابن فارس صاحب "المجمل في اللغة" الذي انتقل إلى المالكية وكان شافعيا، والفقيه ابن دقيق العيد الذي تحول عن المالكية إلى الشافعية، انظر: عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص88.

([57]) ابن كثير: البداية والنهاية، مج13، ص121؛ ومن الأمثلة على ذلك أن الملك الأعظم عيسى الأيوبي رصد ثلاثون دينارا لمن يحفظ كتاب الزمخشري؛ انظر: ابن كثير: المصدر السابق، ص121.

([58]) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مج1، ط1، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ص437؛ عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين، 14/3هـ، د م ج 1995، ص249.

([59]) عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج2، ص88.

([60]) ابن معطي: الدرر الألفية، تقديم وتحقيق: إمام حسن الجبوري، ط1، مطبعة الأمانة، جمهورية مصر: مقدمة المحقق، ص1.

([61]) اليافعي:مرآة الجنان و عبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط2، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1970، ج4، ص66؛ عادل نويهض: المرجع السابق، ص167؛ الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الفنون المطبعية، 1991، ص598.

([62]) ابن قطلوبغا السوداني (أبو الفدا زين الدين قاسم): تاج التراجم، ط1، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، سوريا، 1992، ص ص322، 323.

([63]) ابن معطي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص1.

([64]) نفسه، ص2.

([65]) نفسه، ص3.

([66]) ولعل من أهم أبوابها ما يلي:

- تعريف الكلام والكلم. - علامات الاسم والفعل والحرف. - اشتقاق الاسم والفعل بين البصريين والكوفيين. - الإعراب والبناء. - الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل. – الأسماء المعربة. - إعراب الأسماء الستة. - الممنوع من الصرف. - الوقف. - التثنية. - أحرف القسم. - الممنوع من الصرف. - الأفعال المتعدية واللازمة. - الإلغاء والتعليق؛ وللمزيد انظر: ابن معطي، المصدر السابق، ص3.

([67]) محمد بن أحمد كنعان: وفيات الأعيان والمشاهير (خلاصة تاريخ بن كثير)، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1998، ص403.

([68]) عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج2، ص88.

([69]) ابن معطي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص4.

([70]) نفسه، مقدمة المحقق، ص4.

([71]) علي أحمد: الدور الفكري، ص204.

([72])أما عن الشروح التي كتبت حول الدرة الألفية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر شرح لأحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي بن الخباز الأربلي الموصلي النحوي الضرير (ت 637هـ/1239م)،وشرح لعمر بن مظفر محمد زين الدين الوردي الحلبي الشافعي (ت 649هـ/1250م) سماه "ضوء الدرة".

=

=- وآخر لعز الدين عبد العزيز بن جمعة بن زيد القواس (ت 666هـ/1268م)، وقدم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سمحان، جمال الدين أبو بكر الوائلي البكري الأندلسي الشريشي المالكي (ت 695هـ/1297م) سماه "التعليقات الوفية بشرح الدرة الألفية".

- كذلك شرح لعبد المطلب بن المرتضى الحسين الشريف الجزري (ت 735هـ/1337م) .

- آخر لأحمد بن يوسف بن مالك الرعينيالألبيري ثم الغرناطي أبو جعفر الأندلسي (ت 779هـ/1381م) .

- ومثله لمحمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي النحوي (ت 780هـ/1382م) في ثمان مجلدات.

- كما قدم محمد بن محمود بن أحمد البابرتي الحنفي شرح مفيد على الألفية.

- وآخر لتقي الدين ابن إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت الطائي البغدادي، ويلاحظ أن كل هذه الشروح المقدمة على الألفية تعكس بوضوح أهميتها في مجال الدراسات اللغوية؛ انظر حول هذا الموضوع: ابن معطي: المصدر السابق، ص323.

([73]) ابن معطي: المصدر السابق، ص6؛ ابن قطلوبغا: المصدر السابق، ص323؛ عادل نويهض: المرجع السابق، ص167؛ عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج2، ص89.
([74]) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عواد معروف، دار الكتب العلمية، بيروت ، مج13، ص ص872، 873.
([75]) منى بدر محمد بهجت: أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية و المملوكية، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر، 2002، ص 123.
([76]) خانقاه سعيد السعداء كانت في الأصل دار لقتبر وقيل عنبرعتيق الخليفة المستنصر الفاطمي، ولما آل الحكم لصلاح الدين أوقفها على الصلحاء والزهاد ممن دخلوا مصر من المشرق والمغرب؛ انظر: السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مج2، ص 226.
([77]) ومن أبرز الطرق الصوفية المشرقية الوافدة إلى مصر: الطريقة الرفاعية وتنسب إلى مؤسسها الأول أحمد بن أبي الحسن بن أبي العباس المعروف بابن الرفاعي (ت587هـ/1191م) والطريقة القادرية نسبة لعبد القادر الجيلالي (ت561هـ/1165م)، بالإضافة إلى السهر وردية التي تنسب إلى النجيب السهروردي (ت 564هـ/1167م)، أما عن الطرق الوافدة من المغرب أهمها الشاذلية التي حظيت بقبول شعبي كبير مع كثرة المريدين والأتباع؛ انظر: بهار عمار: المرجع السابق، ص 86 وما بعدها.
([78]) السيوطي: المصدر السابق، ص226.
([79]) الطريقة الأحمدية أو البدوية تنسب إلى أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني الشهير بالبدوي (ت 675هـ/1276م) الذي عاش في مدينة طنطا بدلتا مصر، فانتسب إلى طريقته عدد من طلبة العلم ومن = رجال =السياسة منهم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس؛ انظر منى محمد بدر بهجت: المرجع السابق، ص126؛ بهار عمار: المرجع السابق، ص85.
([80])أماالدسوقية فأنشأها الشيخ إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد (ت 676هـ/1277م) وهو من دسوق بالوجه البحري بمصر، وتتفق هذه الطريقة بنظرياتها ومبادئها مع الطريقة الأحمدية البدوية، انظر: بهار عمار: المرجع السابق، ص86.
([81]) السبكي (عبد الوهاب بن علي): معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1986، ص80.
([82]) منى محمد بدر: المرجع السابق، ص123، هـ1.
([83]) منى محمد بدر: المرجع السابق، ص128.
([84]) القرافة: موضعان:الكبرى بظاهر الفسطاط، والصغرى بظاهر القاهرة، منسوبتان لبني قرافة وهم فخذ من المعافر بن يعفر أول من نزل بها، انظر الوادي آشي: الثبت،ط1، دراسة و تحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ص124، هـ2.
([85]) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج14، ص158.
([86]) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج3، ص55.
([87]) السخاوي: المصدر السابق، ج6، ص159.
([88]) عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، مج4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص107.
([89]) نفسه، ج8، ص107.
([90]) السخاوي: المصدر السابق، ج3، ص6؛ عادل نويهض: المرجع السابق، ص35.
([91])التنبكتي: نيل الابتهاج وتطريز الديباج: ذيل الديباج المذهب لابن فرحون: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ، ص110.
([92]) تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد الأسكندري (ت 709هـ/1310م) كان في بدايته لا يقيم وزنا للصوفية، بل كان ينكر عليهم جميع تعاليمهم وممارساتهم، لكنه انخرط في الشاذلية بعد أن أخذ أفكار وتعاليم الطريقة من الصوفي المغربي المرسي أبو العباس فألف كتابا سماه "لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن الشاذلي" انظر: علي أحمد: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة، ص ص346، 347.
([93]) ابن عطا الله الأسكندري: لطائف المنن، ط1، قدمه وعلق عليه: خالد عبد الرحمن العك، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1992، ص134؛ وحول دور المغاربة في نشر الطريقة الشاذلية بمصر والمشرق عموما انظر: عبد المغيث مصطفى نصير المغربي: تاريخ الطريقة الشاذلية وتطورها، دار إقرأ، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص 51 وما بعدها.
([94]) علي أحمد: المرجع السابق، ص355؛ ([95]) ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصاري): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ، ص43؛ علي أحمد: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة، ص253.
([96]) شكلت الحواضر المغربية وبخاصة منها المدن الساحلية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين ملاذا آمنا للمهاجرين الأندلسيين الذين فروا أمام الاضطهاد المسيحي، وقد دلت نوازل الفترة موضوع الدراسة حجم المعاناة التي كان يعيشها هؤلاء –من مظاهر الإذلال- التنصير وعمليات الجباية ومصادرة الممتلكات بالقدر الذي صعب معه التكيف مع المتغيرات الجديدة، لاسيما وأن معظم السكان قد ألفوا حياة البذخ والترف، وفي ظل توافر الأمن والاستقرار، حول هذا الموضوع

انظر: الونشريسي: أنس المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ومن لم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تح: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، لبنان، 1996، ص26 وما بعدها؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ط6، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981، ص32 وما بعدها.

([97]) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية نخبة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963، ص34.

([98]) قدم ابن خلدون من عمق خبرته التاريخية وعقليته الموسوعية تحليلا –استشرافيا- في أبعاد الأزمة الأخلاقية ودورها في سقوط الدول وانهيار الحضارات بقوله من مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها وكثرة الترف، فيقع التفنن في الشهوات مما يؤثر سلبا في نمو المجتمع وتطوره، وفيما = يبدو =أن المناخ الثقافي الذي طبع الحياة الاجتماعية في الأندلس قد عكس مثل هذه المظاهر التي شجعت عدوهم التقليدي - أي نصارى الشمال- على غزوهم ومن ثم كان الجلاء باتجاه العدوة المغربية؛ انظر المقدمة: ص294؛ إحسان عباس:المرجع السابق، ص130؛ علي الجارم: قصة العرب في أسبانيا، ط9، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص163 وما بعدها.

([99])الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس ، مج1، ق2، ص249.

([100]) أحمد رائف: وتذكروا من الأندلس الإبادة: د. م. ج، الجزائر، 1991، ص42 وما بعدها.

([101]) القادريبوتشيش: إضاءات حول تراث المغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2002، ص118.

([102]) القلقشندي: صبح الأعشى، مج5، ص ص247، 248.

([103]) لم يكن سلاطين الدولة المرابطية وحدهم من سعى إلى رأب الصدع الحاصل بين ملوك الطوائف فقد سبقهم إلى ذلك عدد من العلماء الأندلسيين منهم أبو الوليد الباجي (ت474هـ/1081م) يؤيد هذا ما ذكره ابن بسام بقوله: "ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة يدعوهم إلى الوحدة ضد أعدائهم النصارى، لكنه لم يجد أسماعا واعية بل نفخ في عظام ناخرة"؛ انظر: الذخيرة، مج1، ق2، ص95.

([104]) حول مختلف الأزمات التي عانت منها الدولة الموحدية يراجع محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع ، ط1، مؤسسة جذور للنشر، الرباط، المملكة المغربية، 2006، ص17 وما بعدها.

([105]) الأراك: سهل يعرف بمرج الحديد يقع شمالي قرطبة، قرب قلعة رباح؛ انظر: المراكشي عبد الواحد: المعجب، ص200، ه1 (طبعة 1998).

([106]) العقاب: موضع يقع شمال شرقي حفص البلوط، وشمالي مدينة بياسهوإبذه، المراكشي: المصدر السابق، ص230 (طبعة 1998).

([107]) أجمعت المصادر التاريخية أن هزيمة العقاب كانت ضربة موجعة للتجربة الموحدية، ليس بالنظر إلى حجم الخسائر العسكرية والتي كان لجند الخليفة دور فيها- حسب رواية المراكشي- وإنما لما أحدثته من تفكك اجتماعي بتقوية حركات الانفصال والتمرد عن السلطة المركزية، وما صاحبها أيضا من توتر وإحباط نفسي لدى خاصة الناس وعامتهم حتى أن الخليفة محمد الناصر (595-610هـ/1198- 1213م) أذهلته نتائج هذه الكارثة التي كانت بحجم الزلزال الذي تردد صداه في كل بلاد المغرب، فآثر الاعتزال أو الانكباب على ملذاته -حسب تعبير أحدهم - لأجل ذلك ربطت المصادر التاريخية بنوع من المجازفة جميع مظاهر التدهور التي عرفته بلاد المغرب بعد الانتكاسة، حول هذا الموضوع: يراجع: المعجب، ص230؛ المغراوي: المرجع السابق، ص164 وما بعدها.

([108]) عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط2، دار الكتاب للطباعة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ص627؛ علي أحمد: المرجع السابق، ص90.

([109]) رغم مظاهر العداء السياسي والصراع العسكري الذي كان على أشده بين ملوك الطوائف إلا أن ذلك لم يمنع من الاهتمام بالحياة الفكرية، فقد تنافس هؤلاء فيما بينهم في استقطاب خيرة العلماء والفقهاء وبما وفروه من مستلزمات لأجل نهضة علمية شاملة، ولعل ما قام به ملوك بني الأحمر في مملكة غرناطة وبخاصة في عهد سلطانها أبو الحجاج يوسف (733- 755هـ/1332-1354م) من جهود في بناء المدارس والكتاتيب واقتناء الكتب، يعكس التوجه العلمي لهذه الأسرة، ولا نعدم من القرائن ما يزكي هذا الطرح، فالشواهد الأثرية لمظاهر العمران لازالت قائمة إلى يومنا هذا.

([110]) الذيل والتكملة، ص239.

([111]) ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، ج1، تح: محمد الأحمدي أبو النوار، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1970، ص101؛ عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992، ص530.

([112]) ابن جابر: هو شمس الدين بن عبد الله محمد بن علي بن جابر الهواري الأندلسي المري، ولد سنة 698هـ/1299م، توفي أواخر القرن 8هـ/14م، كان أحد شيوخ القراءات والحديث، انظر: فروخ عمر،تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992، ص530.

([113]) التنبكتي: كفاية المحتاج، ص300.
([114]) نفسه: ص301.
([115]) الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، بدون تاريخ ، ج2، ص563؛ مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1930، ص234.
([116]) جرت العادة لدى بعض البيوتات العلمية في الأندلس كغيرها من مدن العالم الإسلامي إلى تخصيص جناح من بيوتهم لاستقبال أو استضافة أقرانهم من الأدباء والفقهاء، ومن هذا المنظور يذكر النباهي أن القاضي أبي القاسم شريف غرناطة (ت760هـ/1360م) حول بيته إلى منتدى يجتمع فيه مع خاصة أصحابه للمذاكرة في شتى ضروب المعرفة، ومن بين العلماء الذي كانوا يترددون على مجلسه منصور الزواوي الوزير لسان الدين بن الخطيب وأبي عبد الله بن راجح السوسي، انظر: تاريخ قضاة الأندلس ""المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا"" ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ص ص173، 174.
([117]) يعتبر رباط العقاب الذي يقع في إحدى ضواحي غرناطة من أشهر الرباطات التي كان يتردد عليها الشيوخ الصوفية، وقد بلغ عدد الربط بها نحو ثلاثة وأربعين رباطا حسب ما تفيد به المصادر التاريخية، انظر: محمد مفتاح: الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية، ط1، توزيع مكتبة الرشاد، المملكة المغربية، 1997، ص50.
([118]) الإحاطة، ج3، ص329؛ الشاطبي: الإفادات والإنشادات، تح: محمد أبو الأجفان، ط2، مؤسسة الرسالة، 1986، ص23.
([119])هو الفقيه والأديب محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصرحي أبي عبد الله، يعرف بابن زمرك، كان أحد فضلاء غرناطة ومفاخرها، درس عن لفيف من العلماء المغاربة والأندلسيين، منهم منصور الزواوي الذي أخذ عنه علم الأصول، وقد خصه التنبكتي بفيض من نعوت التحلية مشيدا بفهمه وعلو كعبه في شتى فروع المعرفة، تولى الكتابة في ديوان مملكة بني الأحمر خلفا للوزير لسان الدين ابن الخطيب، راجع حول ترجمته: نيل الابتهاج، ص ص282، 283.
([120]) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبو إسحاق ناصر السنة أحد محققي العلماء الإثبات، له قدم ثابت في شتى فنون المعرفة، منها الفقه، الأصول، التفسير، علوم الحديث، من مصنفاته: كتاب= =الموافقات، الإفادات والإشادات، الإتقان في علم الاشتقاق، وكتاب في أصول النحو، وله مجموعة فتاوى، يراجع حول ترجمته: التنبكتي: كفاية المحتاج، ص ص91، 92، 93.
([121]) وحول هجرة علماء الأندلس إلى إفريقية والمغرب يراجع: محمد الطالبي: الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة، العدد19، 26 ، دار البعث قسنطينة، ص47 وما بعدها.
([122]) مدينة المنكب: بلدة صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من مملكة غرناطة، كانت تسمى في القديم ساكسيSexi باللفظ الروماني وتعني بالعربية الحصن، وتعرف في الوقت الحالي باسم Almunear وتأتي أهمية المدينة من مرفئها التجاري الذي كان تتردد عليه سفن التجار المسيحيين، هذا إلى جانب ما تحتويه من حقول وبساتين تنتج أصناف الثمار والغلال، راجع حول هذه المدينة: ابن الخطيب: خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، تح: مختار العبادي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002، ص77، والهامش 1 من نفس الصفحة.
([123]) عبد الوهاب بن منصور: أعلام من المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1979، ج2، ص187.
([124])رحمة تويراس: تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الأدب، الرباط، السنة الجامعية 2005/2004، ص184.
([125])يرجع في هذا الموضوع: كتاب المعيار المعرب للونشريسي في كل أجزائه وفي مواضع كثيرة.
([126])حول تراجم الأعلام الأندلسيين الذين أخذوا عن علماء زواوة انظر: التنبكتي: نيل الابتهاج؛ الوادي آشي: البرنامج؛ التاج المفرق لخالد البلوي؛ التجيني: مستفاد الرحلة والاغتراب؛ وأيضا كتابه: البرنامج.

أثر الظروف المناخية في نشاط سكان الصحراء الجزائرية خلال العصر النيوليتي – عناصر للتفكير والتأمل

أ / الربيع عولمي
جامعة الحاج لخضر / باتنة

ملخص

تركز هذه الدراسة على الظروف البيئية والمناخية وأثرها في توطين واستقرار السكان في الصحراء الجزائرية وعلاقة ذلك بالنشاط البشري كالرعي والزراعة وصيد الأسماك والحيوانات خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) بأقسامه ومراحله المختلفة. إن الصحراء الجنوبية كانت تمثل في هذه الفترة فسيفساء من شعوب متعددة، إلا أن لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد أيضا من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تدجين الزراعة.
ويبدو أن الصحراء خلال هذه الفترة كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها شعوب متعددة ومن أصول متنوعة، أين بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز مع بداية الفترة التاريخية.

Résumé

Cet essai vise à étudier les conditions écologiques et climatiques et leurs rôle dans l'occupation et la sédentarisation de divers peuples dans la région méridionale du Sahara Algérien qui sont relatifs à l'activité humaine comme l'élevage, l'agriculture, la pêche, et la chasse pendant le Néolithique.
le Sahara était à la fin du Néolithique était peuplée d'une vraie mosaïque de peuples ayant un mode de vie similaire, pratiquant la même activité économique où l'élevage est l'activité dominante, mais où la chasse et la pêche gardent leur importance, et il parait que le Sahara fut vraiment un creuset où se fondent des populations d'origine diverses, ce qui à permis à l'homme saharien d'entrer d'emblée à l'époque historique.

مقدمـــة

تساهم العديد من الأبحاث الحديثـــة في تسليط الضوء على الصحراء الجزائرية و سكانها خلال العصر النيوليتي، إلا أنها تضع الكثير من المعطيات التي لم تصبح مقبولة بصيغتها القديمة محل نقاش وجدل بين الباحثين، كمفاهيم : "النيوليتي ذو التأثير القفصي" و"النيوليتي ذو التأثير الصحراوي السوداني" أو مفهوم "الخط المتموج Wavy Line"[1]، هذه المفاهيم التي لم تصبح اليوم شائعـــة الاستعمال.

لذا تطرح عدة تساؤلات حول المدة الزمنية التي تمكن فيها الإنسان من التوطن والاستقرار بالصحراء خلال هذا العصر والتي قد تصل إلى حوالي الألف الثامنة ق.م.

وإلى وقت قريب، دأب علماء الآثار على تحديد بداية النيوليتي الصحراوي بالألف السابعة ق.م، ومواقعه ربما تكون حول الكتل الجبليـــة الوسطى وما حولها جنوب الجزائر، إلى ضفاف نهر النيل.

وخلال هذه الفترة، استقرت مجموعات بشرية إفريقية متأثرة بثقافات الخرطوم جنوب الصحراء، والتي اتجهت نحو الشمال حسب خطوط العرض إلى أن احتكت بخلف (ذرية) القفصيين الذين احتلوا كامل الصحراء الشمالية.

وما يثير الانتباه فعلا هو ذلك التجانس الكبير بين الحضارتين"القفصية والصحراوية- السودانية"، مما دفع بعض الباحثين إلى استعمال مصطلح " أكواليتيك- Aqualithic" والذي يميز الثقافات الجنوبية التي يعيش سكانها على القنص وصيد الحيوانات والأسماك حول البحيرات الكبرى .

إن هذا التجانس أصبح اليوم محل تساؤلات كثيرة وإعادة تحديد الفرضيات اعتمادا على الأبحاث في كل المجالات العلمية الحديثة والتي تستخدم العلوم العصرية، كمناخة (علم مناخ) العهود القديمة، والأنثروبولوجيا الفيزيائية، والحضارات. يتميز هذا العصر، بتجانس ثقافي كبير وتقارب بين الثقافات من خلال: تعدد مواضيع فن الرسوم الصخرية "Rupestres"، وأشكال وزخارف الفخاريات، وكثرة التماثيل الحيوانية الشكل-zoomorphe المصنوعة من الطين المشوي، والطقوس الجنائزية، وتطور الحياة الحضرية، وميلاد عصر المعادن.

الثوابت والمتغيرات البيئية القديمة :

نشير في البداية إلى أن هناك علوما حديثة تناولت البيئة والسكان في الصحراء ومنها:

– مناخ العهود القديمـــة: (Paléoclimatologie) من المعروف أن المناخ في الصحراء عموما لا يتطور بنفس الطريقة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب[2]، لذلك نجد أن الصحراء الشمالية الشرقيـــة (من الصحراء الشرقية الجزائرية إلى الصحراء الغربية المصرية) كانت خلال النصف الأول من فترة الهولوسان منطقة شبه جافة. و في المقابل، نجد أن بعض المناطق في الصحراء الجنوبية بقيت رطبة جدا (بالقدر الكافي الذي سمح لفرس النهر بأن يعيش) إلى أواخر الألف الرابعة ق.م. بل وإلى الألف الثالثة ق.م.

– الأنثروبولوجيا الفيزيائية :(Anthropologie Physique)

حاولت الباحثة الانثروبولوجية شاملا (M.C.Chamla)[3] سنة 1968م جمع بيانات مشتتة عن عدة مواقع بدول الساحل الإفريقي: بموريطانيا والنيجر ومالي، وفي الجزائر ركزت الباحثة على موقع تين هاناكاتن بالطاسيلي (Tin hanakaten) والذي يقع قرب الحدود الشمالية للنيجر، وهنا تبرز حقيقة معقدة، حيث وجدت أن عدة شعوب من أصول متنوعة تعايشت أو تعاقبت في هذه المناطق.

وهناك عناصر ثقافية يمكن أن تنوب عن الأنثروبولوجيا الفيزيائية كالرسوم الصخرية (peintures rupestres) بمنطقة الطاسيلي حيث طبيعية الأشكال البشرية (Naturalisme) تسمح أحيانا بتحديد النوع الفيزيائي، مع تمثيل عربات المحاربين الليبيين، أو تمثيل خط التيفيناغ (Tifinagh).

كما تبين بعض النصب الجنائزية بوضوح انتقال مجموعات من البربر القدماء Paléo berbères ومجموعات من ما قبل البربر (Protoberbères) في حدود الألف الرابعة ق.م. وهم يتجهون نحو الجنوب.

– الحضارات: (Cultures)

يمكننا من خلال الدراسات الأحادية (المنوغرافية – Monographie) الجهوية أوالمحلية ومضامينها أن نرسم خريطة لحضارات النيوليتي المتعددة فترة بفترة .

حيث تبدو الصحراء إبان العصر النيوليتي وكأنها تتكون من فسيفساء بشرية عملاقة (Mosaïque) ولدت مع نهاية فترة جفاف دامت عدة آلاف من السنين.

هذا الجفاف الذي ساد المنطقة الشمالية منها منذ 4000 ق.م، و المنطقة الجنوبية مابين4000 و2000 ق.م، حيث تمثل كل منطقة منها حالة خاصة[4].

يتضح في هذا النطاق أن الصحراء الجنوبية كانت قد مثلت ومنذ أمد بعيد حالة من الفقر مقارنة بالصحراء الشمالية (في الجزائر، ليبيا ومصر).

فقد ظهرت الصحراء الجنوبية خلال فترة الهولوسان (Holocène) وكأنها تضم مجموعة بشرية متنوعة خلال الفترة من 9500 ق.م إلى 3000 ق.م [5]، وهي فترة تفوق بكثير مثيلتها بالصحراء الشمالية والسبب في ذلك ربما يعود إلى الظروف المناخية . و الحقيقة أن إفريقيا الشمالية دخلت الفترة التاريخية مبكرا.

إن الصحراء الجنوبية الجزائرية كانت دائما متنوعة جغرافيا إذ تجاورها عدة مظاهر تضاريسية نذكر منها:

– كتل جبلية مرتفعة مثل هضبة عير (Air- شمال النيجر) والتي يصل ارتفاعها إلى 2000م.

– جبال تبستي (شمال تشاد) ارتفاعها يصل إلى3400م، كما نجد كتل جبلية صغيرة منعزلة وسط سهول غير ملائمة للإنسان مثل أدرار الإيفوراس (Adrar des Iforas) شمال شرق مالي، و سهول تارميت (Termit) غرب النيجر.

– هضاب واسعة تخترقها أودية ومحاطة بمنخفضات كالأدرار، وهضبة إينيدي(Ennedi) شرق تشاد.

– سهول رملية واسعة غير قادرة على حفظ المياه و بها منخفضات رطبة كصحراء تانزروفت جنوب غرب الجزائر، وتينيري (Ténéré) (شمال النيجر).

– شبكات هيدروغرافية (Réseaux hydrographiques) ذات أهمية كبيرة طوال فترة الهولوسان كله، ومن الشبكات الأكثر غزارة في الصحراء وادي الأزواك (Azawagh) الذي يصرف المياه نحو النيجر انطلاقا من منحدرات جنوب الهوقار، وغرب هضبة العير (Air) وهضبة الإيفوراس.

– البحيرات القديمة (Paléo lacs) وتكون أحيانا ضخمة، وأحيانا أخرى صغيرة المساحة، وهي مجسدة اليوم بهالة من صخور المشطوريت (diatomite) – وهي صخور رملية من أصل عضوي– مغمورة في الرمال .

– الساحل الأطلنطي والذي يتميز بثروة إيكولوجية هائلة.

مما سبق يتضح أن الصحراء الجنوبية كانت في العصور القديمة فسيفساء جغرافية، إلا أن الصحراء الحالية أخفت مظاهرها، لكن منذ 10000 ق.م إلى 2000 ق.م (وربما في فترة مبكرة، لأن الرطوبة بدأت دون شك منذ 15000 ق.م في الكتل الجبلية)، فقد لوحظ عدم التنوع في المظاهر الطبيعية.

ونجد أيضا أن البحيرات الواسعة تجاورها: عروق يحتمل أنها كانت مكسوة بالنباتات، وجبال يفترض أن تكون مغطاة بالثلوج، وسهول مكسوة بالشجيرات، وأنهار قوية الجريان، ومحيط غني بالأسماك...الخ.

إن هذا التنوع الذي عرفته الصحراء لم يكن جغرافيا فحسب بل كان أيضا كرونولوجيا (أي متسلسل زمنيا)، فطوال فترة الهولوسان بأكمله، لم يتوقف المناخ عن التطور، حيث انتقل من رطوبة قصوى في حدود 8500 ق.م. إلى فترات جفاف قصيرة، ثم إلى تبعات (نتائج) إيكولوجية رئيسية نحو7500، 6000، 4000 أو2800 ق.م.، قبل الجفاف الحالي والذي ينبئ خطأ بأنه حالة دائمة[6].

وحسب المؤشرات السابقة، فإن المناخ الرطب هو الذي ساد الصحراء الجزائرية مما جعل الثروة النباتية والغابية تغطي كامل الكتل الجبلية الجنوبية[7]. وقد استمرت تلك الثروة الغابية تكسو جبال الهوقار والطاسيلي حتى الألف الثالثة ق.م وهي الفترة التي بدأ فيها الجفاف يسود المنطقة الصحراوية[8]. ومن الخطأ أن نؤكد وبشكل قاطع، أنه في حدود 8500 ق.م، أي في فترة الرطوبة القصوى، أن كمية التساقط كانت تبلغ 350 أو600 أو1000 ملم بالصحراء الجنوبية، إلا أن هذه الكمية بلغت أقل من 100 ملم في حدود 4000 ق.م.

إن مناخ هذه المنطقة غير متجانس، وحاليا نلاحظ أن خط التماط (خط المطر المتساوي) لا يتبع المتوازيات، خاصة أن المظاهر التضاريسية تحدث اضطرابا للرسم البياني: فالجبال تشكل حاجزا تمنع السحب

المحملة بالرطوبـــة من الانتقال، وتلعب دور خزانات المياه بتوزيع كميات التهاطل في مناطق بعيدة تعرف بسهول المياه الدخيلة (الطارئة).

وضمن هذا التنوع، يمكننا مضاعفـــة الأمثلة والنماذج إلى مالا نهايـــة، هذا ما أعطى إلى المشهد البشري في الصحراء الجنوبية خلال عصر النيوليتي تعقيداته. حيث لا يمكننا أن نفهم ذلك دون أن تكون لدينا فكرة واضحة عن الظروف المناخيـــة التي سادت الصحراء في العصور القديمـــة في كل منطقة منها وفي كل فترة.

- العصر الحجري الحديث (النيوليتي) و مراحله المختلفة:

يعرف العصر الحجري الحديث بالعصر النيوليتي وهو آخر مرحلة من العصور الحجرية، ويتسم بعدة خصائص تجعله يتميز عن المراحل السابقة، فخلال هذه الفترة من الحضارة الإنسانية حدثت تغيرات جذرية في حياة الإنسان ونمط المعيشة .

I – النيوليتي الأسفل (الأدنى): Le Néolithique Ancien

إن ما ساعد على حدوث الثورة النيوليتية هو سيادة المناخ الأمثل في حدود 12000 سنة ق.م. ومن أبرز مميزاته : ظهور أدوات حجريـــة جديدة، وتقنيات صناعة الأواني الفخاريـــة التي بدأ الإنسان النيوليتي ينتجها لتخزين الحبوب والسوائل، وذلك بعد تدجين الزراعة واستئناس الحيوانات[9].

وهناك عدة مواقع تشهد على قيام الثورة النيوليتية في الصحراء الكبرى عموما والصحراء الجزائرية على وجه التحديد سنذكرها في حينها.

أما فيما يتعلق بعمليات الإعمار فقد شهدت بداية عصر الهولوسان في الصحراء الوسطى والجنوبية في الجزائر عمليـــة تعمير جديـــدة، والذي بعد حلقات محدودة جدا من العصر الحجري القديم المتأخر، تطور إلى نيوليتي ذو ثروة كبيرة، إلا أن بداياته كانت مظلمـــة وغير واضحة المعالم، وقد تم التعرف عليها بطريقة مجزأة وتطرح تساؤلات عديدة.

العصر الحجري القديم المتأخر(ما بعد الباليوليتي) والصحراء الجنوبية : - أ

1- نهاية فترة البلايستوسان :

شكل موضوع تحديد الزمن الجيولوجي الرابع- الكواترنيري- (Quaternaire) نقاشا وجدالا حادين بين العلماء وعقدوا لأجل ذلك عدة مؤتمرات علمية، طرحت خلالها مشكلة الحد الأدنى للزمن الرابع واتضح أنه من الصعب جعل حد زمني دقيـــق بين الزمن الثالث والرابع، حيث أن الحد الأدنى للزمن الرابع يختلف باختلاف الباحثيـــن أنفسهم واختلاف المناطق التي تجـــري فيها الأبحاث وكذلك حسب المقاييس المستعملة لتحديده (مناخي – مستحاثي – جيوفيزيائي).

واتفقوا سنة 1973م في مؤتمر كريس شورش على أنه يحتوي على فترتين زمنيتين غير متساويتين: الفترة الأولى تدعى البلايستوسان (Pléistocène)، والثانية تدعى الهولوسان(Holocène) والفاصل الزمني بينهما يصادف نهاية آخر عصر جليدي وقبل بداية المناخ الملائم أي في حوالي 11800ق.ح. (9800 ق.م).[10] لا توجد هناك أيـــة اكتشافات أثرية في الصحراء تخص الفترة من 15000 إلى 10000 ق.م. في حين أن هوامشها كانت مأهولة بالسكان (كالحضارة الإيبيروموريزية Ibéromaurisienne – أوالإيبيرومغربية [11]) في شمال إفريقيا. إذن يبدو أن هناك فجوة زمنية في الصحراء بين الحضارة العاترية والنيوليتي، حتى و لو وجدت في بعض المناطق، صناعات معاصرة للعاترية وصناعات سابقة لها، فإنه لا يبدو أن تكون هناك صلة بين العاترية والعصر الحجري القديم الأعلى، بل وحتى العصر الحجري القديم المتأخر.

لا نعرف في إفريقيا الشمالية التعاقب بين الحضارتين العاترية والإيبيروموريزية (انطلاقا من مواقع تازا، عين أغال، تافورالت، تامارا، رأس تنس ...).

ومن خلال الدراسات النادرة للطبقات الجيولوجية الصحراويـــة، لا نلحظ التعاقب والتتابع المباشر للحضارة العاترية، حيث نجد بموقع تين هاناكاتن (جنوب الطاسيلي) طبقة سميكة تفصل العاترية عن النيوليتي الأسفل (حوالي 9400 ق.م) وعدم وجود أية صناعة تعود إلى العصر الحجري القديم المتأخر. لهذا يمكننا اعتبار هذه الإشكالية، فرضية طرحها الباحث تيلي[12] (Th.Tillet) وأعاد طرحها حديثا الباحث ديتور[13] (O. Dutour) مفادها أن العاترية استمرت في المناطق الجبليـــة بالصحراء الوسطى خلال الفترة القصوى للجفاف في نهاية البلايستوسان (20.000–15000 ق.م. في الكتل الجبلية، و13000ق.م. في السهول المجاورة). والملاحظ أيضا قلة مظاهر الحضارة العاترية في الكتل الجبلية الوسطى، وغياب تام للعصر الحجري القديم المتأخر (épipaléolithique).

إن انحسار الجفاف بصورة نهائية عن سهول الصحراء الشمالية بعد 14000 ق.م كان أمرا ممكنا – فالفترة القصوى للجفاف جاءت نوعا ما متأخرة – أما الجفاف في نهاية البلايستوسان، فهذه حقيقة حتى وإن كانت الأعمال والأبحاث الحديثة قد قلصت مدته وأهميته.[14]

2–العصر الحجري القديم المتأخر في بداية الهولوسان :

الهولوسان هي الفترة الثانيـــة من الزمن الرابع، بدايتها تصادف نهاية العصر الجليدي الأخير المعروف بالفورم (Würm)[15]، يعني مباشرة قبل التحسن الكبير للمناخ، ومن الناحية الجيولوجية تعني تسمية الهولوسان تلك الفترة التي تكونت فيها التوضعات والرواسب ما قبل الحالية والحالية، ومن الناحية المناخية الهولوسان يقابل فترة هامـــة من ما بعد الجليدي وفترة قصيرة من المرحلة الجليدية المتأخرة[16].

تظهر بداية الهولوسان في الصحراء بطريقة يمكن أن تعيد النظر في العصر الحجري القديم المتأخر، حيث نجد في الفترة ما بين 10000 إلى 7000 ق.م إن لم نقل 6000 ق.م. كل أنواع الصناعات التي تبدو أنها مستوحاة من نهاية العصر الحجري القديم.

ونجد صناعات أخرى نيوليتية، لأن النيوليتي الأدنى في الكتل الجبليـــة الوسطى يعاصر الحضارة القفصية (Capsien) بل هو أقدم من عدد من الثقافات القديمة المتأخرة في الهوامش الشمالية للصحراء.

لكن هل تحليل الصناعات فقط وثيقـــة الصلة بالموضوع تسمح لنا بتحديد تعريف دقيق للحضارات الصحراوية ؟

وبالرغم من وجود مفاهيم أخرى اقتصادية، ثقافية وبالأخص ديموغرافية، ألا تكتسي هذه المفاهيم هي الأخرى أهمية ما ؟

ب– العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في الصحراء (مشكلة التعريف) :

دأب علماء الآثار على تعريف النيوليتي بأنه العصر الذي يتميز بـــ : الأدوات الحجرية المصقولة، السهام البيفاسية « Bifaciales » (أي ذات وجهين)، أدوات السحق، الخزف، تدجين الزراعة، والصيد، إلا أنه توجد في الصحراء في الفترة من 9500 إلى 2000 ق.م. مظاهر متعددة، ونجد أن أغلب المعايير المذكورة أعلاه غير متوفرة. فالزراعة مثلا لم تظهر بشكل جلي قبل 3000 ق.م. أما الاستئناس وتربية الحيوانات فلم تظهر قبل 4000 ق.م في جنوب وغرب الصحراء.

أما ما تعلق بالصناعة الحجرية فإن عدة حضارات حرمت من أحد العناصر الصناعية، إذ اكتفت بأدوات بدائية، ويعود ذلك إلى رداءة المادة الأوليـــة المتوفرة في هذا المحيط[17]. ويلاحظ ندرة الخزف في الشمال، حيث توجد ثقافات الصيادين سواء كانوا رعاة أم لا إلى نهاية النيوليتي، ومربو الحيوانات شبه المستقرين أو الرعاة

المتنقلين. ويمثل موقع زميلات البركـــة (Zmeilet el-Barka)[18] – وهي مرتفعات تقع جنوب غرب ورقلة بحوالي 25 كلم في الصحراء الشمالية الشرقية للجزائر– أحسن مثال لهذه المجموعات البشرية والتي حددناها بطريقة سيئة[19].

ويؤرخ لهذه الفترة من النيوليتي بحوالي من 5700 إلى 4800 ق.م، وتتميز بصناعة حجرية تحتوي على نصيلات ذات الظهر والحجر قزميات الهندسية، وبندرة البقايا الفخارية وكثرة بيض النعام. وتجدر الإشارة أنه توجد بعض المواقع التي تعتبر نيوليتيـــة ذات تأثير قفصي لكنها لا تحتوي على فخار، وأغلب هذه المواقع تتواجد في منطقة أولاد مية بنواحي ورقلة، تؤرخ بحوالي 4720 إلى 4200ق.م. وتحتوي على صناعة حجرية تتكون من أدوات تحمل طابع ما بعد الباليوليتي مثل الحجر قزميات الهندسية (أي جد قزمية) Microlithe géométrique والنصيلات ذات الظهر وكذلك أدوات نيوليتية مثل: رؤوس السهام، في حين يلاحظ غياب الفؤوس المصقولة، والأواني الفخارية التي عوضت باستعمال بيض النعام كأواني لحفظ السوائل.[20] ويبدو إذن أنه من الملائم أن نبحث فيما يتعلق بالصحراء عن تعريف جديد للنيوليتي. لكن ليس من المضمون أن يكون تعريف معد وجاهز سلفا لأن درجة اكتساب أشياء جديدة وحديثة والتي تميز عموما النيوليتي كانت متغيرة.

وقد لعبت الديمغرافيا دوراً أساسيا في الاستقرار والتوطن، وهي ضرورية لإنجاز المكتسبات الثقافية والاجتماعية حسب كثافة السكن ومواطن المعيشة.

ونجد كذلك أن مجموعات كبيرة من صيادي ما بعد الباليوليتي أصبحوا نيوليتيين (لكن في أي فترة تم ذلك وفي أي سياق ؟) لا نعلم ذلك بالتحديد. ودون أدنى شك، وفي عدد من الحالات، فإن العملية كانت معكوسة لأسباب ربما مناخية بالدرجة الأولى .

إن الإبقاء على نمط معيشي قائم على صناعة الخزف، يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف المناخية التي لا تسمح بالانتقال إلى نمط آخر، فطحن الحبوب أو (تجارة الطحن-Meunerie) أو الحياة الحضرية (urbanisation) القائمة على الاستقرار لم تكن ممكنة، ومن ثَمّ فإن البحث عن إدخال النيوليتي الصحراوي في إطار تعريف معتمد وضع أساسا للشرق الأدنى أو أوروبا أمر غير وارد.

النيوليتي الأدنى بالصحراء الوسطى والجنوبية : - ج

فرضيات الإعمار : –

منذ 9500 ق.م.، وربما قبل ذلك، كان النيوليتي حاضرا وماثلا في الطاسيلي والهوقار، وهضبة العير(Air)، وكتل ترميت (Termit) غرب النيجر في قلب الصحراء الكبرى[21]، في حين نجد أن شمال إفريقيا ووادي النيل، لم تعرف النيوليتي إلا 2000 سنة بعد ذلك.

وبعيدا عن المنطقة التي تعنينا والتي نحن بصدد دراستها، فإننا نلاحظ أن بداية النيوليتي في الشرق الأدنى قد حل محل الناطوفية في حوالي 10000 ق.م. وليست لدينا أية معلومات عن الغابات الاستوائية ولا عن الساحل الإفريقي خلال هذه الفترة .

يبدو أن النيوليتي يتوفر على ذاتية ثقافية كبيرة، حيث يتميز بابتكار الفخار– المعروف قبلا بالشرق الأدنى– إضافة إلى تقنيات عديدة، وأدوات حجريـــة ، والتي من بينها رؤوس السهام البيفاسيـــة (Biface)، والفأس المصقولة، وأجهزة السحق، حتى ساد الاعتقاد أن الزراعة قد دجنت في الصحراء في هذه الفترة البعيدة والأمر كذلك بالنسبة لتربية الحيوانات رغم غياب الأدلة المادية.

لا يوجد أي فعل أنثروبولوجي أو ثقافي يسمح بفهم أصول وجذور النيوليتي الذي بدأ يظهر جليا في حوالي 9500 ق.م، لذلك نطرح عدة تساؤلات: أين ومتى حدثت المحاولات الأولى؟ ومن هو إنسان

هذه المرحلة الجديدة؟ نحن نعرف أن موقع تين هاناكاتن[22] بالطاسيلي كان آهلا بنموذجين من البشر (Types humains): النوع الأول الإنسان الإفريقـــي الزنجي (Mélano-africain) وهو مميز نوعا ما (أي أنه مميز من حيث الشكل والوظائف)، والنوع الثاني يحتمل أن يكون الإنسان شبه الأوروبي (Europoïde) والذي يتميز ببنية قوية.

والواقع أن الكتل الجبلية الوسطى التي تقع بين خطي عرض 18° و25° شمالا يمكن أن تكون آهلة بالسكان في بداية عصر الهولوسان بطرق شتى منها: (أنظر الشكل1)

أ– النسب والقرابة إلى العاترية: وذلك عن طريق مجموعات اتخذت من الجبال ملاجئ في فترة الجفاف القصوى مع نهاية البلايستوسان (Pléistocène)، وقد عرفنا آنفا أن هذه الفرضية تفتقد إلى المصداقية حاليا.

ب– النسب والقرابة إلى الباليوليتي الأعلى: إما بواسطة الإيبيروموريين، أوعن طريق بلاد النوبة – Nubie (جنوب مصر) "كإنسان جبل سحابة، ووادي حلفا": وقد استغلت مجموعات بشرية عودة الرطوبة في الصحراء قي بداية فترة الهولوسان للتوطن في هذه المناطق.

وفي كلتا الحالتين، فإننا أمام عملية إعمار من نفس الأصل، تنحدر من تنوع الإنسان العاقل العاقل[23] (Homo sapiens sapiens) العاتري من المحيط الأطلنطي غربا إلى نهر النيل شرقا، وهذه الفرضية كان قد طرحها كل من فرمباخ (D.Ferembach) وديتور (O.Dutour).

ج – النسب والقرابة إلى ما قبل المتوسطي : لا يمكن أن نكون غير متأثرين بتلك الجدة والحداثة التي عرفها الشرق الأدنى وشمال إفريقيا في حدود 10000 ق.م. والتي نذكر منها:

1- ظهور النيوليتي في الصحراء المصرية .

2- ظهور الحضارة القفصية في حدود 9800 ق.م، في شمال شرق الجزائر وتونس.

3- تطور ذاتي للحضارة الإيبيرومورية (الإيبيرومغربية) التي تركزت في الشمال أكثر من الصحراء.

ألا يبدو أن أسلاف الناطوفيين- الذين ينتمون إلى إنسان ما قبل المتوسطي— كانت لهم بعض التأثيرات على وادي النيل، والصحراء الغربية المصرية، وكذا ميلاد الحضارة القفصية، سواء على الصعيد الانثروبولوجي أوعلى الصعيد الثقافي[24] وهذا لا يمنعنا من القول بأن هؤلاء استطاعوا أن يبلغوا الكتل الجنوبية للصحراء الكبرى.

وهناك فرضية عمل ترتكز على انتشار مجموعات بشرية في الشمال الشرقي من الصحراء في بداية فترة الهولوسان، مع أقدار متنوعة، سواء ما قبل الباليوليتية، أوالنيوليتية.

إن التداخل الكرونولوجي للمواقع يرافع في هذا الاتجاه، وفي المقابل فإن السهول الليبية والصحراء المنخفضة في الجزائر بقيت جافة، أو على الأقل شبه جافة، لذلك كانت مهملة، في بداية فترة الهولوسان.

د – النسب والقرابة إلى الجنوب: تقع الكتل الجنوبيـــة الوسطى على نفس درجة عرض مدار السرطان أي (23°شمالا) فهضبة العير (Air-أقصى شمال النيجر) تقع على خط عرض 20°شمالا وسهول ترميت (Termit-غرب النيجر) تقع على خط عرض 16° شمالا.

لذلك نجد أن تجمع هذه المراكز هو بطبيعة الحال، أقرب إلى الساحل الإفريقي منه إلى البحر المتوسط أو دلتا نهر النيل، لذا كان هذا الساحل آهلا بالسكان مع نهاية البلايستوسان.

ومن المنطقي أن نتصور صعود مجموعات بشرية مصاحبة لصعود المناخ -إن صح التعبير- (remontéeclimatique) أي تراجع الجفاف إلى الحدود الشمالية للساحل الإفريقي في بداية فترة الهولوسان.

ومن جهة أخرى، وعلى الصعيد الأنثروبولوجي، فقد أشار الباحث الفرنسي هنري لوت[25](H.L'hote) أن أقدم الهياكل العظمية لهذه المنطقة هي هياكل زنجية الشكل (Négroïde)، أما ثقافة الرسوم الصخرية التي تبدو الأقدم، هي تلك المسماة "ذوي الرؤوس المستديرة" (têtes rondes) والتي تمثل صلة القرابة مع الثقافة الإفريقية الجنوب- صحراوية، (من خلال أقنعة — رموز — صور- ورسوم بشرية نادرة).

لا يمكن، في هذا المقام، أن نختار بين عديد الفرضيات التي طرحت، كما لا يمكننا أيضا أن نلغيها جميعا.

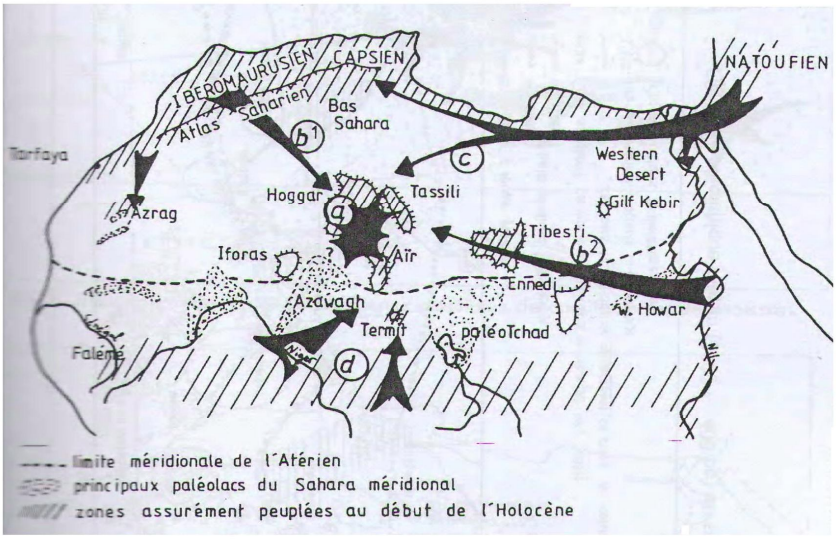

شكل (1) : فرضيات إعمار الصحراء في بداية الهولوسان

[Vernet(R.), Population du Sahara méridional à l'holocène, in CNRPAH, Alger, 2001, p. 183]

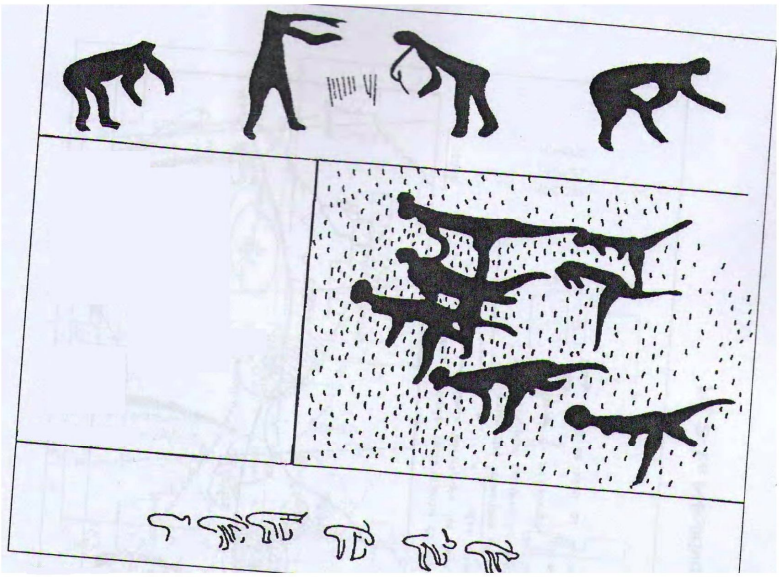

شكل (2) : رعاة الأبقار في الطاسيلي : ثلاث مشاهد للقطف والحصاد
[Vernet(R.), Ibid., p. 185]

II- النيوليتي الأوسط : Le Néolithique Moyen

يمثل التوطن في عموم الصحراء، بما في ذلك مناطق الحضارة القفصية القريبة من الصحراء، قطيعة لفترة تمتد مابين 9000 و7000ق.م حسب المناطق.

إن هذه القطيعة تفسر في الظروف الحالية، كما في الصحراء الجنوبية حيث ساد المناخ الأمثل في الفترة ما بين 8500 و7500 ق.م[26]، ذلك أن موقع تميت (temet) بهضبة العير شمال النيجر مثلا، كان مغطى ببضعة أمتار بصخور المشطوريت (diatomite) بعد 8500 ق.م. والأسباب متـــعددة: جفاف في الشمال، ورطوبة مفرطـــة وظروف معيشية غير ملائمة، واندثار مواقع اكتسحت بفعل عوامل طبيعية استثنائية في الجنوب.

في ظل هذه الظروف وفي هذه الصحراء المترامية الأطراف، لم تتمكن المجموعات البشرية في بداية الهولوسان من أن تتزايد بطريقة طبيعية.

لذلك بقيت هذه المجموعات نفسها تعيش على اقتصاد يرتكز أساسا على الصيد، أما تربية الحيوانات فقد كانت دون شك لاحقة لفترة الجفاف التي ظهرت جليا خلال الألف الثامنة ق.م.

ومن تحليل العلاقة المتبادلة بين نمط المعيشة والاقتصاد من جهة، والديمغرافيا من جهة أخرى، تتضح أكثر المشاكل صعوبة وتعقيدا في بدايات النيوليتي الصحراوي.

ومهما يكن من أمر، فإن النيوليتي بدأ يظهر في إفريقيا الشمالية بين الألف الثامنة والألف الخامسة ق.م، وقد وصل إلى المغرب القديم (موقع عين الناقة- Ain Naga) – في منطقة مسعد جنوب شرق الجلفة- في حدود 7500 ق.م. ثم إلى وادي النيل، ليكتسح عموم الصحراء، باستثناء، على ما يبدو، بعض السهول التي تتميز برطوبة عاليـــة أو تلك التي غمرتها الفيضانات كلية والتي تقع جنوب خط عرض 18° شمالا.

وفي هذه الفترة، ساد بالصحراء الجنوبيـــة المناخ الأمثل لنمو النبات[27]، خاصة وأن النيوليتي الصحراوي يغير من درجته وطبيعته.

إن الثورة النيوليتية الحقيقية في المنطقة والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتدجين قد حدثت دون شك في بداية الألف السابعة ق.م.، فالتدجين هو الذي يحافظ على النمو الديمغرافي، والتغيرات في نمط المعيشة، واحتلال المساحات الواسعة من السهول.

إن اقتصاد الصيادين –القطافين في مرحلة القنص والقطف يأتي في المقام الثاني. حيث نجد من الآن فصاعدا، في السهول ما لا نعرفه إلا في الكتل الجبلية وما جاورها.

فالمواقع آنفة الذكر المألوفة نوعا ما والمحصورة في مناطق التوسع أصبحت كثيرة وكثيفة وبالأخص في الصحراء الجنوبية .

1-استئناس الحيـــوانات :(Domestication) فيما يتعلق بجذور التدجيـــن في الصحراء، فإن معلوماتنا غير دقيقة، فالانطباع الأول يرجح وجود مركز ابتكار أو توسع انطلاقا من الصحراء المصرية والكتل الجبلية الوسطى في قلب الصحراء الكبرى، ويحتمل أن يعود ذلك إلى الفترة ما بين 7500 ق.م. و6500 ق.م.[28]

بعد هذه الفترة اكتسح التدجين كامل الصحراء الجنوبية في مراحل عديدة، انطلاقا من كتلة الهوقار– الطاسيلي في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، أي نحو شمال النيجر، فمنخفضات تنيري (Ténéré) شمال شرق النيجر، ربما تكون قد عرفت استئناس الحيوان في فترة تعود إلى ما قبل6000 ق.م، أما هضبة العير، حسب الباحث الفرنسي هـــ. لوت H.L'Hote فإن الاستئناس يكون حاضرا بها في حدود 5000 ق.م. لكن في الصحراء الجنوبية الغربية (كاالأزواك، والتلمسي– وهو أحد روافد نهر النيجر– وتشيت Tichitt)، والصحراء الغربية الموريطانية لا نجد في هذه المناطق أية بقايا أثرية لحيوانات مستأنسة قبل 4000 ق.م، وإلى الجنوب من هذه المناطق المذكورة آنفا، فإن أولى ملامح الاستئناس تعود ربما إلى 3000 ق.م. يجب أن نلاحظ هنا أن الرسوم الصخرية تبين أن التوطن والاستقرار عن طريق شمال الصحراء الأطلنطية (كالصحراء الغربية – وشمال موريطانيا، إلى الأدرار) يعود إلى فترة قد تكون سابقة لـــ 4000ق.م.

2– تدجين الزراعـــة: (Agriculture)

إن زراعة الدخن أو الذرة البيضاء ظهرت في هذه الفترة في منطقة تقع بين شمال موريطانيا إلى شمال النيجر مرورا بالمناطق المتاخمة لوادي الأزواك الذي تنحدر مجاريه العليا من جنوب الهوقار[29]، لكن لا توجد أية أدلة ملموسة عن تدجين الزراعة قبل 3000 ق.م، كما لم يصاحب هذا التدجين أي انقلاب ثقافي أو اقتصادي والذي يمكن أن يكون له علاقة بممارسة النشاط الزراعي وهي الحالة التي نجدها في أواخر النيوليتي.

وقد حاول العديد من علماء الآثار، أن يثبتوا من خلال أبحاثهم وجود الزراعة في الصحراء خلال فترة الهولوسان الأوسط وحتى القديم بعدة مواقع، والفضل في دراســـة أغلب هذه المواقع يعود إلى الأستاذ غبريال كامبس (G.Camps) ومن أبرز هذه المواقع: أمكني[30] (Amekni) الذي يبعـــد بحوالي 10 كلم عن تيت (Tit)، عند أطراف قمة أتاكور، وهو موقع واسع المساحة، يقع بالقرب من ملتقى وادي أمكني ووادي تاكيوين (Takiouine). وقد أعلن عن اكتشاف الموقع سنة 1964م من طرف الباحث باكو(M.Baccou) أما التنقيب فقد جرى في سنتي 1965م و1968م من طرف مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ (CRAPE). ويتبين من خلال التراكم الأثري، التطور المستمر لصناعة غنية بأنواع من الأدوات.

إن موقع أمكني يعد نموذجا للمرحلة القديمة من النيوليتي الصحراوي– السوداني (حيث يعود أقدم تاريخ للاستقرار بهذه المنطقة إلى 8670 + 150 ق.م.) أما المستويات الحديثة فهي مؤرخة بحوالي 5500+ 250 ق.م.

ولقد تأكد حضور العنصر الزنجي الشكل (Négroïde) من النموذج السوداني في نهاية الألف السابعة ق.م.، وهذه العناصر البشرية كانت تعيش على الصيد والقطف ومن المحتمل جدا أنها مارست الزراعة: هذا ما تشهد عليه

مجموعة من الآلات، وأدوات السحق وبقايا من لقاح (غبارالطلع) النجيليات (وهي نباتات منوحيدات الفلقة تشمل النباتات الحبية والعلفية)، وجدت في السويات القديمة، حيث أن حجمها لا يتطابق مع أية نجيليات صحراوية.

بالنسبة للفخار فيوجد بكثرة كما يذكر غبريال كامبس، ويتطابق مع هذه الفترة بالذات ويتخذ أشكالا بسيطة وكروية، وأما زخرفته فهي رتيبة ومملة استعمل فيها المشط.

أما الأدوات الحجرية المصقولة فقد صنعت من الصخور البركانية المحلية ومنها صخر السبج (وهو حجر زجاجي أسود- Obsidienne) وصخر الكوارتز(Quartz). إلى جانب مجموعة صغيرة من أدوات أخرى كالنصيلات، وحجر قزميات الهندسيـــة وحاملات السهام،والحصاة الملساء.[31] وهناك مواقع أخرى اكتشفت في كتلة الهوقار من طرف ماتر[32] (J.P.Maitre) منها المعاصرة لموقع أمكني ومنها الأقـــدم منه وهي: منيات بافيناV(Meniet Baguena V)، وتميدوين (Timidouine): ويؤرخ الموقعان بفترة تتراوح ما بين 8100 + 130 ق.م و6050+100ق.م، وموقع أبولاق 2 (II Abouleg) ويؤرخ في 6860+100ق.م، وموقع تين أمنصر TinAmensar) ويؤرخ في 6500+250ق.م، وأخيرا موقع تيوريرين (Tiouiririne) ويؤرخ في الفترة من 6050 + 100ق.م إلى 5300 + 100 ق.م، وهذه المواقع كلها تنتمي إلى النيوليتي ذو الملامح الصحراوية – السودانية في الصحراء الوسطى. وتجدر الإشارة هنا أن الرسوم الصخرية التي تظهر مشاهد القطف أو الحصاد والتي تعود إلى الفترة الرعوية بالطاسيلي نادرة جدا.

إن هذه الإشارات بطبيعة الحال وهمية وغير واقعية، ذلك أننا يمكن أن نتصور مثلا، أن مجموعات صغيرة من السكان كان بإمكانها أن تبتكر أو تستورد الزراعة من النيوليتي في مرحلته الوسطى. هل كان ذلك من منطقة النيل؟ وهل هناك مؤثرات شرق-غرب باتجاه الصحراء التشادية-النيجرية قبل 5000 ق.م؟ على كل تبقى هذه التساؤلات مطروحة، غير أن التوسع نحو الساحل الإفريقي خلال تلك الفترة، يبدو أنه لم يحدث إلا في أواخر النيوليتي.

3- الصيـــد: (La Pêche)

يلعب الصيد دورا هاما في الصحراء الجنوبية من المحيط الأطلنطي غربا إلى نهر النيل شرقا ففي هذه المنطقة المترامية الأطراف يوجد عدد هام من البحيرات الشاسعة المساحة بحيث أمكنها أن تجمع حيوانات مائية كانت بمثابة عامل جذب للإنسان في حوالي 3000 ق.م. فقد تم العثور على هياكل عظمية لأسماك يصل طولها إلى 1متر، ومن بين هذه الحيوانات البحرية نذكر: التمساح وفرس النهر وطيور مائية متنوعة.

فخريطة توزيع الخطاف المصنوع من العظم والذي يستعمل لصيد الأسماك ذات دلالة كبيرة، حيث نلاحظ التداخل بين علم البيئة القديم وعملية الإعمار في الصحراء النيوليتية. إن الصحراء في هذه الفترة كانت بوتقة مثالية للسكان: فأقدم البقايا الأنثروبولوجيـــة في تين هاناكاتن مثلا (التي تقع على خط عرض 23.50 °شمالا) أي على مدارالسرطان تقريبا، تظهر الأصول المتعددة لإنسان هذه المنطقة، سواء الشمالية منها أو الجنوبية .

ومن جهة أخرى فإن الرسوم الصخرية التي تمثل "مربوا الأبقار في الطاسيلي" (Bovidiens) (أنظر الشكل-2-) تبين أنسنة معقدة فنجدها مترامنة أومتعاقبة: الشبه أوروبي (Europoïde)، الزنجي(Négroïde) ، والنيلي (Nilotique)- أي متعلقة بنهر النيل-.

ويبدو أن الجنوب الغربي من الصحراء كان آهلا تدريجيا بالعناصر التي تنحدر من الشبه مشتي (Mechtoides) ابتداء من 7000 ق.م ومنهم الرعاة والصيادين دون أن نتأكد من توزيعهم بدقة، وعن الأنثروبولوجيا الفيزيائية نجد عناصر عدة منها[33]:

– **ما قبل المتوسطيين** (Protoméditerranéens): وقد ينحدرون من القفصيين، (واصطلح علماء الأنثروبولوجيا على تسميتهم بالبربر القدماء) خلال النيوليتي الأوسط.

– **الشبه مشتي** (Mechtoides): حيث يبدو أن جيناتهم أو مورثاتهم امتزجت فيما بعد بجينات سكان الساحل الإفريقي كما أورد ذلك الباحث ديتور (Dutour) سنة 1984.

– **السودانيون الزنجيون** (Soudanais Négroïdes).

– **النيليون** (Nilotiques) (نسبة إلى نهر النيل): ويتميزون بالنحافة ومنهم عناصر يحتمل أن يكونوا أسلاف شعوب البولس (Peuls)[34]. فخلال أربعة ألفيات، تمكنت المجموعات (سواء كانت شعوب، قبائل، وأسر) والأفراد من التنقل: لذلك ففي حوالي 6500 ق.م. كانت منخفضات التينيري (شمال شرق النيجر) وهوامشها آهلة بمربي الحيوانات الذين يحتمل أنهم قدموا إليها من الطاسيلي وقد سكنوا هضبة العير، ثم عبروها ليقيموا في جنوب شرق السهول الرطبة لوادي الأزواك في أقصى الجنوب الجزائري مع الحدود النيجرية والمالية، ثم امتزجوا مع العناصر السودانية التي كانت حاضرة بالمنطقة قبل أواخر النيوليتي.[35]

وقد شهدت المرحلة المتوسطة من النيوليتي، فترات جفاف قصيرة وانتهت حوالي 4000 ق.م. بفترة قصيرة جافة جدا.

هذه الحالة المناخية كانت نهائية في الصحراء الشمالية، وفي المقابل فإنها لم تمتد في الصحراء الجنوبية أكثر من قرنين من الزمن، ولما انتهت بدأ التوزيع الغير منتظم للسكان. فالاقتصاد ونمط المعيشة يتغيران بالتدريج، وتحت تأثير الابتكارات الجديدة كالعربات، والحصان، والمعدن، وبالأخص الزراعة، فإن التوجه نحو الجنوب بدأ يتعمم.

III– النيوليتي الأعلى: Le Néolithique Récent

1– فترة الألف الرابعة قبل الميلاد

تعتبر الألف 4 ق.م بالصحراء الجنوبية المرحلة الأخيرة الملائمة فعلا لحياة الإنسان. فبداية من 3800 ق.م. وخاصة ما بين 3500 و3000 ق.م سمح المناخ الأمثل بازدهار زراعات جديدة، لكن نهاية هذه الألفية أي بعد 3000 ق.م، أحدثت أول مشهد صحراوي فعلا، وبعد ذلك كانت فترات السكون والهدوء دائما جنوبية، في حوالي 2800 أو2500 ق.م. و ربما في 2000 ق.م.

لكن هذه الفترات لعبت أدوارا رئيسية في عمليات الإعمار على امتداد خطوط العرض من 20° إلى 16° شمالا، وباتجاه الجنوب أكثر أي نحو خط عرض 14° شمالا فإن التنقيبات المنتظمة أظهرت مواقع مؤرخة في هذه الفترة بالذات، وتبين أن هناك صلات صحراوية على مستوى الصناعة بالأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى[36].

إذن بالصحراء الجنوبية استمر النيوليتي في التطور، هذا لا يعني أن النصف الشمالي من الصحراء لم يلعب أي دور: فالجبال والمنخفضات لم تكن خالية من السكان، بل مثلت محطة عبور لحركات السكان التي كانت تتجه نحو الجنوب على الدوام.

إن الاختفاء التدريجي للمراعي، ومنابع المياه الدائمة شمال خط عرض 22° قد دفعت المجموعات البشرية، مهما كانت أصولها، إلى التوجه نحو الجنوب إلى مناطق كانت آهلة بالسكان، وهي التي كانت قبل 4000 ق.م. خالية من السكان. هذا ما أدى إلى ظهور عدة ثقافات منها ثقافة مربي الحيوانات حول وادي الأزواك النيجري، ويشير ذلك إلى حركات سكانية ذات أهمية كبيرة.

إن انتقال شعوب الرعاة نحو الجنوب لا يشكل حدثا مذهلا، إذ يبدو أن الرسوم الصخرية في منطقة الطاسيلي تبين أن آخر مربي الأبقار كانوا عناصر من ماقبل البربر (Protoberbères) وأن الانتقال من فترة البقريات (Epoque Bovidienne) إلى فترة الخيليات (Epoque Equidienne) وهي فصيلة الخيل- قد حدثت دون انقطاع[37].

وقد شهد النصف الثاني من الألف 4 ق.م. تسارع حركة السكان، حتى بلغت هذه الحركة ذروتها، فقد مثلت فعلا الأوج الديمغرافي في الصحراء الجنوبية، إن حركة إعمار المناطق الرطبة تكون قد انتهت، بينما نجد السهول الرملية بدأت تفقد سكانها حيث البرك والمستنقعات الصغيرة (Mares) مؤقتة.

تتميز هذه الفترة بتجانس ثقافي كبير وتقارب أكبر بين الثقافات حيث تعدد مواضيع الرسوم الصخرية، وأشكال الفخاريات وتنوع الزخارف، وكثرة التماثيل الحيوانية الشكل (Zoomorphes) المصنوعة من الطين المشوي، والطقوس الجنائزية، وتطور الاستقرار والحياة الحضرية، وميلاد عصر المعادن.

يبدو من خلال ما سبق ذكره، أن الصحراء كانت تمثل في هذه الفترة ما يشبه فسيفساء من شعوب متعددة، لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تطور الزراعة.

ويبدو أيضا أن شمال الساحل الإفريقي خلال تلك الفترة كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها عدة شعوب من أصول متنوعة، وفي هذا الوسط بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز لدخول الفترة التاريخية.

2- فترة الألف الثالثة ق.م ومرحلة الإنتقال من النيوليتي إلى الفترة التاريخية

ظهرت صناعة استخراج النحاس والحديد قبل 3000 ق.م. سواء كانت محلية أو مستوردة، كتلك التي تمثل العربات أو الأسلحة المعدنية الممثلة في الرسوم الصخرية مما سمح للبعض بالقول أن النيوليتي يتوقف عند حدود 4000 ق.م. وقبل ذلك فالفترة تدعى "فجر التاريخ" (Protohistoire).

أعتقد حسب رأيي، أن هذه الفكرة قد تكون خاطئة، ذلك أنه لا يوجد انقطاع حقيقي في الثقافة ونمط الحياة لشعوب الصحراء الجنوبية خلال الألف الثالثة ق.م.

وبالأحرى، ففي الألف الرابعة ق.م كانت الحضارة النيوليتية الصحراوية مستمرة، مع دمج معطيات جديدة تدريجيا. ذلك أن شعوبا جديدة قادمة من الفترة التاريخية (بمعنى من منطقة النيل، وقورينائية، والمغرب القديم) ظهرت وبحوزتها تقنيات جديدة (كالحصان، والعربات والمعدن)، ولكن هذه الشعوب دخلت وانسابت دون قطيعة في قالب الفترة الرعوية المنتهية.[38]

لا يمكن أن ننكر أن هناك تطورات، لكنها كانت بطيئة جدا ولم تغير نمط حياة النيوليتي إلا بعد التوقف التام والنهائي للجفاف، حينئذ يكون من السابق لأوانه قياس أثر هذا التجديد، حيث يحل الانقطاع.

إن مواقع التوطن والاستقرار ترتبط ارتباطا وثيقا بفترات تحسن المناخ، ويبدو أنها حدثت خلال الفترة مابين 2800 و2500 ق.م والتي تتوافق وتتطابق مع النمو الديمغرافي الجديد.

إن هذه الفترة كانت موسومة بتسارع النمو الاقتصادي، وانطلاق العناصر البشرية المعروفة بـــ: ما قبل البربر (Protoberbères) نحو الجنوب، حيث تكيفت هذه العناصر مع ظروف الجفاف الجديدة، وتمكنت من السيطرة على المناطـــق التي تخلت عنها شعوب الرعاة والمزارعين من كل الإثنيات (Ethnies) والأعراق مجتمعة.

ومنذ تلك الفترة، فإن أسلاف البربر احتلوا مجالهم الحالي الذي يمتد من المحيط الأطلنطي إلى الخاصرة الغربية لجبال تبستي أي على الحدود الشمالية النيجرية التشادية، وكانت هذه المنطقة آهلة بعناصر من سكان التوبو[39] (Toubous) – وهم عناصر من عدة شعوب رحل غير مستقرين يتمركزون أساسا مابين هضبة العير وجبال تبستي–. عرفت انطلاقة عناصر ماقبل البربر نحو الجنوب عدة مراحل والتي أمكن التعرف عليها من خلال الرسوم الصخرية وتتضمن ما يلي :

– طبقة تمثل عدد كبير من الأبقار، أما الأحصنة فهي إما نادرة جدا أوغائبة تماما، أما العربات والتيفيناغ فهي غير معروفة، ويحتمل أن تكون خلال فترة تمتد مابين 3500 – 3000 ق.م.

طبقة أبقار كثيرة، مع عربات وأحصنة، لكن بدون التيفيناغ (حوالي 2500 ق.م).
– طبقة تختفي فيها العربات والأبقار نادرة، أما الأسلحة المعدنية فهي حاضرة دوما، والتيفيناغ أيضا معروف (حوالي 2000 ق.م).
– أخيرا، طبقة يظهر فيها الجمل(وحيد السنام)، وقد دلت الأبحاث الحديثة المدعمة بالوثائق الأثرية أن الجمل ظهر بالصحراء منذ المرحلـــة القفصية (أي بداية النيوليتي) [40]، أما التيفيناغ فإما أنه اختفى أو تطور إلى نماذج لا زالت إلى اليوم مفهومة من طرف الطوارق (من 2000 إلى حوالي 1500 ق.م).

خـــاتمـــة

يمكن بعد هذه الدراسة الموجزة أن نخلص إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:
– جمعت الصحراء الجنوبية خلال فترة الهولوسان خصائص أصلية، صحيح أنها قديمة وعتيقة، ولكنها امتدت إلى فترة متأخرة.
– تجلت مظاهر الازدهار الصناعي والاقتصادي والثقافي والتنوع في الصحراء الجنوبية في فترة سابقة لتلك التي عرفتها الصحراء الشمالية والشرقية.
– إذا لم تتمكن الصحراء الجنوبيـــة، لأسباب منطقية تتعلق بالتصحر خاصة، من أن تمثل المنعطف ونقطة التحول في التاريخ، فإنها ساهمت وبقسط وافر في وضع الأسس لمشاهد إنسانية وسياسية في منطقة الساحل التاريخي.
– لعبت الصحراء الجنوبية دورا أساسيا في العلاقات القديمة والمركبة بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية.
– كانت الصحراء الكبرى تمثل فعلا في هذه الفترة ما يشبه فسيفساء (Mosaïque) من شعوب متعددة، إلا أن لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد أيضا من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تدجين الزراعة .
– مثلت الصحراء خلال هذه الفترة بوتقة انصهرت فيها عدة شعوب من أصول متنوعة، أين بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز مع بداية الفترة التاريخية.
– تسريع إيقاع الأعمال والأبحاث في هذا الاتجاه بهذه المنطقة الشاسعة، مع بذل كافة الجهود لتحديد مواضيع البحث بدقة وبالأخص تلك التي تقدم إضافة إلى مجال المعرفة.
– ضرورة تحديد تعريف دقيق للنيوليتي الصحراوي، وضبط مراحل تطور تربية الحيوانات والزراعة، وإبراز دور الديمغرافيا وحركات السكان في تطور النيوليتي الصحراوي، وفي الأخير الوقوف على نتائج الكوارث المناخية التي شهدتها المنطقة عبر العصور ومحاولة الاستفادة منها، وبالأخص الفترة التي نحن بصدد دراستها وهي فترة الهولوسان.

بيبليوغرافيا

(1)- wavy line: زخرفة الفخار بخطوط متموجة، أول من عرفها الباحث أركال (A.J.Arkell) بمنطقة الخرطوم والشاهيناب، وهي حاضرة منذ المرحلة القديمة من النيوليتي في الصحراء الإفريقية من السودان إلى موريطانيا، ونجدها أيضا في عصر المعادن بغرب إفريقيا،وهذا النموذج غير معروف في الصحراء الشمالية خلال العصر النيوليتي.

- Gourhan (André Le roi), Dictionnaire de la Préhistoire, Presses universitaires de France, Paris, 1988, p.1169.
(2) Durand (A.), et Lang (J.), Approche critique des méthodes de reconstitution paléoclimatique, Bull. Soc. Géol. France, 1986, t II, p.267-278.
(3) Chamla (M.C.), les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes, mém.IX, C.R.A.P.E, 1968, p.189.
(4)المقصود بالصحراء الجنوبية هنا : موريطانيا، مالي،النيجر، تشاد، وصحراء السودان جنوب الهوقار من الطاسيلي غربا إلى فزان شرقا.
(5) Vernet (R.), Néolithique : le Sahara, un désert vert ? C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp.83-101.
(6) Malley (J.), « 20.000 ans d'évolution des climats du Sahara central aux savanes tropicales humides », Sud Sahara Sahel nord, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp.34-57.
(7) Hugot (H.J.), le Sahara avant le désert, éd. Des Hespérides, Paris, 1974, pp.83-86.
(8) Ibid., p.83.
(9) سحنوني، محمد، ما قبل التاريخ،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، (د.ت.) ، ص82.
(10) نفسه،ص12.
(11) Vaufrey(R.), Préhistoire de l'Afrique, t.I, éd., Masson, Paris, 1955, pp.88-89.
(12) Tillet (Th.), L'Atérien Saharien, essai sur le comportement d'une civilisation paléolithique face à l'accroissement de l'aridité, Bull. Soc. Géol. France, 1989, t.V, pp.91-97.
(13) Dutour (O.), Hommes fossiles du Sahara, C.N.R.S, Paris, 1989, p.274.
(14) Rognon(P.), Variations de l'aridité au Sahara depuis 125.000 ans en relation avec les contraintes orbitales et glaciaires, Bull. Soc. Géol. France, 1989, t.V, pp.13-20.
Op.cit., p.1175.. (15) Gourhan (André Le roi),
(16) سحنوني محمد، المرجع السابق، ص 12.
(17) نفسه، ص 132.
(18) Gourhan (André Le roi), op.cit, p.1194.
(19) Alimen (H.), Zmeilet el-Barka, halte saisonnière de chasseurs au VI° millénaire, L'Anthropologie ; t.84, n° 2, 1980, pp.198-242.
(20) سحنوني محمد،المرجع السابق،ص ص 131-132.
(21) Aumassip (G.), Maitre (J.P.), Contribution à la Préhistoire de l'Ahaggar, Mémoire du CRAPE, XVII, Paris, 1974, p.189.
(22) Aumassip (G.), Heim (J.L.), les squelettes néolithiques de Tin Hanakaten, Tassili- N'Ajjer, Algérie, CR. Acad. SCI., Paris, t.309, ser.III, 1989, pp.187-190.
(23) Gourhan (André Leroi), op.cit., p. 517.
(24) Camps (G.), Préhistoire de l'Afrique du nord et du Sahara, Paris, 1974, p.193.
(25) L'Hote (H.), Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintres rupestres, jal. de la Société des Africanistes, Paris, t.XI, 1970, pp.91-102., Camps (G.), op.cit., p.258.
(26) Roset (J.P.), Néolithisation, Néolithique et post-Néolithique au Nigéria nord-oriental, Bull. AFEQ, 1987, 4, p.206.
(27) Malley (J.), op.cit., p.45.
(28) Muzzolini (A.), les débuts de la domestication des animaux en Afrique : faits et problèmes, Ethnozootechnie, Paris, n° 42, 1989, pp.7-22.
(29) Marchais (L.), Tostain (S.), le Sahel ouest-africain, foyer principal de la domestication des mils pénicillaires, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp99-101.
(30) Gourhan (A.L.), op.cit., pp.38-39, Roset (J.P.), à L'Adrar Bous, (Xe mill.b.p.), éd. Dallas, 1987, pp.231.

(31) Camps (G.), Amekni, Néolithique ancien du Hoggar, mémoire du CRAPE, 10, Alger, Maitre (J.P.), Inventaire préhistorique de l'Ahaggar, I, Libyca, pp.127-138.
(32) Ibid., pp. 127-128
(33) Dutour (O.), op.cit, p.274.
(34) Peuls: مجموعة شعوب رعاة ومستقرين متناثرة في إفريقيا الغربية من السنغال إلى الكاميرون.
Larousse Illustré, Librairie Larousse, Paris, 1990, p.1502.
(35) Paris (F.), la région d'In Gall-Tegidda, P.A.U. III. Les sépultures du Néolithique final à L'islam, Etudes Nigériennes, n° 50, Niamey, 1984, p.198.
(36) Gourhan (A.L.), op.cit., pp.775, 779.
(37) Muzzolini (A.), L'art rupestre des massifs centraux sahariens, B.A.R, Cambridge, 1986, Camps (G.), Les chars sahariens, images d'une Société aristocratique, Travaux LPMO, Aix en Provence, 1987, pp.107-124.
(38) Grebenart (D.), Les premiers métallurgistes en Afrique occidentale, éd. Errance et Nouvelles éditions Africaines, Paris, 1988.pp.151-188.
(39) Larousse, op.cit, p.1624.
(40) Camps (G.), Berbères au marges de L'histoire, éd.des Hespérides, 1980, p.126.

التحليل الايكولوجي لبعض العناصر المعمارية للأحياء السكنية و دورها في جناح الأحداث

– مقاربة نفسية اجتماعية للفضاء السكني الخارجي، بمدينة الجزائر –

أ / جميلة سليماني
جامعة الجزائر –2– / بوزريعة

ملخص

يهدف البحث الحالي إلى محاولة مناقشة جوانب التصميم العمراني المؤثرة في الرفع من مستوى جناح الأحداث بالأحياء السكنية وإبراز أهم المعايير لتصميمية المساهمة في تحسين بيئة الأحياء السكنية من خلال التحليل الايكولوجي لهذه العناصر، بغية خفض فرص الانحراف بها، وتقويم مدى تطبيق هذه المعايير في عدد من الأحياء السكنية المعاصرة بمدينة الجزائر وتحديد جوانب القصور فيها. وقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن الكثير من المعايير التصميمية التي تساهم في الحد من الجناح قد تم إهمال تطبيقها في غالبية الأحياء السكنية المعاصرة في مدينة الجزائر.

Résumé

La présente recherche vise à essayer de discuter les différents aspects de l'influence du design urbain dans la hausse et l'élévation du niveau de la délinquance juvénile dans les quartiers résidentiels et de mettre en évidence les critères et les standards de conception essentiels pour concourir à améliorer l'environnement des quartiers résidentiels à travers l'analyse de l'écosystème de ces éléments, afin de réduire les risques éventuels de la délinquance, et d'évaluer l'application de ces normes dans un certain nombre de quartiers contemporains dans la ville d'Alger et d'en identifier les lacunes. Les résultats de la présente étude ont indiqué que quasi la majorité des critères de conception qui contribuent à la réduction de la délinquance juvénile ont été pratiquement négligés dans la majorité des quartiers résidentiels de la ville d'Alger.

مقدمـــة

تلعب الحدود الجغرافية للطفولة المتمثلة في الحي السكني أو الفضاء الخارجي، دورًا هاما في صياغة خبرات الطفل وفي تحديد تكيفه مع الأفراد والمواقف. فالحي هو أول مساحة أرضية يكتشفها ويكون جزءا منها وفي نفس الوقت يستفيد منها، حيث يعتبر الحي ميدانًا رئيسيًا للاكتشاف والتفاعل الاجتماعي ويعتبر ثاني محيط ينمو فيه الطفل جسميًا وعاطفيا بعد المحيط الأسري. وتتسع هذه المساحة تدريجيًا عندما يتجول الطفل بعيدًا عن منزله وتمتد فيما بعد أثناء فترة المراهقة لتشمل كامل المجتمع المحلي .

وإذا كان الحي في أبسط معانيه منطقة جغرافية تحدد إقامة الأسرة وتشكل علاقاتها واختلاطها بالأفراد والجماعات وبالثقافات والجنسيات، فانه قد يشكل مصادرا لتكوين بعض الاتجاهات الخاطئة لدى ساكنيه، الأمر الذي يجعل الفرد في مواقف وظروف تقوده إلى الجناح والجريمة.حيث أن التصميم والتخطيط العمراني لبعض

هذه الأحياء السكنية وما يترتب عليه، له تأثير كبير على ضعف أو فقد العلاقات الاجتماعية بين السكان وبالتالي ازدياد الفرص المتاحة لارتكاب الجرائم بها.

وقد ارتبطت دراسة الأحياء السكنية السيئة بأحداث العنف والإرهاب، فكما جاء في تقرير صدر سنة (1994) كشفت منظمة الصحة العالمية النقاب على أن بعض المناطق السكنية تعتبر المسئول الأول عن ازدياد حالات العنف والإرهاب والإدمان (عبد المعطي أحمد، 1994).

ونظرا للدور الذي يلعبه التصميم المعماري للحي السكني ومساهمته في تشكيل الجناح، اضطرت سلطات مدينة سنت لويس ميزوري في أمريكا إلى تدمير مشروع "بروبتايخوي" للإسكان وذلك بنسفه بعد إخلائه من سكانه اللذين انتشرت بينهم الجريمة واستفحل داؤها للدرجة التي لم تفلح معها الإجراءات الأمنية المشددة في التخفيف من حدتها أو القضاء على عناصرها، وذلك بعد أن توصلت نتائج الأبحاث التي أجراها علماء النفس والاجتماع، إلى أن المحرك الرئيسي للجريمة في هذا الحي هو النظام التخطيطي وأسلوب توزيع فراغاته وشكل واجهاته التي اعتمدها المصمم المعماري لهذا الحي السكني، وهو ما دفع بسكانه إلى امتهان حرفة الإجرام وذلك.بما يهيئه لهم من فراغات تحرك نوازع الشر في نفوسهم (بالقاسم، 1990).

و في دراسة قام بها محمد الشامري على الأحداث الجانحين .بمدينة الرياض على عينة قوامها (n=165) من المحتجزين، أظهرت النتائج أن أغلبية الجانحين يقطنون في مساكن غير ملائمة، وأن هناك علاقة بين الظروف السكنية المتمثلة في الحي السكني الذي تقيم فيه أسرة الجانح وبين انحراف الأحداث (محمد الشامري، 1988).

إن "مفعول الشارع"، له أثر قوي على الأطفال و المراهقين في الوسط الحضري، وقد يتفوق على مفعول الوسط المدرسي أو العائلي، حيث يجد الشباب أنفسهم فيه وكأنهم في حالة تشبه حالة المنوم مغناطيسياً، لأنه يؤدي إلى محو كل ما ترسخه الأسرة وما تعلمه المدرسة من قيم ومعايير، ويغرس بدلها قيم ومعايير وعادات وتقاليد أخرى مخالفة تماماً لما تعلمه أو ما يكون قد تعلمه.

وهكذا تضيع "البوصلة السلوكية" لدى الشباب والناشئة، ويفقدون بذلك المعايير الحضرية السوية، وتنشأ عندهم بدل ذلك"قيم ومعايير الشارع"، تزاحم معايير وقيم الأسرة والمدرسة (أحسن مبارك طالب، 2010، ص: 9).

وفي الجزائر تشير العديد من الدراسات إلى أن نسب كبيرة من المجرمين و الأحداث المنحرفين ينحدرون من اسر تقطن أحياء غير مخططة تفتقر إلى العديد من المرافق الحيوية والخدماتية، والغالبية العظمى لساكني هذه الأحياء هم من الفقراء و المعوزين. حيث سجل مكتب حماية الطفولة وجناح الأحداث بمديرية الشرطة القضائية تورط أزيد من (4800) حدث في قضايا جنح خلال السداسي الأول من سنة (2010) على المستوى الوطني. (ثرية. م: الحوار 25 - 09 – 2010).

كما كشفت مصادر قضائية تورط (1500) حدث في قضايا متعلقة بالسرقة خلال الثلاثي الأول لسنة (2008)، تليها الاعتداءات الجسدية الممثلة في الضرب والجرح العمدي بقرابة (800) قضية، مع تسجيل ارتفاع خطير لظاهرة الاعتداء على الأصول، إضافة إلى تعاطي المخدرات وحيازة الحبوب المهلوسة (نفس المرجع).

بالإضافة إلى مشاركة عدد مهم من الجانحين في جرائم التهريب والمخدرات هي كلها مظاهر جديدة على المجتمع الجزائري بدأت تتعمم وتأخذ لها مكانا في الساحة. والجدول التالي يبين ذلك بوضوح:

السنوات / أنواع الجرائم	2000		2001		2002		2003		2004	
	إجمالي	أحداث	إجمالي	أحداث	إجمالي	أحداث	إجمالي	أحداث	إجمالي	أحداث
جنايات وجنح ضد الأشخاص	10546	707	11150	851	13013	856	14201	957	12788	790
جنايات وجنح ضد الأملاك	9670	1318	9520	1192	11720	1503	12666	1442	12598	1363
جنيات وجنح ضد الأسرة	2544	442	2409	374	2516	388	2970	379	2278	264
التزوير	1605	23	1488	21	1827	18	1899	35	1695	20
جنايات وجنح ضد السلامة	3087	248	1477	198	3040	258	3248	246	2064	93
جرائم التعدي ضد الاقتصاد	0364	8	579	7	348	2	409	3	271	01
التجمهر	0026	00	38	3	204	15	247	14	650	62
إجمالي	27842	2745	27661	2646	3270	3041	35640	3076	32344	2593
جرائم المخدرات	2662	80	2005	60	2404	67	2863	104	2967	127
جرائم التهريب	16301	438	10662	228	3106	60	4718	132	4742	114
جرائم متعلقة بالأسعار	3648	053	1787	30	779	12	1019	12	854	17
أسلحة ومتفجرات	274	11	341	10	689	21	556	18	858	45
جرائم المشروبات الكحولية	471	07	468	4	466	7	675	08	633	06
جرائم قانون المياه	1312	14	1188	6	959	2	1269	08	800	05

الجدول (1)

التجاوزات الإجمالية ومنها التجاوزات التي قام بها الأحداث في الفترة ما بين (2000-2004)

(المصدر: قيادة الدرك الوطني)

لذلك جاء البحث التالي بهدف إلقاء الضوء على بعض الجوانب المعمارية و التي نراها ضرورية عند دراسة ظاهرة جناح الأحداث، لكون الدراسات و البحوث المقدمة- في حدود اطلاعنا- في هذا المجال أغفلت هذا الجانب، حيث نجد معظمها ركزت على العوامل الأسرية أو الاقتصادية أو عوامل أخرى.

تحديد المفاهيم الرئيسية:

1- جناح الأحداث:

كلمة الجناح- بضم الجيم- تعني الميل للإثم، وأصل ذلك من الجناح الذي هو الإثم، ويسمى الحدث الذي يرتكب هذه الأفعال بالحدث الجانح ويجب تقديمه للمحاكمة وإيداعه في مؤسسة إصلاحية (الطاهر أحمد الزاوي، بدون سنة:ص:538).

والكلمة مشتقة من الفعل جنح يجنح جناحا وجنوحا وتعني الميل، وهناك كثير من الباحثين في هذا المجال يعبرون بلفظة"جنوح" بدلا من"جناح"، فالجناح لغة يعني الميل نحو الإثم بينما الجناح وإن كان يحمل معنى الميل فإنه يعني مطلق الميل إذ يأخذ عدة معاني أخرى فيقال جنوح الليل أي إقباله. وجنوح الطائر إذا كسر من جناحه ثم أقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع (زهرة جاسم، 1992،ص:148).

و الجناح ترجمة لكلمة deliquency في الإنجليزية، délinquance في الفرنسية وهو خروج الشخص على القانون في المجتمع، سواء كان راشدا أو طفلا، لكن عادة ما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى جناح الأحداث فقط (منى جمعة عيسى البحر، 1991).

والجناح كمصطلح قانوني ظهر لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة (1899) حين أنشئت أول محكمة للأحداث بمقاطعة "كوك". (موزة سعيد زعل، 1992، ص:89).

ويتمثل انحراف الحدث في مظاهر السلوك غير المتوافق مع السلوك الاجتماعي السوي وينطوى على مجرد مظهر السلوك السيئ مثل الهروب من المدرسة ، مخالطة رفقاء السوء الكذب .. الخ وهذه السلوكيات تسمى انحرافا. فالحدث المنحرف كما يراه أنصار مدرسة التحليل النفسي إنما هو الذي تسيطر عليه رغبات اللهو على ممنوعات الذات العليا أو بتعبير آخر هو الذي تتغلب عنده الدوافع الغريزية، والرغبات على القيم، والتقاليد الاجتماعية (شمسة محمد عبد الحميد، 1996، ص:153 – 172).

2- التحليل الأيكولوجي:

ينطلق التحليل الايكولوجي من نقطة محورية تتحدد في الوسائل التي يتخذها الفرد في تفاعله مع البيئة وأساليب توافقه معها. ويؤكد استخدام المدخل الايكولوجي في علم النفس على فكرة البيئة الايكولوجية المحددة تحديدا وظيفيا أو إجرائيا، أي باعتبارها المجموعة الكلية والمتكاملة التي تثير السلوك وتنشطه (عبد المعطي السيد، 1992، ص:127).

و قد حدد بروشنسكي Proshansky مجال استخدام التحليل الايكولوجي في دراسة العلاقة بين السلوك الإنساني و البيئة التي يحددها الفرد، تلك البيئة التي يصنعها ويستطيع أن يعدلها. وتتميز هذه البيئة بوقوعها خارج جسم الإنسان من ناحية، وقدرتها على الربط بين أفعاله وسلوكياته الجزئية من ناحية أخرى (أحمد مصطفى العتيق، 2001، ص: 8).

والتحليل الايكولوجي يقوم على فلسفة النظام الايكولوجي الذي يعتبر نظام متساند فيما بين أجزائه المختلفة وأي خلل في جزء من أجزائه يؤثر في الأجزاء الأخرى. وفي ضوء مدخل التحليل الايكولوجي يكون الفرد جزءا من هذا النظام، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يحافظ على توازنه الجسمي والنفسي إذا لم تكن شروط الاتزان الايكولوجي متوفرة. (أحمد مصطفى العتيق، 2001، ص: 3).

و يمثل الحي السكني وحدة التحليل الايكولوجي في البحث الحالي لكونه البيئة الايكولوجية التي تقع خارج جسم الفرد و ترتبط ارتباطا وثيقا بأفعاله و تصرفاته.

3- الفضاء السكني الخارجي:

الفضاء السكني الخارجي هو ذلك الحي السكني الذي توجد فيه المساكن أو الوحدات السكنية التي يعيش فيها الأطفال والمراهقين بكل مقوماتها القانونية والإدارية والمادية وهو يضم المباني والطرقات والأسواق والمصانع ومراكز الخدمات الإدارية والأمنية والاجتماعية التي تقع في الحيز الجغرافي الذي يوجد فيه مسكن الطفل والمراهق.

علاقة الفضاء السكني الخارجي بالجناح:

يعتبر الفضاء الخارجي أمرا مهما لكونه يؤدي دورا اجتماعيا، فهو المساحة المشتركة التي تساهم في تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية، كما تتيح الفرصة للعب للأطفال والتقاء الشباب. لذلك يؤكد نيومان (1972) Newman أن التصميم المعماري يعد بمثابة تعبير فيزيقي عن النسيج الاجتماعي(Newman, 1972, p : 53).

إلا أن الواقع اليومي لبعض الفضاءات السكنية الخارجية يجعلنا نساند الباحث مورينوف Morenoff الذي يرى أنه في بعض الأحياء الهامشية في المراكز الحضرية انتشرت الكثير من الأنماط السلوكية المنحرفة،

وأصبحت هذه الأحياء مراكز لتفريخ الجريمة، ومصدرا رئيسيا لها (Morenoff, 2001). لا يتمكن الصغار في هذه الظروف من الحصول على تربية مناسبة. وهكذا ظهرت في هذه الأحياء عصابات جميع أعضائها من صغار السن.

وقد تمحور نشاط هذه العصابات حول مختلف أنماط السلوك المنحرف من السرقة بأنواعها، إلى المخدرات، إلى الدعارة، إلى الحروب بين العصابات، حروب اتسمت بالعنف، واستخدمت فيها مختلف أنواع الأسلحة، وأدت في أكثر من مناسبة إلى سقوط جرحى وقتلى. وعرفت بعض المدن الغربية أعدادا هائلة من هذه العصابات عدت بالآلاف. وقد وفرت هذه الظروف للباحثين فرصة جيدة للقيام بكم هائل من الدراسات، وتطورت هذه فيما بعد لما أصبح يعرف بمدرسة شيكاغو لدراسات الجريمة، وهي المدرسة التي طورها عدد من أعضاء هيئة التدريس بجامعة شيكاغو(Reckless, 1933; Show & Mckay, 1942).

و في هذا الصدد يشير الباحث الألماني جورج سمل (George Smimmel) إلى أنه وفي الوسط الحضري يحصل، (وصل سببي)، أو علاقة ارتباطية بين خصائص المحيط الايكولوجي (البيئة المحيطة) وبين الخصائص الشخصية للأفراد الساكنين في محيط حضري معين (Gordon, Marshall ,1996, p. 542).

أما الباحث الكندي أرنست برجس (Ernest, Burgess) فيشير إلى أن الحياة الحضرية تتسم بنسق اجتماعي خاص بها، يبنى أساساً على التنافسية وعلى المراحل الثلاثة لهذا النسق أو النظام، في إطار التنافسية حيث يبدأ:

أ. الغزو(Invasion): أي غزو الأفراد لمنطقة جغرافية معينة.

ب. السيطرة (Domination):أي محاولة السيطرة على تلك المنطقة الجغرافية (دائماً في إطار التنافسية).

ج. الخلافة (Succession): أو التعاقب على السيطرة على الموقع الجغرافي أو المنطقة الجغرافية (Gordon, Marshall, 1996, p. 542).

ويشير الباحث الكندي المختص في علم الإجرام موريس كيسون Cusson, Maurice إلى أن بعض العوامل الاجتماعية والايكولوجية تجعل من بعض أحياء المدن الحضرية "مناطق إجرامية" (Zones criminelles) (Cusson, Maurice, 2004).

أما الباحثان الأمريكيان المختصان في علم الإجرام سكوكان ورايسي (Skogan, Reiss) يوضحان كيف تصبح منطقة جغرافية معينة، بؤرة إجرامية، وذلك من خلال الخطوات التالية:

أ- تدهور البنية السكنية، أو تآكل البنية السكنية والمحيط السكني في منطقة سكنية حضرية معينة باستمرار، وهو ما يعني ترك البنايات والمحيط السكني يتدهور ويتآكل بسبب عدم الصيانة والتجديد.

ب- يؤدي ذلك إلى هجرها من طرف سكانها الأصليين، وتنتقل إليها فئات اجتماعية دنيا، (ضعيفة، أو محدودة القدرة الشرائية) فيؤدي ذلك بدوره إلى ضعف عام للخدمات فيها، مما يؤدي بدوره إلى ضعف الضبط الاجتماعي (غياب المؤسسات الاجتماعية).

ج- يتبع ذلك، شيوع اللا-أمن، والخوف من الجريمة، وخضوع السكان للضبط الغير الرسمي (سيطرة العصابات الإجرامية على المحيط السكني)، وبذلك يظهر ويشيع محيط"البؤرة الإجرامية" ويترسخ ذلك المحيط السكني في الجريمة والانحراف. (أحسن مبارك طالب، 2010،ص: 10).

وأهم الدراسات التي أجريت في مجال البحوث الايكولوجية الحديثة التي استهدفت كشف العلاقة بين ظروف البيئة (الحي السكني) وطريقة سلوك الأفراد في المنطقة الواحدة، تلك التي قام بها الباحثان الأمريكيان كليفورد شو و مكاي Mckay & Clifford Shaw بمدينة شيكاغو لغرض تحديد المناطق السكانية لمائة ألف من تلاميذ المدارس المنحرفين ومن المجرمين البالغين بهذه المدينة، حيث أثبتت الدراسة بأن معدلات الإجرام بمدينة شيكاغو تختلف من منطقة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر، فقد لاحظا ارتفاع معدلات الإجرام في بعض

مناطق المدينة التي تتميز بكثافة سكانية واضطراب اقتصادي وتدني مستوى الدخل وتباين في الجنسية والعنصر وصراع بين المستويات الحضارية وزيادة في التحرك السكاني وانتشار مظاهر التشرد والتصدع الأسري والسكن غير اللائق وعدم المبالاة لمجابهة المشاكل المشتركة، إلى غير ذلك من عوامل التفكك الاجتماعي.

كما خلص الباحثان إلى أن معظم أفراد عينة الدراسة يتركزون من حيث إقامتهم في المناطق المحيطة بالمراكز الصناعية لمدينة شيكاغو(عبد الرحمان محمد أبو توتة 1999، ص 244، 245).

من جهة أخرى ينظر العالم كليفورد شو Clifford Shaw إلى الجناح والجريمة على أنها نتيجة لا مفر منها مع توسع المدينة وامتدادها، ويرى الايكولوجيين أن المدينة تتوسع لتكون في النهاية خمس حلقات أو أحزمة، وهي:

– الحلقة الأولى: الوسط والمركز، حيث المؤسسات التجارية والمرافق الحيوية، ومقر أول مجموعة نزحت لتكون في المدينة.

– الحلقة الثانية: وتسمى المنطقة الانتقالية، وهي منطقة تدهورت بعد انتعاش ويعيش فيها الطلاب، والعمال، والمهاجرون الجدد، والمنحرفون، والمدمنون، وتجار المخدرات، واللصوص.

–الحلقة الثالثة: وتشمل أحياء بيوتها متشابهة، و يقطنها الموظفون وبعض أصحاب المهن.

– الحلقة الرابعة : وتسمى ضواحي المدينة، وهي أقل ازدحاما ويقطنها أفراد الطبقة الوسطى في بيوت يملكونها.

– الحلقة الخامسة و الأخيرة: ما بعد الضواحي و يقطنها الأثرياء في فلات واسعة.

و يحدد كليفورد شو منطقة الجناح في المنطقة الثانية، والتي توصف بأنها المنطقة الانتقالية، وهي التي تكونت بعد انسحاب الأثرياء منها إلى الضواحي، ونزوح الفقراء إلى الداخل لانخفاض ثمن الإيجار، كما تتميز بكثرة الازدحام، وقدم المباني، وعدم استقرار السكان. كما سجل كليفورد شو ثلاث ملاحظات عن منطقة الجناح (الحلقة الثانية)، وهي:

* تظل معدلات الجناح عالية رغم التغير السكاني السريع.
* انخفاض معدلات الجناح كلما ابتعدنا عن وسط المدينة.
* تختص كل منطقة بنوع أو أنواع معينة من الجنح.

و قد حاول بعض العلماء تشخيص هذا النوع من الأحياء السكنية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتكوين الجناح والسلوك الإجرامي، وذكروا الأنواع التالية من الحي الفاسد، وهي:

– الحي الفقير:المزدحم بسكانه الذي يشيع فيه الفقر، و الرذائل الاجتماعية، و ما يصاحب ذلك من سلوك الأفراد و طبيعة العلاقات الاجتماعية بينهم، و بعض العناصر الثقافية الأخرى.

– الحي الفقير جدا: والذي يطغى فيه الفقر على كل صفة أخرى، بحيث تصبح السرقة البسيطة عملا من أعمال كسب العيش.

– الحي المغلق: الذي تفصله عن بقية أجزاء المجتمع الكبير فوارق اجتماعية واضحة أو عوائق طبيعية، وغالبا ما تقع هذا الأحياء بين منطقتين سكنيتين على مستوى معين من التنظيم الاجتماعي.

– الحي الذي يعيش فيه أشخاص غير متزوجين: وفي غرف منفردة مؤجرة، وهذا الحي يجذب خليطا سكانيا يجمع بين أفراد غير متجانسين ومن أقليات متعددة بسبب انخفاض أجر السكن فيه.

– حي الأجانب: وهو الحي الذي تتخذه أقلية معينة موطنا لها دائما، وهذه الأحياء تنحدر إلى عزلة اجتماعية كبيرة، تشيع فيها الرذيلة و الجريمة والجنوح على نطاق واسع.

– الحي الريفي أو النائي: و هو جزء من ريف معين يلجأ إليه بعض المجرمين الهاربين من وجه العدالة طلبا للتستر والاختفاء (http://www.omania.net/avb/printthread.php?t=32396).

وأثبتت دراسة S.&E. Glueck أن نسبة المنحرفين الذين نشئوا في وسط غير نقي أكبر من نسبة من نشأ منهم في وسط صالح، وأن ازدحام المسكن بوجود أكثر من فردين في كل حجرة، من شانه أن يدفع بالصغير إلى طلب الفسحة والتفريج في عرض الطريق، كما يسهم في نمو بعض الخصائص النفسية السيئة مثل النزعة الهدامة، واستشعار اللذة في الإضرار بالآخرين، وضعف القدرة على فهم ما يلقى شفويا، والإحساس بالعزلة، والمغالاة في سوء الظن. (رمسيس بهنامز، 1970،ص140).

التحليل الايكولوجي لبعض العناصر المعمارية للأحياء السكنية بمدينة الجزائر:

يعتبر التحليل الايكولوجي في علم النفس أداة هامة لدراسة التوازن المعيشي للفرد باعتباره المحصلة النهائية لعمليات التوافق مع البيئة المشيدة، ويمثل الفضاء السكني الخارجي وحدة التحليل الايكولوجي الأساسية، فهو أقرب الأمكنة وأكثرها احتكاكا بالفرد، ومن ثم أكثرها تأثيرا فيه، لكونه يعكس العلاقة بين التوازن المكاني والتوازن النفسي لشاغلي هذا المكان. ونظرا للاتساع الذي تعرفه المدن الكبيرة من حيث تعدد أحيائها السكنية، وزيادة كثافتها السكانية، فضلاً عن اتساع نشاطها الاقتصادي بما يصحبه عادة من ضعف في العلاقات والمفاهيم الاجتماعية التقليدية، فإن ذلك يزيد من حدة انتشار ظاهرة جناح الأحداث فيها، وقد اتسع النطاق العمراني لمدينة الجزائر خلال العقدين الماضيين، وانتشرت معه المناطق السكنية المعاصرة التي تم تصميم وتخطيط غالبية أحيائها بطرق تختلف عن النمط التقليدي.

ومن منطلق التصميم العمراني التقليدي لمدينة الجزائر فإن التغيرات التي وقعت في العقود الأخيرة في هذا المجال تبدو واضحة جليا، حيث نجد أن النسيج العمراني التقليدي كان متأثرا بالعوامل الدينية والمناخية والسياسية والاجتماعية، ونتيجة لذلك نجد أن جميع المباني في الحي متداخلة من دون حدود أو علامات بارزة، وكأنها نسيج من التمويه المتعمد الذي يلغي الفردية ولا يشجع عليها، فيصعب على العابر في الحي تمييز حجم أو حدود المسكن في النسيج العمراني التقليدي للمدن، والجزء القديم من مدينة القصبة مثال على ذلك، فالعابر في الطرقات والممرات والأزقة المتعرجة للنسيج التقليدي لا يستطيع تحديد حجم أو هوية المسكن ومستوى ثراء الأسرة من الخارج، حيث تظهر جميع المباني متشابهة عند النظر إليها من الخارج، وذلك راجع للتوحد في استخدام مواد البناء وطريقة إنهاء المباني من الخارج، يتميز نظام الطرق في النسيج التقليدي بالتتابع والتدرج الهرمي من العام إلى شبه العام إلى شبه الخاص فالخاص، بحيث تظهر كل منطقة بحدودها الواضحة وهويتها المستقلة ووظيفتها المميزة، مما يحد من عبور الغرباء غير المرغوب فيهم، ويمكن السكان من إدراكهم بوضوح عند تواجدهم داخل الحي، كما يمنحهم السلطة النفسية لسؤالهم والاستفسار عن سبب وجودهم.

كما أن الانحراف في المجتمعات التقليدية يكاد يكون معدوماً بسبب قوة عوامل الضبط الاجتماعي والأسري وخضوع الفرد خضوعا كاملاً لقيم وتقاليد المجتمع، ولأن طبيعة المجتمع المحلي تعد من أهم المؤثرات الاجتماعية على سلوك الفرد، فإن نوعية الجرائم التي تسود في الريف تختلف عن نوعية الجرائم التي تسود في الحضر أو المدن، كما أن هناك علاقة بين الجريمة وطبيعة المنطقة السكانية، حيث يتسم نمو العمران الحضري للمجتمعات باختلاف الثقافات وانتشار العلاقات السطحية أو غير العميقة بين أفراد المجتمع، وهو ما يؤدي إلى انتشار نوع من (الفوضى) التي تشجع على الجريمة، فتركيز السكان وزيادة كثافتهم في المدن الكبرى وتعدد العلاقات الاجتماعية وتشابكها يؤدي إلى تناقض مفهوم التكافل الاجتماعي بالقياس بأهل الريف، وهذه الخاصية في حياة المدن الكبرى تؤدي إلى ظهور العديد من مظاهر الانحراف والجريمة، يخبرنا تاريخ البحث الاجتماعي في ميدان المدينة والجريمة بأن هناك تلازماً بين الانحرافات السلوكية واتساع العمران، بمعنى آخر أن كبر حجم المدينة وتعقيد العلاقات فيها يصاحبه تحلل من التقاليد وضعف في الضبط الاجتماعي، كما كشفت العديد من الدراسات

عن وجود علاقة طردية بين زيادة نسبة الجريمة وكبر حجم المدينة من حيث الكثافة السكانية، فالعلاقات بين سكان المدينة الحديثة تتجه نحو الفردية والنفعية وضعف التماسك الاجتماعي، وتفقد بالتالي العادات والتقاليد والأعراف الكثير من قوتها مما يساعد على تطور الجريمة وأشكالها وأنواعها والأساليب المستخدمة في ممارستها (باهمام، علي بن سالم، 2000). وتتسم المدن الكبرى بترامي أطرافها واتساع مساحتها اتساعا مصحوباً بالعديد من الطرق الرئيسية والفرعية، وكذلك بتعدد وتنوع أحيائها، كما تتسم بوجود علاقات اجتماعية متشابكة ومعقدة لكثافة سكانية كبيرة في منطقة جغرافية محددة، وارتباطها بنشاط اقتصادي وتجاري واسع، لذا فإن التطور المستمر والنمو المتواصل للمجتمعات في المدن الكبرى يفرز دائماً أنواعا مستحدثة من السلوك المنحرف. والشكل التالي يبين ذلك بوضوح:

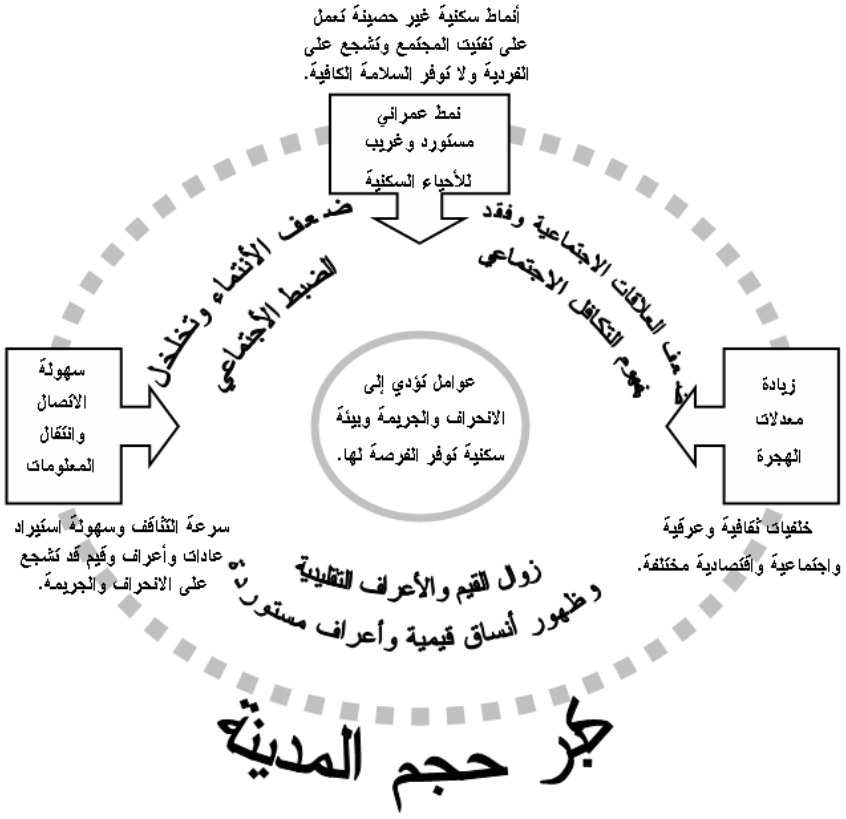

شكل (1)

العوامل المؤدية إلى ضعف مستوى الأمن في العديد من الأحياء السكنية في المدن العربية المعاصرة

(المصدر: باهمام علي بن سالم 2000)

وعندما تتسع المدينة وتصبح ذات كثافة سكانية مرتفعة يرتفع بها مستوى الاحتياجات الإنسانية مما قد يتسبب في ازدياد القلق النفسي بين الشباب، كما أن توفر سبل ووسائل الاتصال بين شتى دول العالم قد يساعد

على انتقال أنماط الانحراف من مكان إلى آخر وخاصة في المدن، كما ترسل المدينة للفرد خطاباً مزدوجاً متناقضاً تتصارعه قوى السوق الخاضعة للمال وقوى الأخلاق وتعطي الفرصة للأولى على حساب الثانية.

يتضح مما سبق أن جناح الأحداث- كشكل من أشكال الخروج على قواعد الضبط الاجتماعي- يرتبط ارتباطا مباشرا بطبيعة الحياة في المدن.

كما أن سوء التصميم والتخطيط العمراني للمناطق والأحياء السكنية وما يترتب عليه له تأثير كبير على ضعف أو فقد العلاقات الاجتماعية بين السكان وبالتالي ازدياد الفرص المتاحة لارتكاب جرائم السرقات في الأحياء السكنية. لذلك فمن الضروري الاهتمام بالمعايير التصميمية التي تساهم في خفض فرص الجناح في الأحياء السكنية، وتقويم مدى تطبيق هذه المعايير في الأحياء المعاصرة بمدينة الجزائر .

فتوجه السكان نحو الإحساس بالأمن والمشاركة في إيجاده والثقة في توفره مرتبط بالتصميم والتخطيط الفراغي والمكاني للحي السكني، حيث وجد الباحثون بعد دراسات مستفيضة أن استخدام التصميم والتخطيط العمراني هو أكثر الأساليب فعالية للتحكم في مستوى الانحراف السلوكي في المناطق السكنية، فعلى سبيل المثال، وجد أن العمارات السكنية ذات المداخل المحصورة ضمن فراغ مشترك يقلل تعرض شققها لجرائم السرقة مقارنة بالعمارات ذات المداخل غير المقيدة أو المفتوحة بغض النظر عن المتغيرات الأخرى كنوع الجنس العرقي للسكان، أو مستوى الدخل، أو الموقع (باهمام، علي بن سالم، 2000).

كما أثبتت الدراسات أن مشاريع الإسكان الضخمة التي تحتوي على عمارات عالية تشجع على ارتكاب الجرائم، لأنها تقوى الشعور لدى الأفراد بالغربة والعزلة وعدم المسئولية، وعدم الاهتمام بما يحيط بالشخص من أحداث (يوسف، وجيه فوزي، 1986).

ركزت العمارة الحديثة على مبدأ معين اعتبرته أساسيًا، وهو إمكانية أن يكون المعماري مصلحا اجتماعيا. حيث افترضت أن المعماري يستطيع أن يغير من سلوك أفراد المجتمع من خلال تغيير خصائص البيئة. ويؤكد هذا التوجه أن المعماري يعرف أكثر وأفضل من غيره، وإن من واجباته تحديد شكل بيئتنا، فهو يستطيع توفير الفرص لحياة أفضل.

فالبيئة العمرانية لا تتشكل بترتيب وتجميع الأشكال الهندسية المجردة أو الطبيعة العضوية فحسب، بل إن من واجب المهندس المعماري أن يكون واعيًا بالمفاهيم والقيم الفكرية التي تعكسها أشكال الكتل والفراغات وأنماطها المختلفة، سواء في الجانب الوصفي والتحليلي أو في الجانب التصميمي. كما أن للدراسات السيكولوجية أهميتها الكبيرة أيضًا في تأثيرها في النتاج المعماري من قبل المصممين المعماريين وأيضًا من جانب الساكن ومستخدم العمارة كنشاط إنساني حيوي.

وبالتالي فإن فهم علاقة تصميم البيئة العمرانية بالسلوك الإنساني مطلب مهم للتمكن من رفع مستوى نجاح محاولات منع وقوع الجناح، ذلك لأن نجاح هذه العلاقة يمنح السكان إمكانية التحكم والقوة اللازمة لحماية حياتهم وبيئتهم، وتعتبر معالجة الجوانب البيئية المؤدية إلى وقوع الجناح، أو المشجعة عليه، أو المهيأة له، أو الموفرة للمناخ المناسب له، أحد الجوانب التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار، لقد وجد أن تكاليف التصميم المعماري والعمراني للحد من الجناح أقل من تكاليف زيادة قوات الأمن، وأقل أيضا من تكاليف الصرف على توفير الحماية الفردية (الخاصة) للوحدات السكنية، والتي تجعلها تظهر في النهاية وكأنها حصون أو قلاع وليست مساكن.

و أهم التدابير الواجب اتخاذها في بعض الأحياء السكنية و التي نطرحها في البحث الحالي على أنها حلول لظاهرة جناح الأحداث، ما يلي:

–1 – الفضاء الوقائي:

توجد أنواع محددة من الفراغات والتشكيلات المكانية في الأحياء السكنية (مثل المناطق المتوارية والمظلمة) تشجع على حدوث الأنشطة المنحرفة، ويستطيع المعماري المطلع على أسلوب المنحرفين في الإقدام على الجناح أن يتحاشى ببساطة في تصميمه تلك الفراغات التي تدعم الأنشطة الإجرامية، فالجانح في بحث مستمر عن بيئة غير حصينة، ويتم منع الجريمة بتكوين بيئة حصينة وغير مشجعة على ارتكابها، لذا فإن استعمال التصميم المعماري والعمراني بكفاءة مهم لإلغاء المناطق السكنية غير الحصينة، فالفضاء الوقائي– على سبيل المثال — يعد نموذجاً جيداً للحلول التي تمنع الجناح في البيئة السكنية، وذلك عن طريق إيجاد بناء اجتماعي يتمكن من حماية نفسه، بحيث يكون هناك هدف واحد لمختلف العناصر التي تكون هذا الفضاء، ألا وهو إيجاد بيئة فيها روح الجماعة والشعور العام بالمسئولية، لتحقيق حياة آمنة، لأنه عندما يتولى السكان حماية أنفسهم كأفراد وليس كمجموعة فإنهم يخسرون معركتهم ضد الجريمة.

–2 – المسافة الوظيفية:

لابد على المصمم خلق فراغات خارجية تقوم بوظيفة اجتماعية، فحتى عندما تكون الشقق متقاربة جدا لابد على المصمم المعماري من توفير مسافة للتباعد بين الأفراد يطلق عليها "مسافة وظيفية"، و على الرغم من أنها مسافة للتباعد إلا أنها تحقق التقارب بين الأفراد: فتوفر الفضاء الشخصي المناسب، و تحافظ على الخصوصية، وتتيح الفرصة للعب الأطفال و لقاء السكان، و غير ذلك من أساليب الحياة الاجتماعية.

– 3 – المعايير التصميمية:

بالإضافة إلى ما سبق نستطيع استخلاص المجموعة التالية من المعايير التصميمية التي يؤدي تطبيقها، في مرحلة تصميم وتخطيط الأحياء السكانية، إلى الحد من الجناح والرفع من مستوى الأمن بها، ونشر الإحساس بالأمن لدى السكان:

أولا/ وضوح المنطقة السكنية وسهولة الدخول إليها:

إن الجناح عبارة عن مفهوم سلوكي، وهناك عدة عوامل تعزز هذا السلوك وتمهد الطريق لارتكابه ومن تلك العوامل هي وضوح المنطقة وسهولة الدخول، ويمكن اعتبار تلك المنطقة واضحة ومتميزة بالنسبة لسكانها والى من هم يسكنون خارجها عندما تضم عدة خدمات و مرافق تجذب العديد من الأشخاص إليها بسهولة دون ضوابط. والمنطقة السكنية التي تسمح بسهولة الدخول إليها توفر بذلك فرصة جيدة للمنحرف حيث تجعل الكثير من الأهداف المهمة مكشوفة لهؤلاء مما تمنح الجانح فرصة في التعرف عليها وتحديد أهدافه لارتكاب جنحته.

كما لا يرغب الأشخاص المتطفلون من اقتحام المنطقة التي تتمتع بإنارة جيدة ولا يقوم بأية محاولة خوفا من أن يكون مراقبا (حامد، فهمي السيد،1977).

و قد قام جايمس ايشيان James TIEN (1973) بإجراء دراسة حول تأثير إنارة الشوارع ليلا على معدلات حدوث الجريمة فيها، ومن خلال استمارة الاستبيان والمسح الميداني وتقارير الشرطة والأسئلة الموجهة إلى سكان الشوارع المظلمة والتي جددت إنارتها، فقد تبين أن شعور السكان بالخوف من الجريمة قد تناقص بشكل كبير، وان محلاتهم السكنية المضيئة ليلا أصبحت أكثر أمانا، حيث هجرها المجرمون وانتقلوا إلى مناطق سكنية أكثر

عتمة. وقد توصلت هذه الدراسة إلى العديد من النتائج المهمة مما دفع بالحكومة الأمريكية اعتماد نتائجها في برامج مكافحة الجريمة من خلال تصاميم البيئة (محمد توفيق محمد الحاج حسن، 2007، ص: 53).

ثانيا/ وضوح المداخل في الحي كبوابات تحدد للحي نطاق الحيازة الخاص به، وتمنحه هويته المميزة بطريقة تمكن السكان من مراقبة هذه المداخل والتحكم فيها.

ثالثا/ تنمية مفهوم الحي من خلال التأكيد على إبراز هويته المميزة وتحديد نطاق الحيازة للفراغات المشتركة به، وتطبيق نظام التدرج الهرمي للشوارع والفراغات، مما سيؤدي إلى تمكين السكان من القيام ببعض الأنشطة المشتركة خارج الوحدات السكنية وبالتالي تقوية العلاقات الاجتماعية بينهم، وتمييز الغرباء بسهولة ووضوح.

رابعا/توظيف مفهوم تنسيق الحي من خلال توظيف العناصر الحيوية، مثل الأرصفة والتشجير والإضاءة والجلسات المظللة والمحمية ومباني المرافق والمحلات التجارية، وكذلك توفير الفراغات المشتركة شبه الخاصة كمناطق تجمع ضمن الحي السكني.

خامسا/ إلغاء المناطق التي تمكن الجانح من الاختباء، مثل بقاء القطع السكنية بيضاء (غير مطورة) ومنتشرة داخل الحي وبين الوحدات السكنية.

فأكثر الفراغات المؤثرة هي التي تقع بين المباني دون أن تخصص لمبنى معين مما يسمح للغرباء باستخدامها وبالتالي تزداد مجهولية الأشخاص في الحي السكني، مما يجعل الجانحين يشعرون بالأمان الذي يفتقده الساكنون في الحي أو المبنى.

بيبليوغرافيا

أ- المراجع العربية

1. أحسن مبارك طالب (2010): الجريمة في الوسط الحضري، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.
2. باهمام علي بن سالم (2000): توظيف التصميم العمراني للحد من الجريمة في المناطق السكنية. مجلة جامعة أم القرى للعلوم و الطب والهندسة. المجلد 12 العدد 2.
3. بلقاسم، رمضان (1990): البعد الإنساني في العمارة، ليبيا.
4. حامد، فهمي السيد(1977): المسائل الاجتماعية في الإسكان والتخطيط الحضري، مطبعة الأهرام، القاهرة.
5. رمسيس بهنامز(1970): علم الإجرام، الإسكندرية: منشأة المعارف.
6. زهرة جاسم (1992): مشكلة الأحداث في دولة الإمارات، ندوة الثقافة و العلوم، دبي.
7. الشامري (1988): دراسة وصفية على الأحداث المنحرفين بدار الملاحظة بالرياض.
8. شمسة محمد عبد الحميد (1996): ظاهرة انحراف الأحداث من منظور علم الاجتماع في ندوة انحراف الأحداث، أبو ظبي.
9. الطاهر أحمد الزاوي (بدون سنة): ترتيب القاموس المحيط، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار الفكر بيروت.
10. عبد الرحمان محمد أبو توتة (1999): علم الإجرام، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث.
11. عبد المعطي أحمد (1994) في أحمد مصطفى العتيق: المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثامن و الثلاثون، العدد الأول (2001).
12. محمد توفيق محمد الحاج حسن (2007): أهمية و دور الأمن الحضري في الحد من الجريمة في المدن الفلسطينية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين.
13. منى جمعة عيسى البحر (1991): الأسرة و جنوح الأحداث في مجتمع الإمارات، جمعية الاجتماعيين، الشارقة.
14. موزة سعيد زعل (1992): جنوح الأحداث في دولة الإمارات، ندوة الثقافة و العلوم، دبي.
15. يوسف، وجيه فوزي (1986): المهندس المعماري والناس، مجلة المهندسين، العدد 380 القاهرة.

ب- المراجع الأجنبية

16. Cusson, Maurice (1992) : L'Analyse criminologique et la Prévention situationnelle, » Revue Internationale de Criminologie et de Police Technique, Vol. XLV, No.20.
17. Cusson, Maurice (2000) : La Criminologie, (3me – ed), Hachette, Paris.
18. Gordon, Marshall (1996): Dictionary of Sociology, Oxford, University, Press, Oxford, p. 547.
19. Holloway, S. and Valentine, G. (ed) (2000): Children's geographies: playing, living, learning, London: Routledge.
20. James, A. and Prout, A. (1990): James, A., Jenks, C. and Prout, A. (1998)
21. Khalifa, H. (2001): Changing Childhood in Saudi Arabia: a Historical Comparative Study of Three female Generations, Ph.D. Thesis, University of Hull.
22. Shaw, Clifford; McKay, Henry (1942): Juvenile Delinquency and Urban Area, Chicago University Press. Chicago.
23. Site internet: (http://www.omania.net/avb/printthread.php?t=32396)

أثر الضغط المهني على حوادث العمل

د / لويزة فرشان
جامعة الجزائر –2– / بوزريعة

مقدمـــة

يعتبر موضوع حوادث العمل من المواضيع الهامة التي تتطلب البحث فيها للتعرف على العوامل الأساسية المؤدية إليها.حيث يعود الحادث بالضرر على كل من المنظمة والعامل نفسه بخسائر معنوية وجسدية ومادية، إذ ازدادت حدة وتداول حوادث العمل في أوساط العمال داخل أماكن عملهم بمختلف أنواعها. فكثرت الإصابات والأمراض المهنية بسبب العراقيل المرتبطة بالمنظمة، تعتبر طريقة الإشراف على العامل أكثر تأثيرا على أمراض القلب، والانتحار واضطرابات الشخصية، والتحرش في أماكن العمل (Annie thébaud-Mony,2002; p10) لينتهي الأمر بالعامل المهدد إلى الاستسلام للمشاكل والضغوطات بطريقة مؤذية له ولغيره، فهو يصبح في هذه المواقف يشعر بالإهانة والاحتراق النفسي من جراء الصدمة الآتية من ثاني محيط يعيش فيه الفرد ويقضي فيه أغلب أوقاته بعد محيطه الأسري. زيادة على هذا يتأثر العامل بدرجة كبيرة بكل ما يصدر عن مكان عمله سلبًا أو إيجابا باعتباره مكسبا للرزق، والأمن الاجتماعي ومركز الاجتماعي بين الآخرين، هذا، كما ينعكس الوضع الذي يكون عليه العامل ببيئته المهنية على تقديره النفسي، حيث يشعر بأنه في صحة جيدة، وبأنه ينتمي لجماعة، ومنتجا.

وعليه، فإنه أي خلل يصدر عن هذا المحيط، أو خطأ في حق العامل يترك فيه آثار بالغة الأهمية، فقد تظهر على شكل سلوكات سلبية، أو ردود أفعال تخريبية، كما قد تكون مصدرا للقلق والضغوطات العالية والتي تؤدي به في الأخير إلى الوقوع في الأخطاء المهنية والحوادث المتكررة. وفي كل الحالات يعتبر إهمال هذه الظاهرة خسارة للطرفين، فقد يتسبب العامل في إتلاف ممتلكات المنظمة، كما قد تؤثر في الصحة النفسية للموظف. وفي هذا الصدد يصرح فيليس Phyelis Gabriel, 2000 بأن العمال يعانون من القلق، ومن الضغط. فيغادرون عملهم وهذا نتيجة للحالة العقلية المتدهورة التي يعانون منها (B.I.T, 2000, P4). إذ يعتبر الضغط المتولد عن المنظمة التي ينتمي إليها العامل سببا في تدهور كيانه ككل ينتهي به المطاف إلى التسرب المهني، وقد جاء في تقرير للمكتب الدولي للعمل لسنة 2000 إن الصحة العقلية في عالم الشغل هي في خطر، حيث يرى التقرير أن العمال يعانون من الضغط المهني ويعانون من القلق لدرجة أنهم يغادرون مكان عملهم. كما تبين من دراسات في فنلندا في 2000 أن 50% من طبقة العمال تعاني من أعراض القلق والضغط وحالات الانهيار

واضطرابات النوم. أما في ألمانيا فقد تبين في إحصائيات 2002 أن 7% من العمال الذين يسارعون للتقاعد المبكر، يعانون من أعراض عصبية.

إن الحالة العقلية للعامل، والصحة النفسية بصفة خاصة تلعب دورا هاما في استقرار العامل، وتوافقه النفسي في حياته اليومية سواء كان ذلك في محيطه الأسري أو المهني، فالعمل مهما كانت طبيعته يتطلب استعدادات جسدية وفكرية ونفسية إذ تعتبر مركبات متكاملة فيما بينها تتأثر الواحدة بالأخرى، كما يؤثر كل عنصر على بقية العناصر الأخرى، فالحالة النفسية التي يكون عليها العامل تعكس نشاطاته وقدراته، فقد تتوفر لدى العامل خبرات خاصة بمهنة معينة، لكنه قد يقع في حادث ما إذا ما كان يعاني من توتر أو ضغط ما. مهما كان مصدره وتأتي المنظمة التي يعمل بها العامل في مقدمة العوامل المؤثرة على سلوكاته واستجاباته المختلفة، وقد بينت البحوث التي أجريت في هذا الميدان، والتي تعود إلى فترات بعيدة، أن المحيط المهني يلعب دورا هاما في التأثير على نوعية العمل، وقد أثبتت بحوث إلتون مايو أن العامل يتأثر بظروف العمل المختلفة، ففي حالة ضعف هذه الظروف يتدهور الإنتاج وتقع الحوادث، لأن هذه الأخيرة مرتبطة بالمناخ الذي يكتسي المنظمة، حيث كلما زادت المشاكل والضغوط، كلما ارتفع عدد هذه الحوادث بها، وتعتبر الحوادث مؤشرا على سوء التوافق المهني (فرج عبد القادر طه، 1996، ص285).

يحدث سوء التوافق بسبب تضارب المصالح بين طرفي العلاقة عامل – منظمة، كما يؤدي التباين في المصالح ومتطلبات كل من العامل وأهداف المنظمة، حيث يوضح فرتش Fretch أن الضغط يتولد بسبب عدم توفر التوافق والانسجام بين كل من قدرات واستعدادات العامل، ومتطلبات المهنية التي يشغلها، كما ينتج ذلك بسبب طموحات العامل وما يقدمه له محيطه المهني من علاوات وخدمات وتقدير. فحوادث العمل وإصابات العامل تتأثر بشكل كبير بسلوك العامل وتصرفه، بل كذلك بحالته النفسية والبدنية، فالعامل هو المحدد الأكثر تأثيرا في وقوع الحادث أو عدمه (راشد محمد القحطاني، 2007، ص 20).

كما سيتضح من خلال بعض النتائج، ومن بينها التي قام بها كيلي Kelly أن شخصية العامل تلعب دورا في عملية التعرض للحوادث بطريقة غير مباشرة، وتلعب عملية الاستهداف دورا في ذلك. كما اتضح أنه رغم تعرض العمّال لنفس المثيرات، إلا أنهم يختلفون فيما بينهم من حيث عدد الحوادث التي يتورط كل منهم فيها. كما تشير أراء حول الموضوع إلى أن هناك اختلافات بين العمال في طريقة مواجهتهم للضغط، وبالتالي يقع بعضهم في حوادث وخيمة بالنسبة للمنظمة، بينما يتسبب آخرون في إصابات جسدية نحوهم.

إشكالية البحث:

يعرف العالم بأسره منذ التسعينيات ضغوطات يعاني منها أفراد من مختلف الأعمار والمجتمعات، حيث أدت بهم إلى التعرض للعديد من الأمراض النفسية والجسدية والمهنية، حيث أصبحت بعض المهن تسارع في تعرض العمال الذين يقومون بها إلى الضغوط، وبالتالي الوقوع في حوادث في أماكن عملهم، وخاصة مهنة التدريس والشرطة والبنوك، والمصانع الكبرى. حيث تنعكس كل الصعوبات المرتبطة بمثل هذه الأعمال على نفسية العامل، وبالتالي تحدث تأثيرا على أدائه من حيث الكم والكيف، والأمن.

اختلفت الآراء المفسرة للحوادث التي تصدر عن العامل، وأصبحت المنظمة تلوم الموظف وتسند له الأسباب، وتحمله مسؤولية الوقوع في هذه الأخطاء المهنية، ومن جهة أخرى يرجع العامل الدواعي

إلى الظروف التي يعمل فيها، أو طريقة الإدارة في تعاملها مع العمال، حيث تصل الحوادث في بعض الحالات إلى نتائج كبيرة وخطيرة على كل من العامل والمنظمة.

يرى بعض الباحثين، ومن بينهم كل من هوبس Hoppos **وتلمان** Talamann أن سبب وقوع حوادث العمل يكون في كثير من الحالات بسبب تصرف خاطئ من طرف العامل نفسه، بينما ترجع فئة أخرى من الباحثين السبب إلى عامل تكنولوجي يتمثل في تعقد الآلات، وتقنيات التعامل معها، والتي تفوق قدرات ومستوى تكوين العامل، وترجع بحوث أخرى الأسباب الرئيسية لارتكاب العامل للحوادث إلى عوامل شخصية تعود إلى إهمال العامل لعمله أو إلى ضعف دافعيته للبقاء في مكان عمله، ثم تأتي بحوث أخرى لتفسير وقوع الموظف في الحوادث إلى الظروف الفيزيقية التي تحيط بالعامل. هذا، كما تأتي آراء أخرى لتفسر بأن الأفراد نوعين، أحدهما سعيد الحظ، والآخر تعيس الحظ، فهناك الذين لديهم حصانة ضد الحوادث أثناء تواجدهم في مكان عملهم أو محيط آخر، كما يوجد من لا يحظى بهذه الميزة، ولهذا تجد هذه الآراء أنه تكثر قابلية الوقوع في الحوادث، حيث يتبين من بعض الدراسات كتلك التي قام بها عبد الفتاح خليفات أن العمال الذين يشتغلون بقطاعات ذات طابع خدماتي هم أكثر عرضة للضغط.

كما يؤكد باحثون آخرون بأن هناك بعض العوامل المرتبطة بمنصب العمل هي التي تولد الضغط، وبالتالي الوقوع في الحوادث ويكون هذا من خلال شعور العامل بالتعب الزائد، وعبئ العمل أو انعدام التواصل، وسوء اتخاذ القرارات، وكلها عوامل تعمل على شعور العامل بالاحتراق النفسي، والذي يكفي لأن يكون مصدر للحوادث المهنية من خلال عدة طرق. ومن بين نتائج هذه الضغوط ما يقع في اليابان كآثار على العمال، حيث تصرح وزارة الصحة اليابانية بوجود مرض اسمه كاروش وهو يعتبر من أكبر الأمراض القاتلة، حيث تظهر أعراض من التوتر والارتفاع في ضغط الدم والجلطة، كما توضح الدراسات أن سبب هذا المرض الرئيسي هو الإفراط في العمل، حيث يقدر المرض بعشرات الآلاف من العمال، وأغلبهم من المديرين والمشرفين في الأربعينيات والخمسينيات من العمر، حيث أدلت وزارة الصحة اليابانية في 2004 أن المرض يصل إلى 300 ألف ضحية سنويا.

إهتم **كاهان** Kaham وآخرون بعامل منصب العمل كمسبب للحادث 1969، فتوصل إلى أن الضغط يؤثر على أداء العامل فيؤدي به إلى ارتكاب الأخطاء. نفس النتائج توصل إليها ألمير 1995، وفي نفس الصدد توصل باريك Pareek1976 إلى أن الدور الذي يتقلده العامل في محيط عمله قد يؤدي به إلى الضغط، وبالتالي إلى ارتكاب الأخطاء والحوادث، وقد يرجع هذا إلى إما عملية اتخاذ القرارات والمسؤولية التي يتطلبها هذا الدور، كما يرجع السبب إلى الصراع بين الدور الذي يحتله العامل وعوامل أخرى كالشخصية أو القيم والمعايير الجديدة التي يتطلبها هذا الدور، والتي قد تتنافى مع نظرة واتجاهات هذا الفرد – العامل – وهذا ما يؤدي إلى ما يسمى **بالأعياء المهني** Burnout وهي تكون على شكل تعب وإرهاق وضغوطات تنتاب هذا العمل، وتمنعه من التركيز، وبالتالي الوقوع في ارتكاب الأخطاء مهما كان نوعها معنوية أم جسدية.

تختلف الآراء حول أثر الضغوطات التي يتعرض لها العامل، وعلى الحوادث التي يرتكبها في محيطه المهني، فمنها من ترجعها إلى المنظمة ومنها من ترى بأنها مرتبطة بالعامل نفسه، ويأتي البحث الحالي للوقوف أمام هذا الموضوع محاولا الإجابة على بعض التساؤلات المرتبطة بالموضوع، حيث يبحث

إذا ما كانت هناك علاقة وطيدة بين الضغط الذي يتلقاه العامل من محيطه المهني وقيامه بالأخطاء والحوادث؟ وهل نفس الضغوط تؤدي إلى نفس الأخطاء لدى عمال مختلفين.

وعليه تأتي فرضيات البحث على النحو الآتي.

1 – هناك علاقة بين الضغوط وارتكاب العمال للحوادث.

2 – هناك اختلاف بين العمال في ارتكابهم للحوادث.

فرضية البحث: حتى يتسنى لنا العمل في إطار منهجي يجب التفكير في وضع فرضية تساعدنا على الحكم والتنبؤ المسبق لمتغيرات البحث الذي هو بصدد الدراسة، وعليه تصاغ الفرضية كما يلي:

- يوجد فرق في الضغط بين مجموعتي المتربصين،
- يوجد فرق بين مجموعتي المتربصين في قيامهم بالحوادث.

أهداف البحث: يهتم البحث الحالي بمعرفة إذا ما كانت الضغوط التي يتلقاها العامل أو المتربص في ميدان عمله، قد تؤثر في أدائه لعمله، وجره للقيام بأخطاء وحوادث في عمله. كما يهدف البحث إلى التدقيق في إذا ما كانت هناك فروق بين المتربصين الذين يتلقون الأوامر من المدرب الصارم، والذين يشرف عليهم مدرب مرن.

قبل التطرق للموضوع يجدر بنا إعطاء نظرة حول المفاهيم النظرية المتغيرات البحث حتى يتسنى لنا فهم الموضوع في إطار مفاهيمي محدد خاص بالموضوع.

* **الضغط:** يعرفه حسين. ع.ف. على أنه أشياء مختلفة تحدث لأشخاص مختلفين، وما هو ضاغط لشخص معين، ليس بالضرورة ضاغط لشخص آخر (حسين علي فايد، 2005، ص 195).

* **حوادث العمل:** يعتبر حادث الشغل أو بمناسبته لكل عامل عندما يكون في خدمة صاحب عمل أو أكثر (مصطفى صخري، 1998، ص 12).

* **حوادث العمل:** يعرفها عباس بأنها الوقوع المفاجئ اللا-إرادي، وحدوث إصابات جسدية (عباس محمود عوض، 1971، ص 26).

المفاهيم الإجرائية للبحث: يركز البحث على التعامل واستخدام كل من مفهوم الضغط المهني، وحوادث العمل. حيث تحد كما يلي:

1 – الضغط المهني: يقصد به في البحث، أساليب المدرب شديدة الصرامة نحو المتربص، كالغضب، السخرية والصراخ والاستهزاء من المتربص.

2 – حوادث العمل: تتمثل في الأخطاء الصادرة عن المتربص أثناء عمله، ككسر المعدات، التعليم بطريقة خاطئة، إعادة تركيب القطع الإلكترونية بطريقة خاطئة، إلخ...

3 – المدرب التسلطي الصارم: يتمثل في تقديم التعليمات والأوامر بأسلوب شديد الصارمة والتسلط مع أسلوب للخشونة، وعدم التسامح مع المتربصين في حالة ارتكاب الأخطاء، ويغضب، إلخ...

4 – المدرب اللين: وهو الذي يلجأ إلى أسلوب مرن مع المتربصين، ويقدم التعليمات بطريقة لينة خالية من القسوة، لا يستخدم السخرية ولا الغضب إلخ...

*** أنواع الضغط المهني ، و مدى أثرها على الأداء :**

تبين للعديد من الباحثين أن الضغط المهني المتولد عن محيط العمل، أنواع معينة، وفيما يلي ذكرها.

– **الضغط الإيجابي/التكيفي:** وهو يتمثل في الاستجابة التي تحرك أداء الشخص السليم لوظائفه، وهو مفيد في الخلق والإنتاج وعمل التغيرات الضرورية في أسلوب الحياة. إن هذا النوع من الضغط يعتبر كحافز أو منبهه يحث العامل على بذل جهود أكثر أو الانتباه لما يفعله في مكان عمله، لكننا لا نستطيع الحكم على أن كل العمال يفسرون هذا النمط على أنه بسيط.

لا نستطيع الحكم على أن كل العمال يفسرون هذا النمط على أنه بسيط ورغم أنه لا يؤدي إلى نتائج سلبية، إلا أنه في حالة تطوره أو مرافقته لمشاكل أخرى، قد تكون شخصية، سوف يدفع العامل للقلق والشعور بالانزعاج والفشل، وبالتالي ينتهي بالعامل إلى ارتكاب الأخطاء.

– **الضغط السلبي:** وهو المشاكل المختلفة التي تظهر على شكل ضغط، حيث يؤثر على الصحة العقلية والجسدية والنفسية للعامل، ففي حالة الاستمرار في وضعية الضغط والإفراط، يتولد عنها الاكتئاب، حيث يصبح الضغط المثير الرئيسي لسوء صحة العامل، ومن هنا يتدهور الموظف وبالتالي تنعكس هذه الوضعية على أدائه المهني، فقد يقع في أخطاء متكررة، كما قد يتسبب في حوادث العمل قد تكون متفاوتة الخطورة إما، على العمل بحد ذاته أو على جسده هو.

– **التحرش الجنسي والمعنوي والابتزاز:** يعتبر كل من ينظر المهتمون بموضوع التحرش الجنسي والمعنوي والابتزاز على أنها أنواع من العنف المطبق ضد الأفراد. إذ يخلف لدى المعتدي عليه آثار نفسية خطيرة، بدءًا بتكوين مخاوف وقلق وصدمات، مما يولد لدى الفرد ضغوطات يومية تمنعه من مواصلة العيش بطريقة معتدلة.

فالتحرش الجنسي أو المعنوي، والابتزاز سلوكات يتلقاها العمال في محيطهم المهني، حيث يطبق هذا النوع من المعاملات أو الممارسات السلبية على العاملات النساء بمختلف أعمارهن، من طرف الرئيس المباشر، سواء كان ذلك بالقطاع الخاص أو العام، إذ يستغل الرئيس أو المدير مركزه في العمل ليعتدي على العاملة جسديًا أو معنويًا، وقد يصاحب ذلك بالتهديد بالطرد من مكان العمل أو من تلقي العقوبات، والحرمان من بعض الامتيازات التي تقدمها المنظمة للعمال، والتي تعتبر كحافز للعامل مهما كان سنه أو منصب عمله، وعليه، يعمل هذا التهديد أو الحرمان على توتر العامل باعتباره عنصر ضغط، ويزداد تأثير هذا الأسلوب من المعاملات إذا حدث أن كثر تكراره على نفس العامل أو العاملة، وبالتالي فهو يعمل على شل طاقة العامل وتكوين شعور بالإحباط واليأس، والشعور بفقدان الثقة في الآخر، مما يعمل على تذبذب تفكير العامل وهذا ما يؤدي به إلى الوقوع في الأخطاء في مكان عمله، وقد تزداد حدة هذه الأخطاء لتنتهي بارتكاب حوادث خطيرة في مكان العمل.

علاقة الضغط بالحوادث:

يتعامل العامل في محيطه المهني بعدة مكونات تنظيمية تتعامل فيما بينها لبلوغ أهداف ترسمها المنظمة بصفة خاصة، ويحدث أن تتعارض أهداف العام مع متطلبات المنظمة ككل، مما يتولد عنها توترات وصراعات لدى هذا العامل، مؤثرة بذلك على كيانه كفرد وعلى أدائه وقدراته المهنية.

حيث تبين من خلال بحوث عديدة في الميدان، أنه عند تعرض العامل للضغوطات في محيطه المهني، يجره هذا الضغط إلى الوقوع في حوادث قد ترجع عليه سلبًا، كما قد تؤثر على المنظمة، وقد تتسبب بعض الحالات في مرض العامل، زيادة على هذا، بإمكان الضغط أن يتسبب في حادث معين، حيث يضعف العامل مما يعرقله التعب عن التقدم في عمله، إذ تبدأ العملية بعدم الرغبة في العمل، وانخفاض في الرضا، مما يؤدي به إلى التعرض لاضطرابات جسدية ونفسية، وهذا ما يتولد عنه آثار سلبية على صحة العامل وأدائه، وعلى المنظمة التي يعمل فيها. فعند وصول الضغط إلى الدرجة الحادة، يحدث التأثير على الموظف ككل، إذ تصل الخسائر الناتجة عن حوادث العمل إلى ملايين الدينارات على المنظمة. إذ يعتبر الضغط هو العامل الرئيسي في كثير من المشاكل التنظيمية، وخاصة مشاكل الأداء المنخفض ودوران العمل والتغيب والتسرب الوظيفي (جمعة سيد يوسف، 2004، ص 26).

يحدث أن يختلف العمال في استجاباتهم لمواقف مهنية ضاغطة في نفس المستوى من الحدة أو الطبيعة فقد يستجيب أحدهم بطريقة عنيفة مباشرة، كأن ينتقم لنفسه، فيواجه رئيسه بأساليب تتنافى مع القانون الداخلي للمنظمة، أو يقوم بإتلاف الممتلكات، من آلات ومعدات تابعة للمصنع الذي يعمل فيه. كما تصدر عن زميل له في العمل ردود أفعال ذات مواقف سلبية، كما تحدث بطريقة لا إرادية إذ يقع العامل تحت جملة من الضغوط، مصاحبة بالشعور بالإعياء وفقدان الثقة في رؤسائه، وبالتالي يفقد توازنه النفسي، مما يضعفه عند مواجهة المشكل، فيترك المجال للوقوع في الحوادث بمختلف أنواعها وحدتها

ومن شأن هذه الحوادث أن تؤدي بالعامل إلى العطب الجسدي الجزئي أو الكلي، كما باستطاعتها التسبب في الجهد النفسي والاكتئاب أو الشعور بالاغتراب.

إذ تؤثر متطلبات مهنية معنية ومواقف الضغط على كل من الحالة النفسية للعامل والفكرية والعلائقية مما تسبب تغيرات في عمليات الأداء كمًا وكيفًا وعلى الصحة النفسية والعقلية للعامل، تؤدي به للانهيار بكل أنواعه إذا لم يجد هناك توازنا وتوافقا أو تكيفا لدى هذا العامل. فالفرد بحاجة للتكيف مع التغيرات اليومية التي يفرضها المحيط (Dominique chalvin, 1985, p.8).

إن عملية التكيف هذه تعتبر كمعبر سلام للعامل، حيث في حالة حصوله عليها، يتفادى الوقوع في الحادث وفي المقابل قد تؤدي بعض الحالات بالعامل إلى الفشل في مواجهة الضغط، والقيام بالحوادث حتى في حالة تشابه الضغوط.

وقد فسرت بعض البحوث هذا التباين بين العمال في ردود أفعالهم بما يسمى **بالاستهداف** Pronencess.

الاستهداف للحوادث:

يرى هينرينش أن العامل الإنساني يسبب 90% من الحوادث، وأن 10% فقط ترجع لأسباب غير إنسانية كالآلات والهياكل البنائية. كما تبين من خلال البحوث التي توصل إليها كل من غرين Green وود Wood أن هناك أفراد يقومون بالحوادث أكثر من غيرهم، هذا كما يرى بعض الباحثين أن هناك ثلاثة أنواع من الاستهداف، ويتمثل النوع الأول في **الاستهداف العصابي**Neurotic pronencess وهم الأفراد الذين يعانون من أمراض نفسية.

أما النوع الثاني، وهو استهداف غير عصابي ناتج عن أثر العوامل الشخصية للفرد، والتي لا تتسم بطابع عصابي، كنقص الذكاء وقلة الخبرة والمزاج، وكذلك التأزم النفسي، وعيوب في بعض الحواس.

أما النوع الثالث، فهو يقوم بالجمع بين النوع العصابي والنوع غير العصابي، ويتميز به من يعانون من أمراض نفسية، حيث تتسم شخصياتهم بالنقص في بعض القدرات. كما يلعب العامل العلائقي دوره في الوقوع في الحوادث بسبب العلاقات القائمة بين العمال، وفي هذا الصدد توصل عباس محمود عوض 1971 إلى أن هناك علاقة بين المكانة التي يحضى بها العامل في المنظمة وحوادث العمل، وسوء التوافق، وهذا ما يؤكد على التأثير الذي يتركه التعب النفسي والقلق في نفسية العامل.

الاستهداف والتعرض للحوادث: إن التعرض للحادث هو جملة من العوامل الشخصية والخارجية والاتفاقية التي تفضي إلى الحوادث (عباس محمود عوض 1971، ص 53) حيث يرى هذا التحديد بأن العامل الذي يتعرض للحوادث هو الذي يتركب الأخطاء ويتعرض إليها باستمرار، كما يرى إيزنك Eysent يرجع إلى الشخصية.

أما المستهدف: فهو العامل الذي يتعرض كثيرا للحوادث، ويرى **غراي** Gray في هذا الموضوع، أن الفرد المستهدف هو مولود بهذه الصفة.

تختلف كذلك درجة الاستهداف من شخص لآخر، وتختلف درجته لدى نفس الفرد من عمل لآخر. لإتجاه التحليل النفسي رأيًا آخر للحوادث، حيث يرى أنها ليست حوادث، بل تقع في الغالب نتيجة الناحية الميزاجية الخاصة بالضحية نفسها، فالملاحظ أن الحادثة يكون حدوثها عرضيا، وخارج تحكم العامل، كما يرى **مينجر** Menninger.K أن الحوادث تقع قصديًا من طرف العامل، وهو بهذه النظرة ينفي عامل التأثير النفسي، والدافعية للانجاز والعمل، وطموحات العامل، وهي عوامل تؤثر بدون شك في الحالة الجسدية والنفسية، وقد تبين من خلال بحوث في الميدان، ومن بينها تلك التي قام بها Harston 1990 أنه عند تعرض العامل للضغط يتعلق الأمر بطبيعة ودرجة استعداداته والحالة النفسية للعامل وطبيعة مزاجه، وكذلك قدراته الفكرية ويشير مارشال Marichal 1994 إلى أن استجابة الفرد لنتائج الضغط تتوقف على طبيعة هذا الفرد، حيث يصنف الأفراد إلى نمطين إذ يوصف الفرد ذو النمط أ (A) بأنه طموح تنافسي، يعمل تحت ضغط الوقت، ومعرضا للنوبات القلبية.

أما نمط الفرد ب (B) فهو يوصف بأنه أقدر على الاسترخاء، وغير طموح، ويتعامل مع الوقت بموضوعية.

كيفية حدوث الحوادث:

يتعرض العامل وهو يؤدي مهامه إلى بعض المشاكل الخارجية – التي لا يتسبب هو فيها– حيث تتمثل في الضغوطات الناتجة عن مصادر متنوعة ناجمة عن محيط المنظمة تؤثر فيه بطرق مختلفة، وخاصة إذا تكرر حدوثها، ويرى سمير أحمد عسكر 1988 في هذا الصدد، أن ضغط العمل المستمر له آثار جانبية سلبية على صحة الفرد البدنية والعقلية، بحكم تأثيره الجانبي على كل آليات المواجهة التي يمتلكها العامل. إذ يشل العامل عند محاولته للتصدي لهذه الضغوط. ولهذا جاءت نتائج عدة بحوث لتؤكد على أن الضغوط هي مثيرات Stressors، تؤثر على العامل من كل النواحي بطرق سلبية لأنه كما يفسر راشد أحمد 1992 أنّ الضغط هو نتيجة للتفاعل بين مسببات الضغط والخصائص الشخصية التي يتسم بها العامل.

تتحدد طرق وأساليب تعامل العامل مع هذه الضغوط ببعض الآليات قد تكون لا إرادية. ففي أثناء رد الفعل المرتبط بالشعور بالخطر، يستعد الجسم لمواجهة تحدي مادي متوقع، فيحتفظ بموارده من أجل مواجهة أي حدث، وهذه الحالة من الاستعداد تعني إهمال وظائف الجسم الأخرى مثل الصيانة وإصلاح ما يتلف. فالوفاة القلبية المفاجأة تحدث جزئيا بسبب الطريقة التي يبدي بها بعض الأشخاص ردود أفعالهم اتجاه ظروف الإجهاد العصبي اليومي (عبد الرحمن توفيق، 1988،ص 13).

كما يؤثر الضغط على سير بقية أعضاء الجسم إذ أن ابداء ردود الفعل الحادة ترتبط في معظم الحالات بظاهرة منفصلة يطلق عليها التوتر الزائد المزمن Chronic Hypertension وهي عبارة عن ثبات ضغط الدم عند مستوى مرتفع في وضع الراحة، تحت هذه الشروط والأوضاع يقف العامل عاجزا أمام القيام بعمله على أحسن وجه، وبالتالي يكون عرضة للحوادث سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

تساهم عوامل أخرى في الإنقاص من فعالية قدرات وخبرات العامل مهما كانت طبيعة عمله، ففي حالة استمرار حدة الضغط، أو إذا كان العامل غير قادر على التصرف بطريقة سلمية، نجده يمر في هذه الحالة بمرحلة الإنهاك، وعند مرور العامل بهذه المرحلة، يقع في حالة عدم التركيز، وبالتالي يخطئ في مكان عمله، وعندها يفشل في مواجهة الضغط المتولد لديه في محيط الضغط المتولد لديه في محيط عمله، حيث تتحكم بعض العوامل الشخصية في نظره وإدراك العامل للمواقف التي يتواجد فيها، وكذا لتفسير استجاباته للمشاكل التي تعترضه خلال أدائه لمهامه. ففي بعض الحالات والوضعيات التي يصاحب العامل في مكان عمله، بصاحب نظرة العامل لقدراته وتقديرات سلبية بانفعالات متوترة، مما يتولد عنها ضغوط وملل ونقص في الدافعية مكونة بذلك ما يطلق عليه فولكمان مفاهيم خاطئة عن العالم المحيط به، وبالتالي تدفعه للوقوع في الأخطاء المهنية.

أثر الضغط على الحوادث:

يعتبر وقوع العامل في الحادث انعكاسا للمكونات المعرفية التي يكونها العامل عن بعض الأشياء، إذ يقوم هذا الأخير بتقييم الإمتيازات التي يحصل عليها من خلال قيامه بعمله، والفوائد المعنوية المتحصل عليها من خلال الأهداف التي كان قد رسمها لهذا المنصب، حيث يرى كل من **بارون** Baron **وموبينغ** Mowbing إن الضغط عملية إدراكية وحصيلة لمدى أهمية الموقف حسب الإدراكات الذاتية للعامل، كما يعتبر الضغط بأنه عملية تكيف قدرات الفرد مع موقف معين، حيث قام **هيرسي** 1936، Hersey ببحث حول أثر الحالة الانفعالية للعامل ونتائجها، فوجد أنها مرتبطة بحوادث العمل، وهي تعتبر حالة إنفعالية مكتئبة Lowémotion states، حيث تتصف بالحزن والخوف والشك في قدراته، ونظرة الآخر له، كما تتسم بالغضب. ويوضح هيرسي في هذا الشأن أن هذه الحالة تمنع العامل من استخدام إمكاناته الخاصة في معالجة المواقف التي يتعرض لها بكفاءة مناسبة، إذ يؤدي التعرض المستمر والشديد للضغوط إلى الاضطرابات، مما يدفع بالعامل إلى إهدار طاقة كبيرة لمواجهة هذا الضغط، وحين تنفد طاقة العامل، تصدر عنه ردود أفعال سلبية مؤدية بدورها إلى الأخطاء أثناء قيامه بعمله أو إلى الوقوع في حوادث العمل، وقد نصل نتائج هذه الأخطاء إلى إجابات وإتلاف كبيرين في منصب العمل.

قد تتسبب حركة تبدو عادية، أو تبدأ حوادث العمل بسلوكات بسيطة لتصل إلى الحوادث، فالضغط يؤدي إلى اختلال السلوك، وبالتالي ينتج عن ذلك عدم الاستقرار والأمن، إضافة إلى الشعور بالتفاهة للحياة مع رفض مشاركة الآخرين في أفكارهم ونشاطهم (أمال محمود، 2002، ص 65). إذ تبين لكل من برنمولد Brainmuler وجرزيس Jerryssis في 1982 بعد دراسة لهما عن آثار الضغوط على جماعة العمل، توصلا فيها إلى أن أكثر أنواع الضغوط تأثيرا على الأفراد، هي الضغوطات المتعلقة بالعمل ومشاكله، كما تبين لهما أن العمال المتقاعدين كانت نسبة الضغوط منخفضة مقارنة مع العمال الذين يشتغلون. فحين يشعر الموظف بالتعب، وهي طريقة لاإرادية يستجيب لها الجسد بإستعداداته العقلية والبدنية لأي دافع (هارون توفيق، 1999، ص 17). فالضغط المهني

يتطلب استعدادات توافقية من طرف العامل حتى لا يتعرض إلى ردود أفعال انفعالية وعضوية وعقلية قوية. فالاستجابة للضغوط لا تتوقف على جهاز العضوية، لكن يزداد تأثيرها على الوظائف المعرفية، وهذا لأنها ذات علاقة بالأفكار التي يبنيها الفرد عن مكان عمله، وعن طبيعة المحيط الذي يتفاعل معه. كما تلعب التوقعات التي يكونها العامل عن المجهودات التي يقدمها في شغله، مقابل ما يحصل عليه للقيام بهذا العمل، كل هذه العناصر والمراحل تتحول إلى ضغوطات إذا أستاء العامل من سوء تعامل المنظمة معه. يحدث في بعض الحالات أن يحاول العامل جاهدا العمل بهدوء وبدون مشاكل، لكنه يفاجئ بصعوبات وعراقيل تواجهه، وعلى كل تفكيره،

فالضغوط هي أحداثا تتحدى الفرد وتتطلب منه التكيف الفيزيولوجي أو المعرفي أو السلوكي (Oltmanns, 1998; P287).

فالمحيط المهني الذي يعمل فيه العامل- مهما كان منصب عمله- يعتبره مصدر سعادته ورضاه المعنوي والمادي، فأي تقصير في حق العامل صادرا من طرف هذا المحيط، يؤثر لا محالة فيه، مؤديا بذلك إلى شعوره بالاغتراب عن مكان عمله، وبالتالي يستاء محاولا بذلك الابتعاد عنه، فالشخص سيء التوافق لا يتغيب كثيرا فقط، لكن يبدو أيضا أنه تكون له إصابات أكثر، ومشاكل تتعلق بمخالفة النظام، ومشاكل تؤثر على انتظام العمل (فرج عبد القادر طه، 1986، ص 53).

* **منهج البحث:** نظرًا لطبيعة الموضوع، لجأت الباحثة لاستخدام المنهج التجريبي، حيث تم البحث تحت ظروف تجريبية، حيث تتدخل الباحثة في كيفية توزيع وحدات العينة طبقا لطبيعة المتغير المستقل، والذي يتمثل في أسلوب المدرب.

* **عينة البحث وخصائصها:** تمثلت عينة البحث في متربصين من جنس الذكور في شركة خاصة للإعلام الآلي بباب الوادي بالجزائر العاصمة، وعددهم 60 متربصًا. تم اختيار وحدات العينة بطريقة عشوائية.

* **أدوات جمع البيانات:** نظرا لطبيعة البحث، تم اللجوء إلى أداة الملاحظة بالمشاركة. بعد أن تم التعرف على أفراد العينة وربح ثقتهم. حيث نجد أن

* **شبكة الملاحظة:** عبارة عن التركيز في الملاحظة على بعض السلوكات الصادرة عن كل من المدرب والمتربصين وهي كما يلي:

* ملاحظة الغضب الذي يصدر عن المدرب، والشتم والسب والسخرية، رمي الأشياء، الصراخ الخ...

* ملاحظة السلوكات والاستجابات الصادرة عن المتربص وهو يقوم بعمله، متمثلة تحديدا في الأخطاء التي قد يقع فيها كتكسير الأدوات التي يعمل بواسطتها، أو إتلاف البطاريات الصغيرة، أو تركيب أشياء بطريقة خاطئة، والقيام بعملية التعليم بطريقة غير صحيحة.

* **الأدوات الإحصائية:** تماشيًا مع فرضيات البحث، لجأت الباحثة لاستخدام اختبار تحليل التباين T.Test لدراسة الفروقات الموجودة بين الأفراد في المتغيرين.

* **الإجراءات العملية والميدانية:** تم البحث في الموضوع على مرحلتين، وهما على التوالي:

أ – المرحلة الأولى: تم فيها ملاحظة كل أفراد العينة أثناء العمل مع المدرب أ (**الصارم**) لمدة يومين، وتم ملاحظة نفس الأفراد أثناء العمل مع المدرب **ب** (**المرن**) لمدة يومين.

ثم قامت الباحثة بملاحظة أسلوب المدرب (أ) مع المتربصين لمدة يومين، حيث تم تسجيل كل السلوكات التي تعتبر كعوامل مسببة للضغط. ويتم بعدها تسجيل ردود أفعال المتربصين التي يتولد عنها أداء معين قد يكون معتدل أو قد يظهر على شكل أخطاء في الأداء أو حوادث.

ب – أما المرحلة الثانية: فقد قامت الباحثة بتوزيع أفراد العينة على مجموعتين، وملاحظة الأفراد لمدة يومين مع المدرب (ب)، ثم تسجيل الملاحظات الخاصة بأسلوبه كما سجلت كل الأخطاء والحوادث الصادرة من طرف المتربصين نفس الشيء مع نفس أفراد العينة، لكن مع المدرب (ب) وتم تسجيل كل ما حدث من انتقادات وأخطاء.

تحليل ومناقشة النتائج:

تشير نتائج الجدول1، والخاص بمعرفة أثر مختلف الضغوطات الصادرة عن المدربين، على المتربصين، حيث يهدف العمل هنا إلى تحديد، والتأكد عما إذا كانت الضغوطات تؤثر على الأداء مهما كان نوعه. إذ تبين النسب المئوية أن المتربصين الذين بشرف عليهم مدرب يلجأ في أساليبه إلى الصرامة المبالغ فيها، يؤثر فيهم هذا الأسلوب عن طريق شعورهم بالضغط، وبالتالي لا يقومون بالعمل بطريقة جيدة، وهذا ما يتسبب لديهم في التوتر، ونقص في الثقة في الذات، والإنقاص من ثقتهم في قدراتهم المهنية، مما يؤدي بهم إلى الأخطاء، وعدم الاهتمام والتركيز في الاستيعاب وكذلك التعلم، على غرار المتربصين الذين يترأسهم مدرب مرن، لاحظنا أنهم لا يتعرضون للقلق والضغط بدرجة كبيرة، حتى ولو كانوا يشعرون ببعض التوتر، وهذا راجع إلى طبيعة العمل، حيث يقع أي متربص وهو يتلقى تدريبا جديدا يتطلب التركيز والدقة، إلى نوع من التوتر والتخوف.

جدول1 : يتطرق للفرضية الأولى

الحادث / أنواع الضغط	الاستجابة للمدرب أ	النسب %	الاستجابة للمدرب ب	النسب %
طريقة الشرح	15	%50	09	%30
المعاملة	07	%23.33	05	%16.66
التقييم المعنوي	08	%26.66	16	%53.33
المجموع	30	%100	30	%100

مئوية دالة 23.33% و 16.66% توضح أن طريقة تقييم المدرب الصارم، وتلك التي يقوم بها المدرب المرن تؤثر بطرق مختلفة في المتربصين. وهذا يؤكد الفرضية إن تشير النتائج إلى أن طريقة احترام الآخر والتعامل مع المتربصين بطريقة عادلة يدفع به إلى الثقة في النفس وبالتالي تقدير قدراته. مما يؤدي به إلى بذل الجهود أكثر، والعمل بطريقة فيها ثقة ورضا عالي. بينما ينخفض أداء المتربص الذي يعمل تحت ضغط المدرب وسوء معاملته له، مما يولد فيه شعور بالنفور وعدم الاهتمام بما يقدم له، وبالتالي تنخفض عملية التركيز، وقد توصل Mower 2003 إلى أن العمل في المحيط الذي يشعر فيه العامل بالرفض وعدم الاهتمام من طرف الرئيس أو المشرف، يؤدي به إلى القيام بالأخطاء والحوادث في مكان عمله.

يتبين كذلك من خلال الجدول أن هناك تباين كبير بين المتربصين في عامل التقييم المعنوي الصادر عن المدرب والذي وصل إلى 26.66% و 53.33% بفارق كبير ودال بين العاملين في كل ما يخص

طريقة المدرب في التعبير عن شخص المتربص بطريقة غير مباشرة، وطبيعة التقدير الذاتي يتسبب في تكوينها هذا المدرب. كما تبين النتائج أن المتربص الذي يحصل على المدح والتشجيع مقابل المجهودات التي يقوم بها – مهما كان سنه – تلعب دورا هاما في إعطاء ثقة في النفس والاعتماد الكلي على استعدادات وقدرات الفرد دون تخوف أو خجل، وهذا سببا كافيا لتفادي الوقوع في الأخطاء في مكان العمل، كما يتولد عنه شعور بالراحة والرضا في العمل. وفي هذا الصدد توصل كل من بيار لويغي وجوال Pierluigul, Joel, 2004 إلى أن حوادث العمل والأمراض المهنية تنخفض لدى العمال الذين يتكون لديهم شعور بالرضا والراحة النفسية في محيطهم المهني.

فالضغط مهما كان نوعه أو مصدره يعتبر عاملاً معيقا للفرد، مضرا بصحته النفسية، فالحالة النفسية وخاصة راحته النفسية التي يتواجد فيها هي التي تعطي له الطاقة للعمل، كما تلعب دورا في استقرار توافقه النفسي والاجتماعي وكذلك المهني، فأي توتر أو قلق يشعر به العامل أو يعاني منه في مكان عمله، ينعكس مباشرة على معايشة النفسي، وبالتالي بشكل كل الجهود التي يحاول بذلها، كما تفكك هذه الضغوطات توازنه، وتشتت انتباهه لينتهي به المطاف إلى الوقوع في الأخطاء وارتكاب الحوادث مهما كان نوعها أو حدثها في عمله.

جدول 2 : يتطرق للفرضية الثانية

النتائج / العينة	س	ع	ت.م	م.د	د.ح
مجموعة 1	سَ1 = 0.45	ع1 = 0.15	-0.03	-0.05	58
مجموعة 2	س2 = 0.51	ع2 = 0.11			

تشير نتائج الجدول، والخاصة بمعرفة الفروقات الموجودة بين المتربص في عامل الضغوطات التي بإمكان المدرب التسبب فيها، وعلاقة ذلك بالفروقات في متغير الأخطاء المهنية. حيث تبين أن هناك فروقات بين المجموعتين من المتربصين. وهذا يفسر أثر الأسلوب المستخدم من طرف المدرب على أداء المتربص، حيث يتبين أن الفرق بين المتربصين في تسببهم في الحوادث والأخطاء يختلف باختلاف أسلوب المدرب في تعامله مع المتربصين، وهذا معناه أن الأخطاء التي يقوم بها المتربص تتحكم فيها طرق معاملة المدرب وأسلوبه في عدم رضاه على أداء المتربص أثناء العمل. كذلك يرجع اختلاف المجموعتين فيما بينهما في التعرض للحوادث إلى الطريقة التي يشعر بها المتربص أنه ينظر إليه من خلالها المدرب. وقد توصل إلى مثل هذه النتائج، سرفنت1996 Servant وآخرون، حيث تبين لهم أن نظرة الرئيس للعامل، واحترامه وكذلك التشجيع والتقدير لقدرات واستعدادات جهود العامل عوامل تساهم بدرجة كبيرة في رفع رضا العامل، وتفاديه للوقوع في الأخطاء، حيث ترتبط النظرة الإيجابية للآخر والحرص على احترام شعوره بعملية تأكيد الذات، وبالتالي التعبير عن الذات بطرق معتدلة خالية من الشكوك والشعور بالعجز والنقص التي يكونها فيه الآخر – المدرب – فالواقع في الخطأ أو ارتكاب الحوادث هي استجابة لوضعية سلبية يرفضها الفرد عن طريق الحواس والانفعالات. فالضغط باعتباره يثير خارجي سواء كان مادي أو معنوي، فهو يثير في العامل شعور بالاستياء والقلق وفقدان الراحة النفسية، وهذه مثيرات كافية لأن تؤدي بالعامل إلى التعب النفسي والفشل وتأدية العمل بطريقة خاطئة. وقد توصل هيريسي Hersy إلى أن العامل تقع له 90 % من الحوادث وهو في حالة خوف أو قلق أو ضيق.

لكننا لا نستطيع الحكم على أن كل العمال يفسرون هذا النمط على أنه بسيط.

لا نستطيع الحكم على أن كل العمال يفسرون هذا النمط على أنه بسيط ورغم أنه لا يؤدي إلى نتائج سلبية، إلا أنه في حالة تطوره أو مرافقته لمشاكل أخرى، قد تكون شخصية، سوف يدفع العامل للقلق والشعور بالانزعاج والفشل، وبالتالي ينتهي بالعامل إلى ارتكاب الأخطاء.

خـــاتمـــة

يتضح لنا من خلال ما سبق ذكره، وكذا من النتائج الميدانية أن موضوع الضغط المهني ميدان يستحق الدراسة بتمعن حتى يتسنى الخروج ببعض الآليات. أو الاستراتيجيات كوقاية من الوقوع في نتائج خطيرة تعود على كل من العامل والمنظمة التي يعمل بها. يختلف العلماء والباحثين في إعطائهم الأهمية لبعض العوامل التي يرون أنها تساهم بدرجة كبيرة في إحداث الإعياء والضغط على العامل، وبالتالي التأثير على نوعية أدائه، وتضاربت الآراء، فهناك من ترى بأن العامل هو السبب الرئيسي المؤدي إلى الحوادث في المحيط الذي يعمل فيه العامل، كما ترى بحوث أخرى أن الخبرة تلعب دورًا في الوقوع في الحوادث، حيث توصلت النتائج إلى أن العمال حديثي الأقدمية والصغار في السن هم الذين يرتكبون الأخطاء بكثرة. كما ترجع بحوث أخرى ومن بينها تلك التي قام بها كل من كيير وسبيروف Speroff, Kerr أسباب الحوادث إلى طبيعة العلاقات القائمة بين العمال.

وعليه، يرجع كل باحث أسباب الحوادث إلى عوامل يرى أنها هي المسئول الأول عنه، علمًا بأن الضغط المهني الذي يتعرض له العامل في محيط عمله يعتبر من بين العوامل التي يإمكانها أن تتصدر الأسباب المؤدية بالعامل إلى التعب والشعور بالإنهاك والعبء المهني، مما يدفعه للوقوع في الأخطاء أو الحوادث أو الأمراض المهنية، ويتبين في البحث الحالي أن للضغوط المهنية التي يتعرض العامل أثر بالغ الأهمية على صحته النفسية، وبالتالي على سلوكاته وهو يقوم بتأدية عمله، مما يدفع به في بعض المواقف إلى التعب والاستياء وعدم القدرة على أداء عمله أو الاستمرار في القيام به بطريقة سليمة مما يدفع به إلى الحوادث سواء تمثل ذلك في إصابات ذات نتائج مباشرة والتي ترجع على العامل بالعجز الكلي أو الجزئي، أو الوفاة. كما قد تكون غير مباشرة ذات طابع اقتصادي، تعود بالسلب على المنظمة تؤثر في ممتلكاتها أو أموالها.

ونستطيع القول أن موضوع الضغوطات المهنية يوحي لنا بمدى أهمية المحيط المهني الذي يعمل به العامل في التأثير على الصحة النفسية للعامل، وبالتالي على أدائه المهني كمًا وكيفا، كما يتضح أن العامل النفسي للعامل يلعب دورا لا يستهان به في خلق دافعية لدى العامل، يعتبر كعامل إشباع معنوي يحقر العمل للقيام بمهامه دون الوقوع في الأخطاء، وبحيوية وشغف لعمله.

بيبليوغرافيا

أ- المراجع باللغة العربية

1 – أمال محمد عبد المنعم. (2002) الإرشاد الأسري: مواجهة الضغوط النفسية لدى أسر المتخلفين عقليًا، ط1، مصر.
2 – جمعة سيد يوسف. (2004). إدارة ضغوط العمل. إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع. مصر.
3 – حسين علي فايد. (2005). المشكلات النفسية الاجتماعية، رؤية تفسيرية. مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة. مصر.
4 – راشد محمد القحطاني، (2007). العامل الضغط. في مجلة التدريب والتقنية. العدد 105. الرياضي، السعودية.
5 – عباس محمود عوض (1971). حوادث العمل في ضوء علم النفس. منشورات دار المعارف. مصر.

6 – عبد الخالق أحمد محمد (1998). الصدمة النفسية. ط1. مطبوعات جامعة الكويت. الكويت.
7 – فرج عبد القادر طه، (1986)....؟....؟....؟
8 – عبد الرحمن توفيق. (1998). صحة المديرين بين الضغط والضبط. مركز الخبرات المهنية للإدارة. بميك، القاهرة. مصر.
9 – مصطفى صخري (1998).
10 – هارون توفيق الرشيدي. (1999). الضغوط النفسية، طبيعتها، ونظرياتها. الإسكندرية المكتبة الأنجلو مصرية. مصر.

ب- المراجع باللغة الفرنسية

11 – Annie Thébaud-Mony. 2002 Les accidents au travail. in: Revue problèmes politique et sociaux. N° 883. Décembre la documentation Française.
12 – Bureau International du travail (2000) in: Revue : Travail. N° 37 Genève.
13 – Dominique chalvin. (1985). Faire face aux stress de la vie quotidienne. Editions ESF. Paris. France.
14 – Oltmanns.T.F.X Emerry.R.E (1998). Abnormal psychology. New jersey : prénticé Hall. 2 nd.
15 – Phyllis Gabriel. 2000 stress et santé Memtale in: Revue travail. N° 37 Bureau International au travail. Genève.

الأهمية التربوية لاستراتجيات التعلم الما وراء المعرفية

أ / مليكة بن شدة
أ / سعاد مرغم
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

جاءت هذه المحاولة المتواضعة لإلقاء الضوء على أهمية استراتيجيات التعلم الما وراء معرفية في النجاح المدرسي الذي أصبح يشكل أحد الأهداف الأساسية للنظام التربوي، وكيف أن ما وراء المعرفة يعد عاملا ملائما للتعلم، وكيف أن استراتيجيات التعلم الما وراء معرفية تساعد وبصورة أساسية على تنمية تعلم نوعي.

Résumé

Nous avons tenté modestement à travers cet article de mettre la lumière sur l'importance des stratégies métacognitives dans la réussite scolaire qui constitue actuellement un des objectifs prioritaire de système éducatif, et comment la métacognition est un facteur particulièrement favorable à l'apprentissage et comment les stratégies d'apprentissage de type métacognitif contribuent de manière cruciale à développer des apprentissage de qualité.

مقدمـــة

يعد موضوع التعلم من المواضيع المهمة، حيث حظي باهتمام بالغ من قبل المهتمين على اختلاف اختصاصاتهم و توجهاتهم، ومن الملاحظ في الآونة الأخيرة على الدراسات النفسية والتربوية التركيز والاهتمام الكبير بالنظريات المعرفية في تفسيرها لعملية التعلم، حيث لم تقتصر على ما يمتلكه الفرد من إمكانيات و مهارات بل على كيفية اكتساب هذه المهارات.

وحسب النموذج البنائي فان سيرورة التعلم تعتبر بناءه ونشطة actif et constructif، فالمتعلم بهذا جوهر العملية التعليمية ويقوم ببناء معرفته بنفسه ويتحمل مسؤولية تعلمه وذلك عن طريق بذله للجهد العقلي والمعرفي من اجل الوصول إلى تحقيق هدفه.

"إن المدرسة الإدراكية المعرفية الحديثة تنظر إلى التعلم على أنه مجموعة من العمليات العقلية الداخلية والتي تمثل قدرة الفرد على إستعاب المعلومات واسترجاعها واستخدامها في مواقف جديدة، ويعرف رواد هذه المدرسة التعلم بأنه عملية تفكيرية خاصة لفهم واستيعاب المعلومات ودمجها في البنية المعرفية للمتعلم" (مسلم،1993)[1]. فالتعلم يكون أكثر فعالية عندما يكون الفرد المتعلم أكثر استقلالية مما يساهم في تنمية جودة التعلم.

فاليوم وبالرغم من توفر مصادر المعرفة إلا إننا بحاجة ماسة إلى تطوير هذه المعرفة وإعادة النظر في أساليب وتقنيات الإستعاب، لهذا لا يجب أن نقتصر على اكتساب المعلومات فحسب وإنما يجب أن نصل إلى أبعد من هذا، بمعنى أن نعطي لهذه المعارف معنى، وهذا لا يأتي إلا بتعلم واكتساب مهارات واستراتجيات تمكن المتعلم

من السيطرة على هذه الإكتسابات والتحكم فيها والتخطيط لها ومراقبتها وتقويمها وهذا ما يطلق عليه في علم النفس المعرفي باستراتجيات ما وراء المعرفة.

ويرجع مفهوم ما وراء المعرفة إلى العالم Flavell 1976 والذي عنى به التفكير في عملية التفكير وعرفه بأنه معرفة لما يتعلق بعمليات المعرفية ونواتج تلك العمليات والخصائص المتعلقة بطبيعة المعرفة والمعلومات لديه وكل ما يتعلق بها مثل الأولويات الملائمة لتعلم المعلومات أو المعطيات وتستند إلى التقديم النشط وضبط وتنظيم هذه العمليات في ضوء العمليات المعرفية أو المعطيات التي يتضمنها عادة لتحقيق قصد أو هدف ملموس (Flavell 1996)[2] .

ويقودنا هذا التعريف إلى توضيح الفرق بين المفهومين المعرفة وما وراء المعرفة "يشير مصطلح المعرفة إلى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي فيتطور ويختزن لدى الفرد إلى أن يستدعي لاستخدامه في المواقف المختلفة حتى في حالة هذه إجراء العمليات في غياب المثيرات المرتبطة بها، وهذه العمليات تتمثل في الإدراك، التذكر، التخيل، التخزين والتفكير. أما مصطلح ما وراء المعرفة فيشير إلى وعي الفرد بالعمليات التي يمارسها في مواقف التعلم المختلفة نتيجة حصوله على معرفة أو معلومات معينة تتصل بهذه المواقف"(فاطمة رمزي المدني). فالمعرفة بهذا تشير إلى مجموع المعلومات و المعارف التي يمتلكها الفرد أما ما وراء المعرفة فهي تشير إلى وعي الفرد بهذه المعارف والمعلومات.

وقد يكون من المفيد قبل الدخول في الأهمية التربوية لإستراتجيات التعلم الماوراء معرفية القيام بمحاولة لتعريف إستراتجيات التعلم بصفة عامة ثم إستراتجيات التعلم الماوراء معرفية ثم تصنيفها حسب بعض العلماء.

تعريف الإستراتيجية

1ــ يشير مصطلح الإستراتيجية عامة إلى جملة الإجراءات المستخدمة لمعالجة مهمة أو أكثر لتحقيق هدف محدد (P,Cyr et C,Germain, 1998)[3].

2ــ هي مجموعة من الإجراءات تستعمل من طرف المتعلم لتحسين تعلمه (Oxford 1990)[4].

3ــ كما يرى كل من (فطيم وجمال) أن الاستراتيجيات في علم النفس والتربية تعني جملة الأساليب التي تحكم نشاط الإنسان وتحدد له كيف يقوم بعمليات الانتباه والتنظيم والتعلم والتذكر وتنشأ من تنمية القدرات المتضمنة في تعلم التفكير والابتكار والاكتشاف والتذكر (فطيم لطفي محمد وجمال أبو العزايم، 1988).

4ــ يعرفها (مجدي عبد الكريم حبيب 1996) على أنها طريقة لتحقيق الهدف المنشود في المهمة المعروضة يحتاج إلى توظيف سلسلة من العمليات لإنجازها والتي تسمى بالتكتيك والتكتيك هو سلسلة العمليات المعرفية المستخدمة في كشف وإنهاء العمل وتتضمن هذه العمليات ترميز وتحويل وتخزين المعلومات في الذاكرة (مجدي عبد الكريم حبيب 1996)[5].

5ــ تعريف (De Villers 1992) يعرف الإستراتيجية على أنها مهارة تخطيط وتنسيق أو ترتيب مجموعة من العمليات لإدراك الموضوع (P,Cyr et C,Germain, 1998).

و أعطى ويندن ستة معايير تسمح لنا بتحديد مفهوم الاستراتيجيات وهي في النهاية تستعمل كتعريف تام :

1/ هي أنشطة وتكتيكات خاصة وليست سمات شخصية أو أساليب معرفية.

2/ بعضها يمكن ملاحظته من قبل الباحث والأخرى لا، ومن المهم أننا لا نستطيع حقا ملاحظة هذه الاستراتيجيات إلى حد ما كما هي، نلاحظ فقط التقنيات المستعملة والتي تأخذ بعين الاعتبار استعمال الإستراتيجية.

3/ هي موجهة نحو المشكلة.

4/ تستطيع المساهمة أو المساعدة مباشرة أو غير مباشر في التعليم فهي إذن تستعمل للاكتساب أو الاتصال.
5/ نستطيع استعمالها بوعي أي عمد ولكن تستطيع أن تصبح أوتوماتيكية.
6/ هي صالحة للتغيير ونستطيع تعديلها، رفضها أو الاحتفاظ بها، الشيء المهم للنتائج البيداغوجية من استعمال الإستراتيجيات.

ويتضح من خلال هذه التعاريف أن السلوك الاستراتيجي يتطلب مجموعة من التقنيات والإجراءات والمهارات والتي تتدخل فيها السيرورات المعرفية بشكل كلي، تستعمل بصورة واعية وهي قابلة للتدريب و تهدف إلى تحقيق هدف ما.

تعريف إستراتجيات التعلم

1. يعرفها توفيق أحمد مرعي على أنها :المبادئ الأساسية والإجراءات والعمليات المطلوبة لكي يحدث تعلم الفرد، وهي متعددة ويتم تحديدها بناءا على طبيعة الموقف التعليمي والهدف منه وخصائص ومستويات الدارسين (توفيق أحمد مرعي ومحمد محمود الحيلة،1998)[6] .
2. ويعرفها Buchel 1990 على أنها :عبارة عن أنشطة مخططة تنجز من طرف المتعلم بغرض عقد علاقات بين المعلومات الجديدة وبنية المعارف المكتسبة من قبل (Buchel،1990)[7] .
3. وعرفتها كوثر كوجك على أنها مجموعة الإجراءات المستخدمة للتعلم أو تكتيكات جزئية تتم في تتابع مقصود مخطط لتحقيق الأهداف المحققة بفعالية أكبر وبقدر واضح (كوثر كوجك .1997).

وتتفق هذه التعاريف في أن استراتجيات التعلم هي مجموع الإجراءات و الأفعال والتقنيات التي تستخدم من طرف الفرد المتعلم بغية الوصول إلى هدفه، وتحقيق تعلم فعال.

وقد تم تصنيف إستراتيجيات التعلم إلى أربع مجالات :
المجال المعرفي، المجال الما وراء معرفي، المجال الوجداني، مجال إدارة الموارد.

- يتضمن المجال المعرفي استراتيجيات الاختيار، تنظيم المعلومات، التكرار ومراجعة المعلومات السابقة الموجودة في الذاكرة الطويلة المدى و ربطها بالمعلومات الجديدة.
- الاستراتيجيات الما وراء معرفية : وهي التي تخص التخطيط، المراقبة و التقويم، وتستعمل أثناء عملية تحويل وتعميم المعارف.
- استراتجيات إدارة الموارد فهي التي ترتبط بضبط البيئة باستخدام كل الموارد التي تساعد على تسهيل عملية التعلم كتنظيم الوقت مثلا.
- وأما الاستراتيجيات الاجتماعية الوجدانية فتتضمن التفاعل مع الاخرين وضبط الاتجاه الوجداني المراقب لعملية التعلم.

مفهوم الاستراتيجيات الما–وراء معرفية

- **ما وراء المعرفة :**
- عرف Combert ما وراء المعرفة بأنها المجال الذي يتضمن :

أ– معرفة الفرد الاستبطانية و الواعية لحالته الخاصة و لعملياته الخاصة ولعملياته المعرفية.
ب– قدرة الفرد على مراقبة وتخطيط عملياته المعرفية بغية إنجاز قصد أو هدف محدد (Combert 1990)[8] .

- يشير الجزء الأول من تعريف Combert إلى وعي الفرد بحالته الداخلية وبعملياته المعرفية، أما الجزء الثاني فيدل على قدرة الفرد على استخدام الإستراتجيات ما وراء المعرفية وهي تخطيط ومراقبة العمليات المعرفية.
- وفي تعريف آخر يتفق مع التعريف السابق لـــ: Combert 1990، Graugest 1997
- تشير ما وراء المعرفة من جهة إلى المعارف الاستبطانية و الشعورية التي يمتلكها التلميذ في طريقته الخاصة بالتعلم، ومن جهة أخرى قدرته على تنظيمها بحرية.

فالتلميذ حسب هذا التعريف هو بصدد ممارسة الما وراء المعرفة سواء كان في حالة الشعور بعملياته المعرفية أو في حالة مراقبته و تكيفه لهذه العمليات بغرض تحقيق هدف التعلم .

- كما عرف Aylwin Lool الما وراء المعرفة على أنها القدرة على معرفة كيف نعرف والقدرة على رؤية أننا بصدد التفكير، هذا ما ينتج عنه إدارة سيرورة التعلم ذاتيا تدريجيا وبصورة فعالة. فما وراء المعرفة هي جزء مندمج في التقييم الذاتي باعتبارها تصل بالتلميذ إلى الوعي بمسيرته التعلمية، هذا التقييم الذي يعد عنصرا أساسيا لكل إستراتجية بيداغوجية (Aylwin Lool 2002)[9] .
- ويعرف Saint Pierre 2004 ما وراء المعرفة على أنها: "الرؤية التي يتبناها الفرد حول العملية العقلية في إطار هدف فعلي بقصد التخطيط، التقويم، التصحيح وفحص سيرورة التعلم".

هذا التعريف يوضح بدقة العمليات والأفعال التي يمر بها المتعلم الما–وراء معرفي l'apprenant métacognitif.

- تظم استراتيجيات التعلم الما وراء معرفية "التفكير في عملية التعلم، التحضير للتعلم، مراقبة نشاطات التعلم و تقييم الفرد نفسه.

1- التخطيط.
2- الانتباه العام.
3- الانتباه الاختياري.
4- التسيير الذاتي.
5- التنظيم الذاتي.
6- تشخيص المشكل.
7- التقييم الذاتي." (Chamot et O'Malley. 1990)[10].

تصنيف استراتيجيات التعلم الما وراء معرفية

1/ تصنيف (Sternberg 1985) :

حيث قام بتصنيف هذه العمليات إلى ثلاث فئات رئيسية هي التخطيط، والمراقبة والتقويم وتظم كل فئة من هذه الفئات عددا من العمليات الفرعية التي تمثلت في:

أ- **التخطيط** :

ويعتبر من أهم العمليات ما وراء معرفية، فالوضع الصحيح والجيد للخطة يضمن السير الفعال نحو إنجاز المهمة وهي تتضمن ثلاث مهام تابعة وهي:

1- تحديد الهدف المراد تحقيقه تحديدا دقيقا أو الشعور بالمشكلة.

2- اختيار إستراتيجية التنفيذ المناسبة للمهمة المطلوب تنفيذها وتحديد خطواتها، وتوقع الصعوبات والعوائق المحتملة أثناء التنفيذ مع تحديد الأساليب والإجراءات للتغلب عليها.

3- التنبؤ بالمخرجات والحلول المتوقعة.

ب- **المراقبة الذاتية أو التحكم** :

هي عملية ضبط ومراقبة ذاتية لتنفيذ الخطة المراد إتباعها وتحقيقها سابقا وتشتمل على جانبين هما: متابعة ما تم إنجازه من الخطة وهذا يتطلب الإبقاء على الأهداف المعرفية في موضع الاهتمام للتحقق من مدى التقدم في العملية المعرفية المراد إنجازها مع الحرص على تحديد الوقت اللازم لإنجاز جزء من المهمة أو الهدف مع معرفة اللازم للانتقال إلى تنفيذ جزء آخر من المهمة.

النظر في ما سيأتي أو ما هو متوقع بتمييز الصعوبات المعترضة للتمكن من تجاوزها.

ج- **التقويم الذاتي:**

و"يقصد بها التأكد من مدى تحقق الأهداف المعرفية المحددة سابقا وتشمل على سلسلة من الإجراءات كما أشار إليها" (جروان1999)[11] .

1- تقويم مدى تحقق الأهداف المعرفية المخطط لها.

2- الحكم على كفاءة النتائج أي إعطاء حكم موضوعي حول دقة النتائج.

3- الحكم على مدى مناسبة وملائمة الإستراتيجيات المستخدمة لإنجاز أو تنفيذ المهمة المعرفية.

4- تقويم مدى فاعلية الخطة وتنفيذها.

2/ تصنيف (Haller et al 1988) : وقد صنفها إلى:

أ- **اليقظة والوعي:**

وتعرف بأنها وعي الفرد لما يوظفه من عمليات عقلية أثناء معالجته للمهمة الملقاة على عاتقه.

ب- **التنظيم أو التشريع** :

وتعرف بأنها العملية التي تتعلق بإصدار الحكم واتخاذ القرار وسن القوانين وذلك لتلافي ما يعانيه الفرد من نقص وقصور في معالجة المهمة إن وجد وذلك عن طريق اقتراح طرق تقويمية.

ج- **التحكم والضبط:**

"هي قدرة الفرد على مراقبة نفسه خلال معالجته للمهمة واختبار مستوى أدائه وفحصها لمدى تعلمه لها بغية التعرف على ضعفه وقصوره ونقاط قوته ونجاحه". (دروزة 2004) .

3/ تصنيف (Bayer 1987) : و قد قسمها إلى:

أ- التخطيـــط : هي عملية من عمليات الإستراتيجيات ما وراء معرفية وهي تشبه عملية اليقظة والوعي عند (هيلر) ويعرف بأنها رسام صورة مسبقة أو التخطيط للمهمة التي سينخرط بها الفرد المتعلم وتتضمن الأعمال التالية:

1- تحديد الهدف العام.

2- الترتيب.

3- التنبؤ.

4- تحديد ظرف التغلب على الصعبات.

ب- التحكـــم : تشبه عملية التحكم والضبط لدى "هيلر" وتعني مراقبة الفرد لسير اندماجه في المهمة المراد تعلمها وتتضمن الأعمال التالية:

1- التفكير في الهدف.

2- التفكير في تحقيق الهدف.
3- معرفة الأهداف المحققة.
4- تحديد مدى الانتقال من خطوة إلى خطوة.
5- اختيار الإستراتيجية.
6- معرفة كيفية التغلب على الصعوبات.

ج- التقييـــم : تقابل عملية التنظيم والتشريع لدى"هيلر" وتعني حكم الفرد على مستوى انجازه ومدى تقدمه وإنجاحه في العمل وتتضمن الأعمال التالية:
1- تقييم مدى تحقق الهدف.
2- الحكم على صدق النتائج.
3- تقييم الأدوات.
4- الحكم على مدى فعالية الخطة.

4/ تصنيف (Li 1992) : بحيث افترض وجود خمس عمليات:

أ- اليقظة والوعي : تتعلق بوعي الفرد لإدراكاته وتفكيره وقدرته ومستوى انتباهه.

ب- التخطيـــط : تتعلق بتحديد الأهداف واختيار الاستراتيجيات المناسبة لتحقيقها، وترتيبها وفق أولوية الاستخدام والتنبؤ بالصعوبات التي تعترض تحقيق الهدف وتحديد الطرق والوسائل التي تتغلب عليها.

ج- التحكـــم : تتعلق بالتفكير في أهداف المهمة والتفكير في كيفية تحقيقها بترتيب معين .بمعنى آخر معرفة إلى أي مدى تتحقق الأهداف الجزئية والمؤدية إلى الهدف الكلي.

د- المراجعـــة : وتتضمن مقارنة الهدف المنشود بما تحقق منه على أرض الواقع ومقارنة الاستراتيجيات التي صمم لاستخدامها بالتي استخدمت فعلا ومقارنة الصعوبات المتنبأ بها بالصعوبات التي واجهها فعلا، ومقارنة النتائج التي حققها بالتي توقعها فعلا.

هـــ- الملائمـــة : وتتعلق بتصحيح الاستراتيجيات الضعيفة التي استخدمت وتبني استراتيجيات أو خطة أكثر مناسبة في المستقبل لتحقيق الهدف عن طريق التجريب والممارسة.

5/ تصنيف P.Cyr 1998 :

ويرى أنها تتطلب التفكير حول سيرورة التعلم وفهم الشروط الملائمة لها، تنظيم نشاطاتها كي يسهل تعلمها، والتقييم الذاتي والتصحيح الذاتي(P.Cyr. 1998).

أ- التوقع والتخطيط :

يعين أهداف قصيرة وطويلة المدى، يدرس دراسة ذاتية للنقاط الخاصة بالموضوع الذي لم يدرس في القسم، يتنبأ بالعناصر اللازمة لإنجاز مهمة التعلم أو فعل الاتصال.

ب- الانتباه:

تركيز الانتباه والحرص على المحافظة عليه خلال تنفيذ أو إنجاز مهمة ما. وقد وضع كل من (O'Malley et Chamot 1990) الفرق بين نوعين من الانتباه واللذان وصفاهما:

الانتباه الموجه : النوع الأول والذي نستطيع أن نشبهه بالتركيز يفرض على التلميذ أن يقرر من الأول إعطاء انتباهه لمهمة التعلم بطريقة إجمالية أو عامة ويجهل كل ما يمكن أن يلهيه.

الانتباه الاختياري: يتمثل في التركيز على مظاهر خاصة من مهمة التعلم، المعلم يذكر بهذا النوع من الانتباه لدى تلاميذه عندما يطلبه منهم، مثـــلا كتابـــة الساعـــات الأسعـــار أو أرقام الهواتف في حوار ما و الأزمنة الماضية في نص ما.

ج– التسيير الذاتي:

فهم الشروط التي تسهل التعلم والبحث لجمع هذه الشروط، هذه الإستراتيجية رئيسية في عملية التعلم، فهي تفترض على التلميذ أن يعرف بأنه يمكن أن يتعلم وحده وله اعتقادات ومواقف اتجاه قدراته ودوره في مسؤولياته في عملية التعلم، إذن فهي تفترض قدر من الحرية والمشاركة من طرفه، بمعنى آخر(يسير نفسه).

يمكن للعقل كذلك **"فعليا"** أن يسير وقته ونشاطاته بتوسيع تعلمه و يتعرف المعلم هنا على التلميذ الذي يشارك ويبذل مجهودات خارج القسم حيث أن هناك تحسن واضح، كأن يكون منظما مثلا ويضع وقت للدراسة ومراجعة الدروس بفترة استراحة منظمة هذه أمثلة عن الإستراتيجية ما وراء معرفية.

د– التنظيم الذاتي :

التحقق وتصحيح أدائه من خلال مهمة التعلم أو فعل الاتصال، و يمكن للتنظيم الذاتي أن يأخذ عدة أشكال: من إنتاجه، خطته، أسلوبه للتعلم، وكذلك إستراتيجياته و هذه الإستراتيجيات ما وراء معرفية تتمثل غالبا في التصحيح الذاتي الذي يمكن أن نلاحظه عند المتعلمين الممتازين.

هـــ– تحديد المشكل :

تحديد الغرض الرئيسي لمهمة تعليمية أو مظهر لهذه المهمة التي تتطلب حل من أجل إنجازات كافية.

وبعبارة أخرى، لماذا نقوم بهذا التمرين؟ المتعلمين الممتازين اللذين لديهم عادة التعلم الجيد أو يفهمون بسرعة أو بطريقة حدسية يجيبون بأن الهدف من المهمة أو التمرين هو الحاجة إلى الفهم.

و– التقييم الذاتي:

تقييم قدرات المتعلم بنفسه بانجاز مهمة (نشاط) أو عملية الاتصال و تقييم نتائج أدائه أو تعلمه و المتعلم يمكن أن يقيم مثلا قدراته العامة، بمستوى فهمه للمهمة التعليمة ومستوى قدراته .

الأهمية التربوية لاستراتيجيات ما وراء المعرفية

ونظرا لأهمية إستراتيجيات ما وراء المعرفة في عملية التعلم أجريت العديد من الدراسات التي تناولت هذا المفهوم وعلاقاته بمتغيرات أخرى، فقد قامت فاطمة حلمي فرير1995 بدراسة إستراتيجيات التنظيم الذاتي للمتعلم و علاقتها بالتحصيل الدراسي ومستوى الذكاء لدى طلاب الصف الثاني الإعدادي، وتوصلت إلى أن هناك علاقة إرتباطية موجبة دالة على 0,01 بين كل من التنظيم الذاتي للتعلم والتحصيل الدراسي، ووجود علاقة إرتباطية موجبة دالة على مستوى 0,01 بين التنظيم الذاتي للتعلم ومستوى الذكاء.

وقام محمد بن سلمان الوطبان 2006 بدراسة مهارات ما وراء المعرفة لدى مرتفعي ومنخفضي الفاعلية الذاتية، وتوصلت هذه الدراسات إلى تفوق الطلاب مرتفعي الفعالية الذاتية في مهارات ما وراء المعرفة.

وفي دراسة أخرى لعادل العدل وصلاح عبد الوهاب حول القدرة على حل المشكلات ومهارات ما وراء المعرفة لدى العاديين و المتفوقين عقليا، انتهت الدراسات إلى وجود علاقة إرتباطية بين درجات القدرة على حل المشكلات ودرجاتهم في ما وراء المعرفة.

وفي دراسة أخرى أجراها أيمن حبيب والتي هدفت إلى التعرف على اثر إستراتيجية التعلم القائم على الاستبطان على تنمية مهارات ما وراء معرفية لدى تلاميذ الصف الأول الثانوي من خلال مادة الفيزياء، وتوصلت الدراسات إلى وجود فروق دالة إحصائيا بين متوسط درجات المجموعة الضابطة والتجريبية لصالح الأخيرة.وتوصلت دراسة أخرى لمصطفى الحاروني وعماد حول فاعلية برنامج تدريبي لاستراتيجيات الما–وراء معرفية واستراتيجيات التذكر في التحصيل الأكاديمي ومفهوم الذات لدى طلاب الثانوية العامة إلى وجود فروق دالة إحصائيا بين درجات المجموعتين الضابطة و التجريبية لصالح المجموعة التجريبية العاديين وذوي صعوبات التعلم. "...فقد أجرى براون Brawn تطبيقات متعددة في مختلف المجالات الأكاديمية و توصل من خلال هذه التطبيقات إلى الأهمية البالغة لدور كل من المعرفة وما وراء المعرفة في التعلم الفعال" (فتحي الزيات، 1996)[12].

وقد ميز كل من Paris، Lipson et Wixon بين معرفة المتعلمين لاستراتيجيات التعلم، واستخدامها أي أنه لابد من معرفة هؤلاء المتعلمين لكيفية استخدامها وكيفية تنظيمها وضبطها، ومن الدراسات في هذا الميدان دراسة Dansereau 1985 الذي أعد برنامجا ثريا، شمل وسائل فعالة و موضوعية لتحسين وتنمية قدرة إستعاب المتعلمين. "... وهناك من يشير إلى أن معرفة المتعلم بخبرات ما وراء المعرفة ووعيه بها وقدرته على توجيهها واستخدامها في إطار المحتوى الدراسي قد يؤدي إلى زيادة القدرة على حل المشكلات" (عادل العدل وصلاح عبد الوهاب،2003)[13].

وهناك شبه اتفاق بين المختصين على أن برامج التدريب على إستراتجيات التعلم بصفة عامة واستراتيجيات التعلم الما وراء معرفية تساعد على رفع مستوى التحصيل الدراسي لدى المتعلمين.

ويسمح تعلم الإستراتيجيات الما وراء معرفية للمتعلم بالوعي بالإستراتيجيات التي يستخدمها وبالتالي يصل إلى معرفة أي سياق أو أي مجال تكون هذه الإستراتيجيات أكثر فعالية و أكثر فائدة.

ويتضح مما سبق أن إستراتيجيات التعلم الما وراء معرفية هي خطط يستخدمها المتعلم لفهم كيفية التعلم فالقارئ الفعال مثلا يكون على وعي تام بسيرورة القراءة و الطريقة التي يصل بها إلى معنى.

النص المقروء فهو الذي يتحكم في العلاقات الموجودة بين المعاني، و يمكنه أن يغير إستراتيجية القراءة حسب حاجته،فهو يقرأ بصورة إنتقادية وذلك بمراقبة وتتبع تفكيره وفهمه للنص المقروء في آن واحد، و نفس الشيء بالنسبة للمهمات التعليمة الأخرى كالحساب و الكتابة ...إلخ.

والتلميذ الذي يعلم أنه يعلم يكون قادرا على معرفة المزيد أكثر من غيره، و الما وراء معرفة كعملية ثانية من حيث الترتيب في التفكير تكون أداة فعالة في تحسين الأداء الأكاديمي للتلميذ: التلميذ الجيد هو تلميذ ميتا–معرفي تلقائيا بمعنى أنه تعلم كيف يتعلم وأنه يعلم أنه يعلم ،وهو قادر على تفعيل معارفه التقريرية و الإجرائية بدراية (Lancelot،1999)[14].

وقد أظهرت الأبحاث التي اهتمت بالمتعلمين ذوي صعوبات التعلم أن الأداءات المدرسية المرتفعة تكون متصلة أو ذات علاقة بكفاءات ما وراء معرفية فعالة .

فالتحكم في المعارف و المهارات les savoirs et savoir-faire الما-وراء معرفية تفيد في التعلم وتسهل النمو المعرفي و تعلم المفاهيم (Doudin et Martin 1992)[15].

وأشار Zimmerman في نفس السياق إلى أن الكفاءات الضرورية لتعلم فعال وذو معنى تقتضي القدرة على التفكير في المهمة أو النشاط التعلمي حسب السياقات المختلفة، كما أظهرت الدراسات حول سيرورات التحويل أيضا أن هذه الأخيرة تكون مدفوعة (أو تكون وراءها) تدخلات ما وراء معرفية، مثلا إذا ساعدنا

التلاميذ على تحقيق الوعي بالنجاح وطرق إستراتيجيات حل المشكلات، يمكن أن نسير نحو تحويل وضعيات جديدة (Kail et Fayol 2003)[16].

وقد أكد بعض الباحثين أمثال Anne-Marie Doly وآخرون أن عدم فعالية المجهودات المبذولة من طرف التلاميذ ذوي صعوبات التعلم يرجع أساسا إلى نقص في استخدام إستراتيجيات ما–وراء معرفية أكثر منه استخداما إستراتيجيات معرفية، ذلك أنهم يمتلكون معارف وكفاءات لكنهم لا يحسنون استخدامها ولا تحويلها، ويضيف هؤلاء الباحثين أن هؤلاء التلاميذ يمتلكون القدرة على الحكم، وعلى التذكر، والفهم وكل العمليات المعرفية، يكفي فقط ملاحظتهم في وضعيات خارج المدرسة أو في سياق بيداغوجي مختلف حتى نتأكد أن المشكل ليس في القدرة على التفكير.

وقد بينت دراسات كثيرة حول تنمية قدرات التنظيم الذاتي المعرفي للذاكرة والفهم في القراءة، التأثيرات المهمة لعامل التحويل، وأن هذا النوع من التكوين له فعالية ملحوظة في تحسين هذه العمليات (Belnout, Butterfield et Ferradi 1982 Haller Child et Walberg,1988).

كما أظهرت بحوث كل من وانك، هيبارتال ووالبارك حول العوامل المؤثرة في التحصيل الدراسي أن إستراتيجيات ما وراء المعرفة له تأثير إيجابي في غاية الأهمية "نلاحظ أن التلاميذ عندما يغيرون علاقتهم بالمعرفة، تعود كثيرا من المعارف السابقة إلى الظهور مرة أخرى، وترتب في تفكيرهم، وقد علمتنا الخبرة أن المشكل يقع على مستوى عدم القدرة على المرور إلى الوعي بما يعلم هؤلاء التلاميذ... يبدو أنهم لا يصلون إلى تفعيل معارفهم المكتسبة وتفكيرهم في إطار فهم أو حل المشكلات المقترحة عليهم، كما لا يصلون إلى بناء تفاعل بين تفكيرهم و العمل المطلوب إنجازه، وبصورة أخرى غير قادرين على تنمية تفكيرهم الما وراء المعرفي، وقد أشارت دراسات متعددة إلى أن التلاميذ ذوي صعوبات التعلم يمتلكون تفكيرا ما–وراء معرفي مضطربا"(Rosée Morissette, Chanélière\MC. Graw-Hill 2002).

"ولعل الاهتمام بتنمية قدرة الطلاب على التحكم بوعي في عملية التفكير وإطلاق طاقات الإبداع تتطلب الخروج من ثقافة المعلومات إلى بناء المعلومات ومعالجتها وتحويلها إلى معرفة ومن ثم الانتقال من مرحلة المعرفة إلى مرحلة ما وراء المعرفة وذلك عن طريق تنمية مهارات ما وراء المعرفة لدى الطلاب، حتى تنمو لديهم القدرة على التجديد والابتكار وتنمو قدرتهم على التعلم الذاتي، وكيفية البحث عن المعرفة من مصادرها المختلفة حتى يمكنهم من مواجهة هذا التسارع المعرفي"(منى عبد الصبور شهاب 2000)[17].

فعن طريق استخدام الاستراتيجيات الما وراء معرفية، يصبح المتعلم أكثر إبداعا وابتكارا ومساهما فعالا في تعلمه، بما أن هذا النوع من الاستراتيجيات يرتكز على تفخيم التقويم الذاتي l'auto-évaluation والتسيير الذاتي l'autogestion في عملية التعلم وبالتالي تزداد الفرص أمام هذا المتعلم لاستغلال قدراته للنمو والتعلم أقصى استغلال حتى يصل الى تحقيق تعلم ناجح، وتزداد كفاءته في تحصيله المعرفي و الدراسي.

إن معادلة "تعلم كيف نتعلم" تنوه بتنمية القدرة على الاستقلالية في التعلم وذلك بالتركيز على الوعي كعملية أولية لاستراتيجيات ما وراء المعرفة، فالمتعلم وفق هذا الاتجاه يعي أهداف تعلمه .بممارساته لنشاطات التعلم الذاتي، ويطور فهمه لما يؤديه من مهمات، فهو بوعيه هذا تكون نشاطاته التعليمة موجهة و ذات هدف تساعده على الابتكار والإبداع.

ويرى Meirieu أن الاستراتيجيات الما وراء معرفية تسعى إلى طرح الأسئلة على كل تلميذ متعلّم، ومساعدته على الوصول إلى الحلول المناسبة، فما وراء المعرفة هي نقطة هامة في العملية التربوية سواء بالنسبة للمعلم أو المتعلم، و إذا أخذ المعلم وقتا كافيا لطرح الأسئلة على تلاميذه في الصف، فإن هذا

يساعد على الابتكار والتجديد هذا ما يساعده على تفاضل بيداغوجيتهdifférencier sa pédagogie، ويكتشف أن كل تلميذ يستخدم إستراتيجيات وإجراءات خاصة به تختلف عن بقية التلاميذ الآخرين وأن كل تلميذ له منهجية خاصة في عمله والتلميذ من جهة يكتشف وظيفته العقلية هذه ما يؤدي به إلى استقلالية أحسن في نشاطه البيداغوجي وتحكم أكثر في مهامه التعليمية ويضيف Meirieu أن ما–وراء المعرفة يمثل مجهودا جد مهم في تطوير معالجة الرسوب المدرسي وصعوبات التعلم بصورة فعالة (Meirieu, P, Grangear, M. 1997) [18].

إن المتعلم الفعال يمارس على طرقه الخاصة بالتعلم تفكيرا يسمح له بتكييف هذه الطرق، فهو بوعيه بمقاصده، يختار ويفعل الإستراتيجيات الأكثر ملائمة لخصائصه الشخصية (Romaiville1993).

و لكن كيف يمكن تنشيط الإستراتيجيات الما وراء معرفية لدى الفرد المتعلم؟

للإجابة عن هذه السؤال اقترح كل من Rosé Morisette, Chenelière / Mc Graw-Hill (2002) عدة طرق نلخصها في النقاط التالية :

- **عن طريق اختيار المهمات** Les taches:

يجب اقتراح المهمات **التي** تساعد على طرح الأسئلة بواسطة:

- ❖ وضعيات بحث مفتوحة.
- ❖ حلول مشكلات معقدة.
- ❖ كل مهمة تتطلب تحدّ.

- **عن طريق التفاعل الاجتماعي:**

مع الاحتكاك المتواصل للمتعلمين ببعضهم البعض في السياقات المختلفة للتّعلم يسمح لهؤلاء بإدراك الفروق الفردية بينهم بمعنى أن كل فرد متعلم لا يفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها أقرانه وأن الجميع لا يستخدم نفس الإستراتيجيات والطرق لتحقيق نفس الأهداف.

كما يصل هذا التفاعل بهؤلاء التلاميذ إلى إعادة النظر في إستراتيجياتهم و تصحيحها والاهتمام بإستراتيجيات المتعلمين الآخرين والاستفادة منها، وهنا تتدخل مهمة المعلم، حيث يقوم بإجراءات التصحيح و إعادة الضبط للمهمة التعليمية، وهكذا يبدأ التلاميذ تدريجيا بفهم سيروراتهم المعرفية.

- **عن طريق الوساطة:**

ضرورة وجود وسيط، كأن يكون المعلم أو أي شخص يساعد التلاميذ عن تجاوز مستوى الاكتشافات التلقائية و يوجههم نحو وعي بما تعلموا وطريقة كيف يتعلم.

خـــاتمـــة

من خلال ما تم ذكره، تبين أن استراتيجيات التعلم الما–وراء معرفية من المهارات الضرورية للدراسة الناجحة للأفراد المتعلمين، و قد أدركت الدول المتقدمة أهمية هذا المفهوم في عملية التطور المعرفي باعتباره القاعدة الأساسية لكل حضارة، وأنشأت بذلك صفوفا خاصة أطلق عليها أقسام استراتيجيات التعلم مبدأها في ذلك أن كل فرد يمتلك القدرة على النجاح والتفوق، وأدمجت هذا المفهوم في البرامج البيداغوجية في إطار الإصلاحات التربوية.

بيبليوغرافيا

1- مسلم ابراهيم احمد (1993) "الجديد في أساليب التدريس حل المشكلات، تنمية الإبداع، تسريع التفكير العلمي"، ط1، دار البشير للنشر و التوزيع، مرج الحمام.

02- Flavell, J .H.(1976) . Métacognitive aspects of problem solving . In L .B.Resnick(Ed), the nature of intelligence. Hillsdale, NJ : Erlbaum.

03- Paul cyr Claude Germain. (1998) « Les stratégies d'apprentissage » CLE international .Paris .

04- Oxford, R (1990 a). Language Learning strategies. What every teacher should know. New York. Newbury house Publishers.

05- مجدي عبد الكريم حبيب 1996. التقويم و القياس في التربية وعلم النفس. مصر. مكتبة النهضة المصرية.

06- توفيق أحمد مرعي و محمد محمود الحيلة (1998) تفريد التعليم، ط الاولى،عمان، دار الفكر.

07- BUCHEL, F. P., (1990). Des stratégies d'apprentissage à un enseignement métacognitif : Les stratégies d'apprentissage: Un thème commun à la psychologie et à la pédagogie. Education et recherche,

08- Gombert .J .E(1990).Le développement métalinguistique .Paris. Presses universitaires de France .

09- Aylwin, U. (2002) Apologie de l'évolution formative. La différence qui fait la différence …ou l'art de réussir dans l'enseignement. Montréal : association de pédagogie collégiale.

10- O'Malley, J.M et A.U. Chamot (1990). Learning strategies in second language acquisition Cambridge university press.

11- فتحي جروان (1999) " تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات "، عمان، الأردن، دار الكتاب الجامعي.

12- فتحي الزيات (1996) "سيكولوجية التعلم بين المنظور الارتباطي و المنظور المعرفي"، ط1 القاهرة، دار النشر للجامعات المصرية.

13- عادل محمد العدل وصلاح شريف عبد الوهاب (2003) " القدرة على حل المشكلات ومهارات ما وراء المعرفة لدى العاديين والمتفوقين عقلياً "، مجلة كلية التربية (التربية وعلم النفس) كلية التربية، جامعة عين شمس، العدد 27، الجزء الثالث.

14- Lacelot, C (1999). « Métacognition ; interaction entre élèves, création collective d'outils: quelques passerelles vers la pédagogie de demain ». Vie pédagogique.

15- DOUDIN, P.-A., & MARTIN, D. (1992). De l'intérêt de l'approche métacognitive en pédagogie. Lausanne: Centre vaudois de recherches pédagogiques, (cahier 92.9), 26-35.

16- Kail, M et M, Fayol (2003). « Les sciences cognitives et l'école », Paris, Presses universitaire de France.

17- منى عبد الصبور شهاب (2000) "أثر استخدام استراتيجيات ما وراء المعرفة في تحصيل العلوم والتنمية مهارات عمليات العلم التكاملية والتفكير الابتكار لدى تلاميذ الصف الثالث الإعدادي" مجلة التربية العلمية، المجلد الثالث، العدد الرابع، ديسمبر.

18- MEIRIEU, P., GRANGEAR, M. (1997), La métacognition : une aide au travail des élèves, ESF.